

غلط غلط

عارف حجاوي

رسوم. رمزي الطويل

الكتاب: غلط غلط
المؤلف: عارف حجاوي
تصميم ورسوم: رمزي الطويل

حقوق النشر الإلكتروني:

الرقمية@
www.alraqamia.com
info@alraqamia.com

تم بث البرنامج يومياً بين عامي 2002، و2003، بصوت المؤلف

الطبعة الأولى ٢٠١٤ / فلسطين

عزيزي القاريء،

هذا الكتاب مقولٌ قولاً، لا مكتوبٌ كتابةً، فاقرأْه بأُذُنَيْك.

كنت ألقيتُ فصولَه، فصلاً في كل يوم، من إذاعة "أجيال" في رام الله وكانت عامئذٍ، عام ألفين وثلاثة، الإذاعةَ الأولى في فلسطين، وأحسبُها - وأنا أحرِّرُ هذه المقدمة في مطلع ٢٠١٤ - لا تزال كذلك. كتبت هذه الأحاديث الإذاعية راغباً لا مرتزقاً، وآيةُ ذلك أنني كنت أحوِّل أَجْري إلى "معهد الإعلام" بجامعة بيرزيت الذي كنت على رأسه آنذاك.

كنت أكتب الفصول خمسة خمسة، أو عشرة عشرة، وأسجِّلُها في الإذاعة، يصحبني في الهندسة وليد نصار مديرُ الإذاعة، الذي كثيراً ما كان يوقفُني مصحِّحاً غلطة نحْوية، أو منبِّهاً إلى التواءة لسان.

أخذت اسم البرنامج من تلميذة لي. كانت تدخل مكتبي وتجلس على حافَّةِ المنضدة غيرَ مدعوَّة، وتلقي بأحكامها الجارفة، وكانت الألمع والأكثر مثابرة؛ دخلتْ مرَّةً، واقتعدت المنضدة على عادتها محتجَّةً على شيء، وقالت: "غلط غلط". فهمهمت: "غلط غلط، اسم جميل لبرنامج إذاعي". وهكذا كان. تلك روان الضامن التي قدِّر لي فيها بعد أن أزاملها ستَّ سنوات في قناة الجزيرة، حيث أنتجتْ سلسلة من أفضل ما عرفته الشاشة العربية من وثائقيات تلفزية.

أشكر وليد نصار مدير شبكة أجيال الإذاعية الذي قرأ الكتاب قراءة تدقيق خلَّصتْه من عدة هفوات، وتكفَّل باسم "أجيال" بنصف تكاليف الطبع.

هذه مئتان وثمانٍ وستُّون حلْقة هي كل ما أذيع من برنامج "غلط غلط"، وكما أذيع، وبنفس الترتيب. أنفقت على نص هذا الكتاب ساعات كثيرة تدقيقاً وتشكيلاً، في أيام "الثلجة الكبيرة" في كانون الأول/ ديسمبر 2013، وكنت أودُّ لو حذفت منه بعض الحلقات المرتبطة بأحداث لفَّها النسيان، أو لو أضفت ملاحظات إيضاحية. لكنني لم أفعل هذا ولا ذاك، وآثرت أن أُبقيَ النصَّ على حاله مثلما أُذيع.

عارف أحمد حجَّاوي

رام الله يناير/ كانون الثاني 2014



التباهي

عزيزي المستمع، الإنسان كثير التباهي. والحيوانات تتباهى: لكن بغرض التزاوج في أوقات معلومة، فالقطط تتبخترُ في مِشيتها للحصول على عريس أو عروس في شهر شباط (فبراير)، وتموء مُواء متوحشاً يوقظ النائم، ويحرج الآباء أمام أبنائهم. والطواويس تنفش ريشها، والعصافير تزقزق بلغاتها.

لكن أبناء آدم يتباهوْن في كل حين. اخترعوا الملابس لصدِّ البرد، ثم صاروا يلبسون للتباهي. واخترعوا الهاتف المحمول كي يتصلوا به، ثم صار وسيلة التباهي المفضلة عند الطلبة والتلاميذ. (لست على يقين: لعلهم اخترعوه أصلاً للتباهي، ثم أكتشفوا أنه صالح للاتصال). وعندما نكتب موضوع إنشاء نحشر فيه كل كلمة غريبة تخطر بالبال حتى نتباهى بالمعرفة.

أحدهم ترك كل ملذات الدنيا، وصار ناسكا عابداً، وأخذ يصوم عن الكلام قَطْعاً للتباهي. وصار لا يلبَس إلا الملابس البسيطة، وكلما اهترأ موضع من قميصه أو سرواله رقَعهُ برقعة. وذات يوم خُيِّل إليه أنه سمع جاراً له من وراء الباب يقول: جارُنا الناسك يتباهى بالرُّقَع التي في ثيابه، ويبالغُ في إظهار النسك والتعبُّد!

فكر الناسك قليلاً، ثم قال لنفسه: إي والله، صرت أتباهى بالرقع. وهذا غلط غلط.

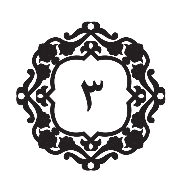


٢ في قاع العالم

عزيزي المستمع، لو استمعت إلى أحد وزراء التعليم العرب في فضائية مهجورة لظننت أن العرب بأحسن حال. عندي إحصاء من منظمة اليونسكو يعود إلى ما قبل سبع سنوات (1995) يقول: نسبةُ الأمية في البلدان العربية ثلاثةٌ وأربعونَ بالمئة. وفي البلدان المتطورة واحدٌ بالمئة. إذن فنحن لسنا بلداناً متطورة. هذه واحدة.

لكنَّ نسبةَ الأميةِ في العالم كلِّه اثنانِ وعشرونَ بالمئة! إذن فالأميَّة عندنا ضعفُ معدل الأمية العالمية. نحن أسوأُ من معدل العالم بمرتين. ولو أخذنا الدول المتخلِّفة، المعروفة باسم الدول النامية، فسنجد الأمية فيها على نسبةِ ثلاثين بالمئة. معنى ذلك أن العالم العربي متخلف عن الدول المتخلفة بثلاثةَ عشرَ بالمئة. نحن في قاع العالم.

تعال عزيزي المستمع لأهمس في أذنك همسة: قال لي طالب جامعي، في السنة الرابعة، مؤخراً إنه لم يقرأْ كتاباً كاملاً في حياته. هذا، والله، غلط غلط.



٣ الكفن ليس له جيوب

عزيزي المستمع، النوم يجرُّ النوم، والمال يجرُّ المال، والقناعة تجلُبُ الغنى. عرفت رجلاً ظل يغتني بالتدريج، وظل شغلُه وتجارتُه وشركاتُه تتوسع سنةً بعد سنة. سكن شقة، ثم اشترى بيتاً، ثم بنى عمارة، وسكن في طابق كامل منها. ثم بنى فيلا ثم قصراً منيفاً.

ثم.. رأى قصوراً أكبر وأحلى تُبنى في ذلك الحي بجوار قصره، حتى صار قصره عادياً. لا بل تقزَّم إلى مجرد فيلا.. وكلُّ شيء نسبةٌ وتناسب. فعقد العزم على أن يبنيَ قصراً أكبر وأفخم. وفعل. صارت عنده مشكلة حقيقية في القصر الجديد. ماذا يفعل بالعشرين غرفة، وبالصالات الواسعة؟ صار يضِلُّ في داخل قصره. ويتعبُ في الانتقال من مكان إلى مكان.

أحيانا يقول لزوجته: تذكرين شقتنا الأولى! وكيف كنا نأكل في المطبخ واقفين لأنه

لا يتسع لطاولة؟ الزوجة طبعاً تخاف أن تعرف أيٌّ من صديقاتها الغنيَّات عن ذلك الماضي الفقير. ولكن الزوج يحسُّ بأن المال الكثير لم يجلب له السعادة. وصار لكثرة المال والفراغ ينام كثيراً. والنوم يجرُّ النوم. افتقد لذة العمل، وصار لا يجد لذة للكسب. المال فقد معناه، والنوم فقد معناه. في النهاية كلُّ شيء عرض وطلب. والمثل يقول: ابنُ آدم لا يملأُ عينيه إلا التراب. والمثل الآخر يقول: الكفن ليس له جيوب. فإن زعمتَ أن أحد المثلَيْنِ غلط، فلن تقول عنهما كِليهما: غلط غلط.

٤ المدَّاحون

عزيزي المستمع، هناك ناسٌ عندهم القدرةُ أن يمدحوكَ في وجهك. من أين يأتون بهذه القدرة؟ يمدحونك بلسان فصيح ولا يرِفُّ لهم جفن. ستجدُ لذة في ذلك، لكن – إن كنت تستطيع – غيِّرْ مجرى الحديث. ليسوا صادقين، حتى وإن كان ما يقولونَه الحق.

سئُل أحدهم: مَن أشرفُ الناس؟ فقال: الفرزدقُ الشاعر. لقد هجاني وأنا أمير فلاحقته وحبسته وسوَّدتُ عيشته. وعندما نكَبني الخليفة، وعزلني ثم حبسني، مدحني الفرزدق.

وهذا عمرُ بن عبد العزيز يأتي به الخليفة الوليد بن عبد الملك، ويأمرُه بأن يُسقِط مبايعتَه لِوليِّ العهد سليمان. رفض عمر، وقال: قد بايعناه على الولاية، مثلما بايعناك على الخلافة. فحبسه الوليد، وأمر فسُدَّتْ نوافذُ الحبس بالطين، حتى يموت عمرُ مختنقاً. وشفع له الناسُ بعد ثلاثة أيام، فأُخرِج من الحبس وهو يكاد يموت.

وظل سليمانُ ولياً للعهد. ثم بعد حين تولَّى الخلافة، وجعل عمرَ وليَّاً لعهده. ومات سليمانُ بعد ثلاث سنين، وآلت الخلافةُ إلى عمرَ بنِ عبدِ العزيز.

كلمة الحق صعبة. وبعضهم يخلطها بكلام كثير، فتضيع. ما فائدةُ أن يتحدث رئيسُ القسمِ في الاجتماع عشرَ دقائق يلمِّحُ فيها تلميحاتٍ خفيَّةً إلى بعض المشكلات، ويخلطُ ذلك كلَّه بالمديح والإشادة بالمدير الكبير؛ فلا المديرُ يريد أن يفهم، ولا الموظفون

يفهمون. ثم بعد أن يُعزَلَ المدير يأتي رئيس القسم ويقول: أنا انتقدتُه في اليوم الفلاني.

يا أخي، لو كنتَ تريدُ الإصلاحَ فعلاً فليكن نقدُك واضحاً، وبلا التواءات. لكنَّ انتقادَ المدير خطِرٌ، ومدحَه تزلُّف. وأمَّا الافتخارُ بموقف رَخْوٍ.. فغلط غلط.

٥ خلْقُ الثروة

عزيزي المستمع، عندما كنا صغاراً كنا نقول عن كل أجنبي إنجليزي. حتى لو كان أسمرَ أو أسود، فإن لم يكن يتحدثُ العربية فهو إنجليزي. لم نكن نستعمل كلمة أجنبي. وبحمد الله تعالى فقد صار بلدُنا مزاراً للناس من كل بلد. وصرنا نعرف النرويجي والألماني والأميركي. وصارت مؤسساتُنا تأخذ المال من كل بلد، ومن كل الأجانب، وتنفِّذُ لهم برامجَهم.

هناك في الاقتصاد مصطلحٌ أحِبُّ أن أنقلَه إلى مستمعيَّ الكرام. هذا المصطلح هو «خلقُ الثروة»، فالبلد المستقل يستطيع أن يطبع بلايينِ الجنيهات أو الدنانير. ولكنها لا تساوي شيئاً في التبادل التجاري الخارجي. هذه ليست ثروة.

الثروة تأتي إمَّا من مصادرَ طبيعيةٍ كالبترول، أو من صناعات وخبرات. فالخبرةُ تحوِّلُ قطعة القُماش إلى ثوب، وتحوِّل الحديدَ إلى سيارة. والخبرةُ في الكمبيوتر تصنعُ من لاشيءَ برمجياتٍ تُباعُ بأثمانٍ عالية.

ليس سهلاً علينا أن نتصور مصطلح «خلق الثروة» لأنه ليس هناك شيءٌ طبيعيٌّ في بلدنا. فلا التجارةُ مسموحٌ بها، ولا الصناعة، فماذا بقي؟ ربما بقيَ أن نصرَّ على التعلُّم. وبالضرورة سيصبحُ التعليم في بلادنا نظريًّاً في أغلبه، وسينخفضُ مستواه لغيابِ التطبيقِ في المجتمع. وضعُنا كله غلط غلط.

٦ حلم يقظة: جريدة في ورقة

عزيزي المستمع، كلُّ الناس يقولون: ما هذه الجرائد؟ كلها إعلانات ونعي. وكلُّ الناس يقرأُون الإعلاناتِ والنعي. الجرائد تنشر أيضاً مقالات: طولُ المقال منها نصفُ صفحة. طبعا لا أحدَ يقرأُ ذلك.

الإعلانات فيها معلوماتٌ سريعة ومهمة. والتهاني والتعازي فيها معلوماتٌ مهمة. فلماذا يصرُّ الناس على انتقادها؟ بصراحة، لا أدري.

هناك جرائدُ حزبيةٌ، وجرائدُ تصدرُ عن المؤسساتِ التنموية ليس فيها أيُّ إعلان، وكلُّها مقالات. لماذا لا يُقبِلُ الناسُ عليها؟

اشتغلت من زمانٍ في جرائد، وأعرف شعورَ الذين يكتبون في الجريدة. يكتبُ الواحدُ منهم عشرَ وَرَقات، ثم يقرأُ ما كتب ويقول لنفسه: يا سلام على العبقرية! ولا تطاوعُهُ نفسُه أن يحذِفَ كلمةً واحدة من مقاله. ولو شَطَب له رئيسُ التحرير سطراً زَعِل. المشكلة أن شعور القاريء مختلف. أتمنى أحياناً أن تَصدُرَ في البلد جريدة مكونة من ورقة واحدة: وجهٍ وقَفَا. على الوجه الكاريكاتيرُ والأخبارُ الخفيفة، وعلى القفا مقالاتٌ مكثَّفةٌ جداً ومختصرة. كلُّ مقال منها خمسةُ أسطر، وسجلٌّ مختصَرٌ بأسماء الذين ماتوا، والذين وُلدوا، والذين «اشترَوْا» شهادات جامعية. أكيد ستنجح هذه الجريدة. يجب أن أسكتَ بسرعة؛ من يدري قد يسرقُ أحدُهم الفكرةَ مني. ولن أستطيعَ أن أصرخَ في وجهه: غلط غلط.

٧ الريجيم والفقراء

عزيزي المستمع، مِن طُرُقِ تخفيف الوزن التي سمعتَ عنها أن تحصُرَ كلَّ وجبتِكَ أوَّلاً، ثم تبدأَ في التهامِها. وبحسب هذه الطريقة عليك أن تضع كلَّ ما تريدُ أكلَه في

صحنِك.. كثيراً كان أم قليلاً. ضعْ طعامَك أمامَك، وعندما يفرُغُ صحنُك فقد انتهى الأمر. أمَّا أن تغالِطَ نفسَكَ وتأكلَ من هنا وهناك، ثم تقولَ لنفسك: لا.. أنا لم آكُلْ سوى نصفِ رغيف، ثم تنثنيَ إلى الأَرُزِّ والدجاج، وتقول: «خبز! لم آكُل سوى نصفِ رغيف»، ثم تعرِّجَ على المقالي والسَّلَطَات، فهذا خداعٌ للنفس. ضعِ الأكلَ الذي تريدُ أن ينتقلَ من جَوِّ الغرفة إلى جوفِ بطنك أمامَك، وانظر إليه، ثم توكَّلْ على الله. هذا رجيمٌ جدير بالاحترام، فهو لا يحرِّم عليك نوعاً بذاته.

هناك رجيمُ البُطْء. كلْ بطيئاً جداً. فعندما يسرعُ المرء في التهامِ الطعام يأكلُ الكثير، ولا يعطي لِمَعِدَتِه فرصةً لكي ترسلَ إلى الدماغ إحساسَها بالشِّبَع. أما الأكلُ البطيءُ فيتيحُ للمعدة هذه الفرصة.

في بلادنا ناسٌ كثيرون فُرِضَ عليهم الرجيمُ فرضاً. فرضَهُ الفقر. بلدُنا لم يعرف فقراً كالذي هو فيه الآن. ولكنني استغربُ من أهل السياسة والأحزاب والفصائل الذين ظلوا يتحدثون عن الماركسية والاشتراكية عشرات السنين، والآن لا أجدُ أحداً منهم يضعُ برنامجاً عملياً لمكافحة الفقر. لقد صاروا يستَحُون من كلمة اشتراكية. يتحدثون

فقط عن المفاوضات، وتركوا العمل الاجتماعي للأجانب. أليس هذا غلط غلط؟

٨ لا يدخن حرصاً على حريته

عزيزي المستمع، لا نحكمُ على الأشياء إلا بحسب استعمالها. فالتلفزيون قد يفيدُ ويثقِّف ويعرِّفُ الناس على العالم، ولكنه قد يصبح مَلْهاةً ومَضْيَعَةً للوقت. والهاتفُ قد يكون مفيداً، وقد يصبحُ عبئاً. والسيارة تشتريها فتسهِّل عليك التنقل، ثم إذا بها تأتيك بالكرش ثم بالكولسترول. كل شيء له جانب حسن وجانب سيِّءٌ، إلا علبةَ السجائر. هذه شرٌّ صِرْف.

ما قولُكَ فيمن يُدخِلُ اللصوصَ إلى بيته، ويرحِّبُ بهم، ويساعدُهم في نقل المتاعِ وتفريغِ البيت؟ ما قولُكَ في الذي يتركُ الخبز، ويأكُلُ نُشارةَ الخشب؟

هذه حال المدخن. وأحسن شيء يصنعُه الأب أو الأم أن يحاولا، بكل وسيلة، إبعادَ السيجارة عن طريق أبنائِهما.

فالتدخين في الصغر أسوأُ بكثير. الذي يبدأ صغيراً مع السيجارة يتعلَّق بها طَوالَ العمر.

جورج برنارد شو الأديبُ الايرلندي كان لا يدخن. ليس حرصاً على صحته. بل حرصاً على حريته. لم يُرِدْ أن يصبحَ عبداً للطِّباق.

والطِّباقُ هو التُّوباكو.. عرَّبُوها على الطريقة القديمة.

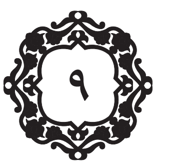
قال أحمد شوقي (على لسان الدكتور محجوب ثابت):

أيشتُمُني سليمانُ بنُ فوْزي وبَيْبِي في فمي، ومعي طِباقي

وعربوا التوباكو تعريباً آخر: التبغ. على أن العرب تحب في التعريب حرفي القاف والجيم: جعلوا سوكراتيز سقراط، وجزيرةَ كريت إقريطش. وحتى اللغة العبرية فقد درجت على رسم كل كاف واردة في اسم أجنبي قافاً، غير أنهم ينطقونها كافاً. وأما الجيم فقد أَنابَتْها العرب في كثير من الأسماء الفارسية منابَ الهاء، ومثال ذلك البارنامِه (البرنامج)، والفالودِة (الفالوذَج).

وقد تناولتُ «الفالودِه» في مطعم إيراني فما أَحمَدْتُه: شُعَيْراتٌ سكَّريَّة لا تسمن من جوع، وعجبتُ لِمَ بالغ العبَّاسيون في مدحه.

ومن مشكلات قلب الحروف عند عرب اليوم، قلبُ القاف غيناً، والغين قافاً. ولعلكم سمعتم بالخطيب السوداني الذي قال بكل ثقة: «نحن غادرون، والاستغلال حتمي.» (يقصد: نحن قادرون، والاستقلال حتمي.) وتجد في فلسطين من يقول: أنا غادر، يعني أنا قادر. وتجد في الخليج من يقول: قير صحيح، يعني غير صحيح. لكلٍّ لهجتُه. ولا نكاد نوقن من أي المَخارجِ نطقت قريشٌ حروفَها. ولا يحق لقوم تخطئةُ قوم، وإلا فهم قَلط قَلط.



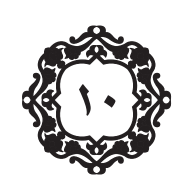
٩ إتيكيت: الشفط، ولعق الأصابع

عزيزي المستمع، من قواعد الإتيكيت عند الإنجليز ألاَّ يشرب المرءُ الحَساء أو الشُّورَبا بصوت. وماذا إن كانت ساخنة، وأردتَ أن تُبرِّدها بالشفط؟ بل، اتركْها حتى تبرد.

وَفْقَ قواعدِ الإتيكيت أيضاً: صُبَّ الشايَ أولاً، ثم صبَّ عليه بعضَ الحليب. فماذا لو وضعنا قليلاً من الحليب في قاع الكوب، ثم صببنا فوقه الشاي؟ ممنوع. لماذا؟ ليس هناك في الإتيكيت لماذا. جواب لماذا في الإيتيكيت: «هكذا».

وليس عند الإنجليز عادةُ غسل الأيدي بعد الأكل. ربما لأنهم يأكلون بالملاعقِ والشُّوَكِ والسكاكين. لكنْ، قد يتناولونَ الأشياءَ بأيديهِم أيضاً. رأيتُهم يلعَقون أيديَهم بعد الأكل. واستهجنتُ الأمر مرة بعد مرة، إلى أن تذكَّرْتُ أنَّ في آدابِ المائدةِ عندنا لعقَ الأصابع. لكن.. لا تلعقْ أصابعَكَ أثناءَ الوجْبَة، بل بعد الانتهاء من الطعام تماماً.

الأكل بالأصابع ألذُّ، فالمرء يتخيَّرُ لقمتَه، ويتحسَّسُ حرارتها. ثم إن استعمالَ الشوكةِ والسكين أمر يحتاج إلى خبرة معينة. الإنجليز يقطعون اللحم باليد اليمنى، ويأكلون باليد اليسرى. وهذا ليس مرغوباً فيه عندنا. وهو أيضا مزعج، فاليدُ اليسرى لا تعرفُ الطريقَ إلى الفم. بالمناسبة الإتيكيت يسمح لك أن تُقطِّعَ كلَّ شريحةِ الستيك أولاً، ثم تنقُلَ الشوكةَ إلى اليد اليمين. هذا ليس بغلط.



١٠ يهودي ويهودية في كليفلاند

عزيزي المستمع، التقيت في مدينة كليفلاند (أوهايو) بالولايات المتحدة قبل زمن بشخصين: رجلٍ وامرأة. الرجل يهودي، والمرأة يهودية. فأمَّا الأول فمُتديِّنٌ يعتمر القبعة الصغيرة (الكيبَّا) على جانب رأسه. دعاني إلى بيته مع رفيقِ رحلتي. وعرَّفَنا بزوجته التي طبخت لنا أكلاً طيباً. وقبل الأكل باركَ مُضيفنا المائدةَ بكلام عبري،

ثم قال بسم الله الرحمن الرحيم بالعربية، وأكلْنا وشكرْنا. وفي اجتماع جرى في اليوم التالي رأيتُ هذا الشخصَ يحُضُّ الحاضرين على أن يستمعوا إلى وجهةِ نظرنا في مسائلِ السياسة، ورأيته حريصاً على أن يكون هناك حوارٌ هاديء.

وأما المرأة اليهودية فهي صِحافيَّةٌ عَلمانيَّة غيرُ متديِّنة، لكنها يهودية. التقينا مساءً على مائدة عشاء، وكان الدَّاعي أستاذاً في الجامعة. أخذتْ مني حديثاً صحفيّاً، وجاملتني، والتقطت صورتي، وانتهت الزيارة، ورجعتُ إلى فلسطين. وفتحتُ بعد أيام الإنترنت على عنوان الجريدة التي تشتغل فيها تلك الصِّحافيَّةُ الرقيقة، فوجدتها نشرت مقالاً عن اللقاء، ورأيتُ صورتي في أعلاه. في المقال جعلتني تلك الآنسة إرهابياً شرساً. هناك ناس من الرِّعاع يحسُنُ بالمرء أن يتجنَّبهم حتى لو كُنَّ آنساتٍ رقيقات. أما أن يضيِّعَ المرء وقته في شرح قضيته لمن لا يريدُ أن يفهم فغلط غلط.

١١ فقيهان في الحج وسافرة جريئة

عزيزي المستمع، وصفَ لي نفرٌ مطربةً، وقالوا إنها تغني غناءً ساحراً، ولا سيَّما على التلفزيون، لأنها تظهر بملابسَ مصنوعةٍ من الهواء، وتُبرزُ أشياءَ من جسمِها إبرازاً يُعجِبُ الزُّرَّاعَ والصُّنَّاع وكلَّ الناس. ومنذ ذلك الحين وأنا أُقلِّبُ القنواتِ الفضائيةَ والأرضية. (فقط لأتأكَّدَ من أنَّ الناس لا يفترون عليها.)

والحقيقةُ أن قِلَّةَ الحشمةِ عندَ بعضِ المطربات تُعوِّضُ عن قلَّةِ الصوت.. إن صح التعبير. ونحن نرحب بهذا التعويض. الرجلُ عينهُ فارغة. ليس فقط في بلاد العرب، بل في كل العالم.

كان آباؤُنا ينظرون إلى وجهِ المذيعةِ الجميل، ويَسْعَدونَ ويتصبَّبون ما حَلَتْ لهمُ الصَّبابَة. أَمَا سمعتَ عزيزي المستمع بالفقِيهينِ الحجازيَّينِ في الحج؟

رأى الفقيهان امرأةً جميلةً ترجُمُ إبليس، وقد رفعتْ الغِطَاءَ عن وجهِها. سألَها أحدُ الفقيهين: مِن أيِّ قومٍ أنتِ؟ فقالت له المرأة: أنا مِمَّنْ قال فيهِنَّ الشاعر:

أماطَتْ كِساءَ الخَزِّ عن حُرِّ وجهِها وأَرْخَتْ على المَتْنينِ بُرْداً مُهلهَلا

من اللَّاءِ لم يَحْجُجْنَ يَبغِينَ كِسْبَةً ولكنْ، لِيقتُلْنَ البريءَ المغفَّلا

أيْ أنها لم تحُجَّ طلبا للثواب، بل لكي تقتلَ بجمالها الرجلَ البريء. فقال الشيخ لصاحبه: تعال ندعُو الله ألاَّ يعذِّبَ هذا الوجهَ الجميلَ في النَّار. ما أحوجَ مطربَتَنا ذاتَ الملابسِ الهوائية إلى هذه الدعوات، إن كانت تكفي. نحن ندعو لقليلات الحشمة، أمَّا إذا رأى بعضُهم أن يدعوَ «عليهِنَّ» فنحن نقول له: هذا غلط غلط.



١٢ بعد البيانو، تالين تعود إلى العود

أصرَّ أن يُسمِّيَ ابنتَه تالين. قال لنفسِه: ربَّما تصبحُ عندما تكبُر شقراءَ وبيضاءَ ببركة هذا الاسم الأجنبي. ولكنَّ الجدَّةَ العجوزَ صارت تنادي البنت «نفتالين». لذلك صاروا يسمونها تالا. جدَّتُها صارت تناديها (صالحة). ومن أين جاءت بهذا الاسم، لا أحد يدري! وكان ضِيق الأبِ والبنت بالأمر كبيراً. وكبرت البنت ولها اسمان. وقرر الأبُ أن يشتريَ لها بيانو حتى تصبحَ من بناتِ العائلات. بعضُ الناس يظنُّونَ أنَّهم عندما يشترون بيانو لبناتِهم يشترون بذلك نسباً وحسباً. ولكن البنت كانت تسمعُ من جدتِها أغانيَ أيام زمان، وكانت تسمع أيضاً الأغانيَ التي يسمعُها أبوها في الليل من المسجل: فيزور وأم كلثوم. وصار عندها ميلٌ للموسيقى والغناء. ولكنَّ البيانو ظل كسيحاً في جانب الغرفة لأنه لا يستطيع أن يدقَّ الميجنا، ولا الأغاني التي تعيش في وِجداننا.

صار معلم البيانو يعاني مع صالحة. وصالحة تعاني في دروس البيانو؟ مع ذلك صارت تدقُّ بعض المعزوفات.

صالحة صارت صبيَّةً كبيرةً سمراءَ جميلةً مثلَ أهلِها: شكلُها مثلُ أهلها، وروحُها الموسيقيةُ مثلُ أهلها، وتفكيرُها ووجدانها مثلُ أهلِها. لم يبق لها من الفَرنيشِ الأوروبي سوى اسم ميِّتٍ في شهادة الميلاد، وبيانو علاهُ الغبار. لو أنَّ أباها اشترى لها عوداً، وسمَّاها خديجة على اسم جدتها لكان على الأقل تخلَّصَ من هذا التناقض، ولكان فتحَ لها مجالاً رحباً في الموسيقى. اللهاثُ وراءَ التفرنج بأي ثمن.. غلط غلط.

١٣ مهمة ومملة.. المؤتمرات

عزيزي المستمع، الأممُ المتحدةُ مبذِّرةٌ جداً. وهي أكثرُ ما تكون تبذيراً في المؤتمراتِ التي تعقدها. دُعِيتُ مرَّةً إلى أحدِ هذه المؤتمرات قبل نحو عشرِ سنوات، وكنتُ أشتغلُ في مؤسَّسةٍ في الخارج. على مدى ثلاثةِ أيَّامٍ استمرَّ المؤتمر. كنتُ أحضرُ في اليوم جلسةً، أو نصفَ جلسة. وأقعدُ قريباً من الباب.. حيلةٌ قديمة ألجأُ إليها دائماً. إذا مَلِلْتُ من الجلسة تصنَّعْتُ السعال.. أسعل سعلتينِ ثم أُخرجُ منديلي، وأضعُهُ على فمي، وأقومُ متَّجِهاً الباب وأنا أُقَحْقِحُ وسْط تعاطفِ من يجلسون بجانبي. ثم أخرجُ من القاعة، ثم.. لا أعود.

في إحدى الجَلَسات كنتُ من أهلِ المِنصَّة. فكَّرتُ أن أقولَ للحاضرينَ شيئاً مفيداً. حدثتُهم حديثاً بسيطاً عن مؤتمرِهِم، وأنَّه مُمِلٌّ جداً، وأنهم تجنَّبُوا فيه إثارةَ كلِّ القضايا الحسَّاسة. لماذا؟ لأنهم «أمم متحدة». وباختصار قلت لهم رأيي ببراءة، وبدون أن أخشى لومةَ لائم.

تستغربُ عزيزي المستمع، شعرتُ أنا بارتياح، وشعرتُ بتجاوبٍ شديد من قِبَلِ الحضور. هنَّأُوني على كلمتي.

لكنْ، الآن وبعدَ هذه السنوات. أقولُ لنفسي: المؤتمراتُ لقاءاتٌ مهمَّةٌ بين أشخاصٍ من بلاد مختلفة. وحتى لو لم يكن في المؤتمر كلمةٌ واحدة مفيدة، فمجردُ التعرفِ على الناس، والأحاديثُ التي تجري قبلَ وبعدَ الجَلَسات شيءٌ مهم. وأَمَّا أن أتهوَّرَ وأدَّعيَ أن كلَّ المؤتمراتِ كلامٌ فارغ فهذا غلط غلط.

١٤ نلعب الشِّطْرنجَ وحدَنا

عزيزي المستمع، جلس رجل عربي وأمامه رُقعةُ الشِّطرنج، ورَصَفَ عليها القِطَع. وجعل لنفسه الحجارةَ البيض. وصار يلعب وحده. وأخذ يحرِّكُ جنودَه، ويناورُ بالفيل والحصان والقلعة والوزير. يلعبُ وحده. وأخذ يقتلُ جنودَ عدوه، ويستولي

على القلاع. ثم قتَلَ وزير العدو. ثم الشاه مات. وربح اللعبة. مبروك.

في عام سبعةٍ وستينَ حضرتُ هذه اللعبة على الراديو. أما المحطةُ فهي صوت العرب من القاهرة. وأما المذيع فهو أحمد سعيد المشهور. كنتُ أتابعُ معه سقوطَ الطائراتِ الإسرائيلية. أتذكَّرُ أنني بلغتُ رقْمَ ستةٍ وسبعين. إسقاطُ ستٍّ وسبعين طائرةً إسرائيلية. وماذا عن خسائر العرب؟ لا يوجد.

وبعد قليل دخلَتِ الدبَّاباتُ شوارعَنا. تعرفون القصةَ طبعاً. رفضْنا أن نصدِّقَ أنها دبَّاباتٌ إسرائيلية، وصفَّقنا لها. رغبْنا في أن تكونَ دباباتٍ عربيةً جاءت لتحرِّرَ يافا وحيفا. وسررنا جداً من الحيلة الذكية للجيوش العربية، فقد رسمَ القومُ على الدبابات نجمةَ داود السداسية حتى يضللوا الإسرائيليين. بقيةُ القصة معروفة.

لو أننا فقط نحاولُ أن نعترفَ بوجود خصمٍ أو عدوّ! هل تظنُّ عزيزي المستمع أنني سأحدثك عن الصَّحَّاف؟ لا. ما زال لديَّ بعضُ الشفقة عليك. لكنْ، أن يلعب المرءُ الشِّطرنجَ وحدَهُ غلط غلط.



١٥ تهذيب بواسطة الربابة

عزيزي المستمع، هذا سائق تصرَّفَ بشكل همجي أمسِ مع زميله.. كنَّا نركب السيارة معه، وعندما هَمَّ بالانطلاق اعترضَه زميلٌ بسيارته وتصايحا قليلا، ثم نزل سائقُنا، وهو شابٌّ في العشرينات، وصار يَكيلُ اللَّطَمات للسائق الآخر، الذي كان ما زال في مَقعدِ القيادة. مسكينٌ السائقُ الآخر، لم يستطع أن يدافعَ عن نفسه، كان محبوساً بين الـمَقعد والـمِقود، وهو يأكُلُ اللَّطَمات على حُرِّ وجهه. طبعاً لم يكن يأكُلُها أكلاً، ولكنْ.. كان يأكُلُها. بقيةُ القصةِ أن سائقَنا اضطُرَّ إلى عَطْوة عشائرية، واحتقَرَهُ جميعُ السائقين على الخَطِّ.. لأنه اعتدى على الآخرِ وهو خلف المقود.

يحسنُ بالمرء عندما يفورُ دمُه أن يَعُدَّ للعَشَرة. هذا السائقُ الذي حدثتُك عنه، والذي صار محتقراً من قبل زملائه، إنسان عادي يحبُّ أمَّه جداً وينفقُ عليها، وهو غلبانٌ جداً،

وهمجي الطبع. أنا أنصح له بقليل من الفنِّ حتى يترقَّى. بدَلَ هذه الأشرطةِ ذاتِ الإيقاع الواحد، واللحنِ الواحد في سيارته أنصحُ له أن يتعلَّمَ العزف على الرَّبابة. والرَّبابةُ جِلْدَةٌ ناشفةٌ مشدودةٌ على إطار خشبي يخرج منه عود مشدودٌ عليه وترٌ واحد، ويسحب العازفُ القوسَ على الوتر. لو كان عند سائقِنا الهمجيِّ ربابة لصارَ إنساناً أرقى وأهدأ. أن تعيشَ بدون فن معناه أن تكون أقلَّ إنسانية، وأما أن تغضبَ وتستعملَ يَدَك فهذا غلط غلط.

١٦ يوم الطفل، يوم المرأة،يوم الزفت المغلي

يقول الشاعر:

الأمُّ مدرسةٌ إذا أعددتَها   أعددتَ شعباً طيِّبَ الأعراقِ

هذا بيتُ شعرٍ عن الأم، ولو كنتُ أعرفُ أنَّ اليومَ عيدُ الأم لما قلتُ هذا البيت. ذلك أنَّني أكرهُ المناسبات.

أكرهُ عيدَ المرأةِ العالمي، وعيدَ الطفل، ويومَ المياه، ويومَ كلِّ شيءٍ.. العالمي. لا أُطيقُ هذه المناسبات، ولا أطيقُ المنظماتِ التي تعملُ برامجَ توعيةٍ فيها.

ترى المنظمةَ الفلانيَّةَ ترصُدُ المالْ، وتحتفلُ كلَّ الاحتفالْ بيوم كذا، وكأنه خيرٌ من ألف شهر تَنَزَّلُ الملائكة فيه. وبالمناسبة أنا لستُ شديدَ التعلُّق بالمناسبات الاجتماعية، والدينية أيضاً. لا أحبُّ أن يكونَ الدينُ مواسمَ كأنَّه منظمةٌ غيرُ حكومية. بعض المناسبات الدينية رسختْ في الوِجدانْ، كرمضانْ. ولكنَّ بعض الناس يأبَوْنَ إلاَّ أن يضيفوا إليها أياماً كثيرة لم ينزلْ فيها قرآن ولا رويَ عنها حديث صحيح.

أنا فعلاً أكرهُ المناسبات إلى درجةِ أنني احتفلتُ بعيد ميلادي مرةً واحدة. كنتُ في حدود العشرِ سنوات. أوقدتُ شمعةً وجلست وحدي. بحثتُ عن قطعة ككس (تعرفون الككس؟ يسمونه الفطائر بلغة الكتب)، فلم أجدْ. وجدت في البيت موزاً. أكلتُ موزةً وحدي، ونفخت على الشمعة، وقمت. الحياة حلوةٌ هكذا، فوضى بدون مناسبات. المناسباتُ مساميرُ بشعةٌ يدقُّونها في وجهِ الزَّمن فتشوِّهُه، وهذا غلط غلط.



١٧ خرافة الصمود في الأرض المحتلة

عزيزي المستمع، البلد بحاجةٍ إلى أهلها. كلُّ الناس يقولون ذلك. والذي تأتيه فرصةُ عملٍ بمرتَّبٍ يزيدُ قرشاً عما يأخذُه هنا يحزِمُ حقائبَه ويقطعُ تَذَاكر. ألا يحدثُ هذا في كل العالَم؟ الواقع: نعم يحدث. لا أحد يقعُدُ في بلدِه صُموداً. لماذا نظلُّ نَعْلُكُ هذه الخرافة؟ الفقيرُ غيرُ المتعلم يظلُّ في البلد لأنه ليس لديهِ فرصةٌ في الخارج. والذي يريدُ أن يبقى في البلد (حتى وإن لاحت له فرصةٌ جيدة في الخارج) قد يكون السببُ وراءَ بقائِه أنه يريدُ ألاَّ يفارق الختيارة، فأولادُهُ متعلقون بجدتهم، وليس لها سواه وسوى أولادِه. وقد يبقى الشخصُ هنا لأنه يحبُّ أن يعيشَ في بلدِه مهما كان الوضعُ صعباً. وقد يبقى الإنسان في البلد لأن الغربةَ فيها قدرٌ من الإهانة، والإنسانُ عزيزٌ في بلده حتى لو كان البلدُ تحت الاحتلال. هذه دوافعُ قويةٌ وحقيقية. أمَّا إذا قال لك أحدُهم إنَّه باقٍ في البلد صموداً فقط، فلا أنصحُك بتصديقِه.

كان هناك رجلٌ متشدِّدٌ في الوطنية، عرفتهُ في الثمانينات. كان يهاجمُ بقسوة كلَّ من يشتري بضاعةً غيرَ وطنية. وكان يهاجمُ من يعملون عند المحتلِّين، ولا يتفهَّم حاجاتِهم. وكان صوتُه عالياً في شتْم من يتركون البلد ليعيشوا في الخارج. ثم جاءتْه الفرصة.

فَتَحَ شرِكَة مهمَّةً مع شركاءَ مستثمرين في شرق النهر.. في الأردن. (أنا الآن أقول لهذا الأخ إن كان يسمعني أسعد الله أوقاتَك! والله لم أنسَ شيئاً مما كنتَ تقولُه قبل أن تأتيَك الفرصة). هذا الرجلُ المذكور موجودٌ في عمانَ، منذ ثماني عشرةَ سنةً، وقد فقَدَ هُوِيَّتَه لأنه لم يَعُدْ إلى البلد سوى مرةٍ أو مرَّتين في كل تلك الفترة. ولعله مستمرٌّ في التنظير للصمود، ليس على الكلام جمرك.. نعم، لكن بعض الكلام غلط غلط.



١٨ تبويس تبويس

عزيزي المستمع، ترى صاحبَك الفلسطينيَّ في باريس.. مثلاً.. تلتقيه بالصُّدفة في ميدانٍ بوَسَط باريس، ويأخُذُك بالأحضان ويقبِّلُك أربعَ مرات، مرتين من هنا ومرتين من هنا، ويزيد فيلطع واحدة إضافية هنا، وواحدة إضافية هناك. ويأخذُ المارَّةُ ينظرون إليكما.. بعضهم يبتسمون: يظنُّون أنهم يفهمون بالضبط ماذا يحدث. يظنُّون أنكما صديقان حميمان، وبينكما شيءٌ ما. أولئكَ الفرنسيون لا يعرفون أنكما لستُما صديقين، ولا جارين ولا حتى زميلين. لا، بل ليس بينكُما مودة، هناك فقط بعضُ النفاق.

ويلتقي بك أحدُهم في البلد هنا، ويكون قد رآكَ أمس، لكنه يُصِرُّ على القُبُلات الحارة. اسمع ما وقع لي مع صديق عزيز. ذهبنا إلى مقهى.. وعند باب المقهى (ونحن داخلان) إذا بجماعةٍ من الرجال يخرجون، والتقينا بهم عند الباب: كانوا نحو سبعةٍ أو ثمانية، لا أعرفُ أنا منهم أحداً. أما صاحبي فقد قبَّلَ الرجلَ الأول بحرارة أربعَ قبلات ثم خامسة ثم سادسة، والعدد يجب أن يثبُتَ على الستِّ قُبُلات، ثم قبَّل الثاني فالثالث فالرابع.. حتى أتى عليهم. وأنا كنتُ خلفه، صافحت الأول فمالَ عليَّ وأعطانيَ العددَ المشؤوم: ستَّ قبلات، ثم الثاني ثم الثالث.. حتى أتيتُ عليهم بدوري. ووجهي صار مُتَفَّحاً ومبلولاً.. ثم ودَّعناهم وجلسْنا في المقهى. قلت لصاحبي: يا أخي! وأنا، ما ذنبي.. لا أعرفُ أصحابك هؤلاء! قال لي: ولا أنا! أنا أعرف الأولَ منهم فقط، أما البقية فقد كانت قُبُلات مجاملةٍ فقط! قلت لصاحبي: هذا واللهِ غلط غلط .

١٩ ثمن الصيانة

عزيزي المستمع، الله الميسِّر. أهلُ البداوةِ يعيشون لِيومِهم، ولا يخطِّطون للمستقبل كثيراً. هذه طبيعةُ حياتهم. ونحن كمجتمع تشدُّنا أُصولُنا العربيَّةُ البدويةُ كثيراً. سائقٌ

يشتري سيارةً بأربعينَ ألفَ دينار يدفَعُ فيها ما فوقه وما تحته، ثم يشتغلُ عليها، وبالكاد تُعيلُه. وتمضي السنوات وهو يعيش على هذه السيارةِ عيشةً متواضعة، ولا يحسُبُ أن السيارةَ ستصبح لاشيءَ بعد عشرين سنة، ستُستَهلك. لا يخطِّطُ لجمع مالٍ يكفي لشراء سيارةٍ أخرى. وكيف يجمعُ المال؟ الركّابُ لا يريدون أن يفهموا أن السائقَ استثمر رأسَ مالٍ كبيراً في سيارته. وما أسهلَ عليهم أن يصِفُوا السائق بالاستغلال. الركاب يحبُّونَ التجني.

إليكَ قصَّةً أخرى ذاتَ رائحة أخرى.

بلديةٌ من البلديات جاءتها دُفعةٌ من دُفُعاتِ التفكير السليم فبَنَتْ مراحيضَ عامةً ينتفعُ بها الناسُ في السوق، ولا سيما أهلَ القرى الذين يجيئون إلى المدينة. أنفقتِ البلديةُ على هذه المرافقِ خمسينَ ألفَ دينار، ولم ترصدْ أموالاً للصِّيانةِ والنظافة. بعد شهرين صارتِ الأحوالُ في تلك المراحيض كما تتخيَّلون. وتفتَّقَ ذهنُ البلدية عن حَلٍّ خطير: أَقفلتِ المراحيضَ بجنازيرَ وأقفالٍ كبيرة. بصراحة، ظلَّت الرائحةُ فائحةً شهراً من الزمان، ثم نشِفَ الأمر. الناس طبعاً يلومون مستخدِمي تلك المرافق. لكن.. ليس معهم حق. مرافقُ كهذه يستخدمُها الحريصُ والمهمل.. وذو التربية وقليلُها. كان على البلدية أن تتوقعَ ما حدث. أما أن ترتجِلَ مشروعاً ثم تنسى التخطيطَ لصيانتِه ونظافتِه فأمرٌ أقلُّ ما يوصفُ به أنه غلط غلط.

٢٠ أنا واحد من الناس

أنا واحد من الناس لما أقولُ إنَّني سأقفزُ من فوق السطح فأنا أفعلُ ذلك! كذَّابْ.

أنا واحد من الناس إذا طلب مني صديقٌ كلَّ ما معي أعطيته بلا تردُّد. وحتى لو طلب مبلغاً ليس معي، فأنا أَستدينُ لأعطيَه. كذَّاب.

عزيزي المستمع، الذي يبدأ كلامه بعبارة (أنا واحد من الناس) فهو مُقدِمٌ على كِذْبةٍ كبيرة.

كلُّنا يتحدثُ عن نفسه، هذا شيءٌ في طَبْعِ البشر. لكنْ أرجوك يا صديقي أن تتحدثَ عن نفسِك قليلاً ثم تتركَ لي مجالاً لأتحدثَ عن نفسي قليلاً. هكذا تدوم الصداقة.

فلانٌ من الناس يبدأني بالحديث عن نفسه عندما نلتقي في الشارع. في البداية يشكو من تعطُّل الأحوال، ثم يقصُّ عليَّ نجاحاتِه الباهرة، ثم يحدثُني عن أولادِه. وأنا، بالتدريج، تنفَتِحُ شهيَّتي. وأبدأُ بالاستعداد لكي أتحدثَ عن نفسي. ويقاطعُني ويقول: «حَراجَكْ إذا كان يوجد في البلد أحدٌ فكَّر في هذا المشروع قبلي، والآن بعد أن بدأت به.. كلُّ الناس يريدونَ تقليدي، لكن لا يَهُمّْ. عندي مشروعٌ آخر.» ههنا يسكت قليلاً. وقبل أن يأخذ بشرح مشروعه الجديد أَبدأُ أتحدَّثُ عن نفسي، فيقاطعُني قائلاً: «عَطَّلْتُك، ولا يحسُنُ بنا الوقوفُ هكذا في الشارع. هيَّا نجلسْ في المقهى». وأنا أعرفُ أنَّه في المقهى لن يعطيَني فرصة.

تعوَّدْتُ في مثلِ هذه الحالات أن أقاطعَ الشخصَ المِهْذَار بيَدي لا بِلِساني. أمُدُّ يدي بحزْمٍ وهو يتكلمُ، وأصافِحُهُ، وأَهْرُب. لكَ الحق في أن تتحدَّثَ عن نفسِك، ولكنْ أن تحرِمَ الناسَ من نفسِ الفرصة.. غلط غلط.



٢١ الكمبيوتر العاطس، والطبيب المنافس

عزيزي المستمع، رجل جاءني ليُصْلحَ الكمبيوتر. فتح الجهاز وسألني ممَّنِ اشتريتُه، ومن أَنْزَلَ عليه البرنامَجَ الفلاني، والفلاني؟ وطبعاً وصفَ أولئك جميعاً بأنهم حمير، وأَصْلَحَ الكمبيوتر فعلاً. وفي اليومِ التالي اسوَدَّتِ الشَّاشَةُ في وجهي وصارَ الكمبيوتر يعطُس، وأخذ يرمُشُ بإِشعاعات غريبة؛ تلفنتُ له، فجاءَ، وكَعْكَشَ، ومَشَى الحال، وبعد يومينِ تكرَّرَتِ القصَّة. أنا صبور. ظَلِلْتُ أستدعي الشخصَ نفسَه. ربما كانت عندي رغبةٌ دفينة في أن أعرِّفَه أنه ليس خيراً ممن وصفَهم بالحمير. وبصراحة في المرات العديدة التي حضرَ فيها صار لسانُه نظيفاً، ولم يعُدْ يتباهَى ويشتمُ أهلَ مهنته. وكافأتُه على اعتدال سلوكِه بأنني لم أتلفن له عندما شيَّعْتُ الكمبيوتر إلى مثواهُ الأخير.

أما الأطباءُ فهم جميعاً مرضى بهذه العِلَّة ولا أظن أنهم سيُشفوْنَ منها. أوَّلُ شيءٍ يقولُهُ لك الطبيب إن زميله فلاناً كذا.. ويذكر نوعاً من أنواعِ الحيوانات. المريضُ المسكينُ لا يعرف من هو الحمارُ فعلاً.. وعليه أن يجربَ قطيعاً كاملاً قبل أن يعثُرَ على طبيب من سلالةِ سيدنا آدم.

بلدُنا فيها خِبْراتٌ جيِّدَة.. من أهلِ الطب ومن أهلِ الحاسوب. والتنافسُ في المهنة شيءٌ طبيعي. ولكن الإسراعِ بالشتم لابنِ صَنْعَتِك هو في الواقع.. غلط غلط.

٢٢ صفوان بهلوان وعبد الوهاب

عزيزي المستمع، أعتقد أن جورج وَسُّوف حقَّقَ شيئاً في أدائِه لأغاني أمِّ كُلثُوم. لقد بالَغَ في رسمِ خُطوطِ اللَّحنِ بشكلٍ حوَّلَهُ من صورة إلى كاريكاتير. وقد سمعتُ جورج وسوف في بعض المقاطع الكلثومية وقد بلغ مرتبة عالية من السلطنة والتجلي. إنه يقدِّمُ أغنيات أم كلثوم بأسلوب محمد عبد المطلب.

التي غنت لأمِّ كلثومَ بشكلٍ جميلٍ جداً أيضاً - في نظري - أصالة نصري. غنَّتْ وهي في أوَّلِ طَلْعَتِها أغنيةَ لِسَّة فاكِرٍ غناءً ساحراً وفيه مُبالغة («أصالة» بدون مبالغة.. صعْب). طبعاً شَدَّتْ على نفسها، وعَصَرَتْ حالَهَا عَصْراً. لكنْ، أخرجَتْ منَ الأغنيةِ شيئاً جديداً خاصّاً بها.

بعضُ المطربينَ يقلِّدونَ القدماء تقليداً حَرْفِيّاً. وهؤلاءِ تصْدُقُ عليهم ملاحظة محمد عبد الوهاب عندما قدَّموا إليه المغني صفوان بهلوان. سمعَ عبدُ الوهاب صفوان وهو يقلِّدُه بدقَّةٍ تامَّة. فقال له: أنت مثلي بالضبط، مئة بالمئة. انبسط صفوان، فأكملَ عبدُ الوهاب كلامه: ولذلك لا حاجةَ إليك، فالناس سيفضِّلون الأصل.

ما أكثرَ التقليدَ في الغناء. كلُّهم يغنُّون أغنياتٍ قديمة. السبب أن شَهْوَةَ الغناء عند البشر أقوى بكثير من القدرة على إبداع الألحان. فليغَنِّ صفوان على طريقة «المئة بالمئة»، ولتغن أصالة ولتعصُرْ نفسها ما شاء لها، ما دام ذلك يجعلُ المغنِّين يفرحون. لكن، أن نبقى أسرى الأغاني القديمة غلط غلط.



رايح جاي على المدير

عزيزي المستمع، لا أدري لماذا يصرُّ الموظفُ الضعيفُ في شغلهِ على رؤيةِ المدير باستمرار، بينما يؤدي الموظفُ الكُفْءُ عملَه بصمت. المهم، المدراءُ يعرفون ذلك جيداً. يعرفون أن الذين يقرعون الباب كثيراً هم الموظفون الأقلُّ كفاءةً. لكنْ.. الذهابُ إلى المدير باستمرار يؤْتي ثمراً ويعطي نتيجة. الموظفُ الضعيف - عندما يذهبُ باستمرارٍ إلى المدير - يؤكِّدُ وَلاءَه. ويُشعِرُ المديرَ بضعفهِ. والمدير يَرِقُّ قلبُه، ويَشعرُ أيضاً أنَّ من مصلحتِه أن يكونَ في الدائرة شخصٌ غيرُ كُفْءٍ، لكنْ شديدُ الولاء.

التجرِبةُ أظهرت أن هؤلاءِ الذين يذهبون إلى المدير كثيراً سريعو التقلُّب، وولاؤُهم مؤقَّت، وليس عندهم وفاء. المدير الذي يسمحُ لبعضِ الموظفين بتكوينِ علاقةِ ولاءٍ مريضةٍ معه هو المخطيء. في الواقع يكون هو مديراً ضعيفاً أيضاً. فالمتزلِّفون يركبون الغلط، وهو يركب الغلط.



العرب والترجمة وإسبانيا، معلومة غلط أحبها الجميع

عزيزي المستمع، جاء سؤالٌ في برنامج (وزنك ذهب) على لسان صاحبِ البرنامج نور الشريف. السؤالُ عن عدد الكتب التي ترجَمَها العرب منذ ألفٍ ومئةِ سنة، أي من أيام الخليفة العباسي المأمون. الجواب مئةُ ألفِ كتاب. ويقول البرنامج إنَّ إسبانيا وحدها تترجم في السنةِ الواحدة مثلَ هذا العددِ من الكتب.

معنى ذلك أن ما صنعتهُ الأمةُ العربية في ألف سنة تصنعُه إسبانيا كلَّ سنة.

عندي من هذه المعلومة عبرةٌ، وعندي عليها اعتراض. العبرة هي أن علينا ألا نتفاخر كثيراً بالماضي. والاعتراض هو أن الرقْمَ الصحيح عشرةُ آلاف لا مئةُ ألف. وقد أُخِذَتِ المعلومةُ الخطأُ من تقرير «برنامج الأمم المتحدة الإنمائي» لعام ألفين واثنين من الصفحة ستةٍ وسبعين. والتقريرُ بدوره نقلَ المعلومة من كتاب لشوقي جلال.

وبالرجوع إلى الانترنت والمصادرِ الرَّسمية الإسبانية، أؤكد لكم أن الرقم عشرةُ آلاف كتاب، وليس مئةَ ألف.

بالمناسبة العالمُ العربيُ كله يقوم حالياً بترجمة 330 كتاباً كلَّ سنة، مقابل عشرة آلاف لإسبانيا. وفي هذا ما يكفي من الهبوط!

والمقارنة بإسبانيا لها وجاهتُها: فعدد المتكلِّمين بالإسبانية - لغةً أولى - قريبٌ جداً من عدد المتكلمين بالعربية لغةً أولى. ولكن الإحصاء لم يتضمنِ المطبوعاتِ باللغة الإسبانية في أميركا اللاتينية التي يعيشُ فيها ثلاثةُ أرباعِ المتكلِّمين بالإسبانية.

غلط أن يسوق المرء أرقامَه بدون تدقيق. لكنْ، قبل التدقيقِ وبعده، نحن أمةٌ غارقة في الجهل. وإسرافنا في التباهي غلط غلط.

٢٥ الأفندي يقفز فوق رقاب الناس

عزيزي المستمع، أمامي في الطابور سيدةٌ جاءت من قرية وقطعتِ الحواجز، هذا واضحٌ من ثوبها ومن التعب البادي عليها. وبعيداً هناك.. على رأس الدَّوْر.. عاملٌ جاء من ورشته، هذا واضح من ملابسه ومن خشونةِ يديه. أكيدٌ أنه قضى عشرَ دقائق حتى وصل إلى الشُّبَّاك. والآن سيصرِفُ الصكَّ ويعودُ مُهَرْوِلاً إلى عمله.

ولكن، قبل أن يقضيَ العاملُ المعتَّرُ شَغْلتَه، جاء أفنديٌّ حليق. دخل من باب البنك. رائحتُه زكيَّةٌ والآفترشيف يُفَحفِحُ من خِلْقَتِه. لم يقفْ في الطابور، وصار يفتِّشُ بعينيه عن شيء. وأخيراً بدا أنه وجد مطلوبه، ثم سار إلى الشباك وتخطَّى الطابور. وإذا بالموظف يرحبُ به ويأخذُ معاملتَه، ويسلِّكُه. بعد دقيقة كان الأفندي يخرج من البنك وهو يردد عبارات الشكر لصاحبه الموظف، ولم ينظر نحوَنا أبداً، نحن الواقفين في الطابور. الغلطُ في الموقف أن السبعة أو الثمانية الواقفين لم يحتجُّوا. والغلط الأكبر أنهم تصرَّفوا وكأنَّ الأمرَ طبيعي. هناك غلطٌ أعظمُ من هذين وهو أنهم اعتبروا ما حدث الطريقةَ الـمُثلى لسير الأمور. أنا وقفت أغلي، لا أريد أو أوسِّخَ مِزاجي بمعركةٍ كلامية مع الأفندي، ولا أريد أن أتقبل سلوكه، فقط سلكتُ الطريق الثالث. تعرفونه! أضعفُ الإيمان. قلت في قلبي: غلط غلط.



٢٦ مستوى النظافة.. ومستوى قلة النظافة

عزيزي المستمع، لكل شخص مستوىً من النظافة أو قلَّةِ النظافة. في إنجلترا كانتِ الأُمُّ تسُدُّ المِغْسلةَ بالسَّدَّادة وتملؤُها ماءً ثم تغسلُ وجوهَ أولادِها وأيديَهم واحداً بعد الآخرِ من الماءِ نفسِه. وينطبقُ الأمرُ نفسُه على الاستحمام، فهم يملأونَ البانيو بالماء ويَغْطُسون فيه واحداً بعد الآخر، دون تبديلِ الماء. نحن في بلدنا - رغم شُحِّ المياه - نؤمنُ بالماء الجاري، ونحبُّ شَطْفَ المنزل بماءٍ متدفِّق.

هناك ناسٌ يغسلون الملابس على طرف النهر بلا صابون. وهناك ناسٌ يتفننون في انتقاء مساحيق صابون الغسالات، ويبدِّلون في اليوم قميصين.

مساكينُ المصابون بوَسْواس النظافة. يتعَبون كثيراً. وأمَّا الذين يستحِمُّون مرةً كلَّ شهرين، ويبدِّلون قمصانَهم في الصيفِ مرةً كل أسبوعين، فالمساكينُ هم مَنْ حولَهم. عزيزي المستمع إليك في النهاية هذا التعريفَ للصديق: الصديقُ الحقيقي هو الذي يقولُ لي إذا شمَّ رائحةً منكرةً من فمي: لك رائحةُ فم اليوم. لا يجدُ هو حَرَجاً في قولِها، ولا أجدُ أنا كراهيةً في قلبي له لأنه قالها. حتى الآنَ لم أسمع شيئاً كهذا ولا حتى من أمي، وللأمانة فإنني لم أَقُلْه لأحد. فإمَّا أن أكون بلا رائحةِ فم، أو بلا أصدقاء، أو أن يكونَ تعريفي للصداقة - وهذا هو الأرجح - غلط غلط.





٢٧ تطرف موسيقي

عزيزي المستمع، المطربون والملحنون عجيبون في أحكامهم الجارفة. ويتحزَّبون في الموسيقى بشكل مبالغ فيه. تسأل أحدهم: ما رأيُك في الملحن الفلاني؟ فيقول لك: لا يعرفُ يُلَحِّنُ. تسأل آخر عن مطرب معين، فيقول لك: صوتُه مثلُ خلاَّط المولينكس. التطرُّف عند أهل الفن خِلقة.

المشكلةُ الأكبر عندما يكون معلمُ الموسيقى متطرفاً. سمعت عن معلم موسيقى يقولُ لطلَّابه إن الموسيقى الشبابيةَ هابطة، وليست موسيقى؛ وإنَّ عبدَ الوهاب مفلسٌ فنياً، وإنَّ أمَّ كلثوم لم تغنِّ شيئاً جيداً في آخرِ ثلاثينَ سنةً من عمرِها.

في الواقع، لم أرَ مطرباً نجح إلاَّ وعندَه شيء. جورج وسوف، وصابر الرباعي، وشيرين. كل منهم عنده شيء أحَبَّه الناس. الشهرة مقياس جيد للنجاح. وأما أذواقُ الناس فتختلف. لكن الاعتقادَ بأنَّ ذوقَنا الشخصيَّ هو المقياسُ الأمثل غلط غلط.



٢٨ عاد إلى أميركا مثلما جاء

عزيزي المستمع، عاد المليونيرُ إلى بلدِه بعد أن قضى عشرين سنةً في أميركا، وبالإضافة إلى نفقاته، حمل معه عَشَرَةَ آلافِ دولارٍ زائدة. وقرر أن يتصَدَّق بها على ناسٍ لا يعرفُهم، لوجه الله، صدقةً خالصة لوجه الله.

بعد وصولِه بيومين ذهب إلى أحدِ الأحياءِ الفقيرة. ذهب وحدَهُ، ودون أن يخبرَ أحداً من الأقارب. وحمل في جيبِه العشرةَ آلافِ دولار. وفي بيت من البيوت جلس المليونير وشربَ القهوة، وتحدث إلى الرجل، ورأى بيتَه خالياً من الأثاث تقريباً، ورأى أولادَه وبناتِه في ملابسَ رَثَّة. مدَّ المليونيرُ يدَه إلى جيبِه وحَسَّسَ على دستةِ الدولارات. وقال لنفسه: إذا أعطيتُ هذا الرجل كلَّ المال فقد يذهبُ ويتزوَّجُ مرةً أخرى. ثم قال لنفسه:

وإذا أعطيتُه ألفَ دولار فسوف ينفقُها بسرعة، ثم يعود إلى حياةِ الفقر، وأكونُ بهذا قد عذَّبْتُه بدلَ أن أساعدَه. ثم قال المليونير لنفسه: لو أعطيتُ هذا الرجلَ مئةَ دولار فقط فلن أحلَّ مشكلتَه. في النهاية قام المليونير، وصافح الرجل، وقال له: أحببتُ أن أتعرَّفَ على أوضاعِكم، لعلي أتمكَّنُ من مساعدتِكم ذاتَ يوم. ذهب دون أن يعطيَه شيئاً. عندما خرج المليونير من حارةِ الفقراء قال لنفسه: ما أصعبَ صدقةَ السرّ. وعندما عادَ إلى أميركا كان في جيبِ مِعطفِه عشرةُ آلاف دولار نقداً. هل في هذا غلط.



خلينا على اتصال

عزيزي أبا محمد، إن سمعتني على الراديو أتحدث، وظننتَ أنني أتحدث عنك، فارفع سماعة التلفون وتكلم معي وسأنكرُ ذلك. ولكنني في الواقع أقصِدُكَ بهذا الكلام. اِسمعْ.

نلتقي بالصدفة وتقولُ لي: لازم أزورك، وتصرُّ على أن تأخذَ رقْمَ الهاتف. ثم نلتقي بعد سنة وتؤكد لي الشيءَ نفسَه، وتأخذُ رقْم الهاتف مرةً أخرى.

يا أخي، أنا أعرف أننا زملاءُ قدامى، وأن بيننا قَدْراً متوسِّطاً من المحبَّة. يا أخي، أنا أعرف أن شعورَك بوجود انقطاع شعورٌ صادقٌ. لكنْ، أنت تعرف وأنا أعرف، أننا نفضِّلُ أن يستمرَّ الوضعُ كما هو عليه: لقاءٌ بالصدفة بين الحينِ والحين. فأرجوك احتفظْ برقم هاتفي في مكان أمين، لكن لا تَضْرِبْ لي تلفوناً. لا تشعر بتأنيبِ الضمير، فأنا أيضاً لا أريد أن أزورَك. لكنْ، والله، يسرُّني أنْ ألقاك في السنة مرة. وبالصدفة. فما الغلط؟



بدون نظارة لا نسمع جيداً

أعزائي المستمعين، يا منْ لا تلبسونَ النظَّارات، يا منْ ليس عندهم قِصَرٌ في النظر ولا طُول، فهم مثل معشوقةِ كعبِ بنِ زهير: لا يُشتكَى قِصَرٌ منها ولا طولُ. أيها المرتاحون من هذا الهَمّ، أريدُ أن أفيدَكم. وأنا في هاتين الدقيقتين لا همَّ لي إلاَّ إعطاؤُكم هذه

الفوائدَ الخفيفةَ، والقليلةَ النفعِ أيضاً. أريد أن أحدِّثكم عن شعورِ لابسِ النظَّارة.

لابسُ النظَّارةِ شخصٌ مسالم، ويتجنَّبُ المشاكل، لأن نظَّارتَه هي الضحيةُ الأولى في كل «طوشة». فإذا دخل في عِراك فإنها تطيرْ، كالعصافيرْ، ويأخذُ بعد ذلك يضربُ «بوكساتٍ» في الهواء، فإن وقعتِ النظَّارةُ على رأسِ أحد «الفَزِّيعَة» يكُنْ قد خَسِرَ المعركةَ فقط، ونَجَتِ النظارة من التكسير، وإن وقعتْ أرضاً فهو خاسرٌ من جهتين. لهذا السبب لابسُ النظارة شخص مسالم. وبدون نظَّارة تخِفُّ عند صاحبِها ليس فقط حاسَّةُ البصر، بل يخفُّ السَّمْعُ أيضاً. والله بدون نظارة لا نسمعُ جيداً. ربما لهذا علاقةٌ بأُذُنَي النظَّارة اللتين تقعُدَانِ فوق أُذُنَي البنَي آدم، فكأن أُذني النظارة تساعدانِ الأذنين في السَّمْع. وربما كان هناك سبب آخر. لا تصدقُ ما أقوله لك؟ اِسأَلْ شخصاً يلبَسُ نظارة. فإن أجابك بمثل إجابتي، ثم لم تعجبك إجابته مثلما لم تعجبك إجابتي، فقل أنت بدلاً مني: غلط غلط.

٣١ عمرو يقتل عمْراً

عزيزي المستمع، اجتمعَ رجلانِ في غرفةِ انتظارٍ في عيادة طبيب. الطبيبُ لم يأتِ بعد. تحدثَ الرجلانِ قليلاً. أحدُهما من الواضحِ أن بيئتَه الاجتماعيةَ شعبيةٌ في الأصل. الآخرُ من بيئة متوسِّطة وأهلُه أصحابُ محلات. لكنْ.. بعد قليلٍ صارَ واضحاً أن الأول «الشعبي» متعلم، ويشتغلُ في بنك. الثاني توجيهي فقط.

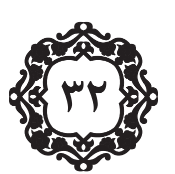
بدأَ صِراعٌ بين الرَّجُلَين. صراعٌ على المكانةِ والمنزلة. صراعٌ خفي. كلُّ واحد منهما صارَ يقول لنفسه: يا ترى هل هذا الآخرُ أحسنُ مني؟ أم أنا أحسنُ منه؟

أحدُهما وضعَ رِجْلاً على رِجْل وجَعَصَ في جلسته. والثاني وقف وتمشَّى قليلاً، ثم فتح النافذةَ بثقةٍ، ثم جلس.

استمر الصراعُ خمسَ دقائق، ثم جاء الطبيب وانتهى الموقف.

البشرُ هكذا. يقول القانون إن الجميعَ متساوون، ولكنَّ الناسَ في الواقع حريصون جداً

على عدم المساواة. لا بد من أن تكونَ لك إمَّا اليدُ العليا وإمَّا السفلى مقابلَ كلِّ شخص.
في الزمن القديم زارتْ عشيرةٌ من بني تغلب الملكَ عمروَ بنَ هند. وجلست أمُّ الملك (هند) وأمُّ الشاعرِ التغلبي عمرو بن كلثوم (ليلى) معاً في خيمة. وعندما أُحضر الطعام قالت أمُّ الملك هند لأم الشاعر ليلى: ناوليني هذا الطبق. فعرفت أمُّ الشاعر أن هنداً تريدُ أن تفهمَها أنها هي الأفضل، فصرختْ بأعلى صوتها: واذُلاَّه لِتَغلِبْ! فسمعَ ابنُها الشاعر، وكان يجلس مع الملك في خيمةٍ مجاورة، صرختَها. فقام من فوره، واستلَّ سيفه، وقتلَ الملك، وكانت معركةً كبيرة.
الدنيا قائمة على التفاوت بين الأفراد.. على الصراع. قد يظن بعضُهم أن الصداقةَ تُلْغي التفاوتَ وتجعلُ الشخصين متساويين. نحن نقول: غلط غلط.



٣٢ مسكين! أكيد سيموت قبلي

عزيزي المستمع، زرتُ رجلاً عجوزاً، وكنتُ آنذاك شابَّاً فرحاناً بشبابي. كان شديدَ اليَقَظةِ ذكيَّاً يتحدَّثُ كالشباب، وفي مواضيعِ الشباب. ولم ألاحظْ شيخوختَه إلا عندما أُحضِرَ له كوبُ ماءٍ وصار يبحثُ عن الدواء. صار يبحث في جيوبه بيدينِ مرتعشتين، وراح يخرفِشُ بأوراقٍ أمامَه. ثم عثَر – بعد حين – على علبة الدواء وفتحَها وبَلَعَ حبَّةً وشربَ ماء. وعُدْنا إلى حديثِنا.

الشابُّ دائماً يقول لنفسه: «مسكينٌ من يكونُ كبيراً في العمر.. فهو سيموتُ قبلي. وأنا سأظلُّ هنا».

فكرة تخطرُ ببال الشاب.. ويكبرُ سنةً بعد سنة. وتلتهمُ الأيام والليالي عُمُرَه، وقد يشعر في خضم هذه الرحلة بضياع العمر شعور شوقي القائل:

دقَّاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ له إن الحياةَ دقائقٌ وثَوانِ

هناك نوعٌ من الناس مثلُ صاحبي العجوز الذي يعيش ويعمل ويفكر وينشط، ولا تظهر عليه الشيخوخة إلا إذا ضاعَ منه شيء وراحَ يبحث عنه. هذا النوع يكون شابَّاً

في كل مرحلةٍ من عمره. هناك تعريف بريطانيٌّ للشيخوخة يقول: «عندما تنظُرُ إلى الشرطي، وتستغرب، وتقول لنفسك: لماذا «يترقْوَصُ» الشرطي وهو يمشي؟ لماذا يمشي بخفَّةٍ ومرح؟ فاعلم أنك صرت عجوزاً.» فالشرطي يمشي الآن كما كان رجال الشرطة يمشون دائماً.. ولكن الذي تغيَّر هو أنت.

وأنا أسوقُ إليك، عزيزي المستمع، هذا التعريف.. ويعلمُ اللهُ أنِّي شعرتُ بهذا الشعور يوماً. رأيتُ رجلَ شرطة في لندن، وجَفَلْتُ، ورجعتُ برأسي قليلاً إلى الوراء. وَهْ! إنه لَيَمشي مخالِفاً ما بين رجليه، إنه يترقْوَص! أخ، تذكرت ذلك التعريف الساخر. وعرفت أنني دخلت في الكهولة. أنا أشعر بالراحة الفكرية في هذه المسألة، في مسألة العمر، وأنا أقرأ القرآن. أراه فوق مسألة العمر، وليس فيه حسابٌ للسنينَ التي نقضِيها على هذا الكوكب. وأرى كل الأفكار والهواجس غلط في غلط.

٣٣ أبو جنزير

عزيزي المستمع، لعلك سمعت، ولعلك لم تسمع بأبو جنزير. هذه حكايتُه.

هذا محاسِبٌ في بنك كان يمشي في الشارع. محاسبٌ محترم له أقدميَّةٌ في عمله، ويلبَسُ قميصاً أبيضَ مكوِيّاً، قبّتُهُ تجرحُ رَقَبَةَ العُصفور. كان يمشي في الشارع. وأبو جنزير هذا، ليس اسمُه أبو جنزير. له في الواقع اسمٌ متحضِّر مثل أسماء الناس. ولكني سأقول لك كيف سُمِّيَ بأبو جنزير.

كان يمشي في الشارع. وهو رجل (بالمناسبة) في الخمسين من العمر، وله أولادٌ وبناتٌ شباب. وهو حريصٌ على الأخلاق والتهذيب.

كان يمشي في الشارع.

وبينما هو يمشي رأى أربعةً من الشباب الصائعين على الرصيف. طبعا تظاهَرَ أنه لم يلْحَظْ وجودَهم، وعندها اقترب منهم، صدفَ أن كانت تمرُّ «سُرْبةٌ» من الفتيات،

بينهنَّ بنتٌ سمراءُ جميلة. أخذَ واحدٌ من الشباب يغني : «أسمر يا اسمراني».

فيها شيء؟

البنات لم يلتفتْنَ ومشيْن قُدُماً.. ورفع الشابُّ صوته بالغناء. أما المحاسبُ المحترم فجَمَدَ في مكانه. وصار يحدِّقُ في الشاب. الشابُّ استمرَّ في الغناء، ورفعَ صوته بتحَدًّ، ووقف وِقفة تأهُّبٍ وكوَّر قبضةً. فقَدَ المحاسبُ أعصابَه وانهالَ ضرباً على الشاب. الشاب ضرب المحاسب المحترم. وساعدَه أصحابُه الثلاثة. صار القميص الأبيضُ أحمر. ثلاثُ غُرُزَات في الجبهة، وهربَ الصائعون.

من يومِها صار المحاسبُ المحترم يتمشَّى في الشارع وهو يلبَسُ تي شيرت ممزقاً، ويحملُ جنزيراً، أي سلسلة حديدية. وصار اسمُه أبو جنزير . يقولون إنَّ ما أثار غضبَ المحاسب هو تحدِّي الشباب لسلطتِه ولوجودِه، وليس غَيْرتَه على الشرف. ويقولون إن الغزلَ البريءَ بقَدْرٍ معين ليس له وَقْعٌ سيٍّءٌ على البنات كما يتخيلُ الأهالي، وأقول إنَّ استعمالَ الأيدي كما فعل الشباب وكما فعل المحاسب غلط، وأما استعمالُ الجنازير فهو غلط غلط.

٣٤ أحمد وأحمد وأحمد: الإبداع نبتة غريبة

عزيزي المستمع، هذه قصة عن ثلاثة أشخاص اسمُ الأول أحمد، والثاني أحمد، والثالث.. أحمد. وإذا قصصتُها عليك فلن تفهمَ ما أعني، وستختلطُ عليك الشخصيات. فماذا أفعل؟

طيب. الأول اسمه (أحمد فؤاد نجم).. اسم طويل. ما رأيك عزيزي المستمع أن نترك القصة ونستريح، ونتحدث في موضوع البِنية التحتية؟ أكادُ أراك غيرَ متحمِّسٍ للموضوع الجديد! الصراحة: ولا أنا. لأنني لا أفهمُ فيه.

إذن، نعود إلى قصة أحمد وأحمد وأحمد.

قرأتها في كتاب «الفاجومي» لأحمد فؤاد نجم، الشاعرِ الشعبي المصري.

جاءه الكاتب الساخر أحمد رجب ومعه شاب مهلهل الثياب قميصُهُ فيه زرٌّ آه، وزرٌّ لا. وفي رجله صندلٌ مربوط بخيط قِنَّب حتى يتماسك، ولا يكاد. وشكله عامِّيٌّ وأمِّي، وهو فلاَّح من الشرقيَّة. عندما وصلا. قال الكاتب أحمد رجب، لأحمد المَهرجَل المَشعَّث: روح اعمل لنا شاي. أحمد فؤاد نجم قال لنفسه: «لا أدري لماذا أحضر أحمد رجب هذا الصعلوكَ معه.» ثم جلسوا يشربون الشاي.

أحمد المسكين جلس على الأرض، والأحمدان الآخران جلسا على كرسيَّين. قال أحمد رجب لأحمد فؤاد نجم: «أحمد ده بيقول شعر». وطلب منه أن يقول قصيدة من الشعر الشعبي. فقال أحمد المَهَرْجَل:

«سنينِ العَزيزْ رِجْعِتْ بِقَحْطَها المعروفْ»، وهو يتحدث عن الفقر ويشبِّه هذا الزمن بزمن عزيز مصر عندما حل القحط بالبلاد ثم جاء يوسف عليه السلام فأنقذ مصر من القحط بحسن تدبيره. قال أحمد المهرجل:

سنينِ العزيزْ رِجْعِتْ بِقَحْطَها المعروفْ

والفَقْرِ عَمِّ البِلادْ، قُومْ يا يُوسِفْ شُوفْ

رُحْنَا نْجِيبِ الدُّرَةْ الصَّفْرَا وَقَّفُونَا صْفُوفْ

والذرةُ الصفراءْ كانت طعام الدَّواجِنِ في مصر أيَّامئذٍ، ثم لما حلَّ الجوع ذاتَ عام صارَ الناس يقفون صفوفاً ليحصُلوا عليها. عندما سمعَ أحمد فؤاد نجم هذا المقطعْ.. نزَلَ من على كُرسيِّه، وصارَ يزحَفُ على ركبتَيْهِ ويَدَيْه.. وجَلسَ قربَ الشاعرِ الشابِّ الفلَّاح.. وقال له: سامحني.

الإبداع، عزيزي المستمع، نبتة غريبة، والظنُّ أنها لا تنبت في بيوت الفقراء غلط غلط.



حبة البزر الناطقة.. والحصان المصغي

عزيزي المستمع، أتدري ماذا تقول حبَّةُ البِزْرِ للبنت التي تقصْقِصُها؟ نعم، حبة البزر تتكلم، وتقول للبنت: الله يْصَرْصِعِكْ، أنا شُو بَشْبِعِكْ!

والبنت ترد على حبة البزر. وتقول: ضَرْبِةْ تيجيكي، بتسَلَّى فيكي.

هذا من أدبنا الشعبي، وإذا لم تصدِّقْ أن هذا أدب فانظر كيف صنع القاصُّ الروسي أنطون تشيخوف قصةً من أرقِّ قِصَصِهِ على طريقةٍ مشابهة. يحدثنا تشيخوف – الذي مات قبل تسعٍ وتسعين سنة - (1904) عن سائق عربة يجرها حصان وينقل بها الناس من مكان إلى مكان بالمدينة، أي قبل انتشار التاكسي.

كانت الدنيا ثلجاً، وكلَّما صعِدَ شخص أو جماعة إلى العربة يحاولُ العربجي المسكين أن يحدثَهم كيف مات ولدُهُ بالأمس، وكيف أن زوجتَه مريضة. ويبطِيءُ الحصان في سيره، ويضربه العربجي بالسوط، ثم يواصل حديثه.. ولكن الناس يسكِّتونَه. يقولون له: أسكت.. لا نريد ثرثرة.. نريد أن نصل إلى المكان.. هيَّا.

وفي آخر النهار عادَ العربجيُّ إلى بيته. وضع حصانَه في الزَّريبة، ووضع أمامه الشعير. أكل الحصان.. كان واضحاً أن البرد والتعب أخذا منه كل مأخذ. قال له العربجي: هل لاحظت كيف أن الناس لا يريدون الاستماعَ إلى قصتي؟ همهمَ الحصان.. واستمر يأكل. وقال له العربجي كل شيء. قال له.. كل شيء.

فإذا كان الحصان يصغي ويفهم فلا غرابة إذا كانت حبَّة البزر تتكلم، أم أن كلامي غلط في غلط.

٣٦ مجتمع العشيرة، هل يصد العدوان الخارجي

عزيزي المستمع، ساءَ الماءُ في مواسير البلد فصرنا نشتري ماءَ الشرب في القناني. واشتد البردُ في الشتاء فصار لا بد من تدفئة. واستَعَرَ الحر في الصيف فصار لا بد من مِرْوَحة. وكبُرَتِ البلد وصرنا نسكنُ على طرفها.. وصرنا ندفعُ للمواصلات.. ولم نكن ندفعُ في الماضي، لأن البلد كانت صغيرة وكنا نقضي حوائجنا على أقدامنا. الدفع زاد كثيراً، والقبضُ لم يزد. وإليك الحُجَّةَ والبرهان: المعلِّمُ كان في الماضي يفتح بيتاً. والآن صار معاشُهُ مجرد مَسْحَةِ زَوْر. ولذلك يجب على المعلم أو الموظف أن يَسْكُنَ عند أهله، وأن يتزوجَ بنتَ عمه، ولا بأس إن كانت أقل جمالاً من مستوى طموحاته.. فهي الخيار المتاح.

وصار المعلم أشد ارتباطاً بعشيرته وحامولته، فهو يأخذ «الزيتات» في كل سنة من عمه، والجبنَ والزعتر من أُمِّه. والمعاشْ؟ يشتري به خبزاً.

مجتمعُنا في العقود الماضية (حتى الستينات) قطع شوطاً في السير نحو مفهوم الأسرة الصغيرة، والمواطن الحرّ الذي يعيش في المجتمع، ثم عاد المجتمع إلى العشائرية وإلى ربط الفرد بالحامولة. كنا نحتاج إلى منظومة القوانين؛ أما الآن فنحن بخير، لا حاجة بنا إلى المحاكم ولا إلى القوانين، فالعشيرة هي القانون. وإذا دبَّت مشكلة بين شخصين من عشيرتين فهناك العطوات وما شابه ذلك.

المشكلة هي أن مجتمعاً من هذا النمط قوي داخلياً ومتماسك، ولكنه عاجز عن صدِّ العدوان الخارجي. العشائر تحسن غزوَ بعضها بعضاً، وتعجز عن الوقوف أمام المحتل. إن تمجيد التماسك العشائري هو في رأيي غلط غلط.

٣٧ الإعلام الخليجي وسقطته بسقوط صدام

عزيزي المستمع، بعد أن سقط النظام العراقي تبرعت محطة تلفزيون مشهورة ببث برنامج فكاهي كله تنكيت على النظام البائد. هذا البرنامج لا يحدثنا عن الأنظمة السيئة التي لم تسقط.. بل يتجرأ فقط على جثة النظام الذي سقط. ولأنني لا أحب من يأكل الجثث، فأنا أقاطعُ هذا البرنامج. وأنا مُسْتاءٌ لأن الناس يشاهدونه، ومستاءٌ أكثر لأنهم يضحكون، ومستاء أكثر وأكثر لأنهم يحدثونني عما يشاهدونه. حبذا لو قامت هذه المحطة بإنتاج برنامج يظهر مخازي وعيوب الحاكمين وهم متربعون على الكراسي.. هذا هو النقد، والجرأة.

الإعلام الحرُّ يخدُمُ البلد كثيراً. شهدتُ بأمِّ عيني كيف أسقَطَ الإعلامُ البريطاني مارغريت ثاتشر المرأةَ الحديدية. كانت فعلاً تُحكِمُ قبضتها على السلطة، وفي عام تسعين وبعد ثلاثِ فَتَراتٍ متوالية في رئاسة الوزراء أُسقطت بتصويت حزبي برلماني. كان التلفزيون والصِّحافة لا يوفران فرصة في عهد ثاتشر لبيان عيوب حكمها. في كل يوم كانت هناك انتقادات ونشرٌ لمعلومات وتحقيقات متلفزة وصِحافية. بعد أن سقطت ثاتشر أعطوْها أرفع لقب: صارت البارونة ثاتشر، ولم يعُدْ ينتقدُها أحد في الإعلام. إعلامنا العربي ليس جريئاً ولا صادقاً، لكنه محترم كل الاحترام. حتى عندما يصادف أن تفعل الحكومة شيئاً جيداً كأن تطردَ مديراً عاماً لأنه اختلس، فالإعلام يصرُّ على التزام الاحترام، ولذا يورد النبأ بأن المدير العامَّ الفلاني استقال لأسباب صحية. أليس هذا غلط غلط؟

 المدارس.. تلك الكريهة

عزيزي المستمع، مضتْ عليَّ عشراتُ السنين منذُ أن غادرتُ مَقْعَدَ المدرسة. كنَّا نسمي المقعَدَ في المدرسة «البنْك».. بنكٌ مُفْلس.

لا أعادَكِ اللهُ يا أيامَ المدرسة.

عشراتُ السنين مرّت منذُ أن فارقت المدرسة، ولكنني لم أنسَ درسَ الحسابِ المقيتَ، ولا درسَ القواعدِ البغيض. واللهِ لولا العيبُ والحياءُ لكسَّرْتُ قواعدَ اللغةِ تكسيراً وأنا أتحدثُ إليكمْ، نِكايةً بالطريقةِ التي درسونا بها القواعد. لكنْ، المذيعُ يتعاملُ مع القواعدِ بشكلٍ عجيب: يكرهُها، ولكنَّهُ حريصٌ عليها. المذيعُ الذي يقرأُ نشرةَ الأخبارِ إذا غَلِطَ في القواعدِ تَراهُ اضطَّربَ، واختلَّ توازُنُ نشرتِه. ولا يزالُ يعُكُّ عكَّاً حتى ينتهيَ منها. المذيع يَعُدُّ إتقانَه القواعدَ رأسَمالِه وشرفَه وعِرضَه المِهْني.

عزيزيَ المستمع.. أعودُ بك إلى حكايةِ المدارس. بعضُ الناسِ يتصورونَ أن المدارسَ مكروهةٌ هكذا.. بدونِ سبب. خِلْقَةً: المرضُ مكروه، وأن تسقط من الطابق الرابع وتقَعَ على أمِّ رأسِك مكروه.. شيءٌ طبيعي. والمدارسُ مكروهةٌ.. طبعاً.

لا. ليس طبعاً.

هناك مدارسُ يتشوقُ التلميذُ أن يذهبَ إليها. التلميذُ في هذه المدارسِ العجيبةِ يأتي عليه يومُ الخميسِ فيستريحُ.. ثم الجمعةُ.. ويستريح.. وفي مساء يومِ الجمعة يتعجّلُ أن تطلُعَ شمسُ اليومِ التالي شوقاً للذهابِ إلى المدرسةِ، ليلقى أصحابَه وليستمتعَ بدروسٍ يفهمُها، ويدركُ أنها مفيدة. المدرسةُ التي ليس فيها ترهيبٌ موجودة.. لكنْ ليسَ في بلادنا. أما المدارسُ في بلادنا فهي مكروهةٌ ليسَ لأن التلامذةَ مجانين. ولكنْ لأن المدارسَ.. غلط في غلط.

٣٩ النجار العوَّاد

عزيزي المستمع، لي جارٌ عوَّادٌ يشتغل نجاراً، يغني فقط لفريدِ الأطرش. ويغني فقط لنفسِه. أسمعُ صوتَه جميلاً مطرباً يأتي من بعيدٍ في ليالي الصيف. فإذا زرتُه، جلسنا وشربنا الشايَ وتحدثنا. ولكنْ.. لا غناءَ ولا عزف.

ذاتَ مرةٍ قال لي: أنت غريبُ الأطوار. لماذا لم تطلبْ مني أبداً أن أعزفَ أو أغنيَ لك. قلت له: لا أظنُّك تفعلْ. قال لي: صحّ، واللهِ صحّ. لكنْ مع ذلك.. كلُّ الناس يطلبون مني وأردُّهم خائبين، ولا ألبّي طلباتِهم. أما أنت فلم تطلبْ قط. قلتُ له: واليومَ لن أطلب. لكنْ.. لماذا ترفضُ أن تغنيَ وتعزفَ للناس؟ قال لي: فعلتُ ذلك في أيام الشبابِ مراتٍ قليلةً، واكتشفتُ أن الناسَ لا تحْسِنُ الاستماعَ أبداً. يريدون منك أَن تعزفَ وتغنيَ حتى تتيحَ لهم هُمْ الفرصةَ كي يُغنُّوا. ما إن تبدأُ بالغناء حتى يرفعوا أصواتَهم بنهيقٍ بشعٍ ويرافقوك، وتعلو أصواتُهم على صوتك. وإذا غنيتَ لهم أغنيةً لا يعرفونها انصرفوا عنك، وبدأوا بالحديثِ والتنكيت.

ثم تنهَّدَ صاحبي، وشكا شكوى مرةً من قلةِ ذوقِ الناسِ ومن فسادِ حسِّهم في الموسيقى.

ثم نظرَ في وجهي نظرةً ذاتَ مغزىً، وقال: ماذا تريدُ أن تسمع؟ قلت له: أريد أن أسمعَ شريطاً تضعُهُ في المسجل. أيَّ شريط، لا يهُمّ.

امتُقِع لونُه، وفوجيء. كان يظنُّ أنه قد منحني شرفاً عظيماً إذ قَبِلَ أن يغنيَ أمامي. ولكنه لم يكنْ يعرفُ أنني أُشبهُهُ في هذه الناحية. فمثلما يكرهُ هو أن يغنيَ للناس، أكرهُ أنا أن أسمعَ أحداً يغني أمامي.

وضعَ جاري العزيزُ شريطاً في المسجل، وعاجلني بقهوةِ «مع السلامة».

وكان الفنجانَ الأخير. لم نعدْ نتزاور. أعتقدُ أن أيَّ علاقةٍ بين المغني والجمهور.. غلط في غلط.

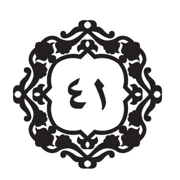


٤٠ ضيافة إجبارية

عزيزي المستمع، يدخل أحدهم المحْمَصْ حيث تُباعُ المكَسَّرات. يطرح السلام. السلام عليكم.. وعليكم السلام.. ويقفُ منتظراً حتى يبيعَ صاحبُ المحمص الناسَ الذين جاءوا قبله. وبينما هو ينتظر يمدُّ يدَهُ إلى الفستق الحلبي ويتفحَّصُه: ويذوقُ فستقةً. هدفُه شريف.. يريد أن يتحقَّق من طزاجة الفستق. يرمي القشرتين أرضاً. وقد شاء ربُّك أن تكون الفستقة الحلبية ذات لب واحد وقشرتين اثنتين. ثم يكمِشُ بيده كمشةً ويأخذ بتسلية نفسه. وهل عليه لوم؟ فصاحب المحل يؤخِّرُهُ ولا يبيعه.. وهو يتسلَّى حتى يحينَ دوره.

ثم إنه لا يريد أن يتسلَّى بفستق العبيد، ولا ببزر البطيخ. لا بد من الفستق الحلبي. صاحب المحل يشْزُرُه ولا يقول شيئاً. ولكنَّ صاحبنا لا يرحمُ صاحبَ المحل، بل يفتح معه حديثاً. ويكون حديثاً أهون منه ضربُ الخناجر.. يقول له: يا أخي في الزمانات كان يأتي للبلد فستق حلبي حبَّتُه «هَهْ»، يعني كبيرة. أما الآن فكل شيء تغير. يقول هذا وهو يفصفص ويتفتف. صاحب المحل ساكت.. ويشدُّ على أسنانه.

عندما يأتي دورُ صاحبنا لكي يشتري فهو يطلب ما يريد. طبعاً تتوقع عزيزي المستمع أن أقول لك إنه طلب شراء نصف أوقية من بزر البطيخ. لا.. ليس صحيحاً. طبعاً النهاية يجب أن تكون بعكس ما تتوقع. لقد اشترى صاحبُنا من هذا ومن ذاك.. والمخلوطة الفلانية.. والتشكيلة الفلانية. قد اشترى كثيراً. لكن مع ذلك ظل صاحب المحل مغتاظاً.. وظل يعتقد أن الوضع غلط غلط.



٤١ رجل كشَّرَ الزمن في وجهه

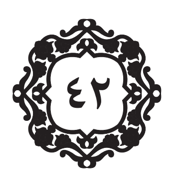
عزيزي المستمع، هذه حكاية رجل كشَّرَ الزمنُ في وجهه. كان في الستينَ من عمره تقريباً، نحيفاً، يسير بطيئاً. و«يَرْكِزُ» في دكان كنافة في السوق. يجلس إلى الطاولة صامتاً.

كانوا يقولون إنه عبقريٌّ في الرياضيات. كان يأتيه بعض الطراشين والدهانين فيُكَيِّل لهم وَرْشاتهم.. يُحضِرون له القياسات الطولية ويحسُبُها لهم بالأمتار المربعة. لكنَّ هذا لا يحتاج إلى عبقرية. على أن بعض الطلبة شهدوا - وحلفوا - أنه كان يحُلُّ لهم أيَّ مسألة بلا ورقة ولا قلم.

كأنما داهمه الاكتئاب في هذا العمر. صمته كان مؤلماً، أكثرَ إيلاماً من بَدْلَته التي أثَّر فيها الزمن بُقَعَ زيتٍ وفُتوقاً واهتراءاتٍ هنا وهناك. لكنه لم يتعودْ أن يخرُجَ من بيته بدون بَدْلَة. كانت نفسُه عزيزة.. ولم يكن يأخذُ من أحدٍ مالاً لقاءَ خدمة. لم يكن يعطي دروساً خصوصية، ولا كان له تقاعدٌ ينتفع به. كان يعيش مع أختٍ له في بيت العائلة. كانت تشتغل خيَّاطة. وكانت بخيلة.

في أيامه الأخيرة.. كان ربما أكل في يومه خبزةً مع ملحٍ وزرٍّ بندورة. وربما حلّ عليه الظلام ولـمَّا يضعْ في فمه شيئاً.

عندما وجدوه ميتاً في غرفته.. وجدوهُ نائماً في سريرِه ويدُه مُدَلاَّةٌ إلى جانب السرير بداخل «مرتبان» المخلل.. والمرتبان فارغ.. لعله مات جوعاً. الرجل الصامت المكتئب مات. وبعد موته صار ذكاؤه أسطورة في البلد. ألم يشعر بحاله أي من الأثرياء، وكانوا يعرفونه؟ لكن الأثرياء الذين يعطون قليلون، وهؤلاء القليلون يُعطون إذا سُئلوا فقط. وهذا غلط غلط.



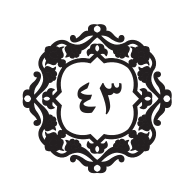
٤٢ صرفوه بعد حصة تجريبية

عزيزي المستمع، إليك قصة حقيقة.. أنا أحيانا أروي قصصاً سمعتُ بها، وقد أقولُ لك إنني غيرُ متأكِّدٍ تماماً إن كانت صحيحة. قصتي اليوم صحيحة.

مدرسةٌ خاصة جيِّدة، أرادت أن توظف معلماً. قيل للمعلم إن عليه أن يُلقيَ حصة تجريبية أمام الطلبة. دخل المعلمُ ودخل معَه مديرُ المدرسة. ولم يصبر المديرُ الخمسين دقيقة حتى ينتهيَ الدَّرْس. بل قاطع المعلم من منتصفه وقال له الكلمةَ القاسية: يعطيك العافية.

أيَّةُ عافية! ذهب المعلم إلى بيته.. وما أتمّ أسبوعا حتَّى أصيب بجلطة ومات. أنا متأكد أن هذا المعلم كان واقعاً تحت رهبةِ الموقف. أنا متأكد أن هذا المعلم كانَ سيكونُ معلماً جيداً لأنه شخصٌ حساس. والإنسان الحسَّاس غالباً ما يشعرُ شعوراً عميقاً بمواضع التقصير عنده، وكثيراً ما يقودُهُ هذا إلى معالجتها وإصلاحها.

هل تعرفُ عزيزي المستمع كيف مات أبو النحو العربي، وأكبرُ عبقرية في علوم اللغة العربية: سيبويه. إن لم تكن تعرف فاعلم أنه خاض مُناظرةً مع الكسائي، وكان الذين في المجلس ضدَّ سيبويه، فحكموا للكسائي عليه. فخرج سيبوبه مغلوباً حزيناً. ولم يذهب إلى البصرة بل ذهب إلى قريتِه، ومات حزيناً مهموماً. لعله ماتَ بالجلطة أيضاً. والآن يتداولُ النحاة تلك المسألةَ اللُّغَويَّة التي مات بسببها سيبويه، واسُمها بالمناسبة عجيب، اسمها المسألةُ الزُّنبوريَّة، ويقولون: كان سيبويه على حق. ونحن نقول كان سيبوبه على حق.. وأما الكسائي.. ومدير المدرسة فتصرفهما غلط غلط.



الثلاسيميا

عزيزي المستمع، إن كنت سمعتَني سابقاً فأنت - والحمدُ الله - تعرفُ أنني أتكلمُ دقيقتين في هذا البرنامج ثم أسكت. وتعرفُ أنني لا أعطي المعلومات ولا حتى الآراء. أنا فقط آخذُكَ جولةً سريعةً بالباص، ثم أعيدُك إلى نفس المحطة التي انطلقتَ منها، فلا أنتَ حصلتَ على توصيلة، ولا نالكَ شيء إلا الصعودَ إلى الباص ثمَ النزولَ منه.

ودفاعي عن نفسي هو أن برنامجي دقيقتان. وهناك برامجُ تطولُ وتبلغُ الساعةَ أحياناً، وتكونُ أيضاً مثلَ رحلةِ الباص المذكورة. وقد سمعتُ بعضَ هذه البرامج وكانت في موضوع الصحة. ولكنني التقيتُ مؤخراً بطبيب معروف في مجال خدمةِ المجتمع هو الدكتور بشار الكرمي صديقُ مرضى الثلاسيميا، وشرح لي في دقيقة حكاية هذا المرض. فقلت له: هذا كلام جديرٌ بأن أسرقه وأضعَه في برنامجي.

الثلاسيميا خلل في تركيب الدم ينتقل بالوراثة. والعلاج هو تبديل الدم شهرياً.

والتكلفة: ألفُ دولار كلَّ شهر لكل مريض. عندنا في فلسطين سبعُمئةِ مريض تقريباً. لكنَّ هناك طريقةً للحيلولة دون ظهور المرض أصلاً.

في فلسطين هناك مئةُ ألفِ رجل وامرأة عندهُمُ استعدادٌ للثلاسيميا.. ولكنهم ليسوا مَرضى . فقط عندهم قابلية. وإذا تزوج رجل منهم امرأةً منهم أيضاً.. أي كان عند الطرفين الاستعداد.. فعندئذ هناك احتمالٌ بخمسة وعشرين في المئة أن يكونَ الطفلُ الذي ينجبانِه مصاباً بالمرض إصابةً حقيقية. والحلّ؟ الحل يكلف عشرة شواقل. أن يفحصَ الخطيبُ والخطيبة الدم. فإذا كان أحدهما بالصدفة عنده استعداد للثلاسيميا.. فلا بأس، وإذا كان الاثنان عندهما استعداد.. وهذا احتمال بعيد جداً.. فعندئذ خيرٌ لهما وللمجتمع أن يتودَّعا، وأن يبحث كلٌّ منهما عن شريكٍ آخر.

عزيزي المستمع، بما أنني قررت في هذه الحلقة من البرنامج أن أكون - على غير العادة - مفيداً، فأنا أنصحُ الخاطبين في هذا الصيف، ألا يبخلوا بالعشرة شواقل. وأما الذي يريد أن يتوكَّل
دون أن يعقِلَها فقد يغلط.. غلطة عمره.

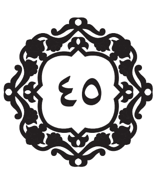
٤٤ جدول الضرب

عزيزي المستمع، جدول الضرب مهم في حياتنا. يسمونه جدول الضرب لأن ملايين التلاميذ في كل العالم ضُربوا كثيراً من أجله. على الأقل هذا هو تفسيريَ الشخصيُّ للتسمية. وجدول الضرب يَلزَمُك في حياتك. إذا قال لك البائع إنَّ كيلو البطاطا بسبعَة، والرطلَ بعشرين، فعليك أن تحسُبَ كمْ توفرْ. ثلاثة في سبعة يساوي واحداً وعشرين.

كلُّ واحد فينا عنده مشكلةٌ في مكان مَّا في جدول الضرب. أنا لا أعرف كم ثمانية في تسعة، ولا كم سبعة في ثمانية. ولن أعرف ذلك أبداً. راحتْ عليّ. أقترحُ على معلمي الحساب تحفيظَ جدول الضرب بواسطة قراءةٍ منغمة.. فهذا أسلوب ناجح في نظري. جدولُ الضرب ليس فيه فهم ولا تحليل. حفظ فقط. والصغار في الصف الخامس

والسادس يحفظون الأناشيد والأنغام. ولا بأس بتلحين جدول الضرب وتلقينه لهم.

رأيت مرة في ساحة عمارتنا مجموعةَ أطفال، في سنِّ خمسٍ سنوات وعشرٍ وما بينهما، قد جلسوا في حلقة يغنّون أغنية: «آلو.. بابا فين»، وسمعتُهم من الأولِ للآخر. غنَّوْها غناءً متقناً. كانوا يحفظون الكلماتِ واللحنَ بشكلٍ مدهش. وكنَّا ونحن صغارٌ نحفظ الأغاني الهندية، ونردِّدُ كلماتها، ونحن لا نفهم منها شيئاً. وأنا حتى الآن أردد أغنية (تيري منتي غامنا) بكفاءة معقولة. ولو كان ملحِّنٌ تربوي قد صنع لحناً لجدول الضرب لما كانت عندي اليوم مشكلة. لكنَّ هناك في مجال التربية في هذا الزمن ناساً يرفضون الحفظَ والتلقينَ مطلقاً، ويصرُّون على أن التعليم لا يتم إلا عن طريق الفهم، وهذا في رأيي غلط غلط.

 امرأة وزوجها.. وأهل القرية

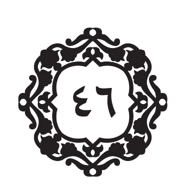
عزيزي المستمع، اِسمع قصةَ هذه القرية الظالمة. ولكنني أبدأ الحكاية من المدينة. أخذَ الرجل النصَّابُ وزوجتُه النصَّابة يستعدَّانِ للنَّصْبَة القادمة.. ولم يعرفا أنَّ القريةَ التي يريدانِ الذهابَ إليها ستجعلُهما يندهشان.

في البداية ذهبت الزوجة (واسمها خديجة) إلى القرية. واستأجرت غرفةً، وقالت إنها تقوم بدراسةِ عادات الناس لأنها تحضِّر شهادةَ الدكتوراه في علم الاجتماع. خديجة في الثلاثينَ من العمر. ولكنها عندما ذهبت إلى القرية وضعت مكياجاً محكماً.. وتجاعيد، وبدا وكأنَّ عمرَها خمسون سنة. بعد مدَّة جاءَ الزوج إلى القرية واستأجر غرفةً أخرى في حارة أخرى. وأعلنَ أنه يكتب حِجاباً يُعيدُ العجوز إلى سن الشباب. وانتشرَ الخبر في القرية. وصارت خديجة تشكِّكُ في صحة أقواله وتتحدث مع نساء القرية، وتقول إن هذا مستحيل. من هو هذا الرجل الدجال؟ ثم قالت لهن خديجة إنها قررتْ أن تجرِّبَ، وتفضحَ أكاذيبه، وشجعتْها نساءُ القرية.

ذهبت خديجة مع بعض النسوة إلى غرفة الرجل الغريب - طبعاً هو زوجها، ولكنَّهن لا

يعرفنَ ذلك – وكتبَ لها حجاباً، وضعتْه في حقيبتها، وأعطت الدجَّال الدنانيرَ المطلوبة.

في اليوم التالي أزالت خديجةُ بعض الماكياج.. وفي اليوم الذي يليه أزالت المزيد. وفي اليوم الثالث شعرت كلُّ النساء بالفرق. خديجة رجعت عشرين سنة إلى الوراء بفضل ذلك الحجاب. عجائزُ القرية صِرْنَ يذهبْنَ إلى غرفة الرجلِ الغريب. وكل واحدة تقول له: أنا لا أريد حجاباً، ولا أريد أن أصيرَ في عمر الشباب. لكن خذ العشرةَ دنانير وعندما تأتي عندك جارتي أمُّ فلان أكتب لها حجاباً مزوَّراً. ربح النصاب مئات الدنانير من نساءٍ لا يُرِدْنَ الخيرَ لأنفسهن، ولا يردن الخير للآخرين. ثم في خلال أيام ترك القرية هو وزوجته. خاف أن يخسفَ الله القرية على أهلها لما عندهم من حسد. وقال لنفسه: رغم أن كل عملي غلط، فأهلُ هذه القرية غلط في غلط.



٤٦ السور المهدوم، ومجلس التفاهم

عزيزي المستمع، نقرَ رأسي هذا «الباغِر» وهو يحفر الشارع. والباغر كلمة جديدة على قاموسي. كنا نسمع، ونحن في سن الشباب، صوت «الكومبريصة» تحفر الشوارع، وكان صوتاً مزعجاً أيضاً. ما علينا من هذه التطورات التكنولوجية، والملاحظات اللغوية. المهم أن الباغر لم ينقر رأسي فحسب، بل نقر سور البيت أيضاً. وكلَّمتُ الرجل الذي يشتغل على الباغر، فقال: أنا رجل شغِّيل. كلِّمْ جارَك الذي طلب مني أن أُوصل بيتَه بشبكة المجاري. كلَّمتُ الجار فقال لي إنه غير مسؤول. ثم بعد ذلك كلَّمني صاحِبُ المِلْك الذي أسكنُ عنده، وقال لي إنَّ تصليحَ السورِ عليّ. فطلبتُ منه أن يكلِّمَ الجار كلامَ مالِكٍ لمالكْ. فلم ينفعْ شيء من ذلكْ. قلنا نذهب للقضاء ليحلَّ المشكلة: فقالوا: هذا يأخذ سنتين، ويكلف مالاً كثيراً.

فجمعنا رجالاً من أهل الحيّ وعقدنا مجلساً للتفاهم. وفي المجلس تم توزيعُ المسؤولية بالتساوي، فصرت أنا وصاحبُ البيت والجارُ وصاحبُ الباغر مذنبين.

اكتشفت في بحر الأسبوع الماضي منذ حدوث المشكلة أن مالك بيتي ليس عنده

ترخيصٌ ببناء السور، وأنه تعدى بمقدار شبرٍ على الرصيف، وأن البلدية أنذرته منذ ثلاثِ سنوات، ولم يفعلْ شيئاً. واكتشفت أن صاحبَ الباغر ليس معه رخصةُ للباغر، الذي يشبه الجرَّافةَ في شكله. واكتشفتُ أن الجار لم يأخذ ترخيصاً بحفرِ الشارع.

أما أنا - المذنب الرابع- فمعي عَقدُ إيجار، وأنا أدفع بانتظام. ولكنني أنا الوحيد بينهم الذي خرج برأس منقور وسور منقور. أولَ أمس دخلتِ الغَنَماتُ إلى الحديقة، وأكلنَ من الورد والدوالي ما شئن قبل أن نطردهن. ما أكثر الغلط في هذه الدنيا.. كل شيء غلط في غلط.



٤٧ عذر أقبح من ذنب

عزيزي المستمع، احتار هارون الرشيد يوماً في معنى قولهم: ذاك عذرٌ أقبَحُ من ذنب. وسأل شاعرَه أبا نواس: «هل عندك يا أبا نواس مثالٌ على عذرٍ أقبح من ذنب». فكَّر أبو نواس مليَّاً، ولم يجد جواباً. وبعد ساعة خرج أبو نواس يتنزه مع هارونَ الرشيدِ في الحديقة. مَدَّ أبو نواس يدَه ووضعَها على كَتِفِ الخليفة. فانتفض الرشيد وقال له: ما الذي تصنعُ أيها الماجن؟ فقال له أبو نواس: عفواً يا أميرَ المؤمنين، ظننتكَ زُبَيْدة. (وزبيدة هي زوجةُ الرشيد). فنادى الرشيد على الحرس حتى يقبضوا على أبي نواس. فقال أبو نواس: يا مولاي كان ذنبي أنني وضعت يدي على كتفك، وكان عذري أنني لم أقصدك أنت بل ظننتك زبيدة، وأردت وضع يدي على كتفها. ففهم الرشيد كيف يكون العذر أقبح من الذنب. قصة موضوعة، إليك الآن قصةً حقيقية.

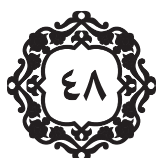
معلمةٌ في مدرسة من المدارس. دخلت الصفَّ غاضبة. ثم فجأة قالت للتلميذات: سمعت صوتَ تلفونٍ محمول. من أين أتى الصوت؟ لم تُجِبْ أيةُ تلميذة بكلمة. فطلبت المعلمة من الجميع فتحَ الحقائب. وفتشت كل الصف. وجمعتْ عدداً من التلفوناتِ المحمولة، وأشياءَ خصوصيةً أخرى كعُلَبِ الزِّوَاق، حسب تعبير أمِّي، أو علب مِكّي بحسب تعبير جدتي (ألا يقول المثل «لولا علبةُ مِكّي كانت الأحوال بتبكي») أو علب الماكياج

حسب تعبير زميلاتي، أو علب الميك أب حسب تعبير تلميذاتي، ولكل جيل تعبير.

المهم بعد أن فعلت المعلمة ذلك، بدت عليها بشائر الانتصار، ووقفت أمام الصف وقالت: أنا في الواقع لم أسمع رنة تلفون، ولكن أردت أن أكتشف ما الذي في حقائبكن.

أليس هذا العذر أقبح من ذلك الذنب؟

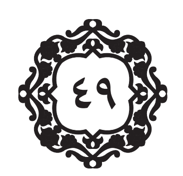
هذه معلمة تتفاخر بأنها متعسِّفة، وأنها كذَّابة، ولماذا؟ حتى تقوم بعمل شنيع آخر هو تفتيشُ الحقائب والتجسس.. هذا غلط غلط.



٤٨ تزلف الموظفين

عزيزي المستمع، الإنفلونزا لا تستأذنُك. وقد تحُلُّ بك ضيفةً في أصعب الأوقات. وقعتُ بيدِ الإنفلونزا وأنا في بلد بعيد. كنت أُنسِّقُ عملية بث إذاعي مشترك بين إذاعتِي التي كنت أشتغل بها آنذاك، وبين إذاعة رسمية في دولة عربية. جلست في الاستديو ومعي مسؤولٌ من الإذاعة التي حللنا بها ضيوفاً. وبدأ البرنامج المشترك.. كان ذلك منذ سنوات عديدة، ولم تكن الاتصالات سهلة كما هي اليوم. كان علينا أن نبذل الجهد الكثير في الشبك والوصل (وهل تسمعني)، (وأسمعك جيداً).. (يبدو أن الاتصال قد انقطع) الخ، المهم أنني وسط كل هذه المعمعة كنت لا أكاد أتماسك من الإنفلونزا والحُمَّى. والتفتُّ أبحث عن زميلي المسؤول من الإذاعة الشقيقة فلم أجدْه. احتجت إلى مساعدته.. فهو أدرى بأمور كثيرة، ونحن نبث من إذاعته.. أرسلت أحداً يبحث عنه. لم يجده.. وحاولت تسيير الأمور بقدر استطاعتي.. وأخذ بعضُ الفنيين في المساعدة. وبعد انتهاء العملية بنجاح اكتشفتُ أن زميلي ترك البرنامج ليس لأنه مريض مثلي، وليس لأنه أصيب بسكتة قلبية وليس لأنه - أجلّكم الله - محتاجٌ بسرعة إلى بيت الخلاء (أقصد الحمام). وليس لأن خبراً وصله بوفاة قريب له. أبداً، لقد ترك العمل في أدقِّ اللَّحظَات.. لأنَّ وزيرَ الإعلام حضر إلى الإذاعة، فذهب صاحبُنا ليجلس مع الوزير في مكتب مدير الإذاعة. جلس

المسؤولون الكبار والصغار جميعاً حول السيد الوزير يستمعون إلى إرشاداته القيمة. وعندما أنهيت عملي أتيت إلى غرفة مدير الإذاعة وسلَّمت على الوزير، وانصرفت. بعد أربع سنوات تقريبا عدتُ إلى البلد نفسه في مهمة مختلفة، ومررت على الإذاعة الرسمية للتسليم على مديرها. قادوني إلى غرفة المدير، وجدت أن المدير قد تغيَّر. لقد صار مديراً للمحطة نفسُ صاحبي المهمِل الذي ترك عمله في أدق اللحظات وتفرَّغَ للنفاق.. صار ذلك الشخص مديراً للإذاعة، أغمضتُ عيني لحظة قبل أن أطرح السلام، وتمتمت بصوت خافت غلط غلط.



قاع الطنجرة يخرج عن صمته

عزيزي المستمع، عرفتُ رجلاً في بلدٍ من بلادِ الخليج. اشتغلنا معاً في دائرةٍ حكومية، في الزمن الذي كانوا يشغِّلوننا فيه في الحكومةِ هناك. كان ذلك الرجلُ عصيَّ الابتسامة. إن ضبطَ نفسه متلبِّسا بابتسامة ندمَ وتراجعَ وسحبَ البسمةَ من عن وجهِهِ فتذوب. وجهُهُ: يا ساتر.. كئيبٌ كجريدةِ أمس. فيه توجُّعٌ وسخطٌ كأنه طنجرةُ المقلوبةِ وقد احترقَ في قاعِها ما احترق، والتصقَ بأرضِها ما التصق، وصارت تُنذر أهلَ البيتِ بشرٍّ مستطير: (فها هو الرجلُ قد عصَّبَ على كيلو اللحمْ، الذي تحولَ إلى فحمْ، وها هي المرأةُ تحلفُ أنَّ هذه هي طريقةُ الطبخِ الصحيحة، وها هو الولدُ ذهب ليتغدّى عندَ عمتِه، وها هي البنتُ تقول إنها أفطرتْ متأخرةً ثم تذهب إلى غرفتها.)

أنت طبعاً، عزيزي المستمع، تلاحظ أنني ما زلت أصفُ زميلي أبا نَكَد.

ليتَه كان كثيرَ الكلام، فهذا يخففُ البليَّة. كان كثيرَ الصمتِ، مستهزئاً بكل شيء.

ذاتَ يوم جَمَعنا المدير للتباحُثِ في مسألة. ووردَ ذكرُ موظفٍ لم يكن حاضراً ذلك المجلس. أحدُ الزملاءِ هزَّ رأسَهُ، وطَعَنَ في الزميلِ الغائبِ بكلامٍ ناعمٍ مملوءٍ بالسُّم. زميلٌ آخرُ تبسَّمَ، وهزَّ رأسَه وقال ما معناه أنَّ الزميلَ الغائبَ لا ينفعُ لشيء. وعندئذٍ، وبكلِّ برودِ أعصاب، خرجَ زميلي النَّكِدُ، قاعُ الطنجرة، عن صمته.. وَنَطَق.

وبكلماتٍ بسيطةٍ دافعَ عن الزميلِ الغائب. فكأنه أَلْقَمَ الآخرينَ حجراً. قال كلمةَ حقٍّ.. وفي مكانِها. وقالها ببرود، وبدون مبالغة.

من يومِها وأنا أراه من أحسنِ الناس. ومن يومِها وأنا أعتبرُ الحكمَ المتسرعَ على الناسِ.. غلط غلط.

٥٠ الذي سرق كيلووَطّاتي

عزيزي المستمع، لا يمكنني في هذا البرنامج أن أتحدث عن شخص أعرفه ويعرفني. فالناس يسمعون البرنامج - أو هكذا أتخيَّل - ولا أريد أن يراجعني فلان وعِلاَّن. ولكنني طبعاً لا أخترع المواقف. وكلُّ شيءٍ أقولُه وَقَعَ وحدث. لكنْ يكونُ قد حدث في الماضي وفي بلاد أخرى، وأحيانا أُدخِلُ تعديلاً طفيفاً. فلو أردتُ (مثلاً) أن أحدثكم عن جاري سعيد الذي كان يسرقُ الكهرباء من ساعتي، فأنا أقول إن اسمَه محمود مثلاً أو أسعد.

لقد دفَّعني المالَ الكثير سعيدٌ هذا. طبعاً أنتم الآن غيرُ متأكدين إن كان اسمهُ سعيداً أم مسعوداً. ولكنّ هذا غير مهم. سعيد كان «آدميَّاً» لا يسرقُ شركةَ الكهرباء، لقد مدَّ سِلْكاً أحمر وصار يسرِقُ مني أنا. ولا تبالغْ عزيزي المستمع في الشك، ولا تظنَّ أن السلك كان أصفرَ أو أزرق. كان أحمر.. وحتى – بالأمارة – أحمر على بنِّي قليلاً. عندما جاءتني الفاتورة بعد الفاتورة بالمبالغ الباهظة نزلت إلى خِزَانة ساعات الكهرباء في أسفل العمارة في الليل، وبيدي مصباح بعد أن أطفأت كلَّ شيء كهربائيٍّ في البيت.. وجَّهتُ المصباح إلى ساعتي.. ويا ويلي من منظرها.. كانت تركض كالمجنونة، ورأيت السلك الأحمر يتسلل كالثعبان إلى ساعتي. قلت لسعيد عن الوضع، فادَّعى أنه لا يعرفُ شيئاً. أحضرتُ كهربائياً فأصلح الوضع، وأكَّدَ لي أن سعيداً كان يسرق كهربائي. وفي اليوم التالي عندما التقيت بسعيد في المصعد قال لي مساءُ الخير ببرود. وكأن شيئاً لم يكن. قلت: مساءُ الخير. وقلت بصوت منخفض لنفسي: غلط غلط.

٥١ مكالمات لتزييت العلاقة

عزيزي المستمع، تسمعني مراتٍ كثيرةً أبدأ حديثي بالقول إن صديقاً لي كان من شأنه كذا وكذا. وطبعا أنا أحدثك بالتفاصيل الدقيقة، وليزعل من يزعل. واليوم أحدثُك عن فئةٍ من الأصدقاء.. عرفت منهم على مدى السنوات الماضية خمسةً أو ستة. يرفع الواحدُ منهم سماعة الهاتف ويقول: هلو. ثم يسأل عن الصحة، وعن الأخبار، وعن الأشغال.. ثم يعود وبلهجة متحمسة. ويسأل عن الصحة.. وعن الأخبار وعن الأشغال. وأنا في هذا الوقت أسأل نفسي: ماذا عساه يريد.. وما الحكاية؟ ثم بعد خمسِ دقائقَ يقول: لا أبداً.. والله أنت تعرف.. القلوب عند بعضها.. فقط أردت أن أطمئنَّ عليك. ويودعني هذا الصديق. واكتشفُ أنه لا يريد من المكالمة شيئاً.

هناك نفرٌ من الناس يخصصون في كل شهر ساعة من الزمن. يقعدون فيها على التلفون، ويفتحون دفترهم ويبدأون بالاتصال بالناس.. بدون سبب.. فقط للتذكير بأنفسهم. أو كما قال لي أحدُهم لتزييت علاقاتهم الاجتماعية. ما أقبح تزييت العلاقات! أنا من الجيل القديم فيما يتعلق باستعمال الهاتف. أعتقد أن له قدسيةً خاصة. وأن استخدامه يجبُ أن يكون لغرض. واعتقد أن الغرض يجب أن يقالَ فوراً. وأما تضييع وقت الناس وتزييتهم بالكلام اللزج فهو غلط غلط.

٥٢ أبو فلان

عزيزي المستمع، بعض المسؤولين ربُّوا عندي عقدة. كلُّ الناس يخاطبونهم «أبو فلان». وقد نكون نتحدث فيردُ اسم المسؤول الفلاني أو الفلاني بالكنية.. وأنا طبعا مطالب أن أعرف أسماء أولادهم.. حتى أعرفَ عمّن يدور الحديث. المسؤول قريبٌ من الشعب.. وحَبُّوب.. واسمه ليس معالي كذا وكذا بل أبو فلان.. وبعد ذلك يغلط المسؤول..

ويُهمل.. وأشياءُ أخرى تعرفونها.. وعلينا أن نمسحَ كل هذه الأغلاط.. ونغفرها.. ولماذا ؟ لأن أبا فلان هو أبو فلان.. أخونا وحبيبُنا. ما أجدرنا أن نتخلى عن تراث الأبو فلان، ما أجدرنا أن نتعامل مع المسؤولين بشكل رسمي، وأن نحاسبَهم بشكل رسمي.

مشكلتي مع بعض المسؤولين أنني أريد أن أخاطبهم بعبارة سيادة كذا أو حضرة كذا.. ثم لا تخرج الكلمة من حلقي، لأني أرى المسؤول لا يستحقها. تعرفون ما الذي أفعله؟ لا أجد حلاً إلا أن أقول له : يا أبا فلان. أعود وأرتكب هذا الشيء الذي أكرهُه جداً.

أنا في الواقع شخصٌ غيرُ منطقي. وما الغلط في مناداة الشخص بكنيته؟ تقليد فلسطيني قديم عززته الثورة.. وهو إن لم يكن مفيدا فليس ضاراً. أما إذا كان بعض المسؤولين ليس على مستوى المسؤولية، فلماذا الإصرار على أن الغلط هو في الكنية؟ فعلاً أنا اليوم غيرُ منطقي.

عندما انهزمت الجيوش العربية والأمة العربية في حزيران عامَ سبعةٍ وستين احتار المفكرون السياسيون في الأمر. ثم اكتشفوا فجأة أن سبب الهزيمة هو أم كلثوم.. وانتشر هذا التحليل انتشاراً واسعاً. يا سبحان الله.. ما أشطر الناس في ابتكار المبررات. ويسود الفساد فلا يجد بعضهم من سبب له إلا أننا نقول ندعو المسؤولين بكُناهم لا بأسمائهم. وهكذا أكتشفُ في نهاية حديثي اليوم أن كل كلامي غلط في غلط.



٥٣ انتظر ساعة على الذبح.. ودعِ الأطفال يلاعبوه

عزيزي المستمع، الإنسان مخلوق متوحِّشٌ ومنافق. تراه يلاعبُ الخروف، ويسمح لأولاده باللعبِ معه في الحديقة، حتى إنه يصبحُ كأنه ولدٌ منهم يلهو ويركض. وفي يوم العيد يذبحُهُ، ويدعو الأولاد إلى تناول لحمه.

في الجاهلية كان العربي يقول القصائد العصماء في الجمل، فتحسبُ أنه يتحدث عن صديق، فإذا حل به الضيوف عقر الجمل وأطعمهم لحمه. والعَقْر هو أن يضرب الرجُلُ قوائمَ الجمل بالسيف فيقطَعَها، فيقعُ الجمل أرضاً، فتنهال عليه الخناجر. أما قال المثل « إذا وقع الجمل كثُرَت سكاكينه ».

الكاتب الايرلندي جوناثان سويفت له قطعة أدبية في غاية الجمال والبشاعة في وقت واحد. إنه ينصح الإنجليز، الذين كانوا يحتلُّون إيرلندا، بأن يربُّوا الأطفال الإيرلنديين في مزارع ثم يذبحوهم ويأكلوا لحمَهم، وهو في مقالته الساخرة تلك يبالغ في وصف لحم الأطفال بالطراوة والطِّيب. طبعا هذا الكاتب كان ساخراً في لهجته. كأنه كان يقول للإنجليز وصلتْ بكم الوحشيةُ والظلم إلى حد لم يبقَ معه إلا أن تأكلوا أطفالنا. لقد كتب سويفت هذه القطعة الأدبية وهو يقيم في إنجلترا. وكان لها صدىً كبير.

إن الظلم الذي يقع على الفلسطينيين شبيه بما وقع على الإيرلنديين. كان المؤرخون يتوقعون أن تبتلع إنجلترا إيرلندا وأن يذوب الشعبُ الإيرلندي. وعلى مدى عدة مئات من السنين صمد الشعب الإيرلندي، وحافظ على وجوده وعلى أرضه، وصارت إيرلندا دولة مستقلة. الانهزاميون يتوقعون أننا سنعجز عن ذلك. نرجو أن يكون ما يتوقعونه غلط غلط.

٥٤ آداب المهاتفة، وورطة سكرتيرتين

عزيزي المستمع، من آداب استخدام الهاتف أن تقطعَ المكالمة فوراً إذا كان الخط مشوَّشاً. اِرحم الطرف الآخر من حكاية «سامعني.. هالو.. هالو.. والآن هل تسمعني. الإرسال سيء.. الخط مشوش.. ارفع صوتك». لماذا؟ ودِّع، واسكت.

ومن آداب الهاتف ألا تفعل ما يفعله الثقلاء: يرفع أحدهم السماعة ويبدأ بالتحية والسلام، ويبدأ بالتحزير: من أنا؟ تقول له: لا أعرف. ويقول لك: احزر.

عزيزي المستمع، إليك كلمة تحذير إن كنت تعرفني، أو إن كان بيني وبينك ألو. إياك أن تصنعها معي! فسوف تسمع قَوارِعَ الكَلِمْ، وسوف تندم.

ومن آداب الهاتف، أقصد: من سوء آداب الهاتف، أن تطلب شخصاً على الهاتف في مكالمة شخصية بواسطة سكرتيرتك. أنا أفهم هذا فقط لدواعي العمل.. يأتيني صوت السكرتيرة وتقول لي: فلان يريد أن يكلمك والسلام. أما أن تتركني انتظر، وتسكبَ في أذني نغمات موسيقية سخيفة فهذه غلطة قبيحة بحق الأدب. مكانتُك أيها المدير لا ترتفع عندما «تلطَعُ» الناس على التلفون. المديرُ الجيِّد لا يفعلُ هذا.

حدثتْني سكرتيرةُ مديرِ مؤسسة بقصةِ مكالمة هاتفية. جاءها تلفون: هلو مَنْ؟ وإذا بها سكرتيرة مدير مؤسسة أخرى. طلبت السكرتيرة الثانية أن تتحدث مع المدير حتى يكلِّمَه مديرها. فقالت السكرتيرة الأولى: أعطيني مديرك وأنا أحوِّلُه. فقالت الثانية: لا، أنت أعطيني المدير، وأنا أحولُه إلى مديرِنا. ونشأت أزمة دبلوماسية، ولم تتمَّ المكالمة.

منذ مدة وأنا أفكر جدياً بعدم التكلم مع الذين يخاطبونني هاتفياً عبر وسيط، لكني بصراحة أخاف أن يكون وراء المكالمة رِزْقةٌ مُحْرِزة، أو خبرٌ سارٌّ. مع ذلك أقول لكلِّ من يكلمني عبر السكرتيرة: هذا غلط.. غلط.

٥٥ سيخ وهندوس يبحثون عن مكان في الفردوس

عزيزي المستمع، إذا كنتَ متزمتاً في الدين فقد يزعجُك كلامي اليوم، معَ أنه فيما أظنُّ كلامٌ مبنيٌّ على المشاهدة، وليس فيه ما يؤذي. ولكن إذا كنت متزمِّتاً فليس عليكَ ضمانة. قد يؤذيك وَرَقُ الورد، وقد يجرحُ خدَّكَ مرورُ النسيم.

رأيتُ أقواماً من الهندوسِ ومن البوذيينَ ومن السيخ. عايشْتهم في بلدٍ أوروبي، وكنتُ طبعاً أنظر إلى سلوكهم بتوجُّسٍ، وأعاشرُهم بحذر، فأنا لا أعرفُ أديانهم. كانوا في الواقع من الهنود. أي أنهم مختلفون عني في الدين والتربية، وحتى في الشكل. كانوا سُمْراً سُمْرةً تلمع، ذوي بشرةٍ برونزية، وكان لهم جميعاً شعرٌ أملسُ مسحوبٌ سحْباً ربانياً. بعضُهم يأكل اللحم، ومن ضمنه لحمُ الخنـزير، ونحن نأنفُ من ذلك؛ وبعضُهم لا يأكلُ اللحمَ أبداً، وهؤلاءِ بالتأكيد يأنَفونَ منَّا.

كثيرون من أهل هذه الديانات يعتقدونَ بوجودِ حياةٍ أخرى بأشكالٍ مختلفة. ونحن، أهلَ الكتاب، لنا جنةٌ ونار سنذهب إلى واحدة منهما.

من تعاملي مع أهل الديانات الآسيوية رأيتُهم مثلَنا في كل شيء تقريباً، فيهِمُ البخيلُ والكريم، النصابُ والمحترم، المرِحُ الضحوكُ والمقطِّبُ العَبوس. وبناءً على ذلك صرتُ أعتقدُ أنني سأقابلُ هؤلاءِ في الدار الأخرى: في الجنة أو في النار. ولا أعتقد أن اللهَ سبحانه، إذ جمَعنا في الحياة الدنيا، سوف يفرِّقُنا في الآخرة.

بعضُ الناس لا يحبُّ أن يجاورَ أهلَ الديانات الأخرى، لا في دنيا ولا في آخرة. أما الآخرةُ فلا أقول فيها صحٌ ولا غلطْ، لأنها من شأنِ صاحبِ الشأن جل وعلا. أما الدنيا فأعتقد أن تجنُّبَ الآخرينَ، المختلِفين عنَّا، فيها.. غلط غلط.

٥٦ الحج إلى البيت الأبيض

عزيزي المستمع، كان الرئيس الأميركي ليندون جونسون منطلقاً منفتحاً عاليَ الصوت آمراً ناهياً.. ككل رئيس أميركي. زاره ذاتَ يوم في البيت الأبيض رئيسُ دولة (ربما عربية) ومعه وزيران. وعلى مائدة الغداء تناول جونسون الفنجان.. وسكب فيه قليلاً من الشاي.. فما كان من الرئيس والوزيرين الزوار إلا أن فعلوا فِعْلَه. ثم تناول جونسون إناءَ القشدة وصب منه الكثيرَ فوق الشاي، ثم وضع في الكوب قدراً من الزُّبدة وصار يحرك بالملعقة تحريكاً شديداً.. والزوار الثلاثة يفعلون مثله. خطوة بعد خطوة. ثم نظر جونسون حوالَيْه وصار ينادي على كلبتِه فجاءت.. فوضع الكوب على الأرض أمامها. ولعقت الكلبة ما في الكوب بشهية، ولعق الضيوف ما في أكوابهم.

أعتقد أن كلْباتِ البيتِ الأبيض ما زِلْنَ يعامَلن هذه المعاملة.. أمَّا الضيوفُ من العالم الثالث فأَعتقد أنهم لم يعودوا يُدعوْن إلى الغداء. ولهذا يظلُّ زُوَّارُ البيت الأبيض الفقراءُ جائعين. وحتى لو نالوا مساعدات فهي لا تسمن ولا تغني من جوع. وكل مساعدة لا يعرف المرء ماذا سيدفع مقابلها غلط غلط.



٥٧ الألماني الذي أزعجني في براغ

عزيزي المستمع، هذه قصة جعلتني أتعرض لقدْرٍ كبير من الكراهية. اِسمع واحكم. كان هذا في عام ألف وتسعمائة وواحد وثمانين؛ كنا في رحلة دراسية إلى مواقعَ تاريخيةٍ في تشيكوسلوفاكيا. كنا جماعةً من الطلبة من دارسي التاريخ في جامعة دارمشتادت الألمانية. وكنتُ الأجنبيَّ الوحيد. كان هذا في العهد الشيوعي في تشيكوسلوفاكيا. نزلنا في بيت للطلبة. كانت الدنيا صيفاً، ومع ذلك قدموا لنا شاياً ساخنا جداً.. وقدموه في أكواب لم تكن من الزجاج، ولا حتى من البلاستيك بل من المعدِن. كان الكوب ساخناً جداً، فحملته بأن وضعتُ إبهام يدي على حافة الكوب العليا

وجعلت حافة قعر الكوب على طرف الإصبع الوسطى. هكذا لا تلمس اليد إلا جزءاً صغيراً من الكوب عند الحافة العليا والحافة السفلى، فتحتمل سخونته بسهولة. هذه الطريقة يهتدي إليها أولئك الناس الذين جربوا حمل كوب معدِني ساخن.. الفقراء يحملون الكوب المعدني الساخن: هكذا من الحافة العليا والحافة السفلى. صديقي الألماني الذي شاركني الطاولة في ذلك الإفطار جلس بلا شاي.. ثم قال لي: من أحضر لك كوب الشاي؟ استغربت سؤاله، قلت له: أنا أحضرته، قال: كيف؟ أنا لم يخطر ببالي أنه لا يعرف الطريقة. قلت له: هل أحضر لك كوباً؟ فقال: نعم. ذهبت وأحضرت له كوبا. نظر إلي وأنا أحمل الكوب بعينين مستغربتين. قال لي: من دلَّك على طريقة حمل الكوب. قلت له ببساطة: لا أدري! الخنزير.. لم يقدِّر أن الأمر بسيط، وأنه يعود لتجرِبة سابقة. لقد ظنني - أنا العربي - أذكى منه.. هو الألماني الأشقر. وحقدَها علي.. ولم يعد يكلمُني. لست أحب أن يكرَهَني رفيقُ رحلة، ولكنني احتقرت كراهيتَه إياي، بدلاً من الاغتمام منها. ربما كان موقفي غلط، لكن موقفه هو كان بالتأكيد غلط غلط.

٥٨ المغرم بالمعاجين

عزيزي المستمع، إن كنت شاباً وتريد أن تجاريَ زملاءك في كل شيء وأن تلبَسَ مثلَهم، وأن تذهب إلى المقاهي التي يذهبون إليها، فتذكرْ - يا رعاك الله - أن أباك مُسخَّم وأنه على قدِّ الحال.

أحد الشباب المقلدين الببغائيين ذهب مع صاحب ذي مالٍ وجاه و «بي إم فيه».. إلى دكان يبيع أشياءَ عجيبةً من المعاجين والمساحيق المختلفة. مدَّ الشاب الغنيُّ يده إلى رف من الرفوف وأخذ بزَّاز معجون.. فمد صاحبُنا الفقير يده وأخذ بزَّازاً مثله. ثم أخذ الغنيُّ علبة معجون، فمد الفقير يده وأخذ علبة مثلها، وتأمل العلبة قليلاً وهو لا يعرف ما الذي بداخلها. ودفع كلٌّ منهما الثمن. تبيَّن بعد ذلك للفتى الفقير أن المعجون

الأول، البزَّاز، هو دهونٌ لحَبِّ الشباب الذي يعاني منه صاحبُه، أما هو فلا يعاني من حَبِّ الشباب. وأما العلبةُ الثانية فهي معجونُ تلميع للسَّيارة. والشاب الغني يعاني من وجود سيارة خلَّفها له الذي خَلَّفه، وأما الفقير فيحتاج علبة بويا لتلميع الباص رقم أحدَ عشر.

لسنا وحدنا المبتليْنَ بعِلَّة تقليد الآخرين، ولا سيما من هم أغنى منا. كلُّ الفقراء في كل العالم فيهم شيء من هذا. لكن هذا لا يمنع أنه غلط غلط.



٥٩ يعني.. يعني..

عزيزي المستمع، يسأل المذيع الوزير:

(يعني).. التنازلات (يعني).. الوعود بشكل أساسي ورئيسي التي (يعني) تم الحديث عن تقديمها للجانب الآخر.. (يعني) تبقى أمراً بحاجة إلى (يعني) تأكيد. فماذا تقولون سيادة الوزير؟

يعني الفلسطينيون بصراحة اخترعوا خطف الطائرات، والزيت والزعتر، واخترعوا كلمة يعني.

يعني بدون كلمة يعني ليس هناك سؤال على أية فضائية، ولا أرضية ولا على الراديو. وأخشى أن تأتي أسئلةُ التوجيهي هذا العام وكلُّ سؤال منها مبدوء بكلمة يعني.

يعني المذيع الذي يقول يعني كثيراً.. ويقولها لأنه يعني.. لا يعرف ماذا يريدُ أن يسأل. ويتكلم طويلاً جداً، وفي النهاية لا يسأل عن شيء محدد.

ويعني.. الإجابات أيضاً كلها تبدأ بكلمة يعني ومملوءة بكلمة يعني. وهي مثلُ الكبَّةِ المتقنة التي في قشرتها لحم، وفي حشوتها لحم. يبدأ السياسي الخطير بيعني، ويضع كلمة يعني بدل الفواصل والنقط عند كل وقفة. يعني.. هذا بصراحة عِلَّةٌ على القلب. فهل ترى مثلي أنه غلط؟

٦٠ موقف تربوي مشرِّف، وموقف طلابي مشرِّف

عزيزي المستمع، في مدرسةٍ من المدارسِ الخاصةِ في بلدِنا حدثتْ حادثة.

في فسحةٍ من الوقتِ، غابَ فيها المعلمُ عن الصفِّ، صعِدَ الطلبةُ فوقَ المقاعدِ كالقرود، وتلاكموا، وتقاذفوا الطباشير. هذا طبيعي.

أحدُ الطلبةِ أخذتْهُ الحالُ فرفعَ كرسيَّاً بيديْهِ إلى الأعلى وصعِدَ فوقَ الطاولة، ففقد توازنَه، فوقعَ وقعةً مُنْكَرةً، فانهارتْ واجهةٌ زجاجيةٌ-خشبيةٌ هي جزءٌ من جدارِ الصفِّ. وسادَ الصمتْ.

جاء المعلم.

من الفاعل؟

ساد الصمت.

وجِيءَ بالمدير. نظَرَ وقَدَّر، وصمتْ. ثم استدعى إلى مكتبَهِ لجنةَ الصفّ، فأكَّدوا لهُ أنَّ طلبةَ الصفّ قرَّروا ألا يَشُوا بزميلِهم الذي فعلَ الفِعْلة.

أجرى المديرُ بعضَ المفاوضاتِ بهدفِ التوصُّلِ إلى حلٍّ تربويٍّ صحيح: يجبُ أيضاً أنْ يدفعَ الطَّلبةُ جزءاً من تكاليفِ الإصلاح.

اتفق المديرُ ومساعدوه فيما بينهم ألاَّ يسمَعوا كلامَ أيِّ طالبٍ يريدُ الوشايةَ، وألاّ يحاولوا، حتى مجرَّدَ محاولة، كسرَ وَحْدَة الموقفِ الطُّلابي. لكنْ، لا بدَّ مع ذلك من تحميلِ الطلبةِ المسؤوليةَ بشكل جماعيٍّ، وبشكلٍ حضاريٍّ.

استغرقتِ المفاوضاتُ يومينِ، تعطَّلتْ فيهما الدروس. وفي النهاية دفعَ الطلبةُ جزءاً من التكلفة، وحافظوا على تكاتُفِهِمُ المطلق. وتعلّموا درساً في الوطنيةِ والمسؤوليةِ كبيراً جداً. والطالبُ الشقيُّ.. لقد تعلّمَ احترامَ زملائِه الذين احتضنوه وحَمَوْه، وتعلّمَ احترامَ مدرستِه وإدارتِها. صار هذا الولدُ إنساناً أرقى مما كان.

بعضُ المدارسِ تفضِّلُ أساليبَ المخابرات، حتّى لو كان من نتيجةِ ذلك تعويدُ الطلبةِ على خيانةِ زملائِهم. وهذا.. غلط غلط.

 العنصرية تبدأ في البيت

الطفل الذي يتربى في حِضنِ أمٍّ جاهلة، وجدةٍ جاهلة، وأبٍ جاهل يصبحُ جاهلاً، والطفل الذي يتربَّى في حِضنِ أهل متعلمين.. لا بدّ أيضاً أن يقتبس قدراً كبيراً من المفاهيم الجاهلة. كلنا في بيوتنا نحكي عن الجيران وكلنا نُفَهِّمُ أولادَنا أننا نحن - عائلتَنا نحن - أحسنُ ناس. نحنُ أحسنُ عائلة في البلد. متعلمين كنا أم جاهلين نحن ننقُلُ إلى الطفل التعصُّب. البنت تسمع جدَّتها تقول عن بائع البطيخ مثلاً: هذا عبدٌ تنتون، إن كان أسمر؛ فإن كان أبيض قالت إنه مثل أبو بريص.

ولدٌ في الحارة كان شاطراً في الألعاب، وذكياً وليس فيه شيء يعيِّرُه به الأولاد. ثم ذات يوم أطلق أحدُ الأولاد تشنيعة على أهل ذلك الولد، قال إنهم يسخِّنونَ السَّلَطة في الشتاء. وصار كل الأولاد يسخَرون من الولد الشاطر الذكي ويعيرونه بأن أهله يسخِّنونَ السلطة. وذهبتْ مثلاً.

المجتمع قاسٍ وهو يعلِّمُ الطفلَ مفاهيم عجيبة. ويلٌ للتلميذ الذي يعرفُ أصحابهُ في المدرسة اسمَ أمّه. سيعيِّرونَه بذلك طويلاً. وكأنَّ اسمَ الأمِّ عورة.

المجتمع لا يعرف المثُلَ العليا. عرفتُ يوماً امرأةً لها بنتان: بنتٌ وجهها مدوَّرٌ وشعرُها أملس، وبنت نحيفة شعرُها أجعد. كانت الأمُّ عندما تغضب من البنت الثانية تضربُها بقسوة وتقول لها: يا قبيحة.. يا بشعة. أحب أن أخبرك عزيزي المستمع أن هذه البنت عندما كبرت صارت جميلة جداً. لكنني متأكد أن أمها تركت في قلبها بقعةً سوداء لن تمَّحِيَ أبداً. أريد أن أنصحَ الناسَ أن يُتيحوا لأطفالهم قراءةَ القصص. قصصُ الأطفال فيها مثل عليا، وفيها أخلاق. وبعضُ الآباء يُصِرُّ على تربية أولاده في الدكان. وهذا يعلِّمُهم الغِشَّ، وإعطاءَ المواعيد بسخاء دون أي نية للوفاء بها، ويعلِّمُهم التحايل. الدكان يجعل شخصيةَ الولد صُلْبةً ويزيدُ تحمُّلَهَ.. ولكن الطفل بحاجة إلى الأخلاق. أم أن كلامي غلط؟



٦٢ ابن عم الصحّ

عزيزي المستمع، لن أحدثك اليوم عن الصح. ولا عن الغلط. سأحدثك عن ابن عمِّ الصح. تسمعهم يقولون: «بدَّك الصَّحّ، أم ابن عمه». وطبعا أنت دائماً تريد الصح. ولهذا فأنت لا تعرفُ ابن عمِّ الصح. وأريد أن أُعرِّفَك عليه.

لي صديقان يُصرَّان على أن ما فعلاه هو الصح. واسمع القصة واحكم بنفسك بيننا. جاءت منحةٌ من دولة أجنبية لإرسال الطلبة المتفوقين في رحلة دراسة مفيدة. الرجل الأول له علاقة رسمية بالجهة التي قدمت المنحة. والرجل الثاني له علاقة بالمؤسسة التي ستختار الطلبة. تم اختيار عشرين من الطلبة. وبين هؤلاء العشرين كان ابنُ الرجل الأول.. صاحبي الأول. وابنُ الرجل الثاني.. صاحبي الثاني. لقد دحش كل منهما ولدَه في الرحلة. لم يكلِّفِ الرجلان العزيزان نفسَهُما مشقة الذهاب إلى مدرسةٍ في مخيم لاجئين أو في قرية لاختيار طالب فقير للذهاب في هذه الرحلة. لقد قاما بعملية اختيار رسمية وأجريا مقابلات رسمية.. وبالصدفة.. بالصدفة المحضة لم يتم العثور على طالب من المخيم ينفعُ للرحلة. وبالصدفة.. بالصدفة المحضة.. (سبحان الله) تبيّن أن ابنَ الصديق الأول، وابن الصديق الثاني مناسبان. وأحد الصديقين يقول إن ولدَه عبقري، والثاني يقول: «هذا ليس خطأ، والمسألة يمكنُ فهمُها بشكل معين، لأن مجتمَعَنا مجتمع عشائري وعائلي..»، وكلام من هذا الكلام، وأنا أقول: الذي في وجههِ دم لا يجلس في لجنةٍ لكي يختارَ ولدَه. أحد الصديقين يقول: ما فعلناه صح.. والثاني يقول: ما فعلناه هو ابنُ عم الصح. وأنا أقول: ما فعلتماه.. غلط غلط.

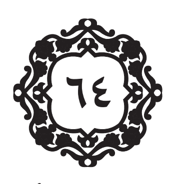


٦٣ جنوب إفريقيا التي وصلت

عزيزي المستمع، ممنوع أن أتحدث في السياسة. يجب عليَّ فقط أن أنصح المواطنين الكرام: ألاَّ يُلْقوا بالزُّبالة خارج الحاويات، وألاَّ يُخرِجوا أيديَهم وأَرْجُلَهم ورؤوسَهم

من شبابيك الباص. وأن أنصح التلاميذ ألا يترافسوا في الساحة. ولكن السياسية هي الهواءُ الذي نتنفس، والماءُ الذي نشرب.

وضعُنا الآن في هذا البلد مثلُ أوضاع البانتو قبل عشر سنوات. والبانتو هم السود في جنوب إفريقيا. وهذا البلد الغني الذي يحتل مساحة كبيرةً من جنوب قارة إفريقيا تعيش فيه أقلية من البيض وأقلية من الهنود وأقلية من الملونين، الذين هم نتاج زواج مختلط، وتعيش فيه أكثرية من السود. وقد حشر البيض على مدى عشرات السنين.. حشروا السود في عشرِ بقاع صغيرة ومنعوهم من المبيت في المناطق الأخرى، ولا يُسمح لهم بدخول المناطق الخاصة بالبيض إلاَّ ببطاقات ممغنطة خاصة. البيض أخذوا ثمانين بالمئة من الأرض، وبقي عشرون بالمئة من الأرض لكلِّ الآخرين. وهذه قريبة من النسبة التي تبقى لنا بينما يأخذ اليهود الثمانين بالمئة. ونحن أيضا محصورون في عشر مدنٍ تقريباً.. الوصفة متشابهة جداً.. أخذوا هناك من السود الأرض وأخذوا الصناعات والثروة.. وتركوهم يعيشون مثل الحيوانات في زرائب ضيقة.. والعلاقة بين الطرفين هي عبارة عن بطاقة ممغنطة. لكن الخبر السعيد هو أن العالم وقف مع السود في جنوب إفريقيا وقفة قوية. وناضلوا هم. ناضلوا بحق نضالاً سياسياً بقيادة زعيم صُلْبٍ هو نيلسون مانديلا وتمكنوا من التحرر في التسعينات، وحكمهم مانديلا فترة رئاسية واحدة استقال بعدها وتقاعد، وجلس في بيته. كثيرون يظنون أن وضعنا سيتحول أولاً إلى وضع سود جنوب إفريقيا في معازلهم العشرة قبل أن نتحرر. وكثيرون يظنون أن الحرية أقربُ من ذلك وأن التمسكُ بالتشبيهات، والمقارنة الحذافيرية غلط غلط.



٦٤ عمته فاطمة، رحمها الله

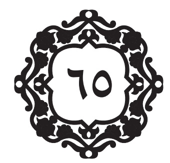
عزيزي المستمع، أحدثك عن عمة صاحبي، وفي الواقع ليس في بالي موضوع معين حتى أتكلم فيه دقيقتين، وأريد أن أبدأ بالحديث عن عمة صاحبي، وقد يفتح الله عليَّ في أثناءِ الكلام وأستطردُ إلى موضوع آخر. أصرَّ صاحبي أن أزورَه في المكتب بعد عودتي من غربة امتدت عدة سنوات. عندما دخلتُ مكتبه رحب بي، وصار في كل

لحظة يضغط على الزر ويخاطب السكرتيرة: أحيانا يطلب منها بلهجة آمرة أن تفعل كذا وكذا.. ثم يضغط على الزر ويقول لها «أنا لست هنا.. حتى لو طلبني الوزير.. أنا غير موجود». صار يعملُ حركات من هذا النوع، وأنت أدرى بالوضع يا عزيزي المستمع.

طبعا أنا عرفت لماذا أصرَّ صاحبي على أن أزورَه في المكتب. أراد أخونا بالله - ومن الأُخُوِّة ما جَلَطْ - أن يُرِيَني وضعَه الجديد. وبعد قليل قمتُ لأنصرف.. بصراحة مِلِلْتُ قليلاً، وقرفتُ كثيراً. فأقسمَ أغلظ الأيْمان لأذهبنَّ معه إلى البيت.. فقلت له: لعلِّي أفعلُ في مرة قادمة. فانزلقتْ من لسانه حَلْفةٌ بالطلاق. أَخْ.. صار لا بدَّ من تلبية الدعوة.

سأحدثك عن عمَّة صاحبي بعد قليل.

ذهبنا إلى بيته.. الأرض التي يقوم عليها البيت في ذلك الحي الراقي تساوي ربعَ مليون. والبيت ببنائه الفاخر يشمخ كقصر منيف، ولا بد أنَّه كلَّفَ أكثر من مليون.. دخلنا من الباب (وإلاَّ من أين تظننا سندخل).. جلسْنا في غرفة الضيوف.. كَنَباتٌ فاخرات.. من الجلد.. أثاثٌ تم استيراده من قصصِ ألف ليلة وليلة. بدأت أنظر إلى صاحبي نَظَراتٍ مريبة.. فأسرع إلى القول: رحم الله عمتي.. أنا فوجئت. قلت له: مَنْ عمَّتُك؟ قال: «هاجرتْ قديماً إلى البرازيل.» لقد فهم صاحبي الحسابات التي أحسُبُها في عقلي. وأراد أن يضعَ العصا أمام الراعي. حدَّثني عن عمته وعن الإرث. ثم حككتُ رأسي.. وقلت له: أبوك وعمُّك اثنان.. وأنا أعرفُهما.. ولم يكن لهما لا أَخٌ ولا أخت. فأسرع وقال: هي عمتي ولكن مشْ لَزَم.. عمتي.. آ.. وصمت قليلاً.. وقال: هي ابنة عم أبي.. وحتى بالأَمارة اسمُها فاطمة. يريد صاحبي أن يقنعني أن أموالَه الطائلة هي من عمَّته فاطمة! الحاصلْ.. أنني تسمَّمْتُ طعامه في ذلك اليوم النحس، وانصرفت. وكلما تذكرت تلك الأكلة انتابني مغص. والآن يجب أن أتوقف عن الكلام، السبب.. المغص.



٦٥ أبو كنزة يدخل على العمو زوج الآنتي

عزيزي المستمع، خيالي ضعيف. لذلك فأنا أنقلُ إليك قصصاً من الواقع. أنقلُها كما هي.. وأحيانا أغيِّر الأسماء، مع أنني أتمنى لو أستطيع أن أذكر الاسم والمنصب.. وخصوصاً في الحكاية التالية التي سمعتها من السكرتيرة التي حصلت أمامَها القصة.

عزيزي المستمع لا تفتحْ بطنك، ولا تظنَّ أن القصَّةَ شائقةٌ جداً، مثلُها يحدث في بلدنا كل يوم.

دخل على السكرتيرة شابٌّ وسيم وبيدِه ساعةٌ من النوع الرقيق ذي الجلدة.. ساعةٌ غالية. وقال بأدب شديد: ممكن أدخل على عَمُّو أبو فلان. قالت له السكرتيرة: بخصوص ماذا؟ قال لها: شيء خاص، وعَمُّو «محْكِي معه»، نظرت السكرتيرة في دفتر المواعيد: لا يوجد موعد محدد. ونظرت إلى يد الشاب الوسيم الأنيق الغالي الأثمان، ووجدته يحمل معاملة من اختصاص تلك الدائرة. قالت السكرتيرة للشاب: هذه المعاملة تقدَّمُ في الطابق الأرضي. هل وضعتَ عليها الطوابع؟ عاد الشاب يقول لها: طيب شكراً. وانصرف. خرج الشاب إلى الممر وأخرج تلفونَه اليدوي، وتكلم فيه مع الآنتي. والآنتي هي زوجة أبو فلان العمو المدير. والآنتي تكلمت مع السكرتيرة. والسكرتيرة حوَّلتها للمدير. والمدير بعد عشر ثوان تكلم مع السكرتيرة وقال لها: أين فلان؟ فليدخل. طبعاً الشابُّ الأنيق عاد مرة أخرى بكنزته الجميلة (أغلب الظن أنني نسيت أن أقول لك إنه كان يلبس كنزة صوفية ملونة، فاعلم إنه كان يلبس كنزة صوفية ملونة)، وبساعته الأنيقة، ومعاملته السمينة. قالت له السكرتيرة: الآن تفضل. مكث الشاب في الداخل نصف ساعة وجيءَ له بفنجان قهوة، وبعد الاطمئنان على الصحة والأحوال طلب المدير السكرتيرة إلى الداخل. فدخلت، فأعطاها المعاملة.. وقال لها: إعفاء من الرسوم، وأنا وقَّعت المعاملة.. الرجاء إرسالُها لأبو فلان.. حالاً. أوصلت السكرتيرة المعاملة حالاً. ولما رجعت لمكتب المدير رأته يودِّعُ الشاب، على الباب، توديع الأحباب. وقال له: «سلم على البابا». السكرتيرة مغتاظة من هذه المعاملة الخاصة بشأن «المعاملة» العامة.. ومن هذه السرقة لمال الشعب.. سألت السكرتيرة

المدير: متأكد سيادتُك من الإعفاء الكامل من الرسوم؟ فقال لها: طبعا طبعاً. أمم، معلش هذا ابن شهيد.. وفكرت السكرتيرة: سلِّم على البابا؟ وابن شهيد؟ هذا أكيد شهيدُ الحب، وربما كان شهيد الآنتي التي تكتم على أنفاسه، وربما كان الموضوع كله.. مثل كل شيء في بلدنا غلط غلط.



٦٦ حرامية المؤسسات.. مستويات

عزيزي المستمع، هذه المؤسَّسة التي سأحدثُكَ عنها أعرفُ كلَّ من فيها. وسأحدِّثُك عن درجات الموظفين درجة درجة، فاصبر معي حتى النهاية. نبدأ بعامل التنظيفات. تراه دائماً في الممرات وفي المراحيض - أجلَّكم الله - وهو «يُخَرْشِقُ» طول اليوم ببابوج بلاستيك. مش منظر.. ها؟ ولكنه رجل يحب عمله، وأمين. عنده في المستودع موادُّ التنظيف بكمِّيَّات كبيرة. يشترون في المؤسسة قناني الصابون والكلور بالصناديق. ولكنه لا يسرق. إنه يشتري لزوجته مواد التنظيف لبيته، ويحذِّرُها من الإسراف، يقول لها نقطة واحدة تكفي. لا «تدلحي» من قنينة الكلور على المغسلة.. نقطة واحدة على الاسفنجة تكفي. وهو نفسه يفعلُ ذلك في المؤسسة. إنه حريص على أموال المؤسسة. السكرتيرة في المؤسسة عندها في البيت كمبيوتر.. وهي تأخذ أوراقاً للطابعة من المكتب، إنها تسرق الورق. ولكنها تبرر ذلك لنفسها وتقول: هي مجرد رزمة من الورق لا أكثر. المدير (سي) يسرق وقت المؤسسة لأنه يشتغل في وظيفة أخرى، وهو يشتغل بأمانة في المؤسسة الأخرى لأنها مؤسسة خاصة.. وأما مؤسسته الحكومية فهو يهملُها. المدير (بي) سرقَ فرصةً عمل، لقد وظّف أختَه التي ليس لديها لا شهادة ولا خبرة. وحرم من الوظيفة فتاة أخرى تقدمت للوظيفة في نفس الوقت. طبعا هذا المدير (بي) قام بإقناع المدير العام بالموضوع.. وزبَّط الأمور.. والمدير العام لا يرفض للمدير (بي) أي طلب.. ربما لأنهما أصحاب.. وربما لأنه ماسكٌ عليه مَماسِك.. المدير العام سرق بطريقة مشابهة، فقد وظف أخاه في المؤسسة.. ثم هاجر أخوه.. ولكنْ ظلَّ المعاشُ ينزِل في الحساب. طبعا رئيس المؤسسة يعرف بكل هذا ولكنه لا يعترض. فرئيس

المؤسسة مشهور بتحويل الفواتير.. كان يُدخلُ فواتير الباطون والخشب والقصارة الخاصة ببيته الجديد في مشاريع الإنشاءات في المؤسسة.. طبعا بمساعدة المدير بي والمدير وسي، وبمعرفة كل الناس في البلد.. والذي لا يعرف يحزر. قالت زوجة جحا لجحا : القطة أكلت كيلو اللحم. فوزن حجا القطة فوجد وزنها كيلو. قال لها: هذا هو اللحم، فأين القطة؟ ورئيس المؤسسة معاشه معروف. ومصادرهُ محدودة، فإذا صرف كل معاشه على الفيلا، فكيف يعلِّمُ أولادَهُ الثلاثة في الخارج؟ تلك المؤسسة ليس فيها شخصٌ شريف سوى عامل التنظيفات. سلوكه (رغم بابوج البلاستيك المزعج).. صحيح.. وكل ما عداه.. غلط غلط.



٦٧ ما لها شغل في السوق

عزيزي المستمع، هل سمعت عن الديرتي جينز، يعني الجينز الوسخ . لا؟ لم تسمع.. إذن سوف تسمع الآن. الجينز قماش من الكَتَّان القويّ، وكنا نسمه في القديم الكاوبوي. وكان ينافسه قماش الكاكي، وكان الكاكي إلزامياً في مدارس الصبيان. ونحن الآن في عصر الجينز. ما علينا.

الجينز الكاحت تعرفونه طبعاً. وهناك فتيات يكحتْن الجينز في مواقع محددة حتى ينتبه من ليس ينتبه إلى تقاطيع أجسامهن. البنتُ منهن تعبِّيءُ نصفَها السفلي في بنطلون جينز، وتعبِّيءُ النصف العلوي في بودي، وتنزل إلى السوق. وبعد ذلك تسألني عزيزي المستمع ماذا يقصد إِلهام المدفعي إذ يقول: «ما لي شُغُل في السوق، مرِّيتَ أشوفك!» الشباب ما لهم شغل في السوق، وهم يقفون في كل مكان لكي يشوفوا. وتعود الفتاة إلى المنزل وهي تشتم الشباب وقلَّةَ أدبِهم. عزيزتي المستمعة عزيزي المستمع: عندما تعبِّيءُ البنتُ نفسها داخل هذه الملابس، ثم تتسلَّقُ حذاءً كعبُه شبر، وتبدأ بالمشي في الشارع، فإن أجزاءَ جسمها المختلفة تبدأ تتحرك في اتجاهات مختلفة.. أي أن جسم البنت يبدأ يتشخلع غصباً عنه. كل هذا كوم، والديرتي جينز كوم. ديرتي جينز معناها الجينز الوسخ، إن كنت نسيت. وهو موضة هذه الأيام.. بنطلون جينز عليه بقعٌ بُنِّيةٍ لا

تزول بالغسيل. إذا أرادت الفتيات أن يرتدين ما يحلو لهن فلا أقل من تقليل الغضب على الشباب الذين ينزلون إلى السوق وشعارهم (العين اللي بتاكل). لكن مع ذلك سلوكهم غلط وسلوك بعض الفتيات غلط.

٦٨ تعلم اللغة في المرقص

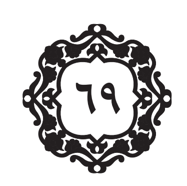
عزيزي المستمع، عندما مات زميلي في المهنة تذكَّرْتُ قصة بعيدة تصِفُ حالاً شبيهةً بحاله. طبعاً أنت لم تفهم شيئاً بعد. طيب، تريدُ أن أقصَّ عليك قصة زميلي أم قصةَ الصديقين اللذين سافرا إلى ألمانيا في البداية.. حادي بادي سيدي محمد البغدادي.. أوكيه.. قصة اللذيْن سافرا إلى ألمانيا أولاً.

هذان شابان من بلدي، من نابلس، سافرا إلى ألمانيا في الستِّينات، وترافقا في الرحلة. أحدُهما مرحٌ اجتماعي ولَعوب، ولا يحبُّ الدراسةَ كثيراً. الثاني مثابرٌ وشاطر. أما الأول فقد قضَّى الوقت في المراقص والحانات، والثاني التحق بمعهد اللغة، وصار يدرس ليلَه ونهارَه. وبعد خمسةِ أشهر نجحَ أبو المراقص في الامتحان، لأنه كان يثرثر كثيراً مع الحِسان، وسقطَ الثاني لأنه كان يريد أن يحفظ اللغةَ حفظاً، وهي تستعصي عليه.

أما قصة زميلي الذي مات فهي قصةٌ محزنة. وهو شخص ثالث غيرُ اللذيْن سافرا إلى ألمانيا. وعليك، مستمعي الكريم، أن تنسى كل شيء عن ألمانيا، فما سيأتي لا علاقةَ له بما مضى، هي مسألةُ ملءِ فراغ.

كان زميلي، هذا الثالث، يدَرِّس في المدارس، ومتخصصاً في التوجيهي، فإذا قرعَ جرس الانصراف راح إلى بيته، وأسقط في جوفِهِ لقمةً سريعة، ثم انطلق يعطي الدروسَ الخصوصية في منزل بعد منزل. وعند اقترابِ امتحان التوجيهي يصبحُ «ملطوشاً»، يجمعُ التلاميذ في بيته، أو في بيتِ واحدٍ منهم.. وهات يا دروس، وهات يا دنانير. زميلي لم يكن يعيش.. كان فقط يجمع المال. كنت أسألُهُ بأيِّ شيء يستمتع؟ وكان يقول: أنتظر أن أعلم أولادي في الجامعات ثم يأتي التقاعد، وهنا الراحة الكبرى. قد مات صديقي، وذهب إلى رحمة الله، مات تقريباً على أبواب التقاعد. وهذا أيضاً من

رحمة الله، فلو كان دخل في التقاعد لشعر بالفراغ والملل، وأنا أعتقد أنه ما كان ليترك الدروس الخصوصية، فقد أصبحت في دمه. لقد جعَلَتْه بخيلاً يحب الجمع والتحويش واللملمة. أنا شخصياً درَّستُ نحوَ عشرِ سنوات، لم أعطِ فيهن درساً خصوصياً واحداً. ليس لأنني ضدَّ الفكرة. أبداً. في بعض الأحيان كنتُ أجمع الطلبةَ الضعاف لأعطيهم حصصاً إضافية.. والمقابل الذي كنت أتقاضاه هو المتعة التي أشعر بها عندها أراهم قد فهموا الدروس. ثمة حرج في أن يمد المعلم يده ليأخذ مالاً من تلميذه. ولكني - ربما متأثراً بسيرة خليل السكاكيني - لا أرى أخْذ المال على التعليم أمراً شائناً. فقط كنت أخجل من ذلك. ولعلي كنت أفكر بطريقة غلط.

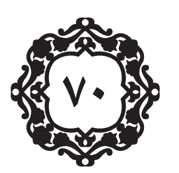


إنهم يأكلون الرصيف، ومتراً من الإسفلت

عزيزي المستمع، إذا كنت صاحب سيارة فلعلَّكَ تشعرُ بالإحباطِ كلما حاولتَ العثورَ على مترينِ بمحاذاة الرصيف لكي تَصُفَّ سيارتَك وتقضيَ غرضاً. الحلَّاقُ يضعُ في الشارع كرسيَّ بلاستيك حتى لا تصفَّ أمام محلِّه، وبائعُ الدِّهانات يضع سُلَّماً، وبائعُ الألعاب يضع حصاناً من الخشب. أصحابُ المحلات أصابتهم ذات يوم مصيبةٌ اسمُها البَسْطات.

البسطات كانت مشكلةً فعلاً. فصاحب الدكان المسكين يدفع أجرة محل، وضريبةً، وتوابعَ كثيرة.. ثم تأتيه بسْطةٌ أمام دكانه تأخذُ منه الرزق ولا يدفعُ صاحبُها شيئاً، هذا ليس عدلاً. وتنشط البلدية والمحافظة، ويتم إبعادُ البسطات وتخصيصُ أماكنَ لها، بعيداً عن الأرصفة. حلٌّ جزئي للمشكلة.. ولكن أصحابَ المحلات، بعد أن فرغَ لهم وجه الرصيف، يريدون أن يفرغَ الشارع أمامهم، حتى يسْرَحوا بعيونهم في عُرضه. ألم تدهن البلدية حجارة الرصيف بالألوان التي توضح موقفَ القانون أَيسمحُ بِصَفِّ السيارات، أم يمنعُه؟ هذا أمر متروك لقانون السير.. فلماذا وضْع الكراسي والسلالم على الإسفلت؟ ولماذا لا تحرك البلدية ساكناً لإدخال السلالم والكراسي إلى الدكاكين؟

أما السائقون فهم لا يجرُؤُون على ذلك. ولا أحد يحبُّ أن يبدأ خصومةً مع أصحاب السلالم والكراسي. بعض الدكاكين عندهم لوحاتُ دعايةٍ كبيرةٌ فيها بالونات ولوحات معدِنية.. يخرجونها إلى الخارج.. ليس إلى الرصيف بل يأكلون متراً من الإسفلت.. وإذا كان وضع الكرسي على الإسفلت غلط، فإن وضع لوحة دعاية من هذا القبيل غلط غلط.

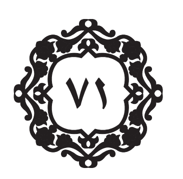


٧٠ يكوي شعره على البابور

عزيزي المستمع، زميلٌ من أيام المدرسة، كان يكوي شعره على البابور، يُقَرِّب رأسُه من اللهب ويمسِّدُ شعره ويمْشُطُه. ثم بعد ذلك يضع عليه السمنَ النباتي ويَمْشُطُه مرة أخرى. ويلبَسُ في رأسه جَوْرباً نسائياً من النايلون وينام. وعندما يُصْبِح يكونُ شعرهُ أملسَ لامعاً، ويابِساً لا يتحرك.. قد نلعبُ رياضةً ونركُضُ ونتشقلبُ وشَعَراتُ صاحبي في مكانها لا تروحُ ولا تجيء. إذا كان هذا الصاحِبُ يسمعني الآن فأنا ألقي عليه السلام وأقولُ له: نذكُرُ أيام الصِّبا بحنين وحسرة، ونحن نقف على عتبة الكهولة. أذكر والله كيف كان شعرُك نازلاً من الخلف كأنه مِكنَسةُ قَشٍّ، وأشتاق إلى اختراعاتِك الباهرة.

طبعا أعرف أنك الآن حلقتَ شعرَك تماماً، وأَطَلْتَ لحيتَك وصرتَ تلبَسُ دشداشة ترتفعُ عن الأرض شبراً. لكن صورتَكَ القديمة لا تفارقُني. في الواقع أنت نفسُك لا تعاني من الفِصام أو الشيزوفرينيا، ولكنَّ صورتَك في ذهني مزدوجة. لك في ذهني صورةٌ وأنت بشعرك المسبسب وضِحْكتِكَ التي تمزِّقُ الافتعال والتصنع وتصلُ إلى أعالي الغلاف الجوي، ولك في ذهني أيضاً صورةٌ بعد أن بدَّلتَ موقع الشَّعرِ من رأسِك. لكنِّي لا أنسى كذلك كيف كنَّا نطبخُ الطعام بالمرجرين الرخيص في مِقْلىً قديم ليس له يد، وكيف كنا نُمْسِكَ المقلى فوق النار بالكَمّاشة.. وأذكر أن فقرك كان كبيراً، وأنه كان مؤلماً، وأنَّك كنتَ دائماً على خُلُق. لا أعلم أين أنتَ الآن.. سهَّل الله عليك. أذكُرُك وأعرفُ أن الناس كانوا يهربون من فقرِك ومن عاداتِك العجيبة ومن السَّمْنِ النباتي الذي كنت تضعه على شعرِك، والمرجرينِ الرخيص في طبيخك. ولو

التقينا فلا بد أن أسألَك: يا خائب! أما كان الأوْلى أن تضع المرجرين على رأسك، والسمن النباتي في الطعام؟ قد والله كانت رائحة قلاياك بالمرجرين تزكُمُ أنوفَنا، وكنا نحتمل كل تخبيصك، ونأكل. نحتمل الأكل الرديء في سبيل متعة المؤاكلة. ولست أقول شيئاً عن تقصيرك الدشداشة حتى لا أقَعَ في الغلط.



٧١ لقاء مع مستمعة عمرها ثلاث سنين

عزيزي المستمع، وعزيزتي المستمعة أيضاً، وأنا أبدأ حديثي بالكلام عن مستمعة صغيرة.. عمرها ثلاثُ سنين. أراكَ لا تصدِّقُني. صدِّق أو لا تصدِّق. تريدُني أن أحلفَ لك؟ أقولُ لك عمرُها ثلاثُ سنين. رأتني مع أمِّها، وعرَّفتْها أمُّها عليّ. البنتُ صارت من فورها تقول اسم البرنامج. واسمُ هذا البرنامج إن كنتَ نسيت هو غلط غلط. بعد قليل قَلَّلْتُ عقلي.. وقلت للبنت الصغيرة كيفَ حالُكِ يا عمي. عندما سمعتِ البنتُ الصغيرةُ الصوتْ.. كأنما ميَّزتْه. وَجَمَتْ لحظة.. استغربت.. كيف خرج هذا المخلوق الشرس من الراديو؟ اختبأتْ وراء أمِّها وصارت تشدُّ تنورتَها.. وضيَّقَتْ ما بين عينيها، وصار فمُها مربعاً.. وأبرقتْ وأرعدت، ثم أمطرت دموعاً.

قالت لي أمُّها: لا تصدِّق لو حكيتُ لك. قلت لها: بل احكي. فقالت: بنتي تسمع برنامجك بصمت.. تستمع فعلاً.. مع أنها بالطبع لا تفهم حرفاً منه. لكنها تعودت على البرنامج. قلت في نفسي: سبحان الله، وكيف لا أصدِّقُ ذلك وأنا أعرف قصة ذلك الرجل الأكاديمي الذي رأى جمهوراً محتشداً في فعالية من الفعاليات فاعتلى المنصة وصار يخطُبُ فيهم: (أيها المواطنون.. أيها الحفل الكريم.. تدرون أنه أنَّى سار الركب فهو يسير. وكيفما أدلهمَّ الخطب فهو عسيرٌ عسير.. بكم ولكم وسواعدُكم في أكنافكم، والمصير هو المصير) فصفَّقَ الناسُ وهتفوا وكسَّروا الكراسي فوق رؤوس بعضهم إعجاباً بهذا الكلام الذي.. لا معنى له. الجماهيرْ! اِسألوا عنها بروتوس وأنطونيو. أما أنا فتهمني فقط مستمعتي العزيزة التي ترتاح إلى صوتي دون أن تفهم شيئاً، وبالمناسبة قالت لي أمها إنها تميِّزُ آخر كلمتين في البرنامج، وتصفق بيديها عندما تسمع تَيْنِكَ الكلمتين وهما: غلط غلط.



٧٢ بالمكواة نكتشف المذيعين

عزيزي مهندس الصوت. أنت أعرفُ الناس أن نَفَسي قصير، وأن صوتي ليس حادًّاً ولا قويّاً. وأراكَ تعبث بالمفاتيحِ أمامَك، وتخفِضُ الصوت، وأنا أصرُخُ وأتعب. أتعبْتني. بعد قليل تأتي نجوى كرم، ويأتي ذلك المغني الذي صوتُه مثلُ المسامير إيهاب توفيق.. وترفعُ أنت لهما الصوت، وتفتحُ لهما الحنفيَّة. هل يجبُ أن أغنيَ أو أخطب حتى يطلعَ صوتي «مثلَ الناس».

هذه مشكلتي مع الإذاعة، إذا تحدثتُ على راحتي، وبلهجةٍ رائقةٍ تعبِّر عما أريدُه.. فصوتي يضيع. هذه مشكلةُ أصحابِ الصوتِ الغليظ الذي ليس فيه رنَّة. في التلفزيون ليس هناك مشكلة لأن المشاهد يرى حركةَ الشِّفاه، ويفهمُ الكلامَ مهما كان الصوتُ منخفضاً أو عريضَ القُماشة. ولكنني طبعاً لن أجازف بالذهاب إلى أي تلفزيون للعمل فيه مذيعاً لأسباب تخفَى - والحمد الله - عليكم.

التلفزيون يُخفي عيوبَ الصوت بشكل عجيب. كنتُ متعوداً على مشاهدة مذيعةٍ أنيقة جميلةٍ لَبِقَةٍ تقدم برنامجاً في التلفزيون، وذات يوم كنت منهمكاً في عمل (كنت أكوي قميصي)، وفتح أحدهم التلفزيون. لم أنظرْ إلى الشاشة.. فقد كنتُ في تلك اللحظة أكوي الأكمام - وهي أنكدُ شيء في القميص -، فقلت لنفسي: من هي صاحبةُ هذا الصوت القبيح المؤذي. ونظرت، واكتشفت أنها صاحبتي إياها. فعجبت كم يشفَعُ الوجهُ للصوت.

لهذا السبب بالذات لا أريدُ العمل مذيع تلفزيون. فأنا في الراديو بصوتي هذا الذي تسمع، أو الذي لا يكاد يُسمع إنما أصنع شيئاً غلط.. فأما لو رأيتَني على الشاشة وسمعتَ صوتي فعندئذ ستصرخ: غلط غلط.

٧٣ "أولادكم ليسوا لكم"

عزيزي المستمع، إن كنت شاباً ولك أولادٌ وبناتٌ يحبُّونك ويتنطَّطون حولَك عندما تعودُ إلى البيت، ويقفزون على ظهرِك أو في حِضنك، ويتشبَّثون بك وأنت خارجٌ من البيت: ويقولون لك: لا تسرع يا بابا نحن بانتظارك. إن كنت كذلك أبشرْ: فسوف يقلُّ اهتمامُهم بك كلَّما استغنوْا عنك. فإذا كبُرُوا واستقلُّوا بحياتهم، ولم يعد لديك مالٌ تُفيضُ منه عليهم فلَكَ منهم الأُفُّ القرآنية. سيستثقلون طلباتِك، وسيطلبونَ البعدَ عنك. وقد قصَّ علينا وليام شكسبير قبل أربعِمئةِ سنةٍ قصةً عن ملكٍ اسمهُ لير. كان للملكِ لير ثلاثُ بنات: غونيريل، وريغان، وكورديليا. وأراد أن يقسم مملكتَه بينهنَّ أثْلاثاً. ثم غضب على الأخيرة لأنها لم تظهِرْ له الحب، فقسَّمَ مملكتَه بين البنتينِ الأوليْن لكلِّ واحدةٍ نصفُ المملكة. وبعد القسمة فوراً طردته البنتُ الأولى، فذهب إلى الثانية فطردته. واستقبلته البنتُ الثالثة (التي لم يعطِها شيئاً) استقبالاً حسناً. لكنَّ شكسبير أمات كلَّ أبطال هذه المسرحية التراجيدية ميتات شنيعة. والشاهدُ في قصتنا هو أن أولادَك يحبونَك بقدر ما يستفيدون منك، وخيرٌ لك ولهم أن تعطيَهم بمقدار. اللهم لا ترمِ أحداً في آخرِ أيامه.. وإن رميتَهُ فارْمِهِ في سريرٍ في ملجأ العجزة بين أيدي موظفين يتقاضوْن معاشاً في آخر الشهر، ولا ترمِهِ في يد أبنائه وأحفاده. ولا أَعَقَّ من الأولاد إلاَّ الأحفاد، بقدر ما يحبُّ المرءُ أحفاده بقدرِ ما يتأفَّفون منه. تُقبِّل الحفيدَ منهم في خده، فيمسحُ وجهه بكمِّه ويركضُ الخنزير مبتعداً عنك. إن كان بيدك عزيزي المستمع القلم.. وأردت أن تكتب الدار لابنِك فلان، والدكان لابنِك الثاني، فأنا أنصحُك أن تكتب على ورقة ثالثة نعياً لك تقول فيه: فلان وفلان ينعيان بفرح شديد أباهما الأحمق الملك لير. يا غافل! يا جاهل! ضع القلم. احفظ أملاكَك لنفسك، واترك أولادك ليرثوك بعد موتك، لا في حياتك. الإنجاب غلط، والأحفاد بالتالي غلط.

 المشاة الوقحون والسيارة الرافسة

عزيزي المستمع، أنا رجل كثيرُ الاختراعات. كنتُ أضيقُ بِمقصِّ الحلاق وهو يتكتِكُ فوق رأسي نصفَ ساعة، فاخترعتُ طاقيَّةً تلبَسُها على رأسِك دقيقة وتضعُ الفيشَ في الإبريز فتحلقُ لك شعرَك في دقيقة، واخترعتُ علبةً صغيرة مثلَ مُوزِّعِ الكهرباء - أو الحرامي كما يسمونه - تضعها بين الفيش والإبريز وهي تخبرُك بمدى استهلاك المِكواة من الكهرباء، وتشبكها بالسشوار لتعلم فرقَ ما بين كَيِّ القميص وكَيِّ الغُرَّة.

مشكلةُ اختراعاتي أنها لا تجد آذاناً صاغية. لكن هناك اختراعاً منها لا بد أن أنفِّذَه ذاتَ يوم.

أريد أن أصنعَ سيارة لها أربعُ عجلات، ولها رِجْلان في مُقدَّمِها.. وهما لابستَان حذائين عاديَّين. أريد منهما أن ترفسا بقوة، وأن تتحركا في كل اتجاه. أريد أن أرفس بهما بعض المشاة. ترى وأنت مقبل بسيارتك على مفترق شابين يريدان قطع الشارع. تخفِّفُ سرعتَك احتراماً لهما ولرغبتِهما في قطع الشارع.. فيأخذان ما قدَّمْتَ لهما بسرور، وينزلان عن الرصيف إلى الإسفلت.. وأنت لا تغضب.. لأنك أنت خففتَ السرعة أصلاً من أجلهما. ثم تجدُهما.. يمشيان.. خطوة قصيرة.. بعد خطوة قصيرة.. يتبختران.. أحدُهما فاتحٌ قميصَه متباهياً بشعر صدره، وثانيهما يدخِّنُ بكل برود.. يعبران الشارع وهما لا ينظرانِ إليك.. ولا يهتمَّانِ بوجود سيارتك.. ولا يكلِّفانِ نفسَهما عناء الإسراع، يستمران في الكزدرة.. أريد سيارة تستطيع أن ترفس. أحب أن أرى الشاب الأول ذا الشعر يقفزُ مثل «السَّعدان»، ويفرّ ويداهُ على قفاه تُحَسِّسانِ على مكان الرفسة، وأن أرى الشاب الثاني أبا سيجارة وقد سقطت سيجارته في جيب قميصه وصار ينطُّ كصبي أُخذتْ منه لعبته، والرَّفَسَات تنهال على جسمه. المشي في الشارع بحاجة إلى ذوق وخلق، ولكن بعض الناس ممشاهم غلط في غلط.

٧٥ السيارات المسروقة

عزيزي المستمع، إن كنت تسوق سيارة فتمهل. وإن كنت تسوقُ سيارة مسروقة فأسرعْ، واترك المِقْوَدَ من يدك، لعل الله أن يريحك من السيارة المسروقة ويريحنا منك.

لا.. هذه مجردُ دعابة.

أنا اليوم في الواقع أريد أن أتحدث عن نظرية خطيرة في القانون سأسميها المنعَ التدريجي.

أحياناً عندما ترى جارَك اشترى سيارةً مسروقة لولدِه البالغِ ستةَ عشرَ عاماً والمصابِ بعرج في ساقه، وحَوَلٍ في عينيه، وسيارةً مسروقةً أخرى لزوجته التي لا تتقن سواقةَ عربةِ طفلِها.. وسيارةً مسروقة ثالثةً لنفسه.. عندئذ يأكلُ قلبَك الحسد وقد دفعتَ في سيارتك الشرعيةِ الشيءَ الفلاني، وتقول في نفسك: لو أنني الحاكمُ بأمره في البلد لحكمتُ على هذا الجار بالإعدام فوراً. ثم تنساقُ مع الخيال.. وتقول لو كنتُ الحاكمَ الآمر الناهي في البلد لأنزلتُ إلى الشوارع في يوم واحد عشرةَ آلاف شرطي، ولجمعتُ كلَّ السياراتِ المسروقةِ وألقيتُ بمن يسوقونها في السجن. هذا تفكير غلط.. المجتمع لا يسيرُ هكذا. هناك حكامٌ صنعوا أشياءَ مفاجئةً مشابهة، ثم اكتشفوا أنهم يصلحون شيئاً ويخرِّبون أشياء. لعلَّك تريدُ أن تعاقبَ عشرة أشخاصٍ عقاباً صارماً لكي تُربِّي الباقين. هذا أسلوب متخلِّف. لعلَّك تفكِّرُ في حملة إعلامية لتوعية الناس. مسكينٌ أنت على هذه الفكرة الخائبة. الناس يعرفون ما السيارةُ المسروقة وما السيارة غيرُ المسروقة، ويعرفون أن السرقة حرام – أخذوها في السادس الابتدائي –. الحلُّ الصحيح هو المنعُ التدريجي. في البداية نضعُ – مثلاً – مخالفةً مضاعفةً على السيارة المسروقة، أي أن المخالفة التي قيمتُها عشرةُ قروش تكون على السيارة المسروقة عشرين قرشاً. ثم نفرض غرامةً على محطة البنزين التي تعبيء لسيارة مسروقة، ثم نرفع الغرامة بالتدريج. لكن قبل كل ذلك قد يخطر على بالِنا أن نمنع المسؤولين من ركوب أمثالِ تلك السيارات. لكن أيضاً بالتدريج. الأشياء الغلط في المجتمع كثيرة، ومحاولة إصلاحها باستعمال القبضة الحديدية غلط غلط.

٧٦ الدين الجميل

عزيزي المستمع، قبل مدة بسيطة التقيت بمعلمِ دينٍ له لحيةٌ كَثَّةٌ وشخصيَّةٌ محببة. قلت له في أولِ لقائنا: أنتم في المدارس مذنبون. أنتم تجعلون الطالب يكره حصة الدين، ويكره دَرْسَ القرآن. أتدري ما قال لي؟ قال لي كلمةً مكونة من حرفين: صَحّ.

وأنا أستسمح هذا الصديق، أن أعيد كلامي معه لمنفعة المستمع الكريم.

وقع بيدي وأنا صغير كتابُ دينٍ مدرسي. المنهج كويتي يعود إلى أوائل الستِّينَات. الكتاب كبيرٌ في قَطْعِهِ، أوراقُه بيض، وفي كل درسٍ رَسْمةٌ كبيرة. وكل درس عبارة عن قصة. لم يكن الكتاب مفروضاً عليَّ.. بل لقد أتى به من الكويت أحدُ أبناءِ عمي في زيارة صيفية. قرأتُ قصصَ هذا الكتابِ كلَّها. ويشهدُ الله أنني انتفعتُ بها تربويَّاً وذهنياً. أذكر قصةً منها عن قيام التلاميذ ببناء جدارٍ انهارَ بسبب الأمطار في منزلِ عجوز كانت تسكنُ قربَ مدرستهم. وأذكر قصةً عن عملٍ تعاوني قام به الطلبة، وأزالوا أكوام الزُّبالة في حيِّهم.

لقد انتفعتُ بذلك الكتاب أخلاقيَّاً. وكانت القصة تنتهي بآية قصيرة أو بحديث شريف. هذا كلُّ ما في الأمر.

الذين يكتبون كُتبَ الدين للمدارس الآن ليسوا مثلَ مؤلفي ذلك الكتاب الجميل. إنهم ناس تخرَّجوا من كليات الشريعة ودرسوا الفقه في كتبٍ كبار. وهم مملُّون ومحبَطون، وقليلو الإبداع، وضعيفو الخيال. وهم يسكبون أشياءَ من الفقه والتفسير والأحكام الشرعية فوق رؤوس الطلبة، لا يراعون السنَّ ولا طبيعة ثقافة الطفل، ولا طبيعةَ ثقافةِ العصر. لو كنتُ مسؤولاً عن هذا الشأن لقررت على الطلبة حصةَ قرآن في الأسبوع: يسمعون فيها مدة ربع ساعة، من المسجل، قراءةً للشيخ محمود خليل الحصري، أو للشيخ الطبَلاوي أو عبد الصمد، أو السديس. ثم يُقفلون المسجل وينظرون في مصاحفهم ويعيدون قراءةَ الآياتِ نفسها، وفي كل أسبوع يقرأُ عددٌ منهم. ومن لم يقرأْ هذا الأسبوع فقد سمع، وله أن ينتظرَ الأسبوع القادم كي يقرأ. ولو كنت مسؤولاً لقررتُ على الطلبة كتابَ دينٍ كلُّهُ قِصصٌ عن العمل التعاوني وعن الأخلاق الحميدة، وعن الصحابة، أما تدريسُ الدين في مدارسنا فهو غلط غلط.



"لا أدري"

عزيزي المستمع، تريدُ أن تزورَ صديقاً سكنَ في بيت جديد. تذهب إلى الدكانِ المجاور وتسأل عن العنوان فينبري لك شابٌّ فصيح ويبدأ بإعطائك الوصف الدقيق. بعد شارعين انعطف يميناً ثم: الدارُ الأولى اتركها.. الثانية بعدها صعود إلى اليسار.. ثم يمين ثم يسار.. ثم تصل. ويقاطعُهُ رجل يقف في الدكان.. يريد أن يستفسر منك أكثر . ولكن الشاب الفصيح يسكِتُه ويصرُّ على أنه يعرف. وتذهب أنت.. ولا تعثرُ على البيت. وتسأل! وكل شخص يدُلُّك على دارٍ مختلفة.

أردتُ أن أذهب إلى حفلة. سألتُ أين تباعُ التذاكر فقيل لي: ليس لهذه الحفلة تذاكر. فسررتُ. وذهبت إلى القاعة.. وجدتُ على مقربةٍ رجلاً: سألته عن الدخول.. وقلتُ له: أرى الناس تحمِلُ بأيديها بطاقاتٍ متشابهة! قال لي: أبداً! الدخول للعموم بلا بطاقات ولا تذاكر.. دخلت بثقة ولكن شابّاً آخر يقف بالباب ردَّني، فانصرفتُ غضبان أسِفاً، ونظرت ناحية الرجل الذي ضلَّلني فرأيتُه قد أشاحَ بوجهه عني، وهرب بعينيه مني. لقد حمَّلني إهانةَ الحَجْب، وذِلَّةَ الرَّدِّ عن الباب، فقط لأنه أراد أن يثبتَ لي أنه عارفٌ بقوانين الدخول.

أستاذُك في المدرسة تسألُهُ عن إعراب كلمة فيسرعُ إلى الإجابة يقول: فاعل. فتقولُ له: هي في الكتاب يا أستاذ نائبُ فاعل، فيقول لك: يجوزُ الوجهان. ويجوز أن تكون مبتدأً خبرهُ محذوف والله أعلم.

المشايخ العلماءُ في زمنِ ازدهار الحضارة العربية كانوا يعتزُّون بكلمة «لا أدري».

ونحن نعرفُ مهنةَ التعليم. ونعلم أن كلمة «لا أدري» قاسيةٌ صعبة على المعلِّم. لا بل إنها تاجٌ على رأسه. لا يقولها إلاَّ معلم مكتملُ الأداة، ممتليءٌ بموضوعه. المعلم عندما يصبح ملِكاً في موضوعه يقدر على كلمة «لا أدري». بعضُ العوامِّ والجهلة يظنون أن كلمة «لا أدري» تدل على الجهل.. إنهم لعلى غلط غلط.



٧٨ كنت تلميذاً غبياً

عزيزي المستمع، طبعا تسمعُ المعلمينَ والمربين الأفاضل يقولون: ليس هناك طفلٌ ذكي وطفل غبي. كل إنسانٍ له طريقةٌ مختلفةٌ في التعلُّم.. وكل إنسانٍ ذكيٌّ بطريقته الخاصة. وطبعاً أنت لكَ رأيُك.. وأنا لي رأيي. ورأيي مهمٌّ لسبب: السبب هو أنني كنتُ ذكيَّاً، وكنتُ غبيَّاً. في الصف الأول الثانوي - العاشر بلغة هذا الزمان - كنتُ الأولَ على صفي. في الصف الحادي عشر تراجعت وتقهقرت وهبطت وتدهورت.. صرتُ الثالثَ والعشرين على صفِّي.. وأعود بك وبنفسي إلى الوراء.. إلى الصف الأول الابتدائي. في الصف الأول كنت التاسعَ والثلاثين على صفي. أي أنني كنتُ في غاية الغباء، ولم يكن يسبقُني في الغباء سوى طالبين أو ثلاثة. وفي الصف الثاني الابتدائي تحسَّنتُ قليلاً. ولكنْ، لا أعرف ما كانت درجتي.. نسيت، وفي الصف الثالث أصبحت الثالث على صفي. على طول سنوات المدرسة الاثنتي عشرة كنتُ الأول على الصف ثلاث سنوات أو أربع.. وفي زمننا كانوا يضعون ترتيب الطالب بالقلم الأحمر على الشهادة.

في الجامعة نزل اسمي في لائحة الشرف مرَّة، وفي الفصل الذي يليه مباشرة أخذتُ تحذيراً أكاديمياً للتقصير.

أنا أعرف جيداً ما هو الذكاء لأنني كنت ذكياً. وأعرف جيداً ما هو الغباء لأنني كنتُ غبياً.

وأنا أوافق المربِّين الكرام على أن المسألةَ نسبية. عباس العقاد - وهو من أكبر كتاب العرب - درس حتى السادس الابتدائي، ومارك توين - أحدُ أكبر كتاب أميركا - درس حتى السادس الابتدائي تقريباً (حتى سن الثانيةَ عشرة). وطبعاً أنت تعرف أن أشهرَ مخترعٍ في التاريخ توماس إديسون الذي سجَّل باسمِه ألفاً وثلاثةً وتسعينَ اختراعاً طُرِدَ بوصفه متخلِّفاً دراسياً، طُرِد في المرحلة الابتدائية. فهل تظنُّ، بعد هذا، أن تصنيف المدارس لمن هو ذكي ولمن هو غبي تصنيف صحيح؟ لا بد أنه غلط غلط.

٧٩ حبة فستق

عزيزي المستمع، طلب صاحبي مشروباً من تلك المشروبات، فجالستُه سعيداً بكوب الشاي الذي أمامي. لكنْ، ظلَّ صحنُ الفستقِ الحلبيِّ المصاحبُ لمشروبِه في متناول يدي. وكنت أتناوبُ معه على حبَّاتِ الفستقِ حتى بقيت حبَّتان.. واحدةٌ كبيرة وواحدةٌ صغيرة. فكففتُ يدي؛ فأنا متطفِّلٌ أصلاً.

ثم مدّ يدَه.. ومنعَتْهُ أخلاقُه الحميدة من اقتناص الحبَّةِ الكبيرة فأخذَ الصغيرة. ظلَّتْ حبَّةُ الفستقِ الكبيرةُ وحدَها.. رأيْتها مفلوقَةً كفَم السَّمَكة، ورأيتُ بداخلِ صدفتيْها فُستُقَةً شهية تشتاقُ إلى أن تتحرر، وأشتاقُ أنا أن أجعَلَها بين أضراسي. مددتُ يدي إليها ببطء، وبغير اهتمام.. ولكنني كنتُ مهتماً بها كل الاهتمام في الواقع. وفَلَقْتُ القشرة فقفزت الفستقةُ في بطن يدي فتأملتُها وراقني لونها.. اكتشفت أن لونَ الفستقِ فُستقيٌّ فعلاً.

وفي طريقِها إلى فمي ارتعشت يدي ارتعاشةً أقْفَزَتْ حبةَ الفستق إلى الطاولة ثم إن الفستقةَ قفزت إلى الأرض. لاحقتُها بنظراتي وأمعنتُ النظر بين قدمي على الأرض.. لم أجدْها. بحثتُ قليلاً. لكنَّها ضاعت.. نظرت عن يميني وعن شمالي فلعل هذه الفستقةَ

مثلُ الممحاة؛ فلا تسقطُ المِمحاة المطَّاطيَّةُ على الأرض إلا وتنطُّ إلى جهة لم يخطرْ ببالِك أنها ستصل إليها، لكنْ عبثاً. الفستقةُ البديعة بلعتْها الأرض. فقدتُ الأمل. وصرتُ ألومُ نفسي على الجشع. وكدتُ لشدَّةِ غيظي أن أحرِّمَ على نفسي الفستقَ الحلبي. وذهبت إلى بيتي.. ولشدة الحرَّ بدأت أخلعُ ملابسي، خلعتُ القميص ورميته جانباً وارتميتُ على السرير فرأيت الفستقة المخبورة تقفز أرضاً، كانت قد استقرت في قلَّاب البنطلون.. والقلاب هو ثنيةُ رِجْلِ البنطلون حسب مصطلح الخيَّاطين القديم.. رأيت الفستقة أمامي على أرض الغرفة.. فطار عقلي من الفرح.. وكأنني خفت أن تعاودَ القفز اللعين مرة أخرى فنهضت.. وهجمت عليها.. اصطدمت بطرف السرير ولكنني أمسكت ببرطاشة النافذة.. والبرطاشة هي تلك البلاطةُ أو الرخامة المستطيلة في أصل النافذة.. استعدتُ توازني.. الحمد لله.. نظرت إلى الأرض.. لم أجد الفستقة.. نظرت يميناً.. يساراً.. أماماً.. خلفاً.. ثم رفعتُ رجلِي وبها حذاءٌ كحذاء الطُّنبوري.. ورأيت الفستقة العظيمة مسطحةً تسطيحاً على قاع الحذاءُ.. مهروسةً هرْساً.

رَجُلٌ تمر به أحداثٌ سخيفة كهذه، ويتذكَّرُها بكل تفصيلاتها، ماذا تتوقعون منه أن يسميَ برنامجَه الإذاعي؟ طبعاً.. غلط غلط.



٨٠ أولاد عائلات

عزيزي المستمع، مديرةُ مدرسة من تلك المدارس الخاصة، تراجعُ طلباتِ الالتحاق بالمدرسة معَ سكرتير المدرسة، وتمرُّ المديرة على الأسماء اسماً اسماً: فلانة الفلانية.. وتسأل مَن أبوها؟ آه هو فلان التاجر.. نعم، هؤلاء ناس محترمون. وتضع إشارة صغيرة بالقلم الأخضر على طرف الطلب.. ثم فلانة الفلانية.. وتقرأ اسم الأب.. وتهز رأسها وتقول: آه طبعاً، أبو فلان من جماعتنا. وفلانة الفلانية.. من هذه؟ أبوها! من هو؟ لا لا لا.. «لا نريد ناسْ أشكالْ ألوانْ في المدرسة»، وتضع الطلبَ جانباً بدون تأشيرة خضراء. وفلانة؟ آه نعم هذه بنت ناس وعالم. ثم فلانة.. ماذا؟ فلانة الفلانية؟ ومنذ متى يقدِّمُ «دارُ» فلان طلبات للمدارس المحترمة؟

مديرةُ المدرسة هذه مثالٌ موجود في مجتمعنا. والمدرسةُ هذه موجودة في مجتمعنا، وهي تسمِّي نفسها مؤسسةً وطنية.

حدثتك عزيزي المستمع عن التحاقٍ بمدرسة خاصة تتقاضى رسوماً. فما بالُك بالتوظيف! هناك توظيف شِلَلِي يعتمد على اسم العائلة، وهل المتقدمُ للوظيفة ابنُ ناس محترمين أم ابنُ ناس لا نعرفهم.. وبالتالي فهم محتقرون ساقطون من الهيئة الاجتماعية؟

سأحدثك عن نظام آخر.. هناك نظامٌ توظيفي ونظامُ قبولٍ متبعٌ في بلاد كثيرة اسمهُ نظام (الاختيار النزيه) وقد عملتُ في مؤسَّسةٍ في الخارج تتَّبعُ هذا النظام، وأتيحَ لي أن أدْرُسَ درساً. درستُه ليس لأنني نشيط؛ درستُه لأن دراستَه (في ورشةٍ مدتُها يومان) كانت شرطاً للحصول على وظيفةٍ إداريةٍ. «الاختيار النزيه» ليس معقَّداً. هو باختصار أن تقف أمام نفسِك بصدق وتقول: لن أوظِّفَ أحداً لأنه ابنُ ديني أو ابن بلدي أو لأنه أبيضُ البشرة أو لأنه رجل (فالرجل لا يطلب إجازة ولادة ولا إجازة أمومة)، ولن أَحرِمَ أحداً الفرصة لأنني سمعتُ من فلان عن فلان عن فلان أنه أبو مشاكل. الاختيار النزيه هو أن تختارَ الأصلح بناءً على اختبارات معينة، ومقابلات مدروسة. وفي رأيي أن أيَّ اختيارٍ آخرَ، غيرَ الاختيار النزيه، غلط غلط.

٨١ ناجح.. ساقط

عزيزي المستمع، نحن، العربَ، مشكلةٌ في تقييمنا للعلم والعلماء. أريد أن أتحدثَ عن التوجيهي لكنني أُسخِّنُ الجوَّ قليلاً. حضارتُنا، ثقافتُنا، فيها غالبٌ ومغلوب. ساقط وناجح.

في الزمن القديم كان الأدباءُ والعلماءُ يتناطَحون كالتُّيوس، ويتناقَرونَ كالدِّيَكَة. جاء بديعُ الزمان الهمذاني إلى بلد من البلدان وصار يناطحُ العالمَ الأديبَ العجوز أبا بكر الخوارزمي. ثم عُقِدت مناظرةٌ بينهما وغَلَبَ الشابُّ بديعُ الزمان العجوزَ أبا بكر فقعد العجوزُ في بيته لا يبرحُهُ حتى ماتَ غمّاً. الشيءُ نفسُهُ حدث بين سيبويهِ والكسائي،

ورجع سيبويه إلى مسقط رأسه مغموماً، ومات هناك.

هذا ليس من العلم في شيء.

أذكُرُ أنهم كانوا يبثُّون نَدَواتٍ تلفزيةً يشارك فيها عمر فرُّوخ ويديرُها ظافر القاسمي. كان فيها شيءٌ كثير من العلم والمداولات الطيبة. ولكن كان فيها مناطحة وتخطئة وتصويب من جانب بعض المشاركين الشباب.

في التوجيهي نحن نصِرُّ على كلمة ناجح وراسب. مع أننا ننادي بإصلاح التوجيهي. أقول للقائمين على الأمر: يا جهابذة! اشطبوا هذه الكلمة. من أي شيء تخافون؟ يا عباقرة! الجامعات في بلدكم صارت تقبل طلاباً معهم امتحان (سات) وامتحان (البكالوريا الدولية). وهذان الامتحانان ليس فيهما نجاح ولا سقوط. يا فطاحل! تتكلمون في الموضوع خمسينَ سنة وأنتم تحُكُّونَ رؤوسَكم. لماذا تكتبون على شهادة الشاب الذي حصل على أربعين بالمئة كلمة «راسب»؟ لماذا تجمعون له المعدلَ أصلاً. ضعوا له علامةً مقابل كل موضوع: في العربي، في الكيمياء، في التاريخ، في الفيزياء، في الرياضيات.. وأنا كفيلٌ لكم بألَّا تقبلَه أيةُ جامعةٍ إلاَّ بعد أن تنظرَ في علاماته حسب مقاييسها. لماذا تُصِرُّون على إصدار حكم صارم. أعطُوه شهادةً من هذا النوع.. وبلا معدَّلٍ عام، واتركوا الأمر للجامعات. هذا النظامُ صارَ سائداً في كل الدنيا، في كل العالم المتقدم. وأما ناجح وراسب فهما غلط غلط.



بين معاوية بن أبي سفيان وعبد الرحمن بن حسان

أعزائي المستمعين، قد تكونون سمعتُم خبرَ الشاعر الذي تغزَّل بابنةِ الخليفةِ الأُمَويِّ معاويةَ بنِ أبي سفيان.. شبَّب - أو تغزَّل - عبدُ الرحمن بن حسانَ بنُ ثابت (وهو كما لا يخفى من الاسم ابنُ شاعر الرسول حسان) برَمْلَةَ بنتِ معاوية، فقال من جُملةِ أبيات:

رمْلَ هل تذكرينَ يومَ عَراكٍ إذ قطعْنا مسيرَنا بالتمني
إذ تقولين عَمْرَكَ اللهُ هل شـيْءٌ - وإن جلّ - سوف يُسْلِيك عنّي

فبلغ هذا الشعر يزيدَ بن معاويةَ فغضب لتغَزُّلِ الشاعر بأخته، ودخل على أبيهِ معاوية وقال: يا أميرَ المؤمنين ألا ترى هذا العِلْجَ من أهلِ يثربَ يلهو بأعراضِنا. وطلبَ يزيدُ من أبيه أن يعاقِبَ عبدَ الرحمنِ بنَ حسان. ولكنّ معاويةَ قال له: بل انتظر حتى يقدَمَ علينا وفدُ الأنصار، وذكِّرني بالأمر.

فلما قدِموا بعد مدّة ذكَّرَ يزيدُ أباه. ولمَّا دخلَ وفدُ الأنصار على معاوية واستقرَّ بهم المجلس، قال معاويةُ للشاعر: «بلغني أنك تغزَّلتَ برَمْلَةَ بنتِ أمير المؤمنين.» أراد الشاعر أن ينقذَ موقفَه بلُطفٍ وحِذْق فقال: بلى.. ولو أني وجدْتُ أشرف منها لما تغزَّلت بها. ولكنَّ معاوية لا يستريح لمثل هذا الإطراء، وهو من دُهاةِ العرب المعدودين، وهو يعلمُ أن ذلك لا يمحو ما ألحقه شعرُ عبدِ الرحمن بنِ حسان بابنته وبه من العار في نظر عامة الناس. ومعاويةُ يعلم أنّ الشعر سجلٌّ خلود.. خلودٍ للمحامد وخلودٍ للمثالب على حدٍّ سواء.. وبيتُ الشِّعر إذا قيل فلا سبيلَ إلى التَّكَتُّم عليه. إنه كالرصاصة خرجت من فُوَّهةِ مسدس، فأما ردُّها فمُحال وأما إطاشتُها فأمر في حدود الممكن. قال معاوية: ولكنك والله لم تحسِنِ الاختيار، فأين رملةُ من أختِها «هند».. لقد فاتك والله الشيء الكثير. وخرَج الشاعر من عند معاوية وصنع شعراً يتغزل فيه بهند بْنةِ معاوية بن أبي سفيان. ولكن معاوية ليس له بنت اسمها هند. وكل الشام تعرف ذلك. عندئذ فقط علم الناس أن عبد الرحمن بن حسان إنما يتغزَّل على الرائحة كما يقولون، وأنه إنما يقصُّ في شعره خيالات من رأسه لا وقائعَ حدثتْ فعلاً، وبهذا سقط أثرُ غزلِ عبد الرحمن بن حسان في رملة، بسبب حِلْم معاوية، ولو كان معاويةُ آذى الشاعر لصدَّق الناس وجودَ علاقة مع بنت الخليفة. الحلم كما قالوا سيدُ الأخلاق وخُلُقُ السَّادة.. والتعرُّضُ لأعراضِ الناس غلط غلط.

 الهدية: حذاء عتيق

عزيزي المستمع، لي صديقان حدث معهما موقفان محرجان. موقفٌ في بيت ناس أغنياء، وموقف في بيت ناس فقراء. وعليك أن تحكم بنفسك أيَّ الموقفين كان أكثر إحراجاً. هل نبدأُ بالأغنياء أم الفقراء؟

بالأغنياء. صديقي طالب جامعي من أسرة قروية فقيرة. ذهب مع بعض الأصدقاء في رحلة جامعية. وزاروا مدينة بعيدة. وقرروا أن يذهبوا لزيارةِ أهلِ إحدى الزميلات. غيرُ معقول أن يكونوا في بلدها وأن تكونَ هي معهم، ثم لا يذهبوا إلى بيت أهلها. البيت قصر كبير. وأبو البنت رجل مهم وغني. خرج الأب يستقبلُ زملاءَ ابنتِه على الباب الخارجي للحديقة ومدَّ يده يسلِّمُ عليهِم واحداً واحداً. صديقي الفقير كان يضع يدَه في جيبه. وجيبُه كان فيه ثقب. وكان - أخونا بالله - عنده عادةُ أن يتسلَّى بإدخالِ إبهامه في الثقب. المهم عندما جاء دورُه في المصافحة أخرج يده بسرعة لكن جيبَ البنطلون خرج مع يده للخارج ووقع منه مفتاح. ليس هذا هو المهم. المهم أن إبهامَهُ بقيَ في الثقب لا يخرج.. وصار صديقي يشدُّ يدَه بعصبية وسمع قهقهةَ الجميعِ مِن حولِه. ربما لم يكن أحد يضحك.. لكنَّه تخيَّلَ أنه سمع قهقهة.

الآن قصةٌ في بيت ناس فقراء. صديقي الآخر وضع حذاءَه عند الرجل لإصلاحه.. هذا الكلام منذ نحو ثلاثينَ عاماً. ركَّبَ له الحَذَّاء نصفَ نعل.. ثم ذهب صديقي وأخذ الحذاء ولبسه.. ووضعَ الحذاءَ الممزق الذي كان ينتعلُه في كيس ورق.. وفي ذلك الزمن كنا نضعُ الأشياء في أكياس الورق قبل أن نعرف نعرف أكياس النايلون. عرَّج صاحبي على بيتِ صديق له. دخل البيت ووضع كيس الورق على طرف الطاولة، وقعد. كان أهلُ ذلك البيت من الفقراء.. وقد ظنَّتْ أمُّ صديقه أنه أحضر لهم هدية فأخذت كيسَ الورق وقالت لصاحبي: كلَّفْتَ خاطِرَك، غلَّبتَ نفسك. وخرجت بالكيس، وبعد حين رجعت المرأة وقدَّمتِ القهوة.. وصاحبي محرَجٌ جداً فهو لا يعرف هل فتحتِ الكيسَ أم لا. يبدو أنها لم تفتحْه بعد. وتحدث صاحبي مع صاحبه بعض الوقت. ثم

حان موعد الانصراف.. وعند الباب رأى أمَّ صاحبِه واقفةً وبيدها كيسُ الورق. كاد الرجل أن يذوبَ من الخجل. لكنَّ المرأة ناولته الكيس وقالت له: اجعلها بعودة.

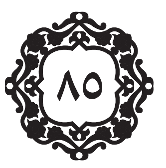
إذا ظننت عزيزي المستمع أن صاحبي هذا قد عاد إلى زيارة أولئك الناس فظنُّك بالتأكيد غلط غلط.



يتربوا في عزك، لكن ليس في حضني

عزيزي المستمع، أَدخُلُ بيتَ صديق قديم، وأُفاجَأُ بأنه صار أباً. أقعدُ بأدب. طبعا لن أستطيع أن أرفع رجليَّ فوق الطاولة كما كنت أصنع عندما كان أعزب. ثم تأتي زوجته.. تدخل الغرفة وبين يديها شيء أحسبُه «قِدرةً» ملفوفة. ثم أكتَشفُ أنَّه آخرُ العُنقود. وأقولُ لهما: ما شاء الله. ثم يصرُّ صاحبي على أن أُبحلقَ في خِلْقةِ هذا الوليد المكَوْفَل. فأقول: يَتربَّى في عزِّك! وتريدُني أمُّ الولد أن أكَاغِيَ له، فأقولُ لها إنها خلَّفتْ أحلى ولد في الدنيا. وأنا أحاولُ تغيير الموضوع. فيعودُ الأب ليحكي لي عن أسعار البمبرز، وتحاولُ الأم أن تصفَ لي ساعاتِ نوْمِهِ وقَوْمِهِ ومِزاجَه في الرِّضاعة، وفي إخراج «الرِّضاعة» من الطرف الآخر. وتهجُمُ عليَّ، وأنا في هذه الورطة، البنتُ الكبيرة لهؤلاء القوم وعمرُها ثلاثُ سنوات. ويجب عليَّ أن أدلِّلَها. وأن أقولَ ما شاء الله. البنت طبعاً غَيرَى من الاهتمام الذي يلقاهُ أخوها الوليد. وأنا من ساقَه الله ليصلح الأوضاع. وعن أيِّ شيءٍ بربِّك أتحدثُ مع بنتٍ عمرُها ثلاثُ سنوات؟ أقول لها: يا عمِّي أنت تُحِبينَ الرُّزّ. فتأخذ بإصدارِ أصوات عجيبة وتتدلَّعُ عليّ. وأفكِّرُ في موضوع آخر. أقول لها: نريد أن نرمي حُوحو للقطَّة لكي تأكُلَه. وحوحو، عزيزي المستمع، هو اسم الولد المكوفل. سمَّوْه على اسم جدِّه محمود. طبعا البنتُ الصغيرة تنشرح ُللفكرة، مع أنها لا تحبُّ أن أُجرِيَ اسمَ حوحو على لساني. المشكلة ليست هنا. المشكلة أن الأم خرجت غضبَى من الغرفة، لقد زعِلتْ من هذه المزحة. نرمي حوحو للقطة! ما هذا المزاج الشرَّاني. الأب يحاول تلطيف الجو. يشرح ليَ المزيد عن حوحو، والبنتُ الصغيرة تصاب بمسٍّ من الجنون، وتحاول لفت النظر برميِ الأشياء على الأرض. أبوها

يصفعُها على يدِها. وهات يا صراخ. وأنا أستغلُّ الفرصةَ، وأستأذنُ بلا قهوة. الواقع أن الخروج من عند الناس بلا قهوة غلط، لكنَّ البقاءَ وتناولَها يكون أحياناً غلط غلط.



٨٥ يلوث أذهان الفتية بالأحلام

عزيزي المستمع، جلس ضيفُنا العزيز في صدر المجلس. وجلسنا جميعاً حوله نرحبُ به أشد الترحيب. رجلٌ في أواسطِ الثلاثين.. مهندمٌ مغتربٌ عائدٌ في زيارة. أحسدُهُ والله حسداً دفيناً على هذه الثقةِ بالنفس. صوت عالٍ. وكلام كأنَّه خِطاب، أو كأنه كلامُ مذيع. يسأل فتىً في التوجيهي عن مخططاته: طبعا الشاب يتمنَّى أن يدرسَ في الخارج. قال له: بسيطة، أدبِّرُك في أحسن جامعة. لا عليك من المعدل، هات ستين، خمسة وستين وستدخلُ أكبر جامعة. أنت فقط تأتي عندي والباقي عليّ. والتفت الضيفُ المغترب إلى والد الشاب وقال له: أبو العبد.. أمانة عليك، وأمانة في رقبتك. أنا قلت ما عندي، والباقي عليك. لا بل أزيدُك من الشعر بيتاً: حتى لو توجيهي ساقط، لا سمح الله، اِبعثه عندي. ثم يلتفت الضيفُ العظيم إلى الجدِّ العجوز ويقول: عمي أبو فلان، وما أخبار أرض الجبل؟ يقول العجوز: في مكانها. يقول الضيف: دفعتُ لهم أمس فيها نصف مليون، وهم أحرار. ثم.. بيني وبينك.. ما هو النصف مليون.. أو حتى المليون بالنسبة إليّ.

وتلمعُ أعينُ الفتيانِ والفتيات. البنتُ الصغيرة تتمنَّى أن تكبُرَ بضعَ سنوات حتى تتزوجَ من هذا الرجل. والشاب الذي يشتغل في دكانِ العائلة يقول في نفسه: ليت هذا الزائر الرائع يشغِّلُني عنده في أميركا في أي سوبرماركت. أو ليتَه يفتح مشروعاً هنا وأشاركه.

لا يخرج ذلك الضيف من البيت إلاَّ وقد لوث أفكار كل الموجودين بأحلامٍ رائعة. طبعا ما عدا العجوز. بعد انصراف الضيف يقول العجوز: مسكين أبو حسن. مصيبتُه في ابنه كبيرة. يقعدُ وسط الناس يتحدث ويكذب، وهو يسحبُ المال من العائلة. لقد باع أبوه السنةَ الماضية قطعةَ أرض ليرسلَ له مالاً حتى يتزوَّجَ زيجة مزيفة ليأخذَ الجنسية. والآن يصِرُّ هذا الولدُ الفاشل على أن تبيعَ العائلةُ هنا البيت الكبير.. حتى يفتحَ مشروعاً في أميركا.. أبوه لا يريد، وأمّه تقول: نبيعُ البيت ونستأجرُ شقة صغيرة.

هذا الولد الفاشل سيخرِّبُ بيتَ أهله. هذا هو كلام العجوز وهو صحيح. ولكن هاتِ أَقنِعِ الشبانَ والفتياتِ المسحورين بشخصية الضيف الخطير بأن كلَّ ما قاله غلط غلط.



٨٦ «حلوة».. هذا اسمها لا غير

عزيزي المستمع، أحدِّثُك عن امرأةٍ عجوز اسمُها حلوة، لقد طَعَنَتْ في السنِّ إلى حدِّ أنه لم يَعُدْ بإمكاني أن أتصوَّرَ كيف كان شكلُها وهي شابَّة. إن اهتمامي بعجائزِ القرى يعود إلى يومِ عرفتُ هذه المرأة، واسمها حلوة. وحلوة اسم من أسماء النساء في بلدنا.

حلوة.. رأيتها في دكان في قرية، دكان فيه علبةُ سمن يبيع منها صاحب الدكان بالمفرق، وفيه سجائر، وفيه حلوى للصغار، وقليل غيرَ ذلك. كانت حلوة تجلس على تنكة.

دخلتُ دكان القرية، ووجدتُها هناك. قالت: من تريد؟ قلت: فلانة أمَّ فلان. وهي والدة صديقي ورفيق غربتي، جئت أقولُ لها إن ولدَها بخير، وإن عهدَ التحويلات قد مضى، فإن كان عندكم أنتم مالٌ فحوِّلوه لولدِكم. قالت لي حلوة العجوز: فلانة تعود بعد كذا. وأخذت نفَساً وبصقت، ثم شتمتْ ولداً يركض عند باب الدكان. ولفَّتْ من تبغِها سيجارةً، وطلبت من البائع كبريتاً، فقدح لها عوداً على طرف علبةِ الكبريت على حساب الزبون القادم محترساً ألا يظهر أثرُ القدح في جانب العلبة. دخَّنَتْ وهي ساهمة. توقعتُ أن تأخذَ في الشكوى، ولكنها لم تكن من هذا الطراز. راحت تتحدث حديثاً متفائلاً عن الموسم والحصاد والشؤون العامة. وعندما انتهت سيجارتُها إلى عقبٍ يُحرقُ الأصابع ألقت، بإصبعين خبيرتين، بزَّهْرةِ السيجارة المشتعلة أرضاً ثم فركت عقب السيجارة بين راحتيها، ووضعت فتات التبغ المسود تحت لسانِها. ولم تكد تخفُتُ دهشتي من فعلها، حتى قالت كلاماً ما زال يدهشني حتى يوم الناس هذا. قالت لي وهي تهمُّ بالقيام: جنس النسا غضيب الوالدين، إذا كانت المرأة جميلة تلهَّى بها الرجال، وسعِدَتْ هي بذلك، فتصير حيواناً. وإذا كانت قبيحةً.. إيه. وتنهدت حلوة ثم تابعت: القبيحة إن دارت على شهواتها عاقبها الناس، وعاقبتْها الطبيعة، وإن كَبَتَتْ تعقَّدَتْ، وإن تزوجت فتلك العبودية. ثم خرجت من الدكان بلا سلام.

قال لي البائع، بعد أن هزّ رأسه، لقد خلفت عشرة، من ثلاثة رجال لم يمُتْ عنها منهم واحد، بل طلَّقتْهم واحداً واحداً. نصفُ البلد من أولادِها وأحفادِها. ويقولون إن نَفسَها ما زالت خضراء. هززت رأسي بدوري وقلت: وما الغلط؟ ما الغلط؟

٨٧ الضيف العّياب

عزيزي المستمع، أحدثك اليوم عن الضيف العيَّاب. تعزمه على أكلة فيلتفتُ يميناً وشمالاً قبل أن يجلسَ إلى المائدة ثم يمدُّ يدَه. العيَّاب لا يكاد يضعُ اللقمة الأولى في فمه حتى تدورَ عيناه في محجريهما، وكأنه يتذكَّرُ شيئاً حدث منذ سنوات، ثم تلمع الفكرة، فيهز ذقنه كالحرباء ويقول لك: «تذكَّرْت.. لقد أكلنا هذه الأكلة في المحل الفلاني، وكانت مدهشة. كان سمنُها بلدياً وتوابلُها كذا وكذا. آه على تلك الأكلة.. كانت متقنةً حقاً.» ثم يروح يعيبُ طعامك بإظهار محاسن غيره. وهو – بعدُ – يمضغُ لُقَمَه بصوت، ولا يجدُ لذةً في الأكل إلا بهذا الصوت، كأنما هو به يجُرُّ اللقمة على حلمات التذوق المنتشرةِ على لسانه.

وقد يكون هذا العياب ضيفَناً: أي أنه يكون غير معزوم بل سحبه أحد ضيوفك معه (وهذا هو الفرق في العربية بين الضيف والضَّيفَن). وقدْ تكونُ أنت من طيب النفس وسماحة الخلق بحيث ترحب من قلبك بالضيفَن. ولكنك لن تحتمله إن كان من هذا النوع حتى لو كنت نبيَّاً.

وقد يحدث أنك عند حضور الطعام واكتمالِ المائدة تدعو الضيفَ الإضافي فيعتذرُ بـأنه تغدَّى متأخراً، فتحلفُ عليه حَلْفةً بسيطةً هيِّنةً لرفع العتب فيقول لك: لا حولَ ولا قوةَ إلاَّ بالله ! لولا أنني أُجِلُّك عن الحنث بيَمينِك لما أكلتُ لقمة. ثم يقومُ إلى المائدة ويُثْبِتُ بالدليل القاطع أنه لم يتغدَّ لا متأخراً ولا مبكراً، بل إنه لم يأكل في يومه شيئاً. ويأكُلُ من طعامك أكلاً ذريعاً. وأنت تنزعج. ليس لأنك بخيل، ولا لأن هذا الثقيل ليس من أحباب قلبك حتى تتمنى أن يأكل كل شيء ولا يبقي على حبة أرُزٍّ فما فوقها،

ولا تتزعج لأنه ليس بالفقير الذي تتصدق عليه وتحتسب أكلَته عند الله، ولا تنزعج لأنه بغيض وكذّاب؛ أنت تنزعج لسبب آخر: لأنك لا تستطيعُ أن تقول كلمةً سيئة عن ضيفك، وتجد من واجبك أيضاً أن تكرم ضيفك ضيفك، فأنت تتَّبعُ نصيحة البهاء زهير الشاعر إذ يقول:

ما قلتَ أنت ولا سمعتُ أنا　　هذا حديثٌ لا يليقُ بنا

إن الكرامَ إذا صحبتَهُمُ　　سَتَروا القبيح وأظهروا الحسنا

ومع ذلك ينصرفُ ذلك الضيفَنُ الثقيل من عندك وأنت تقول في قلبك: كلُّ سلوكهِ غلط غلط.

٨٨ سَجَعات الفقهاء

عزيزي المستمع، كان أبو العلاء المعري يسمي نفسه «المستطيعَ بغيره»، فهو رجل أعمى يستطيعُ التأليف لكنْ بمساعدة كاتبٍ يستملي منه. وقد استوقفَتني هذه العبارة «المستطيعُ بغيرِه»، وقلت في نفسي: هذه مستعارة، وبحثتُ فوجدتُها من تعابير الفقهاء، فالغنيُّ المريض يستطيع الحجَّ ولكن ليس بنفسه، بل يوكِّلُ ويموِّلُ من يحجَّ عنه، فهو مستطيعٌ بغيرِه.

لعبارات الفقهاء وسَجَعاتِهم طعم خاص. منها عبارة «جافٌّ على جافٌّ، طاهرٌ بغيرِ خِلاف» وقد كان في حيِّنا شيخٌ يؤُمُّ المصلِّين في المسجد. ثم عزلَتْه دائرةُ الأوقاف وعينت شابّاً يحمل شهادة البكالوريوس في الشريعة من الجامعة. بعد ذلك العزل والتعيين سخِرَ بعضُهم من الشيخ القديم، واستكثَرَها بعضُهم على الجديد. وقد صار الشيخ الجديد يجمعُنا في حَلْقةٍ بعد صلاة العصر يقرأُ علينا صَفَحاتٍ من كتابٍ في السيرة. ويقفُ بعد كل فقرة لكي يدليَ بدَلْوِه فيضيفُ من عندِه معجزاتٍ وأحاديثَ نبوية، وكان يحبُّ أن يسفِّهَ آراءَ المشايخ، ثم يستغفرُ الله لهم ولنفسه وللسلف الصالح. وبينما نحن نصغي إليه في درسٍ من تلك الدروس دخل الشيخُ القديم إلى المسجد،

وصلَّى صلاتَه على مقرُبَةٍ من الحَلْقة. ولاحظْنا أنه لم يخلعْ خُفَّه. ولاحظ إمامُنا ذلك. فلما انتهى الشيخ العجوزُ من صلاته رفع إمامُنا الشاب صوتَه معترضاً على الخُفّ. فتقدَّمَ شيخُنا القديم منه بِتَؤُدَة وأمسكَ بشحمةِ أُذُنِه، وقال له: «جافٌّ على جافٌ، طاهرٌ بغيرِ خلاف». وانصرف. وشمِتْنا بالشابِّ المغرور بعض الشماتة. وطربنا كل الطرب لتلك القاعدة الفقهية من باب الطهارة. ومرَّ بنا بعدئذ زمنٌ مَلِلْنا فيه من الشيخ الجديد الذي يصرُّ على التمسك بحديثِ المعجزات دون أن يلتفتَ إلى احتياجاتِنا نحنُ الشباب. تماماً مثلما كنَّا ملِلنا قبلئذ من الشيخ العجوز الذي كان يكره الشباب.. ولا يعرف كيف يتعاملُ معهم أصلاً. ولعلنا كنا في الحالين غلط غلط.



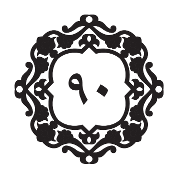
٨٩ التاريخ المنقَّى من الشوائب

عزيزي المستمع، الزنوج في أميركا تعرَّضُوا لمحنةٍ فيها درس وعبرة. الجيل الأول منهم كان يغنِّي أغنياتِه الإفريقيةَ ويرقصُ ويتكلم باللغات التقليدية. الجيلُ الثاني أضاع تراثَه بسبب العبودية والقهر وتحول إلى جيلٍ من الوحوش. صار الزنوج قطيعاً. ونطقوا بالإنجليزية وتعلمَ منهم من تعلم، ولكنهم لم يستعيدوا إنسانيتهم إلا عندما استعادوا الاعتزاز بلونهم، وتمسَّكوا بما استطاع ذهنهم الجماعي - التاريخي استحضاره من التراث. والآن نرى الزنجي الأميركي يتمسَّكُ بجذورٍ، بعضُها وهميٌّ وبعضها مصطنع، ولكنها الشِّريانات التي تحمل إلى قلب الزنجي ما هو له أهل من الآدمية.

تراثنا عامر بالتقوى والفاحشة، بالعدل والظلم. التمسُّكُ به لا يعني الموافقةَ عليه، ولكن فهمَه يقتضي التفريقَ بين الطيب والخبيث. الكتبُ المدرسية تغربِلُ التاريخ ولا تذكرُ للأجداد إلاَّ الحسنات. ولهذا تأتي ردَّةُ الفعل في سن البلوغ عنيفة ومريضة وجاهلة. والحل لا يحتاج إلى ابتكار، فكثير من الأمم حلت معضلتَها التراثية.

الفرنسيون يدَرِّسونَ أولادَهم تفاصيل عهد لويس الرابع عشر: فقد جعل فرنسا مَهيبة، وكان بلاطُه كعبةَ الفن والأدب ومباءَة الدسائس والأَبَّهة. ويدرِّسونَهم تاريخَ

الثورةِ الكبرى بما فيه من جوانبَ مضيئةٍ ومن سفكِ دماء. ويقولون لهم إن نابليون كان عسكرياً فذّاً، وحاكماً متسلِّطاً، وكان ذكياً وأنانياً ألخ.. الطفل الفرنسي لا يفاجَأُ عندما يكبُر. ولا يرتدُّ عن تراثه. وهم يفصِلون بين الدين وبين تطبيق رجال الحكم ورجال الدين للدين. أما أن نعلِّمَ أولادَنا أن كلَّ شيءٍ صنعَهُ أجدادُنا صحيح فهو غلط غلط.

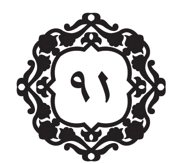


٩٠ قيس بن عاصم لم يرفَّ له جَفن

عزيزي المستمع، أحدِّثُك اليومَ عن الأحنفِ بن قيس. قيل في المثل (أحلمُ من الأحنف). الأحنف بنُ قيس كان رئيسَ تميم. وقد قال يوماً: ثلاثٌ ما أقولُهنَّ إلا ليعتبرَ معتَبِر: لا أخلُفُ جليسي بغيرِ ما أحضرُهُ به، ولا أُدخِلُ نفسي فيما لا مَدخَلَ لي فيه، ولا آتي السلطانَ أو يرسلَ إليّ. سُئِلَ الأحنفُ يوماً: هل رأيتَ أحْلَمَ منك؟ قال: نعم، ذلك قيسُ بنُ عاصم. حضرتُه يوماً وهو مُحْتَبٍ يحدِّثُنا (والاحتباء هو أن يقتعدَ المرء الأرض ويجمعَ بين ظهره وركبتيه بشال أو نحوَه، فيكونُ كأنه أسنَدَ ظهرَه، وكانت سادةُ العرب تحتبي بأردِيَتِها إذا جلست مجلساً طويلاً ولا جدار تتَّكِيءُ عليه).. إذن فقد شهد الأحنف قيسَ بنَ عاصمٍ في مجلسه وهو محتبٍ يحدثهم بحديث، ثم فجأةً إذا قومٌ قد دخلوا عليهم وهم يحمِلونَ ابناً لقيسٍ قتيلاً، ويجرُّونَ ابنَ عَمٍّ له كَتيفاً بحبل، قالوا لقيس: ابنُ عمِّكَ هذا قتل ابنَك. فلم يقطعْ قيسٌ حديثَه، ولا نقَضَ حَبْوَتَه حتى فرغَ من حديثه، ثم طلبَ منهم إحضارَ ابنٍ آخرَ له، فجاءَ ابنُه الثاني يلهث، فقال له: يا بنيَّ قُمْ إلى ابنِ عمِّكَ فأطْلِقْه، وقم إلى أخيكَ فادفنْه. ثم اذهبْ إلى أم القتيلِ فادفع لها مئةَ ناقة، فإنها امرأةٌ غريبة لعلها تسلُو عنه.. كلُّ هذا ولم يتحركْ قيسُ بن عاصم من مجلسه.

الحلمُ سيِّد الفضائل. وكان الحكماء من أمثال الأحنفِ أو قيسِ بن عاصم إذا سادوا قبيلتهم ازدهرت، وابتعدت عن النزاعات وزاد ما عندها من خيرات وعاشت عيشةً هانئة. وإذا ساد القبيلة شيخ غضوب يرفع السيف دون أن يحسبَ حساباً، ويوردُ أهلَه موارِدَ الهلاك بالتَّطاولِ على القبائل الأخرى، فعندئذٍ سَرعانَ ما تدخل القبيلة الحروب، وتدفعُ الثمن من دماء أبنائها ومن رزقها. وقد عرفت قبائلُ العرب الحديثة زعيمين من هذا القبيل أحدهما ظل يدخل في الحروب حتى جاءتْه أم المعارك وكان

سلوكُه الأحمق وبالاً على بلده. والثاني أراد إيذاء أعداء الأمة بدفع المال للحركات السرية الأجنبية وبالقيام بتفجيرات حمقاء، وفي النتيجة دبَّروا له التدبيرات وجعلوه يدفع ثَرَواتِ بلدِه لهم، وظل مع ذلك يقفز فوق المنابر كالقرد. ولهذا الزعيم معجبون. ولئن كان هو وصاحبه الأول واقعيْن في الغلط، فإن موقف أولئك المعجبين غلط غلط.

 التلفون النقّال

عزيزي المستمع، أعودُ بك مئةً وأربعين سنةً إلى الوراء لأحدِّثَكَ عن الكاتب الأميركي (مارك توين) فقد جاءَه يوماً شابٌّ اسمُه ألكسَندر وقال: اشترِ مني أسهُماً في اختراع جديد سأقوم بتصنيعه ونشره. قال له مارك توين: وما هو اختراعُك هذا؟ فقال ألكسندر: إنه يجعلك تتحدث من مكتبك هنا مع زوجتك وهي في البيت بعيدةً عنك مئات الأمتار، وبدون صراخ، فالكلام يمر عبر الأسلاك. قال مارك توين للمخترع: أنا لست غبيّاً فأُلقيَ بأموالي في مشروع سخيف كهذا. وخسر مارك توين فرصةً ليصبحَ مليونيراً. فالمخترع «ألكسندر غريهام بِلْ» نجح في تسويق التلفون، الذي صار أهم اختراع في الدنيا ثمانين سنة حتى جاء التلفزيون فتفوق عليه. ولكن، منذ عشرين سنة جاء الأخ الأصغر للتلفون لكي يُلْحِقَ بالتلفزيون ضربة موجعة. جاء النقال أو المحمول أو الموبايل أو الزفتُ المغلي. ومثلما للمصيبة في اللغة العربية مئات الأسماء لهذا التلفون المحمول مئات الأسماء. يسمونه بشاراً والفراشة ويسمونه أشياءَ إن تُبدَ لكم تسؤْكُم وخاصة إذا كنتم آباءً موسرين بعض اليَسار، وأراد أبناؤكم أن ينهبوكم لكي يشتروا الموبايلات الملونة أو التي تزمِّر. طبعاً ولدُك سيقول لك: لا أريد منك قرشاً واحداً يا أبي، أنا أشتري الموبايل من عيديَّاتي. وعيديَّاته هي من عمو وخالو. وأنتَ طبعا ستعيِّدُ أبناء عمو وخالو ليشتروا موبايلات. الموبايل فاجأ الناس. لم تتوقع أية شركة أنه سيصبح ضرورةً لكل شخص. لم ينجح أحد في التنبُّؤ بالصورة التي انتشر بها الموبايل. لم يتخيلْ أحدٌ أنَّ البشر ثرثارون إلى هذه الدرجة. كان الولد يخرج من البيت في مشوار فنسلِّمُ أمرَنا لله، ولا نقلَقُ عليه إلاَّ إذا تأخرَ في الليل. والآن صرنا نتلفن له كلَّ

خمسِ دقائق للاطمئنان. زادنا الموبايل قلقاً. ولو فرغت بطارية موبايل الولد، أو ضاع تلفونه، أو لو أغلقه لسبب ما، فستقوم قيامتُنا من القلق. الموبايل حتى الآن لعنةٌ كبرى. لكن إذا ظننتَ عزيزي المستمع أنني أنتقل من غرفة إلى غرفة بدونه فظنك غلط غلط.



٩٢ إسرائيل تفكك عصاباتها

عزيزي المستمع، أغلبُ ظني أنك لم تكن واعياً في سنة سبع وستين عندما احتل الإسرائيليون الضفة الغربية وغزة. لعلك لم تكن مولوداً. الذين احتلونا كانوا متقشِّفين إلى حد كبير. سياراتُهم كانت من الموديلات القديمة، وكانوا مجتمعاً متكافلاً أقربَ إلى الاشتراكية. وكان جهازُهم الحكوميُّ فعَّالاً. عندهم قوانينُ صارمة تطبَّقُ على الجميع، والضرائبُ عالية، ويصنعون كل شيء، فإذا استوردوا بعض السلع فالجمارك عليها كبيرة. يسكنون في قرىً تعاونية ناجحة صناعياً وزراعياً، وعندهم مؤسسات قوية. نسبةُ الفساد عندهم منخفضة بكل المقاييس، ونسبة الترهُّل الإداري كذلك، وظواهرُ شرب الشاي والقهوة في الدوائر شبهُ معدومة. أما الجيش عندهم فكان ناجحاً من حيث الانضباط بشكل متميز. ففي اليوم الأول لنشوء دولتهم فكَّكُوا العصابات الصهيونية وجمعوا السلاح كله تحت راية جيش واحد، ومنعوا هذا الجيش من التدخُّل في السياسة. وجيشهم كان ناجحاً من حيث التدريبُ ومن حيث التجهيزاتُ والصناعاتُ العسكرية. منذ الأيام الأولى لدولتِهم تحول الإرهابيون المجرمون إلى ساسة يمارسون الحكم في الوزارات والبرلمان.. حتى بيغن وشامير ورابين.. كلُّهم مارسوا الإرهاب قبل الدولة.. وصاروا بعد نشوئها من السياسيين الذين يمارسون إرهاب الدولة، وتركوا السلاح للضباط والجنود.

طبعا في حالتنا نحن، لم نحقق الدولة بعد، فلا أريد أن أقارن. وأطلب منك عزيزي المستمع ألا تقارن.

لكن عندما نسعى نحو الاستقلال يحسُنُ بنا أن نأخذ بعض الدروس. نحتاج إلى أن نبنيَ جدارتَنا. أن نكونَ جديرين بالاستقلال. نحتاجُ إلى التقشُّف. فبدلاً من أن نفرح

على أموالِ الدول المانحة ونبذِّرَها، ربما وجبَ علينا أن نشيِّدَ بها مؤسساتٍ فعَّالة، واقتصاداً قوياً، وتعليما عميقاً وحقيقياً. ما فعلناه حتى الآن هو شراءُ عدد كبير من السيارات الفارهة وإنفاقُ المال الكثير على معاشات ناس لا يعملون شيئاً. بينما تركنا التعليم المدرسي والجامعي ينحدرُ ويصبحُ هزيلاً بالمقارنة حتى مع دول عربية كانت في الماضي أضعفَ منا في المستوى التعليمي. أنا مثلك عزيزي المستمع، أسمعُ كثيراً عن الإصلاح. وفي رأيي أن الخطط والبرامج المطروحة كلَّها شكلية وليست حقيقية. أعتقد أن نقطة البدء يجب أن تكون في توفُّر الإخلاص والأمانة والصدق والتقشف ووجود قانون يسري على الجميع، أنا أعتقد - واسمح لي بهذه الكلمة - أن ممارساتِنا على مدى السنوات الثماني الماضية كانت غلط غلط.



٩٣ العربيد في سكره.. عربيد في صحوه

عزيزي المستمع، عندي نظرية أثيرة إلى نفسي، أحبها وأصدقها وأتعامل معها كأن البراهين قامت على صحتها، أو كأنها بديهية كنظرية الجاذبية. نظريتي تقول: العربيد في سكره، عربيد في صحوه. مرّ بي ناسٌ رأيت الواحد منهم يكون هادئاً، فإذا ما سكر وانتشى صار شرساً مؤذياً يعربد على أصحابه، واستنتجتُ بعد طول المعاشرة أن مثل هذا الشخص يكون في حال صحوه مؤذياً وعربيداً لكن بصورة خفيَّة، ويكونُ شريراً وغادراً.

وبما أن هذه نظرية فهي تنطبق على أمثلة مختلفة. إذن فعلينا أن نترك السكر والعربدة جانباً ونتَّجِهَ إلى مثال آخر. نعم، يجب عليَّ تغيير المثال حتى لا أعطيَ الناسَ انطباعاً بأنني أقضي سواد ليلي في الحانات.

المثال الآخر: العجوز الخرفُ كان فيما مضى شاباً خرفاً. ومعنى ذلك – حسب نظريتي – أن الإنسان الذي يضطرب تركيزه، وتختلط عليه الأشياء عندما يشيخ إنما يكونُ الاستعدادُ موجوداً عنده وهو شاب.. لكن يكون ذلك خفياً. أَرى شابَّاً يفكر بطريقة غير منطقية، ويسرحُ ببصرِه في سقف الغرفة وأنت تكلِّمُهُ؛ ثم آخذُ بتخيُّلِ شيخوختِه، وأتصوَّرُهُ عجوزاً خرِفاً، سمعُهُ ثقيلٌ مثلَ أبو مرعي جدِّ فيروز في المسرحية. وإليك

تطبيقاً ثالثاً على النظرية: الغنى يجعل الشخصَ الدنيء أكثر دناءةً.. وكذلك الفقر.

ربما يكونُ معنى كلامي أن جوهر الإنسان لا يتغير كثيراً لا بالسكر ولا بالهرم ولا بالفقر ولا بالغنى. ولو أنني قلت لك إن الفكرة جديدة. أو مبتكرة فاعلم أن قولي غلط غلط.

٩٤ عاد المغترب، ثم عاد

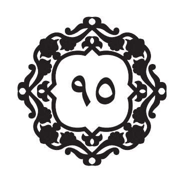
عزيزي المستمع، لي صديق عاد من سفر طويل وكانت له حكايةٌ قصيرة. في البداية أحبُّ أن أصِفَه لك: كثيرُ الصمت، ابتسامتُه جميلة وخجولة، لكنه صاحبُ موقف، وهو رجل صُلْبٌ وسبق له أن حملَ السلاحَ ثائراً مدافعاً عن قضيَّتِه، ثم طوَّحتْ به الأيَّامُ في المنافي، واشتغلَ مع أهله في التجارة حيناً ثم تعلَّم مهندساً على كِبَر. وعمل في تخصُّصِه في شركاتٍ في الخارج سنواتٍ كثيرة.

عندما عاد إلى البلاد استقبلْتُه وجلستُ معه. هو نفسُ الشخص الصامت الخجول المبتسم الذي كانَهُ في مطلع شبابه.

ذهب إلى مؤسسةٍ ليطلبَ عملاً. وهو يعرفُ أنه يملكُ خبرة نادرة وتخصُّصاً البلدُ بحاجةٍ إليه. مدير المؤسسة تحدث معه ورحب به، وعندما ودَّعه سلم عليه بحرارة ووضع يده على كَتِفِهِ. وربَّت على كتفه ثلاث مرات، وكان الوعدُ أن يمرَّ صديقي على المؤسسة بعد ثلاثة أيام. في هذه المرة ذهبتُ معه. استقبله مدير المؤسسة بحفاوة كبيرة، وأكد له أن خِبْراتِه عظيمة، وأن البلدَ مشتاقةٌ لرجوعه وظمأَى إلى مهاراتِه، وكرر وعدَه. فنظر إليه صديقي نظرتَه البريئةَ مع ابتسامتِهِ العذبة وقال: أنتَ وعدتني قبل ثلاثة أيام. والآن ماذا عندك؟ فراح مدير المؤسسة يتحدث بكلام عام عن الوضع والظروف، وعن أهمية المهارات، ووقف وهو يكرر الوعود الكبيرة. وقف كإشارة إلى انتهاء المقابلة. فوقفنا نحن الاثنين. خرج المدير من وراء مكتبه وسلَّم عليَّ ثم مدّ يده وسلَّم على صاحبي وبيده الأخرى ربت على كتفه.. ربَّت ثلاث مرات. فرمقه صاحبي بنظرة عذبة، لكني أحسست أنها مصنوعةٌ من الفولاذ. قال له صاحبي: لماذا تربِّت على كتفي؟ وأتبع هذه العبارة بابتسامة عذبة. ضحك المدير. فعاد صاحبي وكرر السؤال.

فارتبك المدير. فقال صاحبي بهدوء وبابتسامة: الذي يربِّتُ على أكتاف الآخرين، ويعاملُهم معاملةً أبوية يجب أن يكون قادراً أن يحفظَ وعدَه. ارتبك المدير وفوجيء. ووسط ذهوله قال له صاحبي: السلام عليكم. وانصرفنا.

وبعد أسبوعين كان صاحبي يركبُ الجوَّ عائداً إلى المهجر. فهل كان سلوكه غلط؟



٩٥ شراء صفقة السماق

عزيزي المستمع، أريد أن أشتريَ نصفَ كيلو سُمسُماً، وأُوقِيَّةَ سُمَّاق. بالعربي الفصيح أنا أصنعُ الزعتر في البيت على طريقة أمي. ارتكبت الغلطة الفاحشة، وقلت لصاحبي إنني ذاهب لشراء السمسم والسماق. فقال لي: لا تذهب عند فلان ولا عند فلان.. وتعال معي.. تعال! ذهبتُ معه. أخذني عند ابن عمه، وسَحَبَهُ من الشركة التي يشتغلُ بها، وذهبنا نحن الثلاثة. ابنُ عمه يعرفُ بائعاً عنده بضاعةٌ نظيفة. ذهبنا إلى البائع.. ومعنا الواسطة الثقيلة. واشتريت السمسم والسُّمَّاق بعد أن تحدَّثَ ابنُ العم مع البائع وعرَّفه عليّ. نصفُ كيلو سمسم وأوقية سمّاق.. فقط. لكن لا بد من المعرفة.. ومن الواسطة، ومن السمسرة الاجتماعية الكريهة.

أردتُ أن استخرج شهادة نفوس.. شهادةَ ميلاد لأحد أفراد الأسرة. وارتكبت الغلطة الفاحشة، وذكرت ذلك أمامَ نفر من الأصحاب. ثلاثة منهم استلُّوا الهواتف النقَّالة، وراحوا يدقون عليها يريدون أن يكلموا المسؤول الفلاني أو الفلاني لكي آخذَ شهادة النفوس على الواقف. يا جماعة! أنا لا أريدُها على الواقف. أريدُ أن أتصرَّفَ كمواطن.. أن أقفَ في الصف، وأن أدفعَ الرسوم، وأن أنتظر يومين، ثم أعودَ لتسلُّمِها. أنا لا أريد أن أكون متميزاً. لا أريد أن أشرب فنجانَ قهوة عند مدير الدائرة، ويدقَّ المدير على الجرس لتأتي السكرتيرة وتأخذ معاملتي، وتنجزها لي قبل أن ينتهيَ فنجانُ القهوة.

أيها المجتمع الكريم! أعطِني فرصةً لكي أعيشَ كمواطن مجهول. أنا رجلٌ أشتغل أحيانا في التعليم. أعقد دورة من الدورات ويسجِّل فيها عشرون طالباً، ونبدأ على

بركة الله، ثم يأتيني طالب ويقول: يسلم عليك عمي.. يطلب إعفاءً من الرسوم. ويأتيني آخر يقول إنه قادم من طرف فلان ويطلب مراعاة في الحضور والغياب، ويأتي ثالث عنده حالة خاصة. أيها المجتمع الكريم كلَّ يوم أزدادُ اقتناعاً بأنك غلط في غلط.

٩٦ الخبرة والكرتونة

عزيزي المستمع، حديثي عن رجلٍ اشتغلت معه في إحدى الجرائد في الخليج، رجل عراقي في الستين من عمره. وكنتُ أنا في العشرين كان يحب أن يلعب طاولة الزهر معي بالذات لسبب غريب. كنتُ مثله أقرأ الزهرات بالفارسية، فالخمستان دوبيش، والأربعة والخمسة بيش دُرْتْ، والواحد مع الاثنين إِكْ كِبير الخ، وكان لا يحب من لا يحفظ هذه الأشياء، ولا يرى اللعبة ممتعةً إلا بألفاظها الفارسية تلك.

تراه عندما أغلطُ في تحريك حجر أو أتركُ ثغرة، ثم يأتي دورُه يسدُّها بضربة قوية يصفِقُ فيها الحجرَ في الخانة صفْقاً، ثم ينبِّهُني إلى غلطي، لكنه كان إذا خسرَ انعكسَ مِزاجُه.. ولا يعتدلُ إلا عندما نغادرُ المقهى، ونذهبُ لنأكلَ حلوى تشبه المطبَّق عند محلٍّ مجاور.

هذا الرجل.. واسمه أبو الطاهر، رجل عراقي في الستين - أنا متذكِّرٌ أنني قلت لك ذلك.. لكنني أُعيدُ عليك - وكان يعمل في الجريدة في قسم الترجمة. كان المرجعَ الذي يرجعُ إليه الجميع. وكان يعمل في القسم نفسِه رجل مصري يحمل الدكتوراه في الأدب الإنجليزي، وآخرُ فلسطينيٌّ معه ماجستير في شيء آخر ودرس في إنجلترا أكثرَ من أربعِ سنين. لكن أبا الطاهر كان المرجع. وكان يصحِّحُ لصاحب الدكتوراه ولصاحب الماجستير. وكان يصحح لهما ليس فقط الخطأ في التعبير العربي.. بل كان يصححُ لهما فَهْمَ النص الإنجليزي. أبو الطاهر كان لسانه نظيفاً. لكنني رأيته يوماً هائجاً هياجاً عجيباً. لقد كبُرَ ابنُ صاحبِ الجريدة وأكمل دراستَه في الجامعة وصار مديرَ تحرير، وأرادَ أن يعين صاحبَ الدكتوراه مديراً لقسم الترجمة. رفع أبو الطاهر صوتَه، وتهجَّمَ على ابنِ صاحب الجريدة، وخرج من مكتبه وصفق الباب. وذهب إلى منضدتِه وجمع أوراقَه وانصرف.

الذي أصلح الموقف هو صاحبُ الجريدة العجوز غيرُ المتعلم، فقد قال لولده: يا بني، أنا لا أعرف كيف أحدد مستوى المترجمين، فأنا لا أفهم من الإنجليزية كلمتين.. ولكنني أنظر كيف يتعامل المترجمون مع أبي الطاهر: أراهم كلما اختلفوا في شيء ركضوا نحوه ليحكم بينهم، ألا تظنُّ أن هذه الشهادة منهم بحقه أحسنُ من شهادات الجامعات؟ سكت مدير التحرير ابن صاحب الجريدة وفهم أن موقفه كان غلط غلط.

٩٧ الويسكي، وُقيت خيره وشره

عزيزي المستمع، ترى المرأةَ في دعاية التلفزيون في بيتِها مع أولادها، ومع ذلك فهي محجَّبة في لبسها. ترى وجهَها الصبوح.. ولكنْ، ممنوعٌ أن ترى الشعر.

إذا كنت صبوراً وجلستَ دقيقةً أخرى على التلفزيون فسوف ترى المرأةَ نفسَها في دعايةٍ قادمة وشعرُها يهفهِفُ وينسابُ على كتِفيها، وسترى تنورتَها فوق الركبة بشبر.

الدعاية الأولى مصنوعة حسب المواصفات الخليجية، فإخواننا في الخليج محافظونَ ويحبُّون الدينَ حبّاً جماً. والدعايةُ الثانية مصنوعة حسب «الرَّغَبات» الخليجية. فإخواننا في الخليج، مثلَ إخوانِنا في كل مكان، ومثلَ كلِّ البشر، يحبُّون البصبصة.

وترى الفلمَ الأميركي على قناةٍ تلفزيونية خليجية وتقرأُ الترجمة. ترى رجلاً طويلاً عريضاً يدخل إلى الخمّارة ويطلبُ كأساً مزدوجةً من الويسكي - والويسكي، وُقيتَ شره وخيره، شرابٌ سكوتلنديٌّ قويٌّ يجعل الحصان يمشي على اثنتين والبني آدم على أربع- وتقرأ الترجمة، فتكتشفُ أن الرجل يقول للساقي: أعطني كوباً من العصير.

جاء في الأثر أنه سيأتي يومٌ يكونُ فيه القابضُ على دينه كالقابضِ على الجمر. أصبح التمسكُ بالدين تمسُّكاً صارماً أمراً صعباً هذه الأيام. لكنني أرى أن مشايخ الأنظمة يقودون الشعوبَ إلى مأزِق، ويخلطون الدين بكثير من نفاقهم. وأرى الحلَّ في التمسك بمكارمِ الأخلاق وفي ترك الرياء.

بعضُ المذيعين صار يبدأُ نشرة الأخبار بعبارات دينية وآيات، ويختمها بأدعية وابتهالات. ويبدأ النشرة الجوية بالبسملة ويختمها بعبارات اعتذارية دينية، فكلَّما ذكر

منخفضاً جوياً قال بإذن الله، وكلما رفع درجة الحرارة قال والله أعلم، وبعضهم يزيد العيار ويقول: والله تعالى أعلى وأعلم.

ونحن نقول: أنتم يا إخواني المذيعين دمُكم ثقيل، وربُّكم يطلب طهارةَ القلب لا نفاقَ اللسان. ونقول لهم أيضاً: لو قرأتم سورة البقرة خلال نشرة الجو فسوف مع ذلك تظلون.. غلط غلط.



٩٨ قصتان مما يحدث كل يوم

عزيزي المستمع، عندي لك حكايتان عن عاملين. فتحمَّلِ الحكايتين وقل لي بعد ذلك رأيك، وأعِدُك وعدَ شرفٍ ألاّ أطيلَ عليكَ الكلام.

العاملُ الأول اشتَغَل عند جاري. ركَّبَ له محرِّكاً كهربائياً يسحبُ الماء من البئر. ثم بعد ساعةٍ عَمَل لم يشتغلِ المحرِّك، ولم يسحبِ الماء. طلبَ العاملُ أجراً كبيراً. قال له جاري: المحرِّكُ لم يشتغل. قال العامل: هذا ليس اختصاصي. قال له جاري: أنت الذي اشتريتَه وركَّبته، فإذا لم يشتغل فكيف أدفعُ لك؟ لكن خذْ أجرةَ يدك على الساعتين اللتين أنفقتَهما، وفُكَّ المحرِّكَ واذهب به. قال العامل: لا أفُكُّ المحرك، بل تدفعُ أنتَ ثمنه وأجرةَ تركيبه. جاري لم يدفعْ، فذهبَ العاملُ غاضباً، ثم رجع في المساء ومعه أخوه وشخصٌ ثالث، يبدو أنه يشتغلُ جزَّاراً في النهار ومصارعاً في الليل.

أدرك جاري أنه تورَّط، فأمر لهم بالقهوة وانسلَّ من البيت، وجمعَ رجالَ الجيرة. جلسنا جميعاً في مجلسٍ صلح وتحكيم. وارتفعت الأصوات. وفي النهاية دفع جاري ثمن المحرِّك وأجرةَ العامل. نعم.. دفَع.

كُلُّنا شعرنا بالغيظ، لكنْ.. ربما كان إحضارُ ذلك المصارع قد أتى بنتيجة. وواسينا جارَنا وعزفنا سيمفونية الصنايعية الخائبين، وانصرفنا. ما أبشع الظلم! قلنا لصاحبي: قد ظلمك عامل خائب.. احتسبْها عند الله.

الحكاية الثانية: رجل متقاعد يعيش في فيلا جميلة. أتى بعامل لتنظيف أشياء في الحديقة وحوْلَ البيت. وكلما أنهى العامل شيئاً قال له: ارفع كومةَ الحجارة هذه، واسقِ الشجرات، ثم أحضِرْ كذا، ثم اصنع كذا. لقد حوَّش هذا المتقاعد كلَّ الأشغال حتى يخلُصَ منها دُفعةً واحدة.

وبعد ساعات شعر العامل بالإنهاك، غير أن المتقاعد ظلَّ واقفاً على يديه يواليه بالأوامر، ولا يترك له مجالاً للتنفس. ومالت الشمس للمغيب فأخرج المتقاعد من جيبه قروشاً وقال للعامل: تفضل يا أخي.. سلَّم الله يديك. نظر العامل في القروش.. وقال له: هذه لا تشتري ربطة خبز. فضحك المتقاعد ضحكة مصطنعة بغيضة مثل وجهه، وقال: لا والله لن تأخذَ غيرَها. وتستهينُ بربطة الخبز يا أخي.. ربطةُ خبز أحسنُ من لاشيء. أعاد العامل القروشَ للسيد الجليل، وقال له: سوف نتساوى ذات يوم، آخرتي وآخرتُك حفرةٌ مترانِ في متر. عندئذ صار المتقاعد يلِحُّ على العامل أن يقبل القروش، لكنَّ العامل انصرف وهو يقول في نفسه نجوعُ اليومَ ونشبعُ غداً. وعاهد نفسه ألا يشتغل عند بخيل.

عزيزي المستمع: الغنى غنى النفس، وبعض الناس فيهم شرٌّ، وبخل. وهذا غلط. وبعض الناس.. متهاونون في حقوقهم، وهذا.. غلط غلط.

٩٩ المشعوذ

عزيزي المستمع، أعجبَني ذلك المشعوِذ الذي يُخرِجُ الجنَّ من الناس. ذهبتْ إليه امرأةٌ عجوز داخَلَها الجنّ، جاء بها زوجُ ابنتِها. أجلسَها المشغوذ على كرسي، ونظر في عينيها. امرأة في الستين، عيناها مضطربتان. ونظرتُ أنا في عيني المشعوذ، عيناه مضطربتان مثلها. وحركاتُ رأسِه سريعةٌ وفجائية. له لحيةٌ عظيمة سوداء، وهو في نحوِ الأربعين من العمر. وشعر رأسه قصير.. كأنه يحلِقهُ بمِقصِّ الشجر فتراه عجيب الانتشار فوق طاسةِ رأسه. تجاعيدُهُ كثيرةٌ، وعيناه سوداوان ثاقبتان وفيهما جنون خفيف.

ضرب بيده فجأة على أمِّ رأس المرأة الجالسة على الكرسي، فارتعدت وتحركَ كلُّ عضو في جسمها، كأنما سرى فيها تيار كهربائي. ثم صار يقرأ آيات من القرآن بسرعة عجيبة.

ثم ضرب رأسها مرة أخرى فارتعدت، وقال: أُخرج يا ملعون. وابتسم. ثم صار يقهقه. وضربَ رأسها وقال: أخرج يا ملعون. وصار يوّدع الجن بالشتائم ويُهوِّي بكفِّه فوق رأس العجوز المسكينة وكأنه يَنِشُّ على لحم فوق موقد.

ثم تهاوى المشعْوذُ على كرسيِّه، وصرف المرأة وزوجَ ابنتِها بحركة من يدِه. ولما قال له الشاب: كم أدفع لك؟ طرده قائلاً: اذهب، وتعال غداً وخبِّرني كيف تكونُ حالُها.

جاء دوري للعلاج، جلستُ على الكرسي، وجهزت طاسةَ رأسي. نظر الرجل في عينيّ. وللأمانة فإن نظرته ثاقبة.. وقال لي: قمْ، ليس فيك جنّ. قلت له: أعرف. لكني رجل أحب التجارِب، وأحب رؤية الغرائب. وقف الرجل ووجه إلى الجدار. ولم ينظر إليَّ أبداً.. ولم يكلمني فخرجت على رؤوس أصابعي. قلت لنفسي: إذا كان الناس يؤمنون بالخزعبلات إيمانَ تلك العجوز وزوجِ ابنتها فهم بحاجة إلى مشعوذ مثل صاحبي هذا. كنت في الواقع أتمنَّى أن أعود إليه وأقولَ له اجلس أنت على الكرسي. أردت أن أقوم بإخراج الجن منه بنفس طريقته. ولكنني آثرت السلامة.. وفضلت ألا أضع نفسي في موقف غلط.



١٠٠ فوائد العداوة والحسد

عزيزي المستمع، ما أصعب العداوة، وما أثقلَها على كتفيِ المرء. ومن العداوةِ ما يفيد. لكنْ، لا تحمِّلْ نفسك عداوة رجل لا تُطيق عداوته، ولا تحمِّل ظهرَك، وظهرَ أولادِك عداواتٍ كثيرة.

الذين يُظهرون لك العداوة قليلون، والذين يُبطنونها كثيرون. لكنْ.. اعلم أن الذي يُظهرُ العداوة أشدُّ استعداداً للأذى. وأهم أسباب العداوة الحسد. إذا ورثت عن أبيك عشرةَ آلافِ دينار فأَخْفِها إخفاءً ولا تقل لجارك، فسوف يحسُدُك. وإذا نالَك أذىً صغير فأخْفِ ذلك، لئلا يتمنَّى لك عدوُّك أذىً أكبرَ منه.

قال الشاعر:

كلُّ العداواتِ قد تُـرجى مودَّتُها إلا عداوةَ من عاداكَ عن حسدِ

فإنها نُكْتَـةٌ في القـلب ثابتـةٌ وليس يدفَعُهـا شيءٌ إلى الأبدِ

أعودُ إلى جملةٍ قلتُها لك في أولِ حديثي، ولعلك نسيتَها: من العداوة ما يُفيد. نَعَمْ. فبعضُ الناس يؤذونَكَ باسم الصداقة، ويسببون لك الإحراج حيناً والضرر حيناً.

وأنت أعلمُ بأصحابك. هناك بينهم شخصٌ أحمق يحرجُك ويؤذيك، وأنت أخبرُ به، لكنَّني متأكِّدٌ من أنه موجود. أقولُ لك شيئاً: فكِّرْ في الأمر دقيقة، قل لنفسك: من الآنَ وحتى آخرِ الدنيا.. هل يمكن لهذا الأحمقِ أن يقف معي في لحظة الضيق؟ أم هو من النوع الذي يقف معي عندما أكون قويّاً، ويهجُرُني عندما أكون ضعيفاً؟ إن كان من هذا النوع فأنا أنصحُك أن تزيِّنَ أيامَك بهِجرانِه، وأن تجعلَ القريب والغريبَ يعرفانِ أنه لك عدوٌّ مبين.

إن ظننت أن الحمقى والغدَّارين قد ينفعونَك ذات يوم، فظنُّك يا صاحبي.. غلط غلط.

١٠١ لكل عصر غناؤه

عزيزي المستمع، في السبعينات بدأنا نشعر بالملل من اللون الغنائي العربي. رحل ثلاثة كبار: أمُّ كلثوم وعبدُ الحليم وفريدُ الأطرش.. وكان عبدُ الوهاب طبعا منقطعاً عن الغناء. الغناءُ العربي دخل في أزمة.

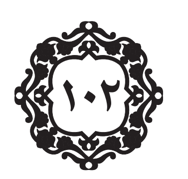
النغم والطرب سيطرا على جو الغناء العربي دائماً. وفي السبعينات بدأ الشباب يتفلتون وينصرفون إلى الغناء الأجنبي الذي كان فيه رومانسية وصراخية جذابة. وجاءت وردة وحاولت أن تغنيَ أغنيات طويلةً من العيار الكلثومي، وغنت أغانيَ فيها إيقاعاتٌ وغيتارات، وأوجع الملحنون رأسنا بالأورغ الكهربائي عشرين سنة. ثم جاءت الأغنية الشبابية.

سمَّوْها الأغنيةَ الهِبابية والشبابية، وهاجموها كثيراً، لكنها صمدت، وملأت فراغاً كبيراً. هذه الأغنية امتزجت بألوان من الغناء الشعبي، وأنت تجد ذلك عند نجوى كرم مثلاً. وقد حملت الأغنيةَ الشبابية أصواتٌ ذاتُ شخصية بارزة كصوت أصالة نصري.

الأغنية الشبابية ليس فيها طرب كثير، لكنَّ فيها إحساساً وتعبيراً. أحياناً تكون كلماتُها وألحانُها خفيفة الدم، وأحيانا فيها حزنٌ معاصر. ليس مثلَ حزن الأغاني القديمة.. ليس مثل ذلك الحزن الكذَّاب.. حزن الهجر والضنا واللَّطْمِ على الخدود. بل هو حزنٌ رقيق وحقيقي يعبر عنه مثلا محمد فؤاد. طبعاً بعضُ المظاهرِ القديمة بقيت موجودة، ولا سيما في الحزن فهاني شاكر يصِرُّ على أن يرِثَ عرش البكاء بعد فريد الأطرش.

الأغنية الشبابية أجمل ظاهرة غنائية عرفناها منذ أن غنى عبدُ الوهاب (في الليل لما خلي) عام ألف وتسعمئة واثنين وثلاثين.

بعض النقاد يقولون إن الأغنية الشبابية ليست خالدة بل محكومٌ عليها بالموت السريع. ونحن نقول لهم: ولا أغاني الطرب خالدة. أنتم تحفظون أغاني فايزة أحمد لأنكم سمعتموها صغاراً، فهي وعاء لذكرياتكم ولشبابكم. وأولادكم سيحفظون أغاني عمرو دياب. إن محاولة إيقاف التاريخ والتمسك بالقديم لِقِدَمِه غلط غلط.



فئران في صندوقي زجاج

عزيزي المستمع، التفرجُ على دنيا الله الواسعة يجعل الإنسان أوعى وأذكى وأكثرَ فهما. هناك فرق بين شاب عاش في عدة بلاد وعمل فيها، وشاب لم يخرج من بلده. أجرى الدارسون تجربة على الفئران. اسمع تفاصيلها: وضعوا عدة فئران في صندوق زجاجي كبير. ووضعوا في الصندوق أشياءَ كثيرة.. ألعاباً وأخشاباً ومياهاً تجري، ونباتات.. صنعوا داخل الصندوق عالماً معقَّداً غنياً بالتنوع. ووضعوا مجموعة أخرى من الفئران في صندوق زجاجي فارغ ليس فيه إلا الطعام والشراب.

وبعد مدة من الزمن نقلوا المجموعة الأولى إلى صندوق جديد الطعامُ فيه مخبَّأٌ ويحتاج الحصول عليه إلى حيلة ودهاء. هذه المجموعة نجحت في الوصول إلى الطعام، وعاشت. ثم نقلوا المجموعة الثانية إلى صندوق مشابه فعجزت عن الوصول إلى الطعام، وماتت.

الإنسان الذي يعيش في مجتمعات مختلفة ويواجه مشاكل متنوعة يتعلم أكثر ويصبحُ واسع الحيلة.

ونحن في تراثنا نتحدث أحياناً عن السفر وفوائده السبع، ولكن الأوروبيين يمارسون السفر أكثر منا. مرّ زمنٌ كان فيه الشابُّ الأوروبي يضع كيساً على ظهره، يتضمن زاداً وفراشاً، وينطلقُ مسافراً في كل بقاع الدنيا.. ينفق القليل ويتعلم كثيراً. وما زال شبابهم يمارسون السفر الرخيص.. لا أدري إن كانت حكاية «كيس النوم» ما زالت مستمرة بنفس الوتيرة.

الأميركيون بلادهم واسعة جداً ويكتفون عادة بالسفر من ولاية إلى ولاية.

عندما تستقر الأحوال في بلادنا وننال الاستقلال يجدر بنا أن نقفل عدداً من الجامعات التي أصبحت أشبه بمدارس ثانوية، وأن نشجع الطلبة على إكمال دراستِهم في الخارج.. أو لعلنا نتبادل الطلبة الجامعيين مع عدة دول، فيدرس ألفُ طالب مغربي مثلاً السنة الجامعية الأولى عندنا.. مقابل ألفٍ من طلبتنا يدرسون في المغرب. وقد نختارُ أن نعقد اتفاقات مشابهة مع عدة دول. عندئذ ستجد مستوى الخريجين عندنا قد ارتفع بشكل

تلقائي. بعضُ الناس عندنا جعلتهم أوضاع الحصار كفئران المختبر، وبعضهم بدأ يتعوَّد.. ويعتقد أن هذا الوضع طبيعي.. وهذا في ظنِّي غلط غلط.

١٠٣ رجل مستقيم.. غريبة

عزيزي المستمع، جلست قبل مدة وجيزة مع رجل يعمل مديراً لمؤسسة. إحدى تلك المؤسسات في البلد التي يأتيها بعض المال من هنا وبعض المال من هناك لتنفيذ مشاريع مختلفة. وهو رجل صادق ومستقيم. وهؤلاء بصراحة قلة قليلة. لكنه من هذه القلة. أطلعني على عدد من المشاريع التي رفضها مؤخراً.. مشاريع عديدة بآلافٍ كثيرة من الدولارات. سبب الرفض: ليس هناك الأشخاص أصحابُ الكفاءة الذين يستطيعون تنفيذها.

نظريةُ هذا الرجل هي: أنا لا أريد للمؤسسة أن تكبُرَ وتصبح عملاقة، ويصير لها في كل عرس قرص. أريد أن أقبَلَ فقط المشروع الذي أستطيعُ تنفيذَه بكفاءة عالية. الآن عرفتُ سبب السمعة الطيبة التي كوَّنَتْها مؤسستُه على مدى السنوات، وسعدتُ بذلك. وعرفت شيئاً آخر تألَّمْتُ منه، وهو أن بلدنا عانى من نزيف الخبرات والكفاءات مؤخراً.

حدّثني صاحبي عن رجل من البلد أراد أن يتعاقدَ معه لتنفيذ مشروع. جاء الرجل وتحدث عن نفسه وعن مهاراتِه الخطيرة. قدم له صاحبي الميزانيةَ وتفاصيلها. فانتفض الرجل.. وقال له: حرامٌ عليك. يأتيكم مالٌ كثير، ولا تخصِّصون سوى هذا المبلغ الضئيل. ذكر لي صاحبي المبلغ، وهو بصراحة مبلغ جيد. قال لي مديرُ المؤسسة إنه يجب تخصيص مرتبٍ عالٍ نسبياً لمن يقومون بمشاريع قصيرة لأنها لا تدوم لهم، وقد يتعطلون بسببها عن أشغال أخرى. المهم.. أخيراً قبِلَ ذلك الخبير الخطير المشروع. وماذا كانت النتيجة، أصبح يداومُ دواماً أعرج.. وكثرت الشكاوى منه، ومن قلَّةِ درايتِه.. وصار واضحاً عجزُه عن القيام بالمهمة، مما اضْطُرَّ المديرَ إلى إيقاف المشروع في منتصف الطريق، وصرْفِ ذلك الرجل بعد دفْعِ نصفِ أتعابه. لو كان عندنا مهاراتٌ كثيرة لكان حالنا أفضل. ولو كان المديرون في مؤسساتنا مثل صاحبي الصادق مع نفسه ومع غيره لكان حالنا: أفضل وأفضل ولكن حالنا.. غلط غلط.



١٠٤ الكواشين العتيقة، قصة اغتصاب بلدنا

عزيزي المستمع، هذه قصة طويلة. لكنَّ وقتَ البرنامج قصير. خَلِّنا بسرعة نبدأ. عائلة من عائلات البلدة القديمة في نابلس تسكن في حوش معتم. والعائلة كبيرة. الأبناء والآباء والجدود والأحفاد يعيشون في دور متلاصقة في الحوش. وفي ذات سنة جاء موظفو المساحة في البلدية وصاروا يقيسون. وبعدهم جاء مهندس البلدية.. ثم صار يجيءُ ناسٌ مع المهندس ويشيرون بأصابعهم نحو دور معينة والمهندس يسمع منهم.. وضاق أبناء العائلة التي تسكن الحوش بهذه التخطيطات السخيفة للبلدية، وجاء يوم طردوا فيه المهندس. بعد ذلك بأسبوع جاء عدد كبير من الناس بصحبة المهندس، وتحدثوا مع كبير العائلة، وقالوا له إنهم يريدون أن يسكنوا في الجزء الأعلى من الحوش، وأبرزوا كواشينَ عتيقة من العهد العثماني، وقالوا إنها تثبت أن الحوش لهم. قال لهم الجد الكبير: نحن نسكن هنا طول عمرنا.. وقصة الكواشين هذه كلام فارغ.. فعندي كواشين بأن أجدادي كانوا يملكون نصف أراضي قرى المشاريق،

ونصفَ أراضي الغور.. وإذا كان كلُّ من معه كواشين يريد أن يأخذ أملاكَ الناس فالأمور تصبحُ فوضى.

أبدى هؤلاءِ الزوارُ تفهماً لكلام الشيخ الجليل وانصرفوا. لكنهم عادوا بعد أيام ومعهم حشد من عمال البلدية، ومن المهندسين والمسَّاحين واستولوْا على النصف الأعلى من الحوش وسكنوا فيه، بل أخذوا أيضاً دارين في الطابق الأسفل وفتحوا فيهما مشغلاً للنسيج.. وقامت طوشةٌ كبيرة.. وظلت المشاكل بين الساكنين الجدد (أصحاب مصنع النسيج) وبين العائلة الكبيرة تتجدد.. والعائلة الكبيرة المسكينة ذهب بعض أُسرها، واستأجروا بيوتاً، وذهب بعضهم ليشتغل في الخليج.. ولكنَّ من بقي منهم صار يسكن في غرف ضيقة مكتظة. وحتى لا أطيلَ عليك هذه القصة أحدثُك عن آخرِ ما حدث. العائلة المسكينة قالت لأصحاب مشغل النسيج في آخر الأمر: نحن ملِلْنا من المشاكل. تعالوا نتفق على حل: أنتم في دوركم.. ونحن في دورنا. ونتجاور جيرةً حسنة. لكن أصحاب المشغل فكروا في الأمر، وعادوا في اليوم التالي يقولون: لكن الكواشين التي معنا تثبت أن دوركم أيضاً ملكٌ لنا. هل تقبلون أن تستأجروها منَّا؟ انتهى وقت البرنامج لكن المشكلة لم تنته. ومن يعتقد أنها ستنتهي قريبا يكن اعتقاده غلط غلط.

١٠٥ لا يعجبه العجب.. ولا الصيام في رجب

عزيزي المستمع، كانت أمنيتي وأنا صغير أن يخلق اللهُ نوعاً من العنب ليس فيه بزر. وكنتُ أعرف أن ذلك مستحيل، لأنني درست في المدرسة أن البزر لا بد منه لكي يجدِّدَ النباتُ نفسَه. لذلك كنت أن أتمنى أن يكون هناك في الجنَّة عنبٌ بلا بزر، كنتُ أجدُ حبَّة العنب شهيَّةً جميلةً ولكنني أجد مشقة في تنقيبِ البزر قبل أكلها. ثم حدث المستحيل واخترعوا عنباً بلا بزر. والآن، يجيءُ الصيف وينزل العنب الشهي الذي لا بزرَ له.. وأَشتري منه شيئاً.. ثم أشعُرُ أن طعمَه صناعي. لا! هذا ليس العنبَ الذي أحبه. وأنتظر شهراً أو شهرين حتى ينزلَ العنبُ البلدي. وعندما ينزل أشتري وآكل

وأُتفتِف. وتقولُ لي عزيزي المستمع إن الإنسان قنوع. أنا نفسي أفضلُ مثال: تمنيت المستحيل، وعندما حقق لي الله الأماني غيَّرتُ رأيي. خذ مثالاً آخر: عندما كنا صغاراً كان قلمُ الحبرِ الجاف غيرَ منتشر عندنا، وكان غالي الثمن. كنا نكتُبُ بالحبر السائل، وتتلوث الأصابع بالحبر. وتنكسِرُ الريشة، وأحيانا يصاب القلم بما يشبه الإسهال فيلطخُ وجهَ الورقة بنقاط الحبر الكبيرة. وقد يفرُغُ القلم في وَسَط الامتحان.. مشاكل كثيرة. ثم صار قلم الحبر الجاف رخيصاً. وفي أواخر الستينات صار شائعاً وميسوراً لا بل صار استعماله أرخص من استعمال قلم الحبر السائل. بعد هذه الثورة التكنولوجية المباركة أقبلتُ قليلاً على الحبر الجاف ثم صرتُ أحنُّ إلى الحبر السائل. وعدت أكتب به. بنو آدم لا يملأ أعينَهم إلا التراب. الإنسان مخلوق طماعٌ متقلب، يشتهي الشيء ويلهث وراءه فإذا حصل عليه ملّه وتركه.. تماماً كالأطفال.. ومن قال لك غيرَ ذلك فهو غلط غلط.

١٠٦ معرقّ على معرقَّ لا يلبَق

عزيزي المستمع، إليك مثلاً جديداً لم تسمعْ به من قبل: (معَرَّقْ على معَرّقْ.. لا يَلْبَق)، وقد استوحيتُه من حادثةٍ مرت بي.

لعلّه مرّ بك المثلُ الإنجليزيُّ الذي يقول: بلاك أند وايت أولويز رايت. ومعناهُ أن لُبْسَ الأبيضِ على الأسود هوَ دائماً صَحّ. فالقميصُ الأبيضُ، مثلاً، يلبَقُ على البنطلونِ الأسود، وهكذا.

في الواقع فإنني، في مرحلةٍ من مراحلِ العمر، قررتُ أن أُريحَ نفسيَ من عناءِ التلبيقِ فجعلتُ كلَّ ما أَلْبَسُ من اللونيْنِ الأبيضِ والأسودِ، وذاتَ يوم رأيتُ نفسيَ أشتري بنطلوناً كَمُّونيّاً. ما الذي أوحى إليّ بذلك الخاطر التخريبيّ؟ لا أدري. كان ذلكَ يومَ نحسٍ. فمن يومِها انحرفَ ذوْقي وصرتُ أحاولُ التلبيقَ على الكموني فلبستُ البُنِّيَّ والبترولِيَّ والأصفر، وكسرتُ قاعدتي الذهبيَّة.

أما حادثةُ المعرَّق فهي لا تتعلقُ بملابسي أنا. وفي الواقعِ فإنني لم أضعْ على جسمي شيئاً مُعَرَّقاً في حياتي، وأنا أعتقدُ أنه لُبسٌ لا يليقُ إلا بالشخصِ المرحِ الفرحِ السعيد، ولستُ بِهِ.

كنتُ ذات يوم في متجرٍ كبيرٍ في لندنَ أحاولُ شراءَ تَنُّورةٍ وبلوزةٍ، لأم أو لزوجةٍ أو لصديقة.. هذا ليسَ شُغلَكَ.. ركِّز معي في القصةِ الأساسية. صرتُ أُمسِكُ التنورةَ وهْيَ معلقةٌ بعَلَّاقتِها وأضَعُ فوقَها البلوزةَ وأمُدُّ يدَيَّ على طولِهما.. بِالتنورة والبلوزة لأرى إن كانتْ هذِهِ تَلْبَقُ على هذه. وتناولتُ بيدي، فيما تناولت، تنورةً معرَّقةً ومعها بلوزةٌ معرَّقةٌ بنَقشةٍ قريبة وصرتُ أتأمَّلُهُما معاً.

ومِنْ على بعد نحوِ عشرينَ متراً رأيتُ عجوزاً إنجليزيةً ابيضَّ شعرُها وانحنتْ قامتُها.. عجوزاً في نحوِ الثمانين.. رأيتُها تقبلُ عليَّ وهْي ترفعُ عصاها التي تتوكأُ عليها، ترفعُها في الهواءِ وتشيرُ بها نحوي إشارةَ تهديد. وصارتْ تقتربُ مني، وتحثُّ الخطى، ثم وقَفَتْ إزائي وهي تقول: معرّقْ على معرّقْ، لا يلبقْ. هززتُ رأسي موافقاً، ومذعناً، وشاكراً.

في هذِهِ المسائلِ سأظَلُّ أرتكبُ الغلطْ وراءَ الغلطْ.



١٠٧ بعوض على الجدار

عزيزيَ المستمع، طَرَشْتُ جدرانَ بيتي باللونِ الأبيض. طبعاً ستظنُّ أن هذا كان حُبّاً في النظافة! ظُنَّ ما بدا لك. وأنا أحبُّ أن أتركك لظنونك، وألاّ أتدخَّلَ في تفكيرِك. ولكنَّ السببَ الحقيقيَّ هو أنني أحبُّ أن أرى الأعداءَ عندما يقفونَ على جدرانِ البيت.

وعدُوِّيَ الأكبرُ.. البعوض.

تأتيكَ البعوضةُ وأنت تدخلُ في النوم دخولاً هيِّناً، وتطِنُّ في أذنك. وتقومُ أنت لكي تلاحقَها، وتضيءُ الغرفةَ، وتبدأُ البحث.

لن تجدَها. فهي نحيفةٌ وشفَّافة، وإن وجدتَها فلن تصيدَها لأنها خفيفةٌ ورشيقة. عليك أن تنامَ مرةً أخرى. أُرقُدْ في فراشِك، وتظاهرْ بالنوم. ستأتيك البعوضةُ مرةً أخرى،

وستلسعُك. لا تتحركْ، وتحمَّلِ اللسعة. اكشفِ الغِطاءَ واكشفْ من جسمِك أكبرَ جزءٍ ممكن. واتركْها تلسَعْك ، عدةَ مرات.

الآنَ أضِيءِ الغرفةَ من جديد. صارت البعوضةُ كبيرةً وغيرَ شفافة بعدما ملأتْ بطنَها من دمِك؛ وصارت ثقيلةَ الحركة. فتِّش ببصرك على الجدرانِ من حولِك، ولا سيَّما قربَ السرير، وستجدُها. أَمسِك بيدِك مِجَلَّة، وتوكَّلْ على الله. ثم نمْ بعد ذلك.

ستكتشفُ أن في الغرفة عشراتِ البعوضات.

كرِّرِ الحركةَ الأولى عدَّةَ مرَّات، وبعدئذ ستنامُ مهدوداً من التعب.

البعوضةُ شفَّافةٌ لأنه «ليس عندها دم». وهي تعيشُ على مصِّ دمِك مثلما يعيشُ كثيرٌ من الموظفين. لكنّ أولئكَ الموظفينَ ليسوا شفَّافين. وكما أن التخلصَ من البعوض باصطيادِه لا يأتي بنتيجة، إذ لا بد من النظافة ومن تجفيف المستنقعات أيضاً قبل التخلُّصِ الحقيقيِّ منه، فإن معالجةَ الفسادِ باصطيادِ حالاتٍ فرديةٍ يتركُ الجدارَ ملوَّثاً ولا يحُلُّ المشكلة.

ثم إن الاصطياد يتعب القلب. إنه.. غلط غلط.



١٠٨ مشية مشيتها لإسقاط جون ميجر

عزيزي المستمع، سأحدثك اليوم عن مَشيةٍ مشيتها من بيتي إلى المدرسة الابتدائية المجاورة التي تبعد نحوَ مئةِ متر. مشيتُ هذه المشيةَ في دقيقتين. كنت أعيش في بلد أوروبي، ونسيتُ نفسي هناك عدة سنوات، وصار عندي حق الاقتراع، وصرتُ كما يقولون: مواطناً. طبعاً لو كنتُ نسيتُ نفسي في دولة عربية «شقيقة» سبعين سنة لما نلتُ ذلك. ما علينا.

ذلك البلدُ الأوروبي - وهو بالمناسبة بريطانيا - كان يحكمهُ حزبُ المحافظين بزعامة جون ميجر. مثلَ غيري من الناس انزعجتُ من ذلك الحزب لسياساته الداخلية

المضطربة، وللفساد الذي ثبت على عددٍ من وزرائه. أحدُ الوزراء بات ثلاثة أيام في فندق فخم هو فندق الريتز في باريس على حساب أحد رجال الأعمال. تخيَّلوا هذا الفساد! لقد أُجبر الوزيرُ على الاستقالة. ووزيرةٌ جاءتها هدية من ضيف أجنبي هي عبارةٌ عن سجادة صغيرة من النوع الذي يُعلَّق على الجدار، ونسيتْ أن تسجِّلَها في السجلِّ الخاص بالهدايا، فقامت عليها ضجةٌ كبيرة. المهم: مللنا من حزب المحافظين، ورأينا أنه استرخى في الحكم مدةً تزيد على اثنتي عشرة سنة.

عندما كنت أمشي من بيتي إلى المدرسة كانت مشيتي واثقة، كان اليوم هو يومَ الانتخابات. وكانت المدرسة مقراً لصندوق اقتراع. كنت أمشي بهدوء.. لكن بثقة كبيرة وبقوة، وكأنني أحمل على كتفي مدفع آر بي جيه. في المركز تسلَّمْتُ الرقعة ووضعت عليها الإشارة. وضعتها بقلم الرصاص. نعم بقلم الرصاص. بلغ بهم مستوى الثقة بنزاهة الانتخابات ذلك المبلغ. وقمتُ بإسقاط حكومة المحافظين. سقَطَتِ الحكومة سقوطاً ذريعاً مؤلماً. ما زلت حتى اليوم أعتقد أنني أنا شخصياً الذي أسقطَها. وهناك أربعونَ مليونَ شخص يعتقدون نفس الاعتقاد. ومن قال إن الفرد العادي ليس له تأثير في اللعبة الانتخابية فقوله غلط غلط.

١٠٩ الإسكندر الأكبر

عزيزي المستمع، الإسكندر الأكبر من أعظم الفاتحين في التاريخ، تولى الحكم بعد وفاة أبيه فيليب في مملكة مقدونيا اليونانية. كان عمر الإسكندر عشرين سنة. وقد اجتاح كل بلاد اليونان، ثم احتل الشرق الأوسط كله بما في ذلك مصر، وتقدم نحو أكبر إمبراطورية في الدنيا في ذلك الزمن وهي الإمبراطورية الفارسية. وقد حدث هذا كله قبل المسيح بثلاثمئة عام. بعث إمبراطور الفرس إلى الإسكندر يعرض عليه عرضاً. قال له: أعطيك نصفَ إمبراطوريتي، ونعقد صلحاً بيننا. وعندما عرف بارمينو أحدُ قواد الإسكندر بأمر هذا العرض قال لزملائه: لو كنت أنا الإسكندر لقبلتُ العرض. لكن

الإسكندر هو الإسكندر. وطموحه لا حدود له. رفض العرض وغزا بلاد الفرس ثم غزا بعدها أفغانستان والهند. وأصبحت إمبراطوريته أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ حتى ذلك الزمن. ثم مات الإسكندر فجأة وهو في الثالثة والثلاثين. ولم يكن قد ترك وليَّ عهد: فتقسمت الإمبراطورية فور وفاته. يلوم المؤرخون عادةً الإسكندر لأنه كان فردياً. ولأنه لم يهتمَّ بتعيين من يخلُفُه، ولأنه كان يقول لنفسه: إذا متُّ أنا فلا أبالي بأحد. وفي عالمنا المعاصر فإن الدول يوجد بها رؤساء وملوك، ولكل منهم من يخلُفهُ. أستثني من ذلك بعضَ الدول التي لحكامها وجهةُ نظر شبيهة بوجهة نظر الإسكندر. وهي في رأيي غلط غلط.

١١٠ إديسون واختراعاته

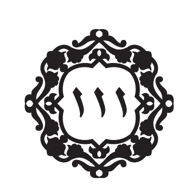
عزيزي المستمع، ذكرتُ لك في برنامج سابق أن عدد الاختراعات التي سجلها توماس إديسون باسمه ألفٌ وثلاثةٌ وتسعون. قال لي أحدهم: أمعقول هذا؟ وأنا أقول لك فقط إن المعلومة مدققة محققة. والواقع أنه كان لإديسون مساعدون، وكان يعمل ضمن فرق للبحث.

ممن اتُّهِموا بانتحال جهد الآخرين القاصُّ الفرنسي ألكسندر ديماس الأب الذي اشتغل معه في تأليف عشرات الروايات والمسرحيات تسعونَ كاتباً.

هناك مترجِمٌ فلسطيني اسمه خيري حمَّاد. عددتُ لهُ ثلاثةً وسبعين كتاباً من الكتب الضخام الكبار ترجمها في نحوِ خمسَ عشرة سنة. وكنتُ قرأتُ أنه اتُّهِمَ بتشغيل فريق من المترجمين لحسابه. ولكنّ سلاسة أسلوبه باديةٌ في كتبه التي يتجاوز بعضُها الألفَ صفحة. وقد بدأتك بالحديث عن تحقيق معلومة اختراعات إديسون، وأرجو أن يكون اطمأن قلبك إليها. وتحقيقُ المعلومة ليس أمراً شائعاً في عالم النشر عندنا.

انظر مثلاً إلى كتاب مشهور يقع في ألفين وخمسمئة صفحة هو معجم المؤلفين لعمر كحالة. هذا الكتاب يصرُّ على أن خيري حماد ألف وترجم أربعةَ عشر كتاباً. وأما أنا

فأزعُمُ لك أنني عددتُ له ثلاثة وسبعين كتاباً مما ترجم. وقد كتب كحَّالة ما كتب بعد وفاة خيري حماد وتمام عمله. ولعلك عزيزي المستمع تريدني أن أرجع إلى كتابٍ آخر وهو كتاب الأعلام (أشهر كتاب عربي عن الأشخاص المشهورين) ومؤلفه خير الدين الزِّرِكلي. لقد رجعتُ إليه، واكتشفت أن عمر كحَّالة نسخ عنه حرفياً، وفي كتاب «الأعلام» فقرة تقول إن خيري حماد توفي بالسكتة القلبيَّة عام اثنين وسبعين. وأنا أقول: قلة التدقيق ظلم للعلم، وهي غلط غلط.



١١١ مغناطيس فريد الأطرش وصَفِيُّ الدين الحلي

عزيزي المستمع، هناك كلمات لا تصلح للشعر ولا للأغاني. ضرب القدماء عليها مثالاً: كلمةَ «أيضاً». وأنا أضرب مثالاً كلمة «مغناطيس». تخيَّل مطرباً يقف على المسرح ويغني أغنية فيها مغناطيس! فريد الأطرش فَعَلها وغنَّى:

فيه مغناطيس في طلعتك   تَمَلِّي يجذبني لبهاك

وهناك شاعر قديم مات قبل سبعمئة سنة هو صفيُّ الدين الحليّ، قال قصيدة وردت فيها كلمة مغناطيس قال:

إنما هذه القلوبُ حديدٌ   ولذيذُ الألفاظ مِغناطيسُ

ومناسبة هذه القصيدة أن بعض الناس قالوا لصفيِّ الدين: نرى شعرَك سهلاً ليس فيها الكلماتُ الجزلة الصعبة. فنظم لهم قصيدة بدأها بالكلمات الصعبة التي يشتهونها. قال لهم:

إنما الحيْزبونُ والدَّردَبيسُ   والطَّخا والنُّقاخُ والعلْطبيسُ
والغَطاريسُ والشقَحْطَبُ والصَّـ   ـقْـبُ، والحربَصيصُ والعيْطَموسُ
لغةٌ تنفِرُ المسامعُ منها   حين تُروَى وتشمئِزُّ النفوسُ
إنما هذه القلوبُ حديدٌ   ولذيذُ الألفاظِ مِغناطيسُ

ونحن في هذه الأيام لم نعد نستعملُ ألفاظاً صعبة، ليس لأننا لا نستسيغها بل لأننا لا نعرفُها. القار. هناك كتاب يكتبون مقالاً في كل يوم بلا انقطاع، وهم ينزلقون إلى الأسلوب

السهل، ولكنهم أيضاً ينزلقون إلى الثرثرة. وترى مثلَ ذلك في الإذاعات. البرنامج اليومي استنزافٌ للطاقة.. أبرز مثال على ذلك هذا البرنامج.. اليومي: «غلط غلط».

١١٢ البحر بحر، والنخيل نخيل

عزيزي المستمع، في هذا البرنامج ممنوعٌ الكلامُ في السياسة وفي الدين وفي الجنس، وممنوع الإعلان التجاري وإيرادُ أسماءِ الشركات أو المؤسسات، وممنوعٌ أن نقولَ صباحُ الخير أو مساءُ الخير لأنَّ البرنامج قد يذاع في أي وقت. وتسألُني بعد ذلك لماذا برنامجُك فارغ؟

صارَ برنامجي مثلَ أشعارِ ابنِ سودون. اسمعْ ما يقول هذا الشاعرُ القديم:

البحـرُ بحـرٌ، والنخيـلُ نخيـلُ — والفيـلُ فيـلٌ، والزرافُ طويلُ
والأرضُ أرضٌ، والسماءُ خلافُها — والطـيرُ فيما بينَهُنَّ يجـولُ
وإذا تعاصَفَتِ الرياحُ بِروْضـةٍ — فالأرضُ تثبُتُ والغصـونُ تميلُ

ولعلك عزيزي المستمع: تريد أن تسمعَ شيئاً آخرَ من إبداعاتِ ابنِ سودون. لن أفشِّلَك، قالَ يرثي أمَّه:

لموتِ أُمَّي أرى الأحزان تحنيـني — فطالما لَحَسَتْني لحسَ تحنـينِ
أقول مَمٌّ مَمٌّ تجي بالأكلِ تُطعِمُـني — أقول إمْبو تجي بالماءِ تَسقيـنيَ
وربما شكْشَكَتْني حين أُغضبُـها — وبعدَ ذَا كَشْكَشِتْني كي تُرَضِّيني

وأريد أن أختم هذه المختارات ببيتٍ عبقريٍّ يتحدثُ عن فتىً ذكيٍ عاقلٍ أدرك حقائقَ الكون. يقول ابنُ سودون:

إذا ما الفتى في الناسِ بالعقل قدْ سما — تبيَّنَ أنَّ الأرضَ من فوقِها السَّما

وأخيراً أدعو الله دعاءً: يا ربِّ كثِّرِ الحريةَ في بلدِنا، واجعلِ الناسَ يتقبَّلونَ مواضيعَ أكثر، واجعلْ صدورَهم أوسع، وافتحْ عليهم يا ربُّ، إنك أنت الفتَّاح.

اللهم خذْ بيد المتعصِّبين ثم خذهم، واقبضْ على الجبناءِ ثم اقبِضهم، فوجود هؤلاءِ وأولئك.. غلط غلط.

١١٣ درجات التعامل مع المراهق

عزيزي المستمع، يسألك ولدُك: وهل من الضروري أن أكونَ موجوداً عندما يحضُرُ الجماعة لكي يخطِبوا أختي؟ وتقولُ: طبعاً، ولماذا تسألْ؟ فيقولُ لك: سين سؤال. ثم يتركُ الغرفة.

إذا قال لك ولدُك: (سين سؤال)، فاعلم أن عندك في الدار مراهق. وأنا أبشِّرك بوجع الرأس. هناك ناسٌ عندهم سُكَّري، وناسٌ عندهم صراصير، وهناك ناسٌ عندهم مراهقون.

التعامل مع المراهق يتم بالتحايل والرَّوِيَّة، والتأجيلِ والتنازلات. أراه شبيها بالتعامل مع الرشح. الرشح مشكلة تحتاج فقط إلى زمن. اشترِ علبةَ محارم، وانسَ نفسَك ثلاثةَ أيام، وستجدُ أن المشكلة حلت نفسها.

إذا طلب المراهق مالاً كثيراً لشراء بنطلون جينـز أبو ماركة، أو مطرزاً بطريقة عجيبة، فتحايلْ عليه. لا تقلْ له إن هذا البنطلون هو لُبْسُ الصائعين المائعين، قل له: يا سلام.. بنطلون جميل.. رغم أنه «معجَّق» وولاَّدي قليلاً. عندما يسمع ذلك قد يغير رأيه ويكرهُ البنطلون. فإذا أصرَّ على رأيه فعليك بالتأجيل إلى الأسبوع القادم، وقل له: سأعطيك المالَ الذي كنتُ سأشتري به لعبةً لأختِك الصغيرة. هذا الأمر سيجعلُهُ يفكر مليَّاً، وقد يغيِّرُ رأيَه. لكن ليس بالضرورة، فالمراهق عديُم الضمير في الغالب. إذا لم يغيِّر رأيَه، فعليك أن تتنازل.

العلاقةُ مع ولدك المراهق علاقةُ أخذٍ وعطاء. دعه ينتصر أحياناً. وكلما كنت متفهماً له في سنوات مراهقته زاد شكرُه لك وتعلقُه بك عندما يصبحُ رجلاً. وأما أن تتعاملَ مع ابنك المراهق كعدو أو كخصم فهذا.. غلط غلط.



الحلال جدع أنف الغَيْرة

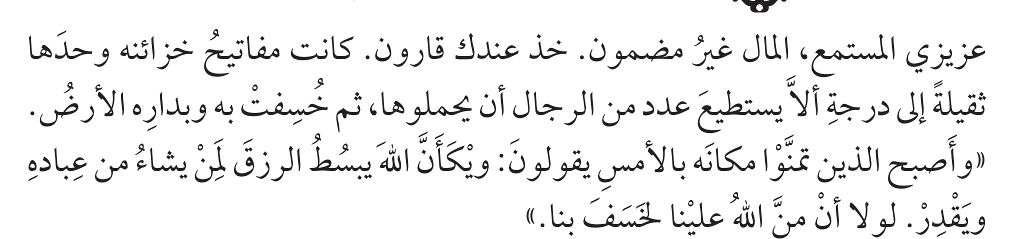
عزيزي المستمع ، كان لي صاحب، مثقف ومتعلم، فاجأني يوماً بفكرة. زرته في بيته وقدَّمَتْ لنا القهوةَ ابنتهُ الصبية، وكانت قد صارت شابَّةً جميلة القوام، حسنةَ الوجه. فقلتُ لها الكلام المعتاد ما شاء الله إلى آخره، ثم انصرفت البنت. وشربتُ أنا القهوة. ثم قلت لصاحبي: بفرحتِك ببنتك، فأطرق ووجم، وبان في وجهه التكدُّر، ثم قال لي متأملاً: يا أخي! والله لا أتصوَّرُ كيف أسلِّمُ هذه البنت بعد ثلاثِ أو أربعِ سنوات لرجل. قلت له هازئاً: حاول أن تتصور! فرأيته قد ازداد عبوساً، فرويت له حادثةَ رجلٍ فكَّر تفكيراً مشابهاً. رويت له قصةً عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. فبعد أن زوَّج الرسول ابنتَه فاطمةَ منَ ابنِ عمه عليّ مرَّ ذات يوم ببيت عليٍّ، فأبصره مع فاطمة في غرفة واحدة. فغضَّ عليه الصلاةُ والسلام بصرَه وقال: الحلالُ جَدَعَ أَنْفَ الغَيْرة. فحتى الرسول يغارُ على فاطمةَ ابنتِه أن يمَسَّها رجل. ولكن.. الحلالُ يقطع أنفَ الغَيْرة. عندما قصصتُ على صاحبي هذا الخبر انفرجت أساريرُه. أنا أحياناً أفكر في الذي يزوجُ ابنتَه الشابةَ الصغيرةَ من كهلٍ غنيّ.. وأقول في نفسي هو ذا الحرام بعينه. والله لو كنتُ مكانه لشعرت بالثعابين تأكلُ صدري وأنا أسلِّم ابنتي لرجل عجوز مقابل المال. هذا بيعٌ لإنسانة. أما إن تزوجت البنتُ برضاها ممن يقاربُها في السن، وليس هناك طمع في مال، أو إرغام، فإن الغَيْرة عند الأب تكون غلط غلط.

١١٥ اللي مطرود مَنوّ ضيف

عزيزي المستمع، كلما أردتُ أن أحدثَكَ عن أحد الذين أعرفهم أخافُ أن يسمَعني، ويعرفَ نفسهُ؛ فأرحل بعيداً في الذاكرة وأحدثك عن شخص آخر عرفتُه قبل سنوات كثيرة، وربما أيضاً في بلاد أخرى. وصديقي الذي يخطر ببالي اليوم لم أعرفه سوى لأشهر، ولم أره في هذه الأشهر سوى مرات قليلة. حدث هذا في أوائل السبعينات.

التقيت به في بلد عربي. كان يدرُسُ في الجامعة. ثم قعدتُ معه بضع مرات.. ثم أخذَته المخابرات . وغاب عدةَ أشهر.. ثم خرج.. رأيتُه قد أصبح سميناً مترهِّلاً. سلَّمتُ عليه، ونظرت في عينيه. اختلفت نظرتُه. لقد أتلفوا أعصابه ومخَّه إما بالكهرباء أو بالضرب، لا أدري. وجدتُه قد اختلَّ اختلالاً. وبعد قليل روَّحَهُ الشباب إلى أهله، وانقطعت صلتي به. وسمعتُ بعد ذلك قصصاً مشابهة. كنت محظوظاً فعلاً لأنني نجوت، وسَلِمَ لي جهازي العصبي. لكنني وبعد زيارة عددٍ لا بأس به من الدول العربية صرت متشائماً. أنا متشائم من الإنسان العربي. التقيتُ قبل ثلاث سنوات بواحد من كبار الفنانين، وسألني من أي بلد أنا؟ فقلت له: فلسطين، فقال لي بالحرف الواحد: معلش. لم أشعر باستياء شديد. قدَّرت له صدقَه. طبعا ربما كانت تلك زلَّةَ لسان. لكنْ، هذا الرجل يعكس واقعاً. نحن - الفلسطينيين - لسنا موضعَ ترحيب في أي بلد في الدنيا. وقد عبَّر الأَخَوان رحباني عن هذا الوضع تعبيراً جميلاً عندما وصفا في مسرحية «جبال الصوَّان» وضع أناس شُرِّدوا عن بلادهم؛ والمسرحية كلها رمزية، وتصف ضياع فلسطين. في مشهد من المسرحية يقول الناس لفيروز المطرودة من بلدها: (أنتِ عندنا ضيفةٌ عزيزة) أو بما معناه، وتجيبهم فيروز قائلة: «اللي مطرود مَنُّو ضيف؛ حامل حزنه معه، وصاحب الحزن بيهربوا منه الناس، بيخافوا يعديهن». كيف سنقول غلط غلط في ختام حديثنا؟ سنقولها هكذا : غلط غلط .

١١٦ الاستثمار في البشر



عزيزي المستمع، المال غيرُ مضمون. خذ عندك قارون. كانت مفاتيحُ خزائنه وحدَها ثقيلةً إلى درجةٍ ألاَّ يستطيعَ عدد من الرجال أن يحملوها، ثم خُسِفتْ به وبدارِه الأرضُ. «وأَصبح الذين تمنَّوْا مكانَه بالأمسِ يقولونَ: ويْكَأَنَّ اللهَ يبسُطُ الرزقَ لِمَنْ يشاءُ من عِبادهِ ويَقْدِرْ. لولا أنْ منَّ اللهُ علَيْنا لخَسَفَ بنا.»

يكون معك – مثلَ أحدِ أقاربي – مبلغٌ من المالِ كبير. قريبي ذاك خزن المبلغ في أكياس نايلون وجعلها في مكان خفيٍّ في خِزانةٍ في بيته سنوات عديدة؛ ثم خَسَفَ الله الأرض

بالعُملة. فلقد مرَّ بنا زمن كانت العملة فيه تنخفض بشكل مستمر وظلت على هذا بضع سنين. بعد حين أخرجَ الرجلُ المال وصار يندبُ جهلَه، فقد تحول كسْبُ السنوات إلى دراهم لا تقومُ بطبْخة. العملة في كل العالم تهبط. هذا قانون ينطبق في كل مكان بلا استثناء. ولذلك فإذا خزنت مالَكَ بشكل أوراقٍ نقدية فسوف تخسر. وإذا وضعتَ المال في بنك وصرت تربحُ الفوائد فاعلم أنك ستكتشفُ بعد عشرِ سنوات مثلاً أن المبلغ انخسفت قيمته الشرائية رغم الفوائد التي أُضيفت إليه. إذا وضعت أموالَك بشكل سبائكَ ذهبية فسوف تخسر في معظم الحالات، على المدى البعيد. العقارُ جيِّد لكنَّ السوق قد تنخسِفُ بين عشية وضحاها.

أحسنُ استثمار هو في البشر. علِّم ولدَك، أو قريبَك. أعطِ المال، الذي يجلسُ كسلانَ في جيبِك، لرجل نشيط عنده مشروع، وحتى لو لم تربح مالاً فسوف تربحُ صديقاً أو شريكاً في المستقبل. فرِّقْ أموالَك أوَّلاً بأوَّل؛ وستمضي السنوات، وستشعر بأنك تستعيدُ مالَك على هيئةِ فوائدَ غيرَ مباشرة. باختصار: إذا لم تكن صاحبَ تجارة أو صاحبَ بنك فالاحتفاظ بسيولة كبيرة في جيبك غلط غلط.

١١٧ سن اليأس.. عنده

عزيزي المستمع، تأتيكَ مرحلةٌ في عمرك تقف فيها مع نفسك وَقفة محاسبة. هذه المرحلة تأتي في أواسط الأربعينات من العمر. تجد نفسك في كل يوم أو يومين تصفُنُ طويلاً وتفكِّر؛ تقول لنفسك: ماذا أنجزت؟ هل حققتُ شيئاً؟ أين أنا من فلان الذي بنى داراً واشترى أرضاً؟ وأين أنا من طموحي الفلاني عندما كنت أتمنى أن أصير كذا. في هذا العمر تحسُّ أنك لن تُفلح في تحقيق المزيد، وتندمُ على ضياع سنواتٍ من عمرك في الوظيفة الفلانية، أو التجارة الفلانية. هذا بالنسبة للرجال، أما النساء فلست قادراً أن أشرح لك معنى تعبير «سن اليأس». بعد انقضاء هذه المرحلة يدخل الرجل في الخمسينات، فيسترخي ويهدأُ ويتنازل عن أحلامه واحداً واحداً، وقد يبدأُ استعداداتِه للدار الأخرى، لكن الإنسانَ تبقى له حاجةٌ في الدنيا حتى الرمق الأخير.

(قالها الشاعر: تموت مع المرء حاجاتُه/ وتبقى له حاجةٌ ما بقِي).

يندمُ المرء على ما فات، وكأنه كان مختاراً. الإنسانُ ابنُ صدفة عجيبة. بداية تشكل الجنين في بطن أمه صدفة، احتمال واحد إلى ثلاثمئة مليون. واختيارُك وظيفةً متواضعةً شيء مكتوب. أما أخوك فقد اختار التجارة. وها هو يسكن في قصر، وتزوج امرأة حلوة وأنجب أولاداً حُلْوين. وأنت تسكنُ شقة حقيرة. وتزوجتَ امرأةً على قدِّ الحال، وأنجبتَ أولاداً جمعوا قبحَكَ وقبحَ أمِّهم، وازدادوا بلادةً وعزوفاً عن التحصيل، فأنت في شرٍّ مستطير. ما رأيُك في أن تتفلسف، فهذا خير لك من الندم والحسرة. ألستَ تجدُ السعادة بين أولادك.. وتعودُ إليهم في المساء وتشمُّهم بشغف مثلما تشم البقرةُ عجولَها؟ أليست امرأتُك رضيَّةً؟ ألا تتحملُ رائحةَ فمِك بصبر، ألا تغفرُ لك أغلاطَك. خير لك أن تعدَّ النِّعَمَ التي عندك من أن تتحسر على ما فاتك منها. كل شيء مكتوب. ومن قال لك إنه اختار مصيره فاعلم أن تفكيره غلط غلط.



١١٨ أم سامي تشتري معطفاً ضيقاً

عزيزي المستمع، قد تكونُ بدويّاً تسمعني على راديو ترانزستور في خيمة في الغور، وقد تكون سائقاً واقفاً بسيارته على حاجز، وقد تكون ربَّةَ بيت أو تلميذةً تأخرت عن المدرسة، وهي تجلس الآن متململةً في الباص، قلقة، تريد أن تصل قبل قرع الجرس. المشكلة التي سأحدثك عنها اليوم موجودة في كل مكان في العالم، واسمها «التربيط». وسأشرح لك المصطلح فهو من لغة أمي. هناك ناس يربِّطون على كل كلمة، ويفسِّرون كلَّ إشارة، ويزعلون، ويَعتِبون، وقد يصل بهم التربيط إلى درجة المرض.

الشخصان اللذان بينهما علاقة نكد وتربيط، يحتكَّان ببعضهما احتكاكاً مؤذياً ومؤلماً مثل احتكاك العظمتين في الـمَفْصِلِ المصاب بالروماتيزم.

لو أنك تعرفُ أمَّ سامي لعرفت معنى التربيط. هي امرأةٌ خَنَقَتِ الستين وصارت فَكْحاءَ حَوْلاءَ حَدْباءَ دَرْدَاء. والدرداء هي التي سقطت أسنانُها. أمُّ سامي تربِّط كثيراً، وتعاتِب كثيراً. تبدأ أولاً بعبارات حزينةِ النغمة من قِبَل: نحن لسنا قدّ المقام، أو: يوجد

خيار وفقّوس، أو: هدايا الحجّ لناس وناس، إلى آخره. ثم تزداد كمية السُّمِّ في كلامها، وتعود إلى الموضوع مراراً وتكراراً.. وقد صارت نساء الحيِّ يَتَحامَيْنها كأنها عشُّ دبابير.

كنتُ صبياً أشتغل في العطلة في محل لبيع الملابس النسائية؛ ودخلتْ أمُّ سامي ونكشت المحل وهي تنتقي وتَقيس.. وصاحب المحل على أعصابِه.. ثم اختارت معطفاً. ثم ساومت حتى قال لها صاحب المحل: آخر سعر هو كذا، ولا مجال لتخفيض فلس واحد عن ذلك. فصارت تقول له: ليس معقولاً.. المعطف ضيِّق قليلاً، ولا بد من المراعاة. فحاول جَهدَه أن يقنعَها أن ضيقَ المعطف شيء، وسعرَه شيء آخر. وأن عليها أن تختار غيرَه إن كان ضيقاً. ولكنها كانت تساوم وتورد الحُجج المختلفة، ثم تعود إلى حكاية أنه ضيق، وبعد ذلك تقيس معاطف وبلوزات أخرى.. وترجع لتساوم على هذا المعطف اللعين. تلك كانت المرَّةَ الوحيدة التي رأيت فيها معلِّمي يبيع بخسارة. أحسستُ يومها أن أم سامي لها قدرة على التسلل إلى داخل أعصاب الإنسان مثل الفيروس. صحيح أن التربيط غلط.. ولكن تربيط أم سامي كان غلط غلط.



التينة الأخيرة، وحصاة الحذاء

عزيزي المستمع، أعرف شخصين ليتني لا أعرفهما. واحد نكد مسالم. والثاني مبتسم مشاكس. كلما تذكرتُهما شعرت بانقباض في النفس لا يزول إلا بعد ساعة من الزمن. والآن أتحدث معك وأنا أتخيلهما أمامي. لكن للأمانة لست مستاءً في هذه اللحظة، والسبب أنني بحديثي عنهما أريد أن أُنَفِّس عما بداخلي وأستريح، لا بل في الواقع أريد أن أنتقم منهما لكثرة ما سببا لي من مشاكل. الأول عَبوس وكثير الشكوى ولا فائدة منه، وجهُه مثلُ التينة الأخيرة في الطبق، وأنت تعرف أن آخر تينة تتخلَّفُ تكون يابسة، وتكونُ «أعوذُ بالله». لم يكن يأتيني إلاَّ وفي فمه عبارة: عندي مشكلة. وعندما أسمع منه هذه العبارة آخذ نفساً عميقاً، وأقول في نفسي يا ساتر! ثم يبدأ بالشكوى من ظلم الناس، ومن أنه يستحق العلاوة، ولكن المدير تآمر عليه وحرمه منها، ثم يشكو من ظروف العمل، ثم يشكو من الغلاء. لم أره يبتسم في حياتي إلا ابتسامة استهزاء. صاحبي هذا، «التينة الأخيرة»، كان يحب أن ينفِّسَ كلَّ مشاكله في وجهي، فيُضِيعُ

وقتي ويحمِّلني همومه ثم ينصرف، وغالبا ما ينسى أن يودِّع وهو في طريقه إلى الباب. بل يلقي عبارة من عباراته المشهورة من أمثال: ناس لا تقدِّر، زمنٌ رديء.

الآن سأبدأ بالحديث عن الشخص الثاني: هذا الشخص يشبه الحَصَاةَ التي تدخل أحياناً إلى حذائك وتتعبُك طولَ الطريق، ثم بعد ذلك تفقدُ صبرَك فتقفُ في وَسَطِ الرصيف، وأمام الرائح والغادي تخلعُ حذاءك وتنفُضُه، وتنظرُ إلى الأرض لترى هذه الحصوة اللعينة التي حرمتك لذة المشوار، فلا تجد شيئا. وتلبس الحذاء وتقول لنفسك: الحمد لله استرحنا من هذا البلاء، وسَرعان ما تشعر أن الحصاة ما زالت في الداخل، وتسرع بالعودة إلى البيت لكي تلعنَ «أبو» الحصاة وتخلع الحذاء وتفتشه، ولكنك لا تجدها. وتلبسه وتتمشى في الغرفة فتجد أن الحصاة قد ذهبت. هذا الشخص مثل حصاة الحذاء: إنه تافه وعديم القيمة، ولكنه مزعج.

اجتمع هذان الشخصان عليَّ يوما. اجتمعا في قضية واحدة، في المحكمة. نعم أخذاني إلى المحكمة، ومَثُلْتُ أمام القاضي. ذلك أنَّهما رفعا دعوى على المؤسسة التي كنا نشتغل فيها. وكنتُ شاهداً. وشهدت بما أملاه عليَّ ضميري. وسَقَطَتْ قضيتُهما. أنا في العادة أميل (ككل الناس في الكون) إلى الموظف الغلبان. لكنْ، في تلك القضية كان الوقوف بجانب التينة الأخيرة غلط، وتأييدُ حصاة الحذاء غلط، ومخالفة الضمير: غلط غلط.

١٢٠ الانتظار صعب

عزيزي المستمع، في المطعم يوجد عند الـمغسلة ورق لتنشيف اليدين، علبة بلاستيكية في الجدار تسحب منها الورقة. والورقة تجر ورقة. ولكنَّ يديْك المبلولتيْن تجدان صعوبة في سحب الورقة الأولى التي تتفتت بين أصابعك، فتُضْطرُّ إلى نفض يديك وإعادةِ الكرَّة. ثم في النهاية تسحب الورقة. تتشبع الورقةُ بالماء فترميها، وتسحب غيرها، وهكذا. ثم عندما تنتهي من العملية تبدأ بنتف بقايا الورق من بين أصابعِك. وهناك في المطعمِ نفسِه، وقربَ المغسلةِ نفسِها جهاز كهربائي ينفخ على يديكَ هواءً ساخناً، فقط تضعُ يديك تحت الجهاز وتصافحُ نفسك مراراً. ولو حسبت الوقت لوجدت أن في استخدام الجهازِ النافخِ توفيراً، ولو حسبت الجهد لوجدت أيضاً توفيراً. لكن

الإنسان لا يحب الانتظار. يفضل الكثيرون أن ينشِّفوا أيديَهم بالأوراق المزعجة على أن يضعوها تحت الجهاز نصفَ دقيقة، وهم يحملقون في السقف.

الانتظار صعب، وأصعبُه انتظارُ خادم المطعم. ولخدم المطاعم أساليبُ عجيبة في التهرب منك. ترفعُ يدَك وهم يمرُّون بمحاذاتك فلا يرونها.. ثم تلوح بيدَيْك كأنك تطلب النجدة من على ظهر سفينة غارقة، فلا يأبَهون بك. وتصيح بأعلى صوتك جرسون! فينظر الجرسون إلى الجهة الأخرى. حياتُنا هي انتظار. نحن نعيش في انتظار الموت، ونموت في انتظار الحياة الأخرى. وأجمل ما في الحياة الأخرى (سواء أفي الجنة أم في النار) أنه ليس فيها انتظار. ففي الجنة تنال كل ما تشتهي فوراً، ولا تنتظر. وفي النار أنت تنالُ كل شرٍّ ولا تنتظر أي خير.

أتمنى لو يجمعُني رب العزة (في الجنة طبعاً) بالجرسونات الذين يتجاهلونني في المطاعم. أريد فقط أن أسألَهم: بالله عليكم لماذا كنتم تفعلون ذلك؟ ألم يكن غلط غلط!



الشرطي المتطوع

عزيزي المستمع، شَهَوات الإنسان كثيرة. أما شهوات الجسم فأنت تعرفُها أحسنَ مني. وأمَّا شهوات النفس فكل إنسانٍ له فيها مزاج فريد. ترى رجلاً يشتهي أن يقعد على المقهى طول النهار، وترى آخر لا يرتاد المقاهي. وترى امرأة تشتهي أن تقُشَّ بيتها وتشطفَه كل يوم، وترى أخرى تكره ذلك. ولكنَّ كل البشر يشتركون في شهوة حبِّ السيطرة على الآخرين. هذه الشهوة موجودةٌ عند معلم المدرسة، فإن كانت زائدة عن الحد فإنها تتلفُ قدرتهُ على التربية وعلى إيصال المعلومات مثلما يُتلِفُ السوسُ الخشب. وإن استعملَها المعلم استعمالاً رشيداً ضبط الصفَّ وجعل الطلبة يقبِلون على التعلُّم. وشهوة الحكم جزءٌ من شهوة السيطرة على الآخرين.

بعض الحكام ينسون أنفسهم ويطغَوْن، حتى في الأنظمة الديمقراطية التي يتبدل الحاكم فيها بسهولة. وفي عالم الإدارة والأعمال كثيراً ما يعاني مدير القسم أو رئيس المؤسسة من شهوة السيطرة على الآخرين. بل يجب أن أقول إن هذا موجود في كل

الأحيان، لكن بعض المديرين يستغلون هذه النزعة النفسية استغلالاً حميداً، ويوجِّهون مرؤوسيهم إلى مزيد من العمل والإتقان. في بلدٍ من البُلدان سمعتُ عن قضية غريبة: رجلٌ كان يلبَسُ ثياب شرطة صنعَها بنفسه، وينزلُ إلى الشارع لتوجيه حركة السير، وهو ليس بشرطي. إنه فقط يحب أن يسيطر على السائقين. ورغم أنه كان يعرف قوانين السير جيداً، فقد حكم عليه بغرامة كبيرة. يستأهل، على الأقل دفعَ أجرةَ تنفيسِه عن غريزةِ السيطرة على الآخرين. السيطرة على الآخرين في رأيي غريزة، لكنها أحياناً تتجلى في أشكال غلط غلط.

١٢٢ من تقاعس كسُمَيّة، جاعْ كسمية

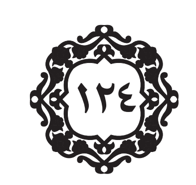
عزيزي المستمع، رحلةٌ مدرسية إلى أريحا. ما رأيك؟ تعال نذهب سويّاً. لكننا لن نكون جزءاً من الرحلة. سنلبس قُبَّعاتِ الإخفاء ونراقبُ الوضع من بعيد. أما المتنزِّهون فليسوا طلبة بل مجموعةٌ من المعلِّمات. عندما بدأت الدفعةُ الأولى من الشِّواء تنضَجُ أخذت الأيدي تتخاطفُها. المعلمة سميّة فقيرة ومن بيئة فقيرة، لم تهجم على الشواء مع الهاجمات، وانتظرت الدفعة الثانية. ولم ينلْها شيء في الدفعة الثانية أيضاً. وأجهزت المعلِّماتُ على كل الشواء. إحداهن شبعت جداً حتى آلمها بطنها، وعندئذ انتبهت وقالت: لماذا لم تأكلي يا سمية؟ فتمتمت سمية: آكلُ خبزاً ولبناً. الواقع أن الأكل كان كثيراً. ولكن حالة الفوضى التي رافقت الأكل جعلت الكلَّ يتسابقُ على النهش واللهط والكسب. والمجتمع يحدث فيه شيءٌ كهذا. ومن يتقاعس كسميَّة يروِّحْ جوعان كسميَّة. والمجتمعات المختلفة فيها أنظمة تكافلية مثل الزكاة والتأمين الاجتماعي ومخصصات الشيخوخة، إلى آخره، تضمن للمساكين حدَّاً أدنى. وقد فكَّر البشر في توزيع الثروة توزيعاً عادلاً مطلقاً. جربوا هذه الفكرة في الأنظمة الاشتراكية وفي النظام الشيوعي بدرجات مختلفة. ولكنها أثبتت فشلها عبر عشرات السنين من التجارب المرَّة. يبدو أن الطبيعة المتوحشة للإنسان أقوى من عواطفه الرقيقة. نحن نعتقد أن الهجوم على أسياخ الكباب غلط، ونعتقد أيضاً أن موقف سميَّة كان غلط غلط.



١٢٣ البطاقة هي التي دفعت

عزيزي المستمع، أحب البنوك حباً جماً، ولسبب قد لا يخطُر ببالك. سأروي لك حادثة وقعت لي مؤخراً. اشتريتُ أشياءَ بمبلغ كبير. ولسبب ما اضطررت إلى أن أدفعَ الثمن نقداً. فذهبتُ إلى البنك وسحبتُ المبلغ فانتفختْ جيوبي بالأوراق النقدية، رُزمٌ تبهَرُ العين. وصرت أُحَسِّسُ عليها وأنا في طريقي لدفعها للبائع. وصرت أُخرِجُ الرزمة وأنظر إليها وأعود بإحساسي إلى الطفولة فأقول: هذه الرزمة أستطيع أن أشتري بها آلاف حباتِ الأسكيمو، أو أن أشتري بها عشر دراجات. وتلوَّع فؤادي طول الطريق. وعندما سلَّمت المبلغ إلى البائع انفطر قلبي، أقصد قفز وراء الرزمة وتعلَّق بها. في المرة القادمة - رغم أنني الآن أفلست، ولن تكون هناك مرةٌ قادمة إلاَّ بعد سنوات -، في المرة القادمة سأكتب للبائع شيكاً بالمبلغ. فهو بهذا سيأخذ أمواله بدون أن أراها، وبدون أن أتحسَّر. في أوروبا يتعاملون كثيراً ببطاقة الائتمان. فكلما أردتَ شراءَ شيء دفعت البطاقة إلى البائع فوضعها في آلة مخصوصة، وفي المحصِّلة ينزلُ المبلغ من حسابك دون أن تلمس النقود ودون أن تعاني الكُرَبَ النفسيةَ الثِّقال.

إن طرق الدفع الخفية بالشيكات، والبطاقات تجعل المرء مسرفاً. لكنني بصراحة أحبُّها، وأراها خفيفة على قلبي. وأرى أن إخراج رزمة أوراق نقدية من الجيب وتسليمها لشخص آخر غلط غلط.



١٢٤ فوائد محتملة للبندورة الطازجة

عزيزي المستمع، قريبٌ لي زار في ألمانيا الغربية، هذا قبل خمسة وعشرين عاماً وكان ثمة ألمانيتان، جاء يقضي الصيفَ مع عائلته وكنتُ أنا مقيماً هناك. رأيته سعيداً مرتاحاً مسترخياً بشكل جعلني أغبِطُه. نزلنا يوماً إلى السوق، وكان يمشي الهويني في سوق الخضار الشعبي حيث يأتي المزارعون من الريف بمنتجاتهم؛ كان يسير وكأنه يتنزه

وحوله أولادُه كالصيصان حول الدجاجة. أذكر أنه قال لهم: أنظروا كيف يفهم الألمانُ اللغة العربية. واقترب من بائعةِ خضارٍ عجوز، وأشار إلى البندورة وقال لها بصوت عالٍ وبالعربية: هل من الممكن أن تعطيني كيلو بندورة. وأشار بسبابته إلى الرقم واحد. طبعاً العجوز فهمت كلمة كيلو، وفهمت أنه واحد من إشارة يده، وفهمت أنه يريد بندورة لأن يده تشير إلى البندورة. وأعطته كيلو بندورة دون أن يقول لها كلمة بلغة أخرى. استغرب الأولاد جداً. وربما اعتقدوا أن أباهم يملك سحراً خاصاً يجعل الألمان يفهمون العربية. ذلك القريب كان مليونيراً. قلت في نفسي: هو يستحقُّ ذلك لبرود أعصابه. بعضُ الناس، يا أخي عندما يسمعون أن فلاناً صار مليونيراً يبدأون بتأليف القصص عن مصدر ثروته. وقريبي ذاك أمين شريف، ولكنه يعمل كثيراً وبصمت وبرود وبروح طيبة، وربما كان للبندورة الطازجة تأثير إيجابي في مزاجه. وفي رأيي أن إساءَة الظن بكل غني غلط غلط.

١٢٥ من برَّة سخام

عزيزي المستمع، حدثني صديق مصري يعمل في باريس عن انطباعاته في بلده مصر، وقد صادفتُه في القاهرة، وكان يزورها بعد غيبةٍ طويلة. سألته عن الأمر الذي لفت نظره بقوة.. وفوراً، قال بدون تردد: الناس هناك صاروا يهتمون بنظافة وشياكة بيوتهم من الداخل أضعافَ ما كان الأمرُ في الماضي، وصاروا لا يبالون أن يتحول كلُّ شيء خارج عتبة البيت إلى مزبلة. الوضع في باريس - حيث يعمل صاحبي - ليس كذلك، فالمرافق العامة تجب مراعاتها من حيث النظافة والصيانة: الدولة ترعاها، والمواطنون يحافظون عليها.

مدينةُ رام الله كانت أنظف وأنظم، ولكن أصابتها ظاهرة «من برة سخام، ومن جوة رخام» بعكس المثل. أعتقد أن الأمر يتعلق بشكل عام بالازدحام المفاجيء. لكنْ، أيضاً هناك كسل في تطبيق القانون. خذ مثلاً: عمارةٌ في وسط البلد، بدأ صاحبها بالبناء بنشاط، وارتفع ثلاثة طوابق ثم اختلف مع إخوته، وتوقَّف البناء خمس سنوات، كان

صاحب العمارة قد أفرغ على طرف الشارع حمولة شاحنتين من النِّحاتة، وظلت النحاتة هناك خمس سنوات. وظلَّت أم سعيد التي تسكن قريباً من المكان تنفض الغبار عن أثاث بيتها يومياً، وظلت البلدية نائمة على أذنها خمس سنوات حتى لا تزعل حامولة أبو فلان، أليس هذا غلط غلط؟



مليون وفيلا وسيارة..

عزيزي المستمع، أحدثُك اليوم عن رجل أصابَ ألف ألف دولار. وكلمةُ ألف ألف معناها مليون. فالعرب القدماء لم يضعوا للمليون اسما، فكانوا يقولون ألف ألف. صاحبنا ربح - العقبى لكم - مليون دولار في اليانصيب.

نظر إلى نفسه في المرآة، وضحك مثلَ المجانين، وحمِدَ الله على وسامته وعلى غمَّازته. ورأى أن مستوى الشَّعر على رأسه ما زال معقولاً، ولن يصلَعَّ إلا بعد عشر سنوات تقريباً. حمدَ الله ثانيةً. اشترى السيارة. واشترى فيلَّا كي يستريح من جارٍ يدبِكُ فوق رأسه، وجارةٍ تسكب عصير مِمسحتِها على شبابيكه.. ثم.. انضربت السيارة فانسمَّ بدنُه، وطاف بها على المجلِّس والكهربائي، ووقف على أيديهما نهارين. وتذكر كيف كانت تنضربُ سيارتهُ العتيقة من جناحها فينزلُ ويمسحُ بيده على الجناح، ويقول: بسيطة. ومن كثرة ما تشوهت خلقةُ تلك العتيقة لم يعد يلاحظُ أية ضربة جديدة. وفي الفيلَّا الجديدة تلِفَ المحرك الذي يفتح باب الحديقة فانشغل به، ثم دَلَفَ السقف، ثم اختلَّ ضغط الجاكوزي، ثم وقف سخان التدفئة المركزية. صار يدفع يميناً وشمالا. وصار يقضِّي أيامه يساوم الشغِّيلة والعمال. ولحقت به في السنة الأولى علةٌ من أكل اللحم فمنعه الطبيب من أكلِ اللحوم الحمراء، واختلف أكلُه وشربه. ولكن ما آذاه حقاً أن بعض أصحابه القدامى هربوا منه، والتصق به أصحابٌ جددٌ عددُهم كبير، لكنه لم يكن يعرفُ حقيقةَ مشاعرهم نحوه.

المليون سمّم حياة صاحبنا، وأفسد عليه لذاته، فهل يرضى أيّ واحد فيكم أعزائي

المستمعين، بعدما سمعتم هذه القصة أن يربح مليوناً؟ طبعاً كلكم ترضوْن. سمعت جوابَكم. كأنني أطحنُ الماء وأنا أكلمكم.! لقد بقي من مليون صاحبنا سبعة آلاف دولار. وصاحبنا يريد التخلص منها، فمن كان مستعداً فالرجاء التوجه لأخذها من فيلا صاحبنا. العنوان ليس معي الآن، وعلى العموم إذا ظننتم أن هناك شيئاً ببلاش، إلا العمى والطراش، فظنكم في غير محله وهو غلط غلط.

١٢٧ مظفر النواب

عزيزي المستمع، أنا أهرب من المشاهير. أكره أن ألقاهم. أخاف أن يخيب ظني. لكنَّ الأقدار جمعتني ببعضهم مضطراً بحكم العمل. واحد منهم كان مظفَّرَ النوَّاب الشاعرَ العراقي المتمرد الممنوع في المكتبات والإذاعات.

لقيتهُ في دارِ صديقٍ في غرب لندن. وفي تلك الجلسة ذكر لنا أحد الحاضرين كيف نشل النشالون شاعرنا في صبيحة ذلك اليوم. فقد أتى إلى عاصمة بلاد الإنجليز بستة آلاف جنيه استرليني في حقيبة، وقد نُشِلتْ منه. لم يبدُ على المظفر أي تأثر. وجلسنا، وسهرنا، وكان معنا مطرب عراقي يتقن الألوان الشعبية من الغناء، فبدأ يغني بصوت شجيٍّ وقويٍّ هزَّ أركان البيت، وهزَّ القلوب بما فيه من عذوبة، وناهيك بالغناء العراقي! وكان هذا المطرب يحثُّ المظفر أن يغني، (مظفر النواب في الستين من العمر، وهو يعزف البيانو، وله بالموسيقى علاقة)، ولكنّ المظفر ظل يرجيء الغناء. ثم بعد حين بدأ يهمهم. وانطلق يغني أغنياتٍ شعبيةً عراقية، وسكتَ ذلك المطرب، وسكت كل من بالدار. خشعوا خشوعاً لهذا الصوت الهادر الجميل. عندما كنتُ سمعت المطرب الذي غنى أولاً ظننتُ أنه ليس في الدنيا صوت أقوى ولا أحلى منه. وعندما سمعت المظفر يغني أيقنتُ أن المواهب من عند الله يمنحها من يشاء بالقدر الذي يشاء. غنى المظفر بعد ذلك أغانيَ لأم كلثوم من ألحان زكريا، ومن ألحان بليغ حمدي. وكان طيب المحضر مليئاً بالعاطفة، وبالعمق، وبالكبرياء.

وفي اليوم التالي - أو ربما بعد يومين - التقيتُ مظفَّر النواب في مقهىً من مقاهي الرصيف. كان حائراً زائغَ النظرات، مرتبكاً. سألته عن الأمر، فقال إنه فقد دفتر شعر كان دوَّن فيه بعض قصائدِه. رأيته في ذلك الصباح قلقاً لا يفكر في شيء سوى في دفترِه الضائع. فقلت في نفسي: سبحان الله، هذا الرجل لم يكترث لستة آلاف جنيه استرليني ضاعت منه. وها هو بائس لضياع دفتر شعر.

ولعلك عزيزي المستمع تريد أن تعرف إن كان عثر على الدفتر أم لا؟ حسناً، لقد عثر عليه. ولعلك أيضاً تريد أن تسمع بعض أبيات مظفر النواب، ولا سيما تلك الأبيات التي يقول فيها: القدس عروسُ عروبتكم؟ يخاطب المظفر العرب - ولا سيما الحكام - قائلاً:

أقسمتُ بتاريخ الجوع ويوم السَّغَبةْ
لن يبقى عربيٌّ واحدُ
إن بقيت حالتُنا هذي الحالةَ بين حكوماتِ الكَسَبةْ
القدسُ عروسُ عروبتكم؟ فلماذا أدخلتم كلَّ زُناةِ الليلِ إلى حجرتها
ووقفتم تسترقون السمع وراء الأبواب لصرخات بكارتها
وسحبتم كل خناجركم وصرختم فيها أن تسكت صونا للعرض فما أشرفكم..
هل تسكتُ مغتصبةْ
لست خجولاً حين أصارحكم بحقيقتكم، إن حظيرة خنزير أطهرُ من أطهركم
تتحرك دِكَّةُ غسل الموتى، أما أنتم لا تهتزُّ لكم قَصَبةْ

هذا الشعر لمظفر النواب، أحد القليلين جداً من المشاهير الذين لاقيتهم. ولو ظننت عزيزي المستمع أنني صرت بعد ذلك أحب لقاء المشاهير فظنك غلط غلط.



١٢٨ مصير المساعي لتوفيقِ رأس "شن" ورأس "طبقة" على مِخَدَّة

عزيزي المستمع، ذات يوم كنتُ واسطة خير. لكني اكتشفت في النهاية أنني كنت كالأطرش في الزَّفَّة. أرسلني قريب لي - وكنت أيامئذ فتىً يافعاً - أرسلني مع موظَّفةٍ في مكتبه إلى متنزَّه البلدية لكي تقابل رجلاً غريباً جاء من أميركا، وهو يبحث عن

بنت الحلال. ذهبتُ مع الموظفة وتعرَّفنا بسهولة على الرجل، كان يجلس إلى الطاولة وحدَه. جلسنا ساعة تكلَّمنا فيها كلاماً عاماً، وطلب لنا الرجل غَداءً خفيفاً وشاياً، ثم انصرفنا. الهدف كان التعارف. وأنا كنتُ بمثابة صِمَام الأمان. عندما انصرفنا قالت لي الموظفة: ما لي وللمشاكل! هذا رجل متزوِّجٌ امرأةً من قريتِه، وعنده ضغطٌ وسكري وكولسترول. قلت لها: وكيف عرفت؟ قالت: قميصٌ أبيضُ وياقةُ القميص من الداخل، الملامسةُ للرقبة، ناصعة البياض، مع أن القميص ليس جديداً. هذا شيء لا تراه على رجل أعزب، ولا على رجل متزوج من امرأة إفرنجية. أما الضغط فلأنه كان يقشر حبة الترمس بيده بعد تنشيفها، ولا يتجنب الملح هذا التجنُّب إلا رجلٌ مضغوط، وأما السكري فلأنَّه لم يضع السكر في الشاي. قلت لها: لعله يحب الشاي بلا سكر، لأنه كان في أميركا. قالت: لا، لقد أمسك بورقتي السكر وعبث بهما قليلاً ثم أخفاهما تحت حافة الصحن. فهو كأنما يريد إخفاء مرضه. وقلت لها: وماذا عن الكولسترول؟ قالت: هل رأيت رجلاً عاقلاً يترك الحمص المجلل باللَّحم المقليِّ بالسَّمْن، و»يَدُقُّ» بصحن المتبل المحلَّى بزيت الزيتون لا غير؟ هززت رأسي متعجِّباً. ووصلنا إلى المكتب وانتهتْ مهمتي. وفي المساء قابلتُ الرجل بصدفة عجيبة. جاء يزور قريبي في البيت، وكنت موجوداً. قال له قريبي: هل أعجبتْك فلانة؟ فقال: يا أخي كيف تريد إيقاعي مع مطلَّقة وعندها أولاد. وتدخن الأرجيلة أيضاً، وترتدي حجاباً مع أنها غيرُ محجَّبة. فضحك قريبي وهزَّ رأسه. وسأل الرجل: هل قالت لك ذلك؟ قال الرجل: أنا استنتجت وحدي. قال له: كيف؟ فقال الرجل: بين حين وحين كانت تمرِّرُ أصابعَها وراء أُذُنيْها بالخطأ كأنما لتبعد شعرها وراء الأذنين، ثم تكتشف أن أذنيْها خلف الحجاب. ولو كانت محجَّبة فعلاً لما كانت عندها هذه الحركة. وأما أنها تدخن الأرجيلة فلأن وجهها مليء بالمسامات الواسعة مثل كل المدخنين، رغم أن أصابعها غيرُ مصفرَّة اصفرار من يدخن فلا بد أنها تؤرجل، حماك الله. وأما أنها متزوِّجة فبسيطة: هل رأيت في حياتك موظَّفة تحفر الباذنجان وتحشوه، حتى لتسْوَدُّ يداها منه إلَّا وهي متزوجة وعندها أولاد؟ عندما وصل الرجل إلى هذا الحد قال له قريبي؟ هي مطلقة منذ سنة وعندها ثلاثة أولاد فعلاً، وهي تدخن التنباك العجمي والله، وأما الحجاب فهي محجبة ولكن.. منذ شهر فقط، وقبل ذلك كانت «مفرِّعة»

فعلاً. هنا قلت أنا للرجل: وأنت أيضاً متزوِّجٌ امرأةً من بلدِكم، وعندك سكري وكولسترول وضغط، صحيح؟ وقصصتُ عليه القصة. فأطرق برأسه. فقال له قريبي مثلاً لا أزال أذكره، قال له: «ما يجيب الرطل إلا الرطلين». وكان الرجل متزوجاً من بلده فعلاً، وكان يريد زوجة أخرى يأخذها معه.. يريد زوجة متعلمة تصلح لأميركا. وكان عنده سكري وكولسترول وضغط. والمشكلة أنه كان يريد إخفاء كل أمراضه. والمشكلة الأكبر أنه كان يريد إخفاء موضوع زوجته الأولى.. وهذا غلط غلط.



فن الحياة: تنسم الهواء العليل

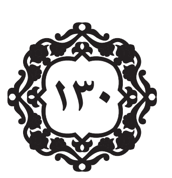
عزيزي المستمع، حديثي إليك يبدأ عن ميرون بن فنستي الكاتب الإسرائيلي. وهو صحفي وباحث جغرافي كتب في الآونة الأخير كتاباً عن طريقة تهويد فلسطين. وهو يحكي لنا كيف أن فريقاً كبيراً من الجغرافيين الإسرائيليين عمل بجد ونشاط، وبأوامر مباشرة من مؤسس إسرائيل ورئيس وزرائها الأول بن غوريون، على نقل أسماء المناطق إلى اللغة العبرية. يوردُ الكاتب أسماءً كثيرة حرَّفها ذلك الفريق من العربية إلى العبرية، بقصد خلق الوهم بأن الأصل كان عبرياً، وقام العرب بتحريفه وها هو قد عاد إلى العبرية.

الكاتب بن فنستي ذو ضمير حيٍّ وهو أحيانا يكتب بغضب عن الفلسطينيين. في هذا الكتاب ينتقد بن فنستي الأثرياء الفلسطينيين الذي أخذوا يرسلون أبناءهم ليتعلموا في الخارج عندما اشتد النزاع في فلسطين قُبيْلَ إنشاء دولة إسرائيل. لقد هرَّب الأغنياءُ أولادَهم بينما كان شبابُ اليهود يقطعون دراستَهم لينخرطوا في صفوف العصابات الصهيونية.

لا أرى أن الوضع تغيَّر كثيراً. عندنا مشكلة لكنني لا أحب أن أعالجها حتى لا أتحدث عن الوضع الحالي، وينقلب كلامي إلى السياسة. مع ذلك أحب أن أقول إن المقارنة ليست منصفة. فالشعبُ اليهودي عاش فترات اضطهاد سابقة كان أغنياؤه فيها متخاذلين، وفقراؤه يتحملون المعاناة. المسألة مسألة ظروف.

نحن الآن مجتمع محمول على بغل. والبغل يُهَمْلِجُ بنا ويخضّ مصارين مجتمعنا خضَّاً.

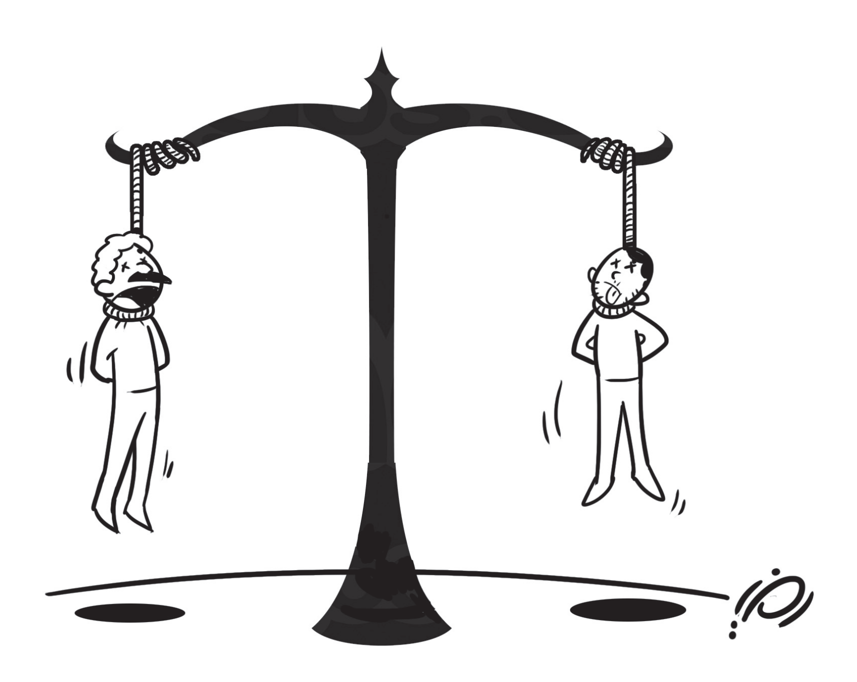
وسنبقى فوق البغل عشراتٍ أخرى من السنين. سلِّم أمرك لله عزيزي المستمع، وتمتَّع بما يسوقه إليك القدر. واسمع مني هذه القصة: كان لي صاحب يسكن في قرية اسمها سوق الغرب في جبل لبنان. ركب سيارة أجرة وأراد النزول إلى بيروت. كان الحرُّ شديداً. والسيارة تمشي ببطءٍ هابطةً منحدراتٍ متعرجة. ولم يكن في الجو نسمة، والركاب يتصبَّبون عَرَقاً. ثم فجأة فقدَ السائق السيطرة على السيارة واندفعت بين الصخور.. هاويةً في الهاوية. أصيب الجميع بالهلع ورأوا الموت المحقَّق. لكنَّ صاحبي شعر في تلك اللحظات أن سرعةَ السيارة وهي تتدهور سببت نسيماً عليلاً.. وقال لنفسه فلأتمتَّعْ قبل الموت بهذا النسيم. ثم شاء ربُّك ألاَّ يموت صاحبي. عاش ليحكي لكل من عرفه قصةَ ذلك النسيم العليل. الحياة صعبة وأن تعيشها وتنكِّد على نفسك فيها غلط، وحياتنا نحن صعبة جداً، وعجزنا عن العثور على أي نسمة فيها غلط غلط.



١٣٠ لبنان والتوازن الطائفي

عزيزي المستمع، وجدتُ نفسي ذاتَ سنةٍ في مدينة حلب بشمال سوريا. كان هذا في أواسطِ السبعينات. كنتُ أجلس كل يوم في ساعة مسائية في مقهى يجلس فيه المتقاعدون - ولم أكن آنذاك متقاعداً - وأقرأ جريدة الأنوار اللبنانية، وأقرأ جريدةً لبنانية أخرى تنطق باسم حزب البعث. مكثتُ على هذه الحال أشهراً. وكنتُ أتسلَّى كثيراً بأخبار السياسية الداخلية اللبنانية، ولا سيما أخبار الخلافات بين رئيس الوزراء ورئيس الجمهورية. أذكر أن رئيس الوزراء كان آنذاك صائب سلام، والرئيس كان سليمان فرنجية. وكان عادل عسيران رئيس مجلس النواب في الثالوث الرئاسي اللبناني. كان ذلك قبل الحرب الأهلية اللبنانية بأشهر. الخلافات الداخلية اللبنانية فيها كثير من الإتيكيت والمجاملات والأعراف الثابتة التي يتم الحفاظ عليها بدقة حفاظاً على توازن طائفي هش. في المحصِّلة قامت الحرب الأهلية وقتل فيها آلاف وحُمِّلَ الفلسطينيون الكثيرَ من دواهيها، واستمرت خمس عشرة سنة. وعاد التوازن الطائفي إلى حاله.. مع ازدياد واضح في نفوذ الشيعة نظراً لقوتهم العددية.

ولمن لا يعرف عن لبنان إلا برنامج «سوبر ستار» نقول إن ذلك البلد لم يستطع أن يجد مفرّاً من الحفاظ على التوازن الطائفي. وهذا التوازن يفرض نفسه على التوظيف والمعونات الحكومية للمناطق وعلى حكم الإعدام أيضاً. ففي لبنان إذا ارتكب مسلم جناية وحكم عليه بالإعدام أوقف تنفيذ الحكم حتى يُحكَمَ على مسيحي بالإعدام فينفَّذَ الحكمان معاً. إلى هذا الحد وصل التوازن والحساسية الطائفية. لبنان شيء وبلدنا شيء. ولا أنصح بالمقارنة. لكنَّ العبرة التي أَستخلصُها هي أن تكون مؤسسات البلد فعَّالة. وفي لبنان كانت دورُ النشر والجامعاتُ من أهم ما هو موجود في العالم العربي. وقد ظلَّت كذلك خلال الحرب الأهلية وبعدها. وفي فلسطين المؤسساتُ كلها ضعيفة والدولةُ تعيل عدداً ضخماً من الموظفين. ومن النافع في نظري أن تعطي الدولة كثيراً من أدوارها للقطاع الخاص، فهو أشطرُ وأكثرُ فاعليةً. أما الحرب الأهلية فلا أرى أنه بقي عندنا أرض يمكن أن تقوم عليها، لكننا نحب الشِّقاقَ حباً جماً. وهذا غلط غلط.





١٣١ الرئيس والرئيسي.. اللغة والأخطاء الشائعة

عزيزي المستمع، ما رأيُك في جولة لغوية؟ نحنُ العرب نحبُّ اللغة، ونغار عليها؛ وعندما قامت المجامع اللغوية في دمشق والقاهرة وعمان وفي غيرها من العواصم نشطت معها حركة تغيظني جداً. هذه الحركة اسمها «قل ولا تقل». فإذا قلت: (السبب الرئيسي)، صاحوا بك: إياك أن تقول ذلك، هذه جريمة منكرة، ويجبُ أن تقول: (السبب الرئيس). وإذا قلت: (في الخمسينات انتهت الحربُ العالمية الثانية) قاموا عليك واعترضوا وقالوا: قل الخمسينيَّات ولا تقل الخمسينات. طبعا لن يلتفتوا إلى أنك أخطأت في التاريخ، فالحرب العالمية الثانية انتهت في الأربعينات؛ فبالنسبة لهؤلاء القوم المعلومة ليست مهمة أهميةَ أن تكون اللغةُ دقيقة وصحيحة بحسب مقاييسهم.

وفي الواقع فإن أكثر من يخطِّئون الناس هم من المتوسِّطي العلم باللغة، والأقل اهتماماً بالمعلومات والحقائق. إنهم يحبون القشور، وسأظل أقول (الأربعينات) بدون ياء مشددة، و(الرئيسيّ) بياء مشددة رغم أنوفهم.

اختلاف المجامع اللغوية هو كاختلاف العرب عموماً. قرر أحدُ المجامع أن يسميَ الراديو مِذياعاً. فاعترض كثيرون، فسماه مجمعٌ آخرُ مَوَّاجاً، وقال إن المذياع هو الميكروفون. وظل الخلاف قائماً. فهجر الناس رأي المجامع كلها وسمَّوْا المذياع الراديو، وظل الميكروفون ميكروفوناً. وأنا قد أقمت في بيتي مجمعاً لغوياً صغيراً وأنا أطيعُ أحكامه، وأنا العضو الوحيد فيه. وقد سمَّى مجمعي اللغوي الراديو رادو، بوزن ساقو بالإسبانية أي معطف، وسمى الميكروفون الميْك على وزن البيْض. لكنني على يقين من أن جماعة قُلْ ولا تقُلْ سيخرجون غداً في مظاهرة ضد هاتين التسميتين وسيكون الهتاف فيها: غلط غلط.



التفوق العربي: في الشطائر والشعر

عزيزي المستمع، اخترُعَ الساندويش قبل مئتين وخمسين عاماً، وسأحتفل اليوم معك بمرور قرنين ونصف على اختراعه. اخترعه لورد ثري وفاسد كان لقبه «اللورد الرابع لمقاطعة ساندويتش» في بريطانيا. وكما قالوا فقد كان اللورد ساندويتش مقامراً يقضي الساعات على منضدة القمار، وعندما يحين موعد الطعام يأمر خادمه بأن يحضر له شريحةَ لحم بين شريحتي خبز. وما زال الساندويـش في بلاد الغرب متخلفاً كعهده أولَ اختراعه. يضعون اليوم بين الخبزتين السلطة والمخلل والمايونيز، وصرت إذا أردت أن تأكل الساندويش سقطت منه أشياءُ على ملابسك، وأشياءُ على الأرض، وتفتَّتَ الخبز بين أصابعك. نحن في بلادنا نصنع الرغيف على هيئة جيب ونضع فيه ما شئنا. اعتقد أن الناس في بلاد الساندويش يحتاجون إلى مئتين وخمسين سنةً أخرى حتى يقتنعوا بأن خبزنا خيرٌ للشطائر من خبزهم.

نحن نتفوق على الأوروبيين في أمرين يبدآن بحرف الشين: الشطائر، والشعر. فالشعر العربي منوَّعٌ وكثير الأغراض فكأنه بيتُ جدتي المليءُ بالتحف الجميلة، والكراكيب الأجمل. عندنا شعر في الغزل، وشعر في الهجاء، وشعر في وصف الطبيعة، وشعر ديني، وشعر ماجن؛ نحن العرب الشعبُ الذي خرج منه دينٌ يقول للعالم إن الخمر حرام، ونحن العرب الشعبُ الذي أنتج أحلى شعرٍ في التاريخ في مدح الخمر. ألم يقل المثل: كلُّ ممنوعٍ مرغوب. حتى علماءُ الدين في الماضي قالوا شعراً في الخمر. العربُ حتى يومنا هذاً أشعرُ شعوب الأرض.

اسمع معي هذين البيتين لجميل صدقي الزهاوي:

رأيتُ بالأمسِ شيخاً   قد أنحنى باضطرابِ
فقلت: يا شَيخُ ماذا   أضَعْتَ؟ قال: شبابي

نعم، لك أيها العربي أن تفتخر بالشعر، وبالشطائر.. وربما بكل شيء على حرف الشين. أما الحروف السبعةُ والعشرون الأخرى فلا نصيبَ لك فيها. وكل ما نسمعه عن مفاخرنا هو في معظمه غلط غلط.



١٣٣ دِعبِل

عزيزي المستمع، أحدثك اليومَ عن شاعرٍ قديم عاش قبلَ ألفٍ ومئتي سنة، اسمُه دِعْبِل. كان دعبلٌ طويل اللسان، وكان شقياً. في زمنه كان الشعراء يمدحون الخلفاء والأمراء، وأحيانا يهجُون بعضهم بعضاً، أو قد يهجون الأمراءَ الصغار. أما الخلفاء فكان هجاؤُهم معدوماً، لأن ذلك معناه الموتُ المحقَّق في زمن كانت الخلافة العباسية فيه قوية. لكن دِعْبِلاً هجا المعتصم ثامنَ الخلفاء العباسيين. قال فيه:

وقامَ إمامٌ لم يكنِ ذا هداية — فليس له دينٌ وليس له لُبُّ
ملوكُ بني العباسِ في الكُتْبِ سبْعةٌ — ولم تأتِنَا عن ثامنٍ لَهُمُ كُتْبُ
كذلكَ أهلُ الكهفِ في الكهفِ سبْعةٌ — خِيارٌ إذا عُدِّوا وثامِنُهم كَلْبُ
وإني لأُعْلي كلبَهم عنكَ رفعةً — لأنكَ ذو ذَنْبٍ، وليس له ذَنْبُ

ودعبلٌ كان رجلاً معتدًّاً بنفسِه. اسمع له هذين البيتين:

ما أكثرَ الناسَ، لا بل ما أقلَّهم — والله يعلمُ أنِّي لم أَقُلْ فَنَدَا
إن لأفتَحُ عيني حين أفتحُها — على كثيرٍ، ولكن لا أرى أحدا

وعندما مات المعتصم جاء ابنهُ الواثق خليفةً. فقال دعبل:

الحمدُ لله لا صبرٌ ولا جَلَدُ — ولا عَزاءٌ إذا أهلُ البَلا رَقَدُوا
خليفةٌ ماتَ لم يحزَنْ له أحدٌ — وآخرٌ قام لم يفرَحْ به أحدُ
فمَرَّ هذا، ومَرَّ الشؤْمُ يتبَعُهُ — وقام هذا فقامَ الظلمُ والنَّكَدُ

ولا أستطيع أن أترك دعبلاً دون أن أنشدلك عزيزي المستمع بيتين له من أشهر وأجمل الشعر:

أَينَ الشَّبابُ؟ وأَيَّةً سَلَكَا — لا.. أَينَ يُطْلَبُ؟ ضَلَّ بَلْ هَلَكا
لا تعجَبي يا سَلمُ من رجلٍ — ضَحِكَ المشيبُ برأسِهِ، فبَكى

كان دِعْبِلٌ يقول في شيخوخته: ما زلت أحمِلُ صليبي ثمانينَ سنةً، لا أجد من يصلُبُني عليه. مات دعبل، وقيل قُتل، وعمرُه ثمانٍ وتسعون سنة. وعمرُ الشقي بقي. قضى عمرَه كلَّه هارباً متخفياً.. وكانت حياتُه في مجملها غلط في غلط.

١٣٤ ابن سودون يسعى

عزيزي المستمع، ذكرنا لك قبل حين طَرَفاً من شعر ابن سودون المصري. وقد رأيتُ له قصةً طريفةً مأخوذةً من ديوانه «نزهة النفوس، ومضحك العبوس» أحب أن أقصَّها عليك. قال: كنتُ وأنا صغير بليداً لا أصيبُ في مقال ولا أفهمُ ما يُقال، فلما نزل بي المشيب، زوجتْني أمِّي بامرأة أبعدَ مني ذهناً إلا أنَّها أكبرُ مني سنّاً. ثم ولدَتْ ولداً، واحتاجت إلى أن تأكل. فأخذتُ وِعَاءً وخرجت لأُحْضِرَ فيه الطعام، لكن نسيتُ الغِطاء.. فرجعت إلى البيت وأحضرتُ الغطاء وخرجت، فنسيت الوعاء. وظللتُ أخرجُ من البيت وأعود إليه، وفي كل مرة أنسى الغطاء أو الوعاء حتى غَرَبَتِ الشمس، فقعدت في البيت. وصارت امرأتي تئِنُّ من الجوع والضعف، وصار الولد يصرخ. فخرجت من البيت هائماً على وجهي أبحث عن طعام، فما وجدت في البلد إلاَّ دكاناً يبيع الفساتِقَ والبنادق، فاشتريت منه بُنْدُقاً، وعدت أدراجي، لكنني أَضَعْتُ بيتي. وطفِقْتُ أبحثُ عنه حتى انفلق الصبح، وعلى خيوط الفجر الأولى اهتديت إلى بيتي، فحثثتُ الخطى. ودخلت. فوجدت زوجتي هادئةً هانئة، وعلى وجهِها ابتسامةٌ مستريحة، لقد ماتت واستراحت. ووجدت الولدَ يبكي جوعاً. خطرَ ببالي أنَّ الحمامةَ إذا أفرَخَتْ وماتت ذهب زوجُها، والتقطَ الحب وصار يقذفُهُ في فم الفرخ فيعيش. فقلت في نفسي: لا والله، لا أكون أعجزَ من ذَكَرِ الحمام، ولا أدعُ ابني يذوقُ كاس الحِمام. فأخذت حَفْنَةً من البندق. وصرت أجعلُ البندقَةَ في فمي ثم أنفُخُ بها في فم الوليد.. بندقة بعد بندقة. فُرادى ثم أزواجاً، ثم أفواجاً أفواجاً حتى صار البندق يتناثرُ من أشداقِه، فسكَتَ عن صُرَاخِهِ. فسُرِرْتُ بذلك. فإذا هو قد مات. فحسدتُهُ لأنه ماتَ شبعانَ، بينما ماتت أمه جَوْعَانَة. وتركتُهما ميِّتَيْن، وخرجت أبحث عن كفنٍ لهما. ولما اشتريت الكفن أضعت الطريق إلى البيت مرة أخرى، وما زلت حتى الآنَ أبحث عن بيتي.

هذه هي القصة التي رواها ابن سودون، وهي تصور فكاهة ذلك العصر. إنها فكاهة سوداء، فيها روح ذلك العصر القاتمة. إنه العصر المملوكي. ومن قال إن عصرنا الحاضر

أهون منه فهو شخص شديد التفاؤل. عصرنا هو العصر الذي شهد «الاجتياح» عندما مات الناس في بيوتهم ميتة طبيعية، ولم يجد أهاليهم وسيلةً للخروج لدفنهم. عصرنا غلط ونحن فيه غلط وعدونا فيه هو عدوٌّ للإنسانية وهو غلط غلط.

١٣٥ تحويل ألمانيا من قلعة صناعة إلى مزرعة بطاطا

عزيزي المستمع، أنت طبعا لا تصدقُ كل شيءٍ أقوله عن نفسي، إذا قلتُ لك مثلاً إنني قدت سيارتي المرسيدس إلى المكان الفلاني، فلا تصدِّق أن عندي مرسيدس، ولا أن عندي سيارة. هذا كلام أقولُه لكي أُوصلَ لك فكرةً معينة.

وجدت نفسي ذات يوم أدرُسُ التاريخ في بلدةٍ في وسط ألمانيا اسمُها دارمشتادت، ومعنى الاسم «مدينة المَصير»، ذلك أنه يمر فيها نهر يشبه في تعرجه مصير الإنسان. وأفيدك فأقول: المصير بالعربية هو المِعَى وجمعُها أمعاء، وجمعُ المصير مُصران، وجمع المصران مصارين. كنت أدرُسُ التاريخ في كليةٍ مقرُّها في حصن المدينة التاريخي. الحصنُ نفسهُ حوَّلوه إلى غُرفٍ دراسيةٍ وقاعات. تكون جالساً في غرفة الدرس تستمع إلى شرح عن تاريخ البلاد، والتاريخُ نفسُه حوالَيْك.

ذات يوم كنت أشرحُ لأحدهم عن ذلك الحصن، وكيف أنه بنى قبل مئات السنين، فسمِعني أحدُهم فقال لي: بل هذا الحصن بُني في الخمسينات، بعد أنه دكَّته دكَّاً الغاراتُ الجويَّةُ في الحرب العالمية. ثم إنه تسنَّى لي فيما بعد أن أرى صوراً للمدينة عقب الحرب العالمية مباشرة، فإذا في مكان الحصن خرابٌ كامل. لقد جاء المهندسون بعد الحرب بصور للحصن وعلى هَدْيِها أعادوا بناءه حجراً حجراً كما كان، وكأن شيئاً لم يحدث له في القصف الجوي.

عزيزي المستمع، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية نشأت في أوساط الإدارة الأميركية فكرة ملخصها: يجب تحويل ألمانيا إلى مزرعةِ بطاطا لمنعها من التطور صناعياً وعلمياً وتكنولوجياً. لكنَّ الأذكياء في واشنطن عرفوا أنهم لن يستطيعوا قتل الروح العلمية

والصناعية عند الألمان، وأن الأفضلَ لهم توجيهُ هذه الروح لخدمة مصالح الغرب في صدِّ الكتلة الشرقية الاشتراكية. تمكنت ألمانيا من النهوض في غضون سنوات قليلة، رغم أن البلد دُمِّرت تدميراً في الحرب، ولم يبق لديها لا مصانعُ ولا مختبرات، ورغم مقتل الملايين ومنهم الخبراء والمختصون.

في غضون أقلَّ من عشرِ سنوات انتعشت ألمانيا، وسبقت فرنسا وبريطانيا المنتصرتين عليها. والسبب هو أن الحرب لم تقتل روحَ الانضباط واحترامَ القانون وتقديسَ العمل في نفوس الألمان. وثبتَ أن ألمانيا كانت خيرَ سدٍّ في وجه الاتحاد السوفييتي، وأن التفكير في جعلها مزرعة بطاطا كان غلط غلط.



١٣٦ غصباً عنك، يجب أن تستفيد

عزيزي المستمع، عنوان حلقة اليوم هو «المفيدون والمستفيدون». هناك ناس يعقدون الندوات في التلفزيون لكي يفيدوا الناس، وناس يكتبون مقالات في الجريدة ليفيدوا الناس. وناس ينصحون أولادهم وبناتهم ليفيدوهم. الندوات التلفزيونية عذاب للمشاهدين، ويتسلى فيها المذيع وضيوفُ الاستديو. ومقالات الجريدة لا أحد يقرأها. أنا أطمئنُك أيها المستمع العزيز إلى أنك لست وحدَك من يقرأ العناوين فقط في الصفحة الأولى، ثم يلتهم كامل الصفحة الأخيرة من الجريدة، ثم يرميها من يده ولا يفتح على المقالات. «مِثْلَكْ مثايِل».

والأب الذي ينصح ولدَه المراهق يضيِّعُ وقته طبعاً. قف أمام الخزانة وتكلم معها، أو أمام المغسلة وتكلم معها.. وهناك احتمال - وإن بعيداً - بأن تردَّ عليك الخزانة أو المغسلة، أما ولدُك المراهق فلا يسمعُ النصيحة. إنه مبرمَجٌ من رب العالمين ألّا يسمعَ النصيحة، فوفِّرْ على نفسك التعب.

أيها المفيد الكريم.. ما رأيك في نصيحة؟ بدل أن تسلك طريق الإفادة، اسلُكْ طريق الإقناع.. إذا أردت أن تحدثنا عن الطفولة فقُصَّ علينا قصة الطفل أمين الذي حشره

أهلُهُ في مغارة قرب البيت، وربطوه هناك من صِغَرِه حتى فَقَدَ اللغة وصار يُصْدِرُ أصواتاً مثل الحيوانات التي كانت تُربَطُ معه في تلك المغارة. وبعد القصة أرجوك لا تذكرْ شيئاً من الكلام الباهت عن حقوق الطفل. ببساطة.. لأننا نعرف كلَّ هذا الكلام. إذا أردت أن تنصح ولدك المراهق ألاَّ يذهب مع أصحابه فقل له ما شئت أو لا تقل شيئاً، فسوف يذهبُ معهم. أنا في كلامي معك في الراديو أقصد أن أسلِّيَك، وإذا قال لك أحدهم إن برنامجي مفيد فقل له: ليس مفيداً «غلط غلط».

 الإنسان أهم ما يملكون هم

عزيزي المستمع، هناك معلومات بسيطة تتعلمها في المدرسة أو تقرأها في كتاب وترسخُ في ذهنك. فأنت تعرف مثلاً أن موطن البيتزا إيطاليا، وموطن برج بيزا توسكانيا. هذه المعلومات المحددة الصغيرة تعرفُها بدون مشكلة. طبعاً أنت تعرف في أي بلد تقع محافظةُ توسكانيا؟ أليس كذلك ؟ حسناً: إذا كنت تعرف فلن أقول لك. أريد في الواقع أن أحدثك عن المعلومات المعقدة التي تسمعها وتعرفها، ولكنك لا تفهمها بسهولة. هناك معلومة سمعتها منذ أربعين سنة وهي: أهمُّ ثروةٍ في أي بلد هي الإنسان. آنذاك لم أصدِّقْها. فالإنسان هو الذي «يستهلك» الثروات، وأما أهم مصدر للثروات فهو الأرض! مكثتُ سنواتٍ كثيرةً وأنا أشك في قيمة الإنسان كمَصْدر للثروة. ثم بدأت أفهم الأمر عندما تعمقت في حالة معينة.

فرنسا وبريطانيا متساويتان في عدد السكان، ومتساويتان في معدل الدخل للفرد الواحد. ولكن: مساحة فرنسا أكبر من مساحة بريطانيا بمرتين وربع المرة، وأرضها أخصب، وأغنى بكل شيء. إذن فلماذا التساوي في الدخل الفردي بين البلدين. السبب هو أن الثروات التي يجمعها البريطانيون لا تأتي من الزراعة ولا من التعدين، بل من خبراتهم. إنهم متخصصون عالمياً في الخبرات المصرفية، والهندسية، والحاسوبية. وهذه تدر عليهم المال الكثير الذي يغطي عجزهم الزراعي، وحتى الصناعي. المهم هو تنمية خبرات الإنسان لكي ينتج أكثر وأحسن. قد لا أكون أقنعتُك، اُنظر إلى

العائلات الغنية العريقة التي لم تعلِّمْ أولادَها تجدْ أنها افتقرت، ولم يبق لها من الغنى القديم سوى النفخة و»شوفة» الحال؛ وانظر إلى العائلات الغنية العريقة التي علَّمت أولادَها تجدْ أنها ازدادت غنى، وربما صار اعتدادُها بالذات مقبولاً أكثر من جانب الناس. لعل ذلك أن يكون أقنعك، أما إن كنت تصرُّ على أن محافظة توسكانيا تقع خارج إيطاليا فلا شك أنه لن يقنعك شيء، ولا شك في أن تفكيرك سيكون غلط غلط.



١٣٨ مساعدات لشراء السيارات

عزيزي المستمع، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «اليدُ العليا خير من اليد السفلى».

إذا كنت، أيها المستمع، سائلاً يجلسُ على قارعة الطريق.. وإذا صدف أن كان في جيبك راديو ترانزستور تستمعُ إليه في الوقت الذي لا تكونُ مشغولاً فيه بالحديث في هاتفك المحمول، إذا كنت كذلك فانظر إلى يدك الممدودة، وأنظر إلى يدِ رجلٍ محسن يعطيك المال، واعلم أن يده هي العليا ويدَك هي السفلى؛ وإن كنت موظفاً في مؤسسة أجنبية تقدِّم مساعداتٍ لشعبنا فاعلم أن يدك هي السفلى. لا تبتئس أيها المستمع سواءٌ أكنت المتسول أم الموظف، فهناك دولٌ عظمى اضطُرَّتْ إلى مدِّ يدِها وأخْذِ مساعدات، وفي ذهني وأنا أقول هذا ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية. لكنَّ الذي يأخذ المساعدات لكي يبنيَ المستقبلَ ويصبحَ مُنتجاً يختلفُ عن الذي يأخذ المساعدات لكي يشتريَ الموادَّ الاستهلاكية كالسيارات الفاخرة. نحنُ نأخذ المساعدات، ونستعمل جزءاً كبيراً منها لمحاولة بناءِ مستقبلنا، والشرفاءُ فينا كثر، وهم في رأيي الأغلبية. ولكننا أيضاً نبذِّر الكثير، ونختلس.

هناك شيء آخر شبيه بالاختلاس، وهو القيام بنشاطاتٍ وهميةٍ. رأيت يوماً في مطبعةٍ كتاباً كبيراً مصقولَ الورقِ ملوَّنَ الصَّفَحات يتم طبعُه لصالح جمعيةٍ من الجمعيات المموَّلة خارجياً. وتكلفة طباعته خيالية. ما أحزنني هو أنني كنت أعرف يقيناً أن هذا الكتاب، الذي هو مجموعةُ تقاريرَ متخصصة: لن يقرأَهُ أحد. لكن خذْ مثالاً طيباً:

رأيت جمعية أخرى طبعت كتباً ملونة وجميلة للأطفال، وقد أُحسِنَ تحريرُها وتنسيقُها، وهي أيضاً مموَّلةٌ خارجياً. سألتُهم عن عدد النسخ التي طبعوها فقالوا: عشرينَ ألفاً حتى نوزِّعها على المدارس، وخصوصاً المدارسَ الحكومية. عندئذ عرفت أن هذا جهد طيب. أما طباعة التقارير طباعة فاخرة غالية حتى يفرَحَ قلبُ المموِّل فهي بلا شك غلط غلط.



١٣٩ الرمش الفايت في القلب من جمعتين

عزيزي المستمع، حديثي اليوم عن أغنيتين، ولكنني ربما أتذكر أغنية ثالثة فأتحدَّثَ عنها. الأغنيةُ الأولى لفهد بلان: يقصُّ علينا كيف أمسكَ الطبيبُ يده ليَجُسَّ نبْضه. وكلمات الأغنية لشاعر قديم اسمُه ديك الجن يقول:

جسّ الطبيب يدي جهلاً فقلتُ له: إن التَّألُّم في كَبْدي، فَخَلِّ يدي

وقبل أن يغني فهد بلان هذا البيت الفصيح مشوهاً بعض التشويه، يحدثنا بشعر عامي كيف أن:

أهل الهوا دائماً وأبداً، مكتوب عليهم قلة الراحة

مثل السفينة بلا قبطان يلعب بها الموج سبَّاحة

وقد زار الطبيب أيضاً عبد الحليم حافظ في أغنية «ظلموه» التي كتبها حسين السيد، يقول عبد الحليم:

جبت الطبيب يدواي سألني الجرح فين؟

قلت: اسأل دقِّ قلبي اللي زايد دقِّتين

سمع في القلب حاجة..

هنا قرر الطبيب أن يسمع القلب فوراً، وألا يكون جاهلاً فيكتفي بالإمساك بالمعصم. ولقد سمع في القلب حاجة..

سمع في القلب حاجة وقال: ده رمش عين
صاحبه رماه، وناسي بقى له جُمعتين

يبدو أن الطبَّ المصريَّ متقدم جداً على الطب في سوريا، لأن طبيب عبد الحليم شخَّص الداء بدقة، وعرف أن هذا الرمش الذي يشبه السهم دخل في قلب المطرب من جمعتين اثنتين.. وأنا متأكد أنه أخرجه ببراعة. أما فهد بلان فقد اضطر للذهاب إلى اليمن.. إلى مدينة المكلا للتداوي، عملاً بقول الشاعر: يا بنات المكلا يا دوا كلِّ علَّة.. وأنا متأكد أنه، لاشتداد المرض عليه، سافر بالطائرة، ألا تراه يقول:

لركب حدك يا الموتور رُكْب الطيارة غِيّة
شوف الضّيعة من البنُّور وشاور لك يا البنيَّة

وهذه البنيَّة التي كان يشاور لها هي سبب كل المشاكل. ولا أظن أن فهد بلان رأى حبيبته من الطائرة. والسبب أنه لم يجلس عند الشباك. وبصراحة فإن سفرته كلها – مثل حلقة اليوم – لا لزوم لها، ولعلها غلط غلط.



١٤٠ قصة مدرسية، نزار والمحفظة

عزيزي المستمع، تسمع بالمثل القائل: اعملْ خيراً وارمِ في البحر تجدْهُ أمامك. وقد شهدت قصةً ينطبقُ عليها هذا المثل كلَّ الانطباق. في مدينة كبيرة بألمانيا كان هناك طالبٌ عربي اسمه نزار. كان خجولاً وفقيراً يأتيه من أهله مالٌ قليل، وينتظر بفارغ الصبر العطلة الصيفية حتى يشتغل في المصانع، ويحوِّش بعض النقود. وكان الطلبة الشطَّارُ الحاذقون يحصلون على أفضل فرص العمل الصيفية، ولا يبقى لنزار إلا أن يرضى بأشغالٍ متقطِّعة ضئيلةِ المردود. ومع ازدياد البِطالة في البلد في أواخر السبعينات صار الحصول على أي عمل صيفي يقتضي مراجعة دائرة التشغيل مراتٍ كثيرةً، والوقوفَ ساعاتٍ في الطابور في كل مرة.

ذات مساء كان نزارٌ يتمشَّى مع أصحابه. رأى أمامه جزداناً - محفظة – على

الأرض فالتقطَه، وتحلَّق حوله الأصحاب. فتح نزارٌ الجزدان، ووجد فيه مبلغ ستين ماركاً.. بعملةِ ألمانيا آنذاك، وكان هذا المبلغ في ذلك الزمن يكفي الطالبَ أكله وشربه اسبوعين من الزمن. هنَّأَه الأصحابُ وطالبوه بالحُلْوان. نزار على عادته قليلُ الكلام.. ابتسم وساقَهم أمامه إلى مشرب وسقاهم مشروباً.. وفي غرفته فتح الجزدان.. وبحث فيه فوجد عنواناً ورقْمَ هاتف.. فتلفن، فردَّ عليه رجل. فقال له نزار: معي جزدان يعود للسيدة ماير وبه كذا وكذا. فشكره الرجل وقال له: هذه صديقتي وقد ضاع منها جزدانُها فعلاً. وأصرَّ نزار أن يوصل الجزدان بيده إلى الرجل في النادي الرياضي بالحي. عرض عليه الرجل عشرين ماركا مكافأةً فابتسم نزار بخجل، ورفض وانسحب. فهز الرجل رأسه، ووضع جزدانَ صاحبتِه في جيبه. وراحت القصة ولم يروِها نزارٌ لأحد.

مر يومان فقط.. وفي اليوم الثالث كان نزار يقف في الطابور اللعين يحاول الحصول على عمل، وبعد ساعات من الانتظار جاء دورُه فدخل إلى المكتب يطلب عملاً. ووقف أمام الطاولة يعطي الموظفَ البياناتِ اللّازمة.. وفجأة إذا بالمدير يندفعُ من مكتبه إلى المكتب المجاور. لقد لمح نزاراً.. وعرفه. وضع يده على كتفه وقال له: أتذكُرُني.. ابتسم نزار وهزّ رأسه. كان مدير مكتب التشغيل صاحبَ صاحبةِ الجزدان. أدخل المدير نزاراً إلى غرفته، وأكرمه، وأعطاه أحسن شَغْلة. وقال له: كلما أردتَ عملاً فما عليك إلا أن تتلفن. وسوف تنال العمل حتى بدون أن تحضرَ إلى المكتب، ولا تخشَ أن يؤنِّبَني ضميري على تفضيلك بمعاملةٍ خاصةٍ، فبلدي يجب أن يساعد الرجل الأمين. منذ ذلك اليوم وحتى تخرُّجِه ونزار متبحبح. ولا تَظُنَّ أن أصحابه حسدوه فهذا غلط.. كان نزارٌ محبوباً.. ولا تحسبنَّ أن المثل « اعملْ خيراً وارمِ في البحر» ينطبق في كل مرة بهذه السرعة فهذا غلط غلط..

١٤١ ذات الزُّقْم المتطور

عزيزي المستمع، كنت جالساً في مقهى، يعني على الرصيف.. وكان بجانبي رجل خشن: يداه مشققتان، ووجهه أكلتْه الشمسُ سمرةً وأخاديدَ وقسوةً. كان يسحبُ أنفاساً من شيشة تمباك. والماء في الشيشةِ يقرقرُ بكسلٍ شديد. فهذا الماء لا يتغيرُ في ذلك المقهى، ويصبحُ بعد مدة أصفرَ لزجاً مملوءاً بالشوائب كشوربةِ العدس. مرَّتْ من أمامنا فتاةٌ تمشي في الشارع.. طبعاً لم نكن نحن، روادَ المقهى، ولم يكن الباعةُ المبسِّطون قد تركوا لها مجالا للسير على الرصيف. وبيني وبينك، فإن مشيَها بين السيارات أكثرُ أماناً لها من المشي على رصيف كهذا الرصيف، خاصة وأنها كانت فتاةً ذاتَ زُقْم متطور. والزُّقْمُ هو البوز.. والبوز هو الوجه. كانت تلبس نظارة شمس عصرية تلْتَفُّ مع استدارة وجهها، وقد ربطت شعراً مشقَّراً بربطةٍ لونها لا أحمرُ ولا أزرق، وكانت تلبس ملابس لا حمراءُ ولا زرقاء.. بل من تلك الألوان التي تختارها الفتاةُ ذاتُ الذوق، وذاتُ المكانة في الهيئة الاجتماعية. صاحبي الخشن رماها بنظرة مستقيمة من فوق خرطوميه: الخرطوم الأول أنفهُ وكان في الواقع ذا أبعاد، والخرطومُ الثاني خرطوم الأرجيلة. وقال لها: يا بنت الأكابر أين تشتغلين؟ فقالت: في منظمة غير حكومية (إن جي أو)، وأنا مدعومةٌ من بابا وعمو وخالو.. ولو فقدْتُ عملي سأقفز إلى عمل أحسن منه. قال لها: ماذا تشتغلين؟ قالت: أشتغل في العلاقات العامة، أستقبل الزوار الموفدين من المموِّلين وأحكي معهم بالإنجليزي عن إنجازات المؤسسة. ثم سألتْه صاحبةُ الزقم المتطور: وأنت يا عمُّو ماذا تشتغل؟ قال لها: أنا لست عمُّو، وأنا أشتغل في تسليك المصارف، يعني قحف المجاري حتى يسير هذا الجانبُ المعتمُ من حياتِكم سيراً حسناً. أنا أشتغل.

عند هذا الحد من المحادثة انتبهتُ من سرحتي. واكتشفت أنني أتخيَّل. وأن هذه المحادثة من تأليفي.. ودفعتُ الحساب وهرولتُ وراءَ الفتاة الأنيقة لكي أستجوبَها عن طبيعة عملِ مؤسستِها، فلعلَّها فعلاً «تشتغل». لكنني قلتُ لنفسي: حسبُك يا هذا، وإلا فقد تنالُ صفعةً، وتجدُ نفسك في موقفٍ غلط.

١٤٢ أنت تستهلك البشر

عزيزي المستمع، أفترِضُ أنكَ شابٌّ في العشرينات مثلاً.. أو أنكِ فتاةٌ في العشرينات. وأنت تعرفين طبعاً كيف يستهلك المرءُ الشامبو.. «تدلُقين» منه على رأسِك المرة تلو المرة حتى تفرغ القنينة فتشترين غيرها.. وهكذا، حتى يَخرَبَ بيتُ أبيكِ أو زوجِك.. وأنت أيها الشاب تستهلكُ الحذاء، وأنت ترفسُ كل حجرٍ وكلَّ جدار، وتشتري غيره.

عندما يكتهل المرء، ويبدأ في التهام النصف السفلي من كعكة العمر، يأخذ في استهلاك شيء آخر: استهلاكِ البشر. ستشعر بذلك عندما يهترِيءُ دفترَ التلفونات الذي تضعه في جيبك، وتشتري دفتراً جديداً، وتأخذ بنقل الأسماء والأرقام إلى الدفتر الجديد: فلان مات.. اُشطب، فلان هاجر.. اُشطب الرقم، فلانة تحجبت ولم تعد تكلمنا.. اُشطب. في هذه السنّ يموتُ حلَّاقُك أو طبيبُ أسنانك.. وعليك أن تدبِّر نفسَك.. أنت تستهلكُ بشراً.

تعود إلى دفتر التلفونات.. أنت تبيِّض الدفتر.. وكلما مرّ بك اسم شخص مات تشعرُ بسعادة لئيمة. تقول في نفسك استرحنا من هذا السطر. لكنك قد تمر باسم شخص وتقف وتقول: رحمةُ الله عليه.

وهناك شخص تمر على اسمه في الدفتر العتيق، وهو ما زال حيّاً. وتقف لحظة وتقول في نفسك: هذا الرجل الذي صنع بي كذا وكذا، وغشَّني، ودسَّ عليَّ، ونقل على لساني الكلام، لماذا أريد أن أُبقيَ عليه في دفتري؟ وتتردد. ثم تتعقَّل، ثم تعرفُ أنه ما دام هذا الغشاش النمام نقّال الكلام.. ما دام يعيش في البلد فلا بد لكما من لقاء. نعم سوف تحترسُ منه، ولكنك لن تستغنيَ عنه. ستكتب اسمه في الدفتر الجديد مضْطَرّاً. نعم ستكتبه وأنت تقول في نفسك.. هذا غلط غلط.



١٤٣ وجهي ميدان المعركة

عزيزي المستمع، أجاءتني الضرورةُ إلى دكانِ حلاق في يومٍ شرُّه مستطير، وكنتُ عدتُ إلى البلد بعد سفرة، فوجدت حلاقي القديم قد حوَّل محلَّه إلى محمصٍ للقهوة، فالتجأتُ إلى هذا الحلاق الجديد في مناسبةٍ اجتماعيةٍ غير سارَّة، ثم صرتُ زبوناً. ثم عرفتُ ابناً لذلك الحلاق كان يعملُ ساعياً في الشركة التي أعمل بها، وكان طيباً وبريئاً. كنتُ أقول له في كل يوم أحد: أرجو أن توصي الوالد بي خيراً، فسوف أمرُّ عليه غداً لأحلق شعري. وفي الغد، أي في يوم الاثنين عطلة الحلاقين، آتي إلى الشركة وأعاتبُ ذلك الشاب قائلاً إن والده قد أغلق محله، فعساه بخير.. وهل هو مريض.. ويشرح لي الشاب أن الاثنين هو يوم عطلة الحلاقين.. وأنا طبعا أرفض أن أفهم وأكرر السؤال عن صحة الوالد.

ولكنني بعد حين أذهب إلى الحلاق.. هذا الرجل الذي سيأخذ جزءاً من جسمي، ثم لن يعطيَني مقابل ذلك، بل سيأخذ من جيبي أيضاً. وحلَّاقي الجديد هذا رجلٌ عصبي وفيه غفلة، ويحب الكلام في السياسة. أجلس على كرسيِّه فيأخذ بتحليل دور الاتحاد السوفييتي بحماسة. طرد الخبراء السوفييت من مصر كلفني الكثير. ويستذكر الحلَّاق الماضي الجميل عندما أعطى السوفييت عبد الناصر سلاحاً ليخلع به رقبة إسرائيل، وبحماسةٍ يفتل الحلاق رأسي فتنخلعُ رقبتي أنا. ثم يبدأ يحدِّد ويمضِّي الموسى على قطعة جلد مخيفة، ومع كل ضربةٍ من الموسى على رقبتي يرشق حلاقي الأنظمة الرجعية بصواريخ الظافر والقاهر التي طورها عبد الناصر.. وأشعر بشيء حارٍّ يسير على رقبتي.. وتأتي الكولونيا لتبقيَ الطابق مستوراً، ولا يتورع ذلك الحلاق عن الإمساك بأذني بكل فظاظة.. بحجة أنه يريد تسوية الشعر خلف الأذن.. لكنه في الواقع يريد أن يعمل بروفة كيف يشلع أذن العدو الغاشم، وما إن ينتهي من الرأس حتى يبدأ يلغمط وجهي بالصابون وأنا أصيح به.. قد حلقتُ ذقني قبل ساعة زمن، لا حاجة لحلاقة الذقن.. ولكن.. لا حياة لمن تنادي. يقول لي: خلِّني أمسحْ لك ذقنك.. هو في الواقع

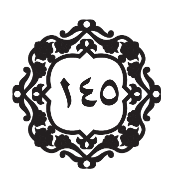
يريد أن يمسح الرجعية بحد السلاح، أقصد بحد الموسى. وميدان المعركة وجهي. وفي مرحلة فاصلة يُخرِجُ حلاقي لسانه ويعض عليه، ويهوي بموساه على خدي. لكنه للأمانة لم يكن يحمِّر لي خَدَّيَّ بذلك الخيط المشمَّع السخيف وإلا كنت صرخت غلط غلط.

١٤٤ كابوسي كيلو بصل

عزيزي المستمع، لكل إنسان حلمه المفضل، ولكل إنسان كابوسه المفضل. كابوسي له اسم ويستند إلى حادثة.. اسمه (كيلو بصل). والحادثة هي أن أمي أرسلتني لأشتري لها كيلو بصل. واشتريته، ثم قررت أن أسلك إلى البيت، في طريق العودة، شارعاً آخر. ووجدت أولاداً يلعبون بالبنانير، أو الجلول، فلعبت معهم، ونزل المطر. ورجعت إلى البيت لكن بدون بصل. كان فشلاً وقلة مسؤولية. وتعلمتُ من تلك الحادثة. لي صاحبٌ شاردُ الذهن باستمرار. ويحب الفشل حباً جماً، كأنه يَلَذُّه. الآن بلغ الخمسين من العمر، ولكنه لا يغير عاداته.

قبل سنوات مرَّ بي في البيت لكي يأخذ غرضاً، فأدخلتُه وعرضتُ عليه شيئاً يشربه فاعتذر، وقال إن مستعجل. ولكنه جلس.. وبدأ يتكلم.. حدثني عن مشروع تربية الدجاج وعن خسائره الجسمية. وتحدث في السياسة وفي كل شيء.. وشربنا شاياً وقهوة وأكلنا لقمةً. ثم دعوت بطاولة الزهر.. وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل قُرِع باب المنزل علينا. قمت ففتحت فإذا بنتٌ صغيرة تقول: هل بابا عندكم؟ قلت لها: ومن هو بابا؟ فهرع صاحبي إلى الباب، وضرب بكفه على جبهته، وقال: لقد تركت الأولاد في السيارة ونسيتُهم. ونزل وساق أولاده إلى البيت.. أو على الأقل هذا ما أرجوه. ولهذا الصديق قصة أخرى فيها، للصدفة المحضة، بصل: زارني مرة، وكنت أسكن مدينة أخرى. لم يكن معه سيارة، وقعد. وانتصف الليل، ثم تجاوز الانتصاف بساعتين أو ثلاث. ودعوته للمبيت. لكنه أصرَّ على الذهاب إصراراً عجيباً، ونزلنا. وقفنا في الشارع ننتظر سيارة تقله إلى مدينته المجاورة. وطبعا لم نجد سيارة في هذا الوقت ولـمَّا ينفلق الفجر.

وأخيراً، ومع انصداع الفجر، مرت سيارة كبيرة من نوع البيك أب. أوقفها، فقال له السائق إنه مزارع ومعه حمولةُ بصل يريد إيصالها للحسبة في الصباح. فقال له صاحبي: بسيطة! واشترى منه كل حموله البصل، ودفع له فوقها مبلغاً شرط أن يوصله إلى مدينته. وقبل بدء الرحلة ترك لي سحَّارة بصل هدية، ثم تسهَّل. عزيزي المستمع، كلما شممتُ الآن رائحة البصل أتذكر الحادثتين، وأقول لنفسي إذا ما كُلِّفتُ بشيء، حتى لو كان كيلو بصل، فيجبُ عليَّ أن أنجزَه. وأقول لنفسي أيضاً: لا بد من العودة إلى البيت، حتى لو كلَّفني ذلك شراءَ سيارة بصل. وأقول: التسكع غلط، وشرود الذهن غلط، والتهرب من المسؤولية غلط غلط.

 اللسان يبدل ملابسه

عزيزي المستمع، هناك كلمة قبيحة سرقها الناس من جرسونات المطاعم في لبنان، هذه الكلمة هي «حبيبي». أرفَعُ سماعة التلفون وأقول اسمي، فيقولُ لي مصلِّح الكمبيوترات: حبيبي. ويعدني أن كلَّ شيء سيكون جاهزاً صباح الغد. وأذهب إليه فيغمُرني بلطفه وابتساماتِه. ويعدِّد لي ما الذي صنعه لحاسوبيَ المصابِ بالفيروس، لقد زبَّطه وفرمته. ولكنْ.. بقيت تلك الشغلةُ اللعينة، ثم بعد ذلك: حبيبي أبو فلان، يومين ثلاثة وتأخذُه جاهزاً. وأقول له: السلام عليكم. فيقول: حبيبي.

كان الناس يقولون: ماشي الحال. وبعد ذلك قرروا استبدالها بكلمة: «عادي!» حتى في الكلام هناك موضات. ونحن الذين كبرنا، وتدلت كروشنا، ووَخَطَ الشيب رؤوسنا، ننظر بحسد إلى الشباب وهم يستعملون هذه الكلمات الشبابية.. لكن.. «عادي!»

أما استخدامُ الكلمات الإنجليزية فشأنٌ مختلف. لي صاحب جاء من قريته ليشتغل في مؤسسةٍ خمسِ نجوم في رام الله.. يقول لزميلته: كثَّر الله خيرك.. فتضحك. يقول لها: يخلِفْ عليك.. فتضحك. كلمةُ شكراً كانت تقف في حلقه باعتبارها فصحى. فصار يقول لها: ثانك يو. واستراح على «ثانك يو» جداً. وبعد ذلك صار يتكلم بالـــ

«آف» بدل الـ «قاف». وصار كلامهُ مضحكاً بعض الشيء. لكنه ظل يرفع منسوب الإنجليزي في كلامه، حتى أصبح لسانُه معدوم الشخصية. كلُّ واحد فينا عنده مشكلة من هذا النوع، وخصوصاً إذا عاش في جوٍّ بعيد عن الجو الذي تربَّى فيه. النساء أشطر كثيراً من الرجال في تغيير اللهجة، وفي مسايرة الجوِّ الجديد. واعتقد أن هذا دليل على الذكاء وإرادة الـتأقلم. هناك ناس عندهم إصرار على التمسك بلهجتهم الأصلية. هذا شيء جميل إذا كان الشخص كبيراً في السن، وانتقل للعيش في منطقة أخرى. أما الذي يرفض بإصرار التفاعل مع أيِّ مجتمع جديد فلا أشك في أن موقفه غلط غلط.

 الوحدة الألمانية واللاجئون عندنا

عزيزي المستمع، أحدثُك اليومَ عن اللاجئين في الضفة وغزة. ولكنني سأبدأ كلامي بالوَحدة الألمانية.. فقد تمَّت الوحدة بين شطري ألمانيا عامَ 1989. كان مستشارُ ألمانيا آنذاك هلموت كول وقد التزم هو وحزبُه، كما التزم حزبُ المعارضةِ الرئيسي أيضاً، التزاماً قاطعاً بأن يضموا ألمانيا الشرقية الفقيرة إلى صدورهم وأن ينفقوا على تعميرها ونقلِها إلى مستوى ألمانيا الغربية المال الكثير. فُرضت ضرائبُ باهظةٌ، واقتطعت الأموال من كل المعاشات، ومن الشركات ومن المؤسسات. لقد عانى كل سكان ألمانيا الغربية من نقص واضح في مستوى المعيشة حتى ينهض الجزء الشرقي من ألمانيا. والآن صارت ألمانيا كلُّها بلداً واحداً متكاملاً. وهي تستعدُّ للنهوض من وعكة الوحدة كما ينهض العملاق.

اللاجئون في بلدنا يعيشون منذ خمسين سنة على أطراف المدن. لقد فقدوا بالتشرُّدِ الأصليِّ كلَّ شيء.. فقدوا موطيءَ قدمِهم، وصاروا غيرَ قادرين على الانطلاق والنهوض. وأعطاهم العالم فتافيت خبز.. وهو يهدد في كل سنة بتقليص ميزانية الوكالة، التافهة أصلاً. المجتمع الفلسطيني يجبُ أن يوفر للاجئينَ المسكنَ المحترم، بتكلفة خمسة عشر ألف مليون دولار؛ والفرصَ الجيدة في التأهيل والتعليم، بتكلفة سبعةٍ وعشرين ألف مليون؛ والبنيةَ التشغيلية الأساسية بتكلفة عشرة آلاف مليون كاستثمار أساسي. المبلغ

كله اثنان وخمسون ألف مليون. وهذا يساوي ميزانية السلطة على مدى سبعٍ وثلاثين سنة. المبلغ نفسه مطلوب مرة أخرى للاجئين الفلسطينيين في المناطق الأُخرى من العالم العربي. إلى هذا الحد مشكلة اللاجئين كبيرة. لكنَّ أكبرَ ما فيها ليس المال، بل استمرارُ الظلم. هناك كثيرون جداً من اللاجئين يصرُّون على أن كلَّ مالِ الدنيا لن يعوِّضَهم عن الوطن السليب. وتجاهُلُ قضية الحق الأساسي هو في نظري غلط غلط.



علبة الشوكولاتة

عزيزي المستمع، سكنتُ بيتاً جديداً وذهبت إلى دكان الحارة، واشتريت منه بعض الحاجات، فقاسني أبو حسن بعينيه طولاً وعرضاً، وسألني عن جيراني الذين أجَّروني البيت، وأبدى استعدادَه للمساعدة في أمور شتى. ثم بعد نحو أسبوع تخرَّج ابنُ صاحب البيت، وصار لا بدَّ من هدية. ذهبت إلى أبو حسن. وطلبت علبة شوكولاتة فمدَّ يده في بطن الطاولة التي أمامه، وناولني علبةً جاهزةً ملفوفة بالورق الملوَّن، ونقدتُه الثمن. وتأمَّلْتُ هذه اللفَّةَ الملونة ورأيت فيها خدشاً بسيطاً في الطرف لكنه مستور بلاصق شفاف، مضيتُ إلى بيت الجيران، وباركتُ، وشربتُ الشراب. ومضى شهران أو ثلاثة ثم حدثَتْ في بيتي مناسبة، فَسَّرَها جارٌ آخر بالسعيدة، وجاء يبارك ويحمل هدية. طبعاً.. حزرتَ عزيزي المستمع.. لقد جاء بعلبة شوكولاتة. وحزرتَ مرةً أخرى.. قدَّم إليَّ العلبةَ نفسها التي كنت قدمتُها للجيران الآخرين، أصحاب الملك.

قلت لنفسي: هذه العلبة بالذات، باللفَّة نفسها، وبالخدْشِ نفسه هي التي قدمتُها لأصحاب البيت قبل أشهر، والآن ها هو جارٌ آخر يأتي بالعلبة نفسها!

لكن طبعاً ابتسمتُ لجاري، وشكرته على هديته «الرائعة»، ونافقت النفاقَ الاجتماعي المطلوب. وعندما انصرف قمت إلى علبة الشوكولاتة، وفضضت ختمها وفككت لفّتها، وفتحتها. أردتُ أن أعرف ما حالُ الشوكولاتة التي بها. وجدتها متعفِّنة يابسة قد ابيضَّتْ حوافُّها، ورأيت تاريخَ الإنتاج على العلبة يعود إلى سنوات خلت.

ذهبت إلى دكان أبي حسن، ومعي علبةُ الشوكولاتة. فلما رآها مفتوحة مهتوكة، قال لي: أوَ قد فتحتها؟ ثم هزّ رأسه، ودلَّني على موضع صندوق يضع فيه القمامة عند

باب الدكان. فرميت بها. ثم قال لي أبو حسن: هذه العلبة تدور على بيوت الحارة منذ سنتين. كل من يريدُ هدية يشتريها مني، ويهديها للناس. والناس يَرْجِعونَ إليَّ بالعلبة، وأعطيهم نصفَ ثمنها. وفي كل فترة أجَدِّدُ تغليفَها. وكلهمْ يعرفون الحكاية، ولا أحدَ يتجرَّأُ على فتح علبة الشوكولاتة. عرفت عندئذ أن هذه العلبة هي آلةٌ للنفاق الاجتماعي. أرجو من جيراني أن يمارسوا النفاق في المستقبل بشيء لا يؤكل، بطقم كُبَّايات مثلاً.. أما النفاق بالشوكولاتة فهو غلط غلط.

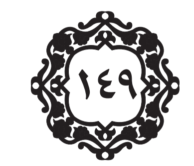


هواية تبرئة الاحتلال، ولوم الضحية

عزيزي المستمع، في كل مشكلة هناك طرفان أو أكثر، وأحياناً نعيد ونزيد في الكلام وفي التفكير: الحقُّ مع من، والحقُّ على من؟ ومشاكلُنا اليوميةُ كثيرة.

أحدُ الطرفين في كلّ مشاكلنا واضح ولا حاجة إلى التفكير فيه: إنه الاحتلال.. وفي الواقع قد يكون الاحتلال سببَ كل مشكلة. خذ مثالاً: الحواجز اللعينة. هناك حاجزٌ أعبُره في كل يوم: مرةً في الصباح ومرةً في المساء. وقد جعل الاحتلال هذا الحاجز مزدوجاً. وبين السدِّ الأول على الشارع والسدِّ الثاني مسافةُ ثمانِمئة خطوة. ولكن الازدحام وقلة تنظيم سائقي السيارات يجعلانني مضطراً إلى أن أمشيَ ثلاثَمئة خطوة قبل أن أصل إلى السدِّ الأول، وثلاثَمئة خطوة أخرى بعدما أصل إلى السدِّ الثاني. وعلى هذا الأساس فإن مجتمعنا مسؤول عن ثلاثة وأربعين بالمئة من المشكلة.

لكن الناس يتزاحمون لسببين: أولاً لأن الاحتلال ضرب أجهزة الحكم عندنا، بما فيها الشرطة. وطبعاً لا يسير أيُّ نظام بدون أجهزة لتنفيذ القانون. وثانياً لأن الاحتلال ضرب الزراعة والصناعة وصار الحصول على الرزق صعباً جداً، وأخذ السائقون يتنافسون ويتطاوشون كل يوم، وكثر عددهم جداً. إذن الحقُّ كله على الاحتلال. والناس الذين جعلوا شغلهم الشاغل أن ينتقدوا مجتمعهم إلى درجة تبرئة الاحتلال من جرائمه فهم.. غلط غلط



المیني والبکیني

عزيزي المستمع، أسماء البرامج الإذاعية تكون أحيانا أهمَّ من البرامج نفسها. والعثورُ عليها ليس سهلاً. هذا البرنامج اسمه (غلط غلط) وقد اخذت اسمه من طالبة ناقشتني ذات يوم في موضوع، واحتدت وغضبت على رأيٍ من الآراء. وأمّا أنا فكان موقفي موقف المتشكك، وقلت لها: هذه وجهةُ نظر جديرة بالبحث. لكنّ الطالبة صرخت صرخة استنكار وقالت: غلط غلط. فضحكت من كل قلبي، فبدا على الطالبة الإحباط. لم يعجبها موقفي غير الحاسم من القضية، ولم تفهم سبب الضحك. قلت لها: هذا اسم طريف لبرنامج إذاعي. حدث هذا قبل سنتين. وظل الاسم منقوشاً في ذاكرتي. ولكن لم يكن عندي الوقت للتفكير في برنامج إذاعي.. ولم أكن فكرت في مادة البرنامج.. عندي فقط الاسم.

ثم كان أن دعيتُ إلى تقديم برنامج قصير، وكان الوقتُ ملائماً. فكان «غلط غلط». في هذا البرنامج استعرضُ أحياناً ظواهر سلبية وأحيانا ظواهر إيجابية. لكنني في معظم الأحيان أجدُ نفسي أتخذ الموقف الذي اتخذته مع تلك الطالبة. أجد نفسي أقلِّبُ بين يديَّ ظاهرةً لا هي سلبيةٌ ولا هي إيجابية. مثلاً: ظاهرة الكعب العالي. ما الغلط في أن تطوِّل المرأة نفسها قليلاً. وفي بعض السنوات صار الشباب يلبسون أحذيةً بكعب عالٍ. أيضاً ما الغلط؟ تحدثتُ مرة عن البنت التي تلبس مثل الآرتيست وتتشخلع في الشارع، وقلت إن هذه في رأيي ظاهرة سلبية. وقد قامت عليَّ قيامةُ الحركة النسوية، وقالوا: يا عدوَّ المرأة! وأنا أقول لهن: يا أعداء المرأة أنتن. وأزيدُكُنَّ من الشعر بيتاً.. أقول لكنَّ: تعالين يا صديقاتي إلى الشاطيء، وانظرن معي إلى المستحمّات والمستحمين. ترين نساءً أجسامهُنَّ مترهلة، وأخرياتٍ أجسامهن متناسقة. كلُّهنَّ بالمايوهات. هل تعرفن كيف يحسُّ الرجل وهو يرى هذا المنظر؟ إنه لا يشعر بإثارة ولا باستهجان لما يرى. لأن ما يراه طبيعي في ذلك الموضع. المسألة مسألة نوايا. أما إذا لبست المرأة وتزينت بشكل فيه مبالغة صارخة فإنها تكون كمن يدعو الناس إلى التفرج عليها. يا أقطاب الحركة النسوية في البلد: أنا أعتبر النساء اللواتي يلبسن بشكل صارخ يعتدين على الرجال. وأنا أعتبر البنطلون المشدود ذا الخصر الساحل غلط غلط.

١٥٠ مقابلات التوظيف

عزيزي المستمع، أراد بعض المربِّين الأفاضل في بلد من البلاد أن يفتحوا مدرسة نموذجية. وأرادوا إجراء مقابلات توظيف لتعيين معلمين. ودُعيت للمشاركة في لجنة الاختيار. دخل شاب إلى الغرفة.. أجلسناه وسألناه وناقشناه على مدى نصف ساعة. كان رأيي أنه يجبُ عدم توظيفه: السبب: أنه لم يبتسم على الإطلاق. دخلت فتاة مرشحة لتعليم الرياضيات. صوتُها عالٍ. ويزداد علواً وهي تدافع بحرارة عن وجهة نظر معينة. ويصل بها الأمر إلى درجة الصراخ. أنا من جانبي قررتُ أنها لا تصلح، لأنها من القوم الذين يغطُّون ضعف منطقهم وضعف شخصيتهم برفع الصوت. ودخل شاب يريد تدريس اللغة العربية. سألته عن الكتب التي قرأها.. فقال: كتب الدراسة.. وبدأ يعدّ لي كتبَ المنهج الجامعي.

ولكن، هل قرأت كتباً أخرى غير مطلوبة في الجامعة؟ قال: لا. قلنا له: مع السلامة.

مقابلات التوظيف مَحكمةٌ أحكامها تقريبية. وكثيراً ما يمثُلُ أمامها أصحابُ القدرات والمواهب وتعجِزُ عن تَبيُّنِ ما عندهم، فتظلِمهُم لملاحظاتٍ شخصية، ولكنّها تظل طريقةً جيدة للتعيين.

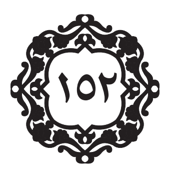
هناك مؤسسات تنشر إعلانات في الصحف، ثم بعد ذلك تستقبل عشرات الطلبات، ثم يقوم المدير ومساعدوه باختيار أفضل المتقدمين لإجراء مقابلات لهم. وبعد انتهاء المقابلات يتم تعيين ابن أخي المدير العام للوظيفة. مثلُ هذا السلوك يمثل عملية احتيال، وهو موجود في مجتمعنا.

أنا لا أرى مشكلة في أن يعيّن المديرُ من يشاء بأي طريقة شاء شرط أن يتوخّى اختيار الأفضل. وأما أن يعيِّن المدير موظفاً إرضاء لأهله أو خضوعاً لضغوط معينة فهذا غلط. وهناك ما هو أسوأ. قد يعيِّن المدير شخصاً لوظيفة ويكونُ كلُّ همه أن يكون هذا الشخص أضعفَ منه. يخاف المدير من أي موظف متمكِّن قدير حتى لا يكشفه. يخاف من المنافسة فيعين الأسوأَ ويرفضُ الأكفأ. هذا يحدث أحياناً. وهو لعمري غلط غلط.

١٥١ القلم المسهول

عزيزي المستمع، لا أفقد قلماً إلا وهو صالح وكاتب، ولا أعثر على قلم إلا وهو تالف وأخرس. لا بد أن هناك شخصاً مقابلي يفقد أقلاماً تالفة ويعثر على أقلامي الصالحة. والقلمُ بالنسبة إليَّ هو الشيء الذي فشِلَتِ البشريةُ حتى الآن في تطويرِه. قلمُ الحبر الجاف يفورُ إذا وضعتَهُ في جيب القميص وفي ذلك غُرْمٌ ثقيل. وهو قلمٌ غدَّارٌ على كل حال: أجرِّبه عند البائع على قصاصة ورق فيجري عليها جَرْياً حسناً فأشتريه، ثم عندما أريد أن أكتبَ به يكتب حرفاً ويحرُنُ حرفاً ويُقَطِّعُ حتى في داخل الحرف الواحد.. وأنفخُ في قفاه حتى ينزلَ الحبر.. ثم أكتب به على ورقة خشنة ثم على ورقة ناعمة.. ثم أتوسل إليه أن يكتب مثل العالم والناس، ولكنّه يزداد تقطيعاً. ثم بعد ذلك يبدأ بالكتابة بشكل حسن.. وأتجلى عليه كل التجلّي.. ثم.. طبعاً.. يضيع. وقلم الحبر السائل يملأ الدار صراخاً. أقصد يملأ أوراقي بُقَعاً، وأنا بدوري أملأ الدار صراخاً. وبعدئذ يحرَدُ (هي نفس يحرُنُ) عندما تدخُلُ في سنِّهِ وَسَخةٌ مُنكَرة؛ وأقوم بتسليكه بخيط أو بطرف الورقة. ثم أكتب به فيخدُشُ الورقة. وتبقى ريشتُهُ خمَّاشةً خدَّاشةً للأبد.

في المدرسة كنتُ أُدخل خيطاً بين شِقَّيْ سنِّ القلم السائل ثم ألفُّ الخيط على السن وأعقِدُهُ عقدةً.. فيبقى سنُّ القلم مفلوخاً ويبقى الحبر سيالاً.. فإذا بلغتُ وسط موضوع الإنشاء قرر القلم أن يستريح.. فيبصقُ على الورقة نقطة حبر كبيرةً تصبح أكبر بعد ثوان، وتصبح أكبر وأكبر وأنا أحاول تنشيفها بكمّ القميص، وطبعا في ذلك الزمن لم تكن المناديلُ الورقيةُ قد وصلتنا بعد. أو لعلها كانت موجودةً ولكنَّ صبيَّاً شقياً مثلي لم يكن يتعامل معها لا في وقت الزكام ولا في وقت الصحة، فكُمُّ القميص موجود دائماً. ثم إنني أكمل موضوع الإنشاء وأكتب الكلمات حول بقعة الحبر وأضع الأسهم المختلفة حتى يهتديَ المعلم إلى حبل أفكاري. وسواءٌ أَهتدى أم لم يهتدِ فالنتيجةُ واحدة، سيكتب لي في ذيل الورقة بالأحمر الكلمتين اللتين صرت عزيزي المستمع تعرفهما: غلط غلط.



١٥٢ موسى حافظ يعطل الميكروفون

عزيزي المستمع، حضرت مهرجاناً غنائياً غنى فيه مطرب هندي مشهور غناءً شعبياً. صعد إلى المسرح وجلس على الأرض، (على حشِيَّة)، وأمامه آلة موسيقية وترية كبيرة ممدَّدة كأنها دراجة نارية ملقاة على الإسفلت بعد حادث مؤسف. وراح الرجل يعبث بآلته ويصدر أصواتاً من خياشيمه. وحسبتُهُ ينظف حنجرته استعداداً للغناء؛ وبعد هنيهة علا التصفيق واستبدَّ الطرب بالجمهور. فاكتشفت أن تلك الهمهمات كانت هي الغناءَ. وقلتُ لصاحبي الهندي: ويحك ما هذا الذي أتيت بي لسماعه؟ فقال: هذا أحسنُ مطرب في شبه القارة الهندية. فانصرفت متعجباً. ألا إنَّ لكل شعب ذوقاً.

نحن شعب يحب الصوت القوي. وكنا نسمي المطرب الصيِّت. فالمطرب الذي لا صوتَ عالياً له لا يستطيع أن يُسْمِع الناسَ في الهواء الطلق في القرية أو في السرادق الكبير بالمدينة. سجَّلتُ ذات يوم لقاءً مع مطربنا الشعبي موسى حافظ وكان معي مهندسُ صوت. وضع المهندس ميكروفوناً صغيراً بحجم عُقْلةِ الإصبع في ياقة المطرب، وميكروفوناً آخر في ياقتي، وبدأ اللقاء. ثم غنى لنا موسى حافظ، وتجلَّى. طبعا لقد ثقب طبلة أذني من أول «أوف». لكنه أيضاً ثقب طبلة أذن الميكروفون المعلق بصدره: تعطَّل ميكروفونه فعلاً، واضطر مهندس الصوت إلى أن يأخذ صوته من الميكروفون المعلق بصدري أنا.

ومع ظهور الأفلام السينمائية صارت الصورة المرافقة للأغنية مهمة. وأما الفيديو كليب فهو الاختراع الذي قلب الموازين في عالم الموسيقى والغناء في العالم العربي على الأقل. في الفيديو كليب صار الصوت غير مهم، والكلمات غير مهمة، واللحن غير مهم. المهم الصورة. في الفيديو كليبات الأجنبية هناك أفانين وابتكارات وألاعيب في الصور المرافقة. وفي الفيديو كليب العربي رجعنا ألف سنةٍ إلى الوراء.. واستذكرنا مجالس الطرب عندما كانت الجواري يرقصن ويغنين لهارون الرشيد. ولعلك تذكر فيديو كليب عمرو دياب «حبيبي يا نور العين» عندما جمع ملكات الجمال حوله. وأما الفيديو كليب الذي لحس عقول الرجال وأشعل قلوب النساء غَيْرةً فهو «أخاصمك آه وأسيبك لا»، وفيه نسدُّ آذاننا ونبحلق في فتاة أسماها المصريون نانسي إجرام، وهي في

الواقع «الجريمة الكاملة». لقد عصرت نانسي عجرم كل الغنج والدلال، وكل تاريخ الإغراء الشرقي وقدمته محلولاً مركزاً في دقائق قليلة. أنا أعتقد أن أفلام الإباحة وأفلام الجريمة يجب ألا تقدم في التلفزيون إلا بعد منتصف الليل. أما فيديو نانسي إجرام المذكور فإن عرضه قبل الساعة الثانية بعد منتصف الليل غلط غلط.



يد تغسل الأخرى: شيء عن الواسطة

عزيزي المستمع، تسمع الناس في الراديو، أو تقرأُهُم في الجريدة، يكتبون المثاليات ويهاجمون الواسطة والفساد والرشوة. وأنا واحد من هؤلاء المثاليين اللاواقعيين. لقد حدثتك كثيراً عن الواسطة، وهاجمتها. وفي الواقع أنني أحاول في حياتي العملية أن أبتعد عن طريق الواسطة. لكنني وقعت مرَّةً على أم رأسي، وواجبي أن أقدم للمستمع الكريم اعترافاتي.

طبعاً لن أتمكن من ذكر اسم الشركة أو الدائرة أو الوزارة التي تعاملت معها في هذا الخصوص، لأنني لو ذكرت اسماً لوجب عليَّ حسب قواعد مهنة الإعلام أن أحضر موظفاً يمثل تلك الجهة لكي يردَّ ويبين وجهة نظره. المهم أنها جهةٌ تزود المواطنين بالخدمات. قد تكون مصلحة كهرباء أو شركة مياه أو اتصالات أو بلدية أو أية جهة أخرى. اجتهدت للحصول على الخدمة. ذهبت إلى مكتبهم وملأت نموذجاً. ثم رجعت، ثم تلفنت، ثم احتججت.. طبعاً هذه الخطوات تذكِّرك ببيت أحمد شوقي:

نظرة فابتسامة فسلامٌ فكلام فموعد فلقاءُ

شوقي حصل على اللقاء، وتطور في رحلته الغرامية التطور الطبيعي. أما أنا فكنت مثل حصان الساقية أدور وأدور حول نفسي. وكنت في مسيرتي الدورانية هذه أجمع الوعود، وأوراق المراجعة. في النهاية صار كل شخص يلاقيني لا يجد مني إلا الشكوى. وانزعجت من نفسي. ثم صار كل واحد يقول لي: وبعدين معك خلينا نكلم أبو فلان أو أبو علان. وأخيراً أذعنت. رفع أحدهم السماعة وكلم بخصوصي أحدهم، وفي غضون ساعتين كانت تلك الخدمة العامة قد وصلتني.

لقد رأيتُ الواسطة في بلاد متقدمة. أذكر الآن رجلاً ألمانياً نزلتُ عنده ضيفاً في بيته،

وأراد أن ينجز معاملة رسميَّة معقدة، فاستعمل نفوذه الشخصي. وكان في الواقع برتبة مقدم متقاعد في الجيش ولم يمض على تقاعده سوى سنةٍ أو نحو ذلك، وقال لي مثلاً موجوداً في لغتهم قال: اغسل يديك الاثنتين معاً، يدٌ تغسل الأخرى. قال المثل وهو يحرك يديه على هيئة غسل اليدين بالصابونة ومعنى ذلك أنك أنت تساعد أبو فلان، وأبو فلان يساعدك أو يمشّي لك حوائجك. أقول هذا لكي أبرّر فعلتي تلك. لكنني أدرك أن الواسطة بشكل عام غلط غلط.

١٥٤ عندما يصبح الريموت كونترول عدواً

عزيزي المستمع، الريموت كونترول جهاز يفجِّرون به الأشياء عن بعد. من هذه الأشياء مرارتُك، التي قد تفقعُها لك زوجتك.

تكونُ تتفرج، ويأتي فيديو كليب «باسكال مشعلاني»، وتتفرجُ أنت ببراءة، أنت لا تلاحظ نفسك يا عزيزي الزوج.. لا تلاحظ أنك توقفت عن فصفصة البِزِر.. ولا تلاحظ أن شفتك السفلى ارتخَتْ، وربما خرج نصفُ لسانك وأنت تحملق. وقد يصدر عنك تعليق وأنت ترى ذلك القدَّ الميَّاس، وقد تعاكسُ باسكال بعبارة، وقد تفرك بصلة أو قرنَ فُلْفُلٍ في عين من لا يصلي على النبي. وزوجتك تحاول أن تجاذبك أطراف الحديث في تلك اللّحظات، فتحدِّثُك عن تقميع البامية، أو عن آخر مشكلة في العمارة. ولكنك سارحٌ في ملكوت الجمال. ثم طاخ على رأسك.

يطيح الريموت كونترول بباسكال، وبك. وتؤخذُ مقيداً مكبلاً إلى الفضائية اليمنية.. فتشتكي أنت بمرارة، وتشكو وجع المرارة، فتأخذُكَ زوجتُك بالريموت إلى برنامجٍ لمريم نور التي تأمرُك بأكل القمح والشعير، والبرسيم والجرجير، وأنت تقول لنفسك: قد يكون صدقاً أن الذي يأكل ما تأمر به مريم نور يعيشُ مئة سنة.. ولكن، أنا لا أريد أن يطول عمري إذا كان أكلي من هذا الأكل.

وتقرر زوجتك أنها هي الأخرى لا تريد مريم نور بل العمة نور، وبضربة ريموت تحملك إلى هناك.. إلى مسلسل يريدُ أن يُتِمَّ علينا نعمة العولمة. وفكرة المسلسل أن

شخصةً جاءت من أميركا لتعلم مجتمعنا العربي الحضارة.. وحتى يكتمل النقل بالزعرور فهي تعلمنا حسن السلوك بالكلمات الإنجليزية.. والمسلسل يريد أن يثبت أن كل شيء عندنا غلط، وأن أميركا عندها الحل. وتكادُ فعلاً أن تفتعل مشكلة مع زوجتك، ولكنها بضربة ريموت تتخلص من هذه العمة، وتنقلك إلى فيديو كليب أميركي. بطلةُ الكليب تغني وترقص وتتشقلب، ثم بعد ذلك تدخل إلى الحمام لتأخذ دوشاً، وتبدأ بخلع ملابسها. طبعاً أنت تسعَدُ كثيراً.. فالنظافة من الإيمان. وزوجتك تحدثك عن أكثر الأشياء أهمية، ولكنك مبهوتٌ مشدود محملق محدق في الشاشة. وتطلب منك الزوجةُ العزيزة شيئاً: لو سمحت ناولني هذا الشيء من عندك. وبسرعة تلتفت أنت لذلك الشيء وتناولها إياه وتعود للبحلقة، فإذا في وجهك على التلفزيون صورةُ شيء يغطسُ في الماء ويخرج، ومذيعٌ يقول قناة الجزيرة في «خطر». وتشعرُ أنك أنت صرت في خطر، وتمسك خاصرتك وتقول: يا مرارتي. وزوجتك تستغل الفرصة وتضغط على الزر الأحمر في الريموت.. وأنت تصيح : غلط غلط.

١٥٥ الريجيم الرئوي

عزيزي المستمع، لا تدخِّنْ. لا تبدأ.

إذا كنت شاباً فأنا أقول لك: السيجارة لا تصنع رجلاً. وإذا كنت مدخنا فأنا أقول لك: رحمة الله عليك، دخن عليها تنجلِ أو تنسطحْ ولا أريد أن أعِظك، ولا أن أقول لك: أترك التدخين. أطلبُ منك طلباً واحداً: لا تشجِّع أحداً على بدء التدخين. لا تعزم شخصاً غيرَ مدخن على سيجارة، ولا على أرجيلة. واسمع مني الفرق بين السيجارة والأرجيلة.

السيجارة: خدَّاك يقومان بوظيفة المنفاخ. أنت تُطْبِقُ خدَّيْك ثم تسحب الدخان من السيجارة بفتح الخدَّيْن فيدخل الدخان إلى فمك الذي يصير منتفخاً مثل القربة، ثم تبلع منه ما تريد. أما الأرجيلة فلها خرطوم طويل، ولو سحبت منها بِقربتك الفموية لما استطعت أن تسحب دخاناً. هذا الشفط لا يكفي. الأرجيلة جهاز كبير.. أكبرُ من

السيجارة. وعليك أن تستخدم شفَّاطة أخرى أكبر: هي الرئتان. في الأرجيلة أنت تسحب النفس برئتيك مباشرة، ويدخل الدخان إليهما بلا حساب.

وللشباب الذين يقولون: (السيجارة أعوذ بالله! ولكن، الأرجيلة معلش) نقول: ساء ما تظنون. للفتيات والشباب أقول: أنتم تتجنبون مربى الفراولة وتقولون: هذا يُسمِّن، ونحن نعمل ريجيماً. تعملون ريجيماً؟ فلماذا إذن تُحرقون الفراولة بالجمر ثم تشفطون الدخان منها لتملأوا رئاتكم. هلاَّ عملتم ريجيماً رئوياً.

خلال الدقيقتين الماضيتين من حديثي معكم وقعت بضعة حوداث سيئة. فالكثيرون من المستمعين المدخنين.. عندما سمعوا كلمة سيجارة وتدخين مدُّوا أيديَهم إلى جيوبهم ليستلُّوا علبة السجائر والولاعة بشكل لاواعٍ.

لكنني أرجو أن يكون قد فهم كلامي كثيرونٌ ممن لا يدخِّنون، وأن يكونوا عرفوا حجم المصيبة التي تنتظرهم إن هم بدأوا. التدخين مثلُ الرمال المتحركة.. تنزل إليها وأنت واثق من شطارتك، ومن قوة عضلاتك؛ وكلما حاولت الخروج غرقت أكثر. والحل الصحيح هو أن لا تدخل في الرمال المتحركة. وأن تستمر في تعاطي مربى الفراولة بدون أن تحرقه، فإذا كان المربى – لمعدتك ولريجيمك - غلط، فالفراولة المحروقة – لرئيتيك ولجيبك – غلط غلط.



ذات زوج قبيح.. دنيا وآخرة

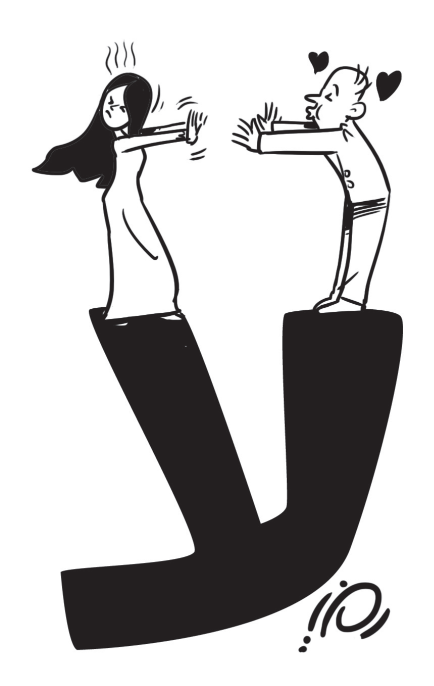
عزيزي المستمع، توجد امرأة جميلة في غاية الجمال لها زوج قبيح في غاية القبح: فكأنه السوقُ في عصر يوم الجمْعة، أو رغيفٌ خبَزَه الخباز بسرْعة. أما المرأة فقد نزل عليها ملاكٌ من السماء، ووعدَها بالجنة لصبرها على قسمتها، فعاشت مسرورة بالوعد؛ وأما زوجها فقد نزل عليه الملاك ووعده بالجنة لصبره على حسد الناس له.

الزوجة المسكينة لا تعرف أن زوجها سيلحق بها في الدار الأخرى. لذلك عندما أدخلها الله الجنة، واكتشفت الحقيقة المرَّة، رفعت يديها وصرخت بدعاء رددته معها الملائكة. قالت المرأة: «يا رب جمعتني به في الدنيا عقاباً على غروري واعتدادي بجمالي.

كنتُ يا ربِّ أصبِرُ عليه طاعةً لك. ولكن هذا الزوج ظل في عيني قبيحاً كأول يوم رأيته فيه. لم أتعوّد عليه أبداً. وكان كلما أكل ثُوماً أو بصلاً شعرت أن روحي ستخرج، لشدة ما كانت تشمئز منه نفسي. يا رب، كان كلما هبط عليَّ الليل مع هذا المخلوق أشعر أنك تمعن في عذابي.. أحياناً يكون مسروراً بمالٍ كسبه، فكنت أقرف من سروره؛ وأحياناً يكون مهموماً لخسارة لحقتْه فكنتُ أكره نفسي لأنني سأُضطر إلى مواساته بكلماتٍ لا تخرج من قلبي. يا رب..» هكذا كانت المرأة الجميلة تدعو ربها بعد أن دخلت الجنة، واكتشفت أن زوجها القبيح دخل الجنة أيضا «.. يا رب الشكر لك، والحمد لك لأنك ستعطي زوجي سبعين حورية، كي أستريح منه كثيراً. ولكن، إذا كان هناك خِيارات، فهل من الممكن أن يخطِبني زوجي من أبي مرة أخرى في الآخرة، حتى يتاحَ لي هذه المرة أن أقول رأيي؟»

بالمناسبة كان والد تلك الفتاة في النار، لأنه كان قد زوَّجها غصباً في الدنيا. ولكن الله غفور رحيم.

عزيزي المستمع إن ظننت أن هذه القصة لها نهاية فتفكيرك غلط في غلط.



١٥٧ المطالعة وأكتاف الدجاجة

عزيزي المستمع، الآن وقد زايلتني حماسة الشباب، أستَرخي في مَقعدي الوثير وأقص عليك تجربة من تجارب العقل مررت بها.

دلَّني رجلٌ على أداة مفيدة فاستعملتها عليه، فجرحته بها مرة وداويته بها أخرى. أما الرجل فهو الكاتب المصري عباس محمود العقاد. قرأت له مرة كلمة حفظتها، قال: «أن تقرأ كتاباً واحداً مرتين أفضلُ من أن تقرأَ كتابين». وهذا القول من العقاد هو الأداة. ومرت سنوات كثيرة. ثم رجعت إلى كتاب للعقاد يتحدث فيه عن حياته. اسم الكتاب (أنا). وكنت قرأته قديماً.

عندما قرأته مرة أخرى وجدته مفكَّكاً قليل العمق. لا غَرْوَ فهو مجموعة مقالاتٍ صحفية في الأصل. ثم عدت إلى كتاب ثانٍ للعقاد كنت قرأتُه قديماً. وهو كتابه عن ابن الرومي الشاعر. وكنت قرأت نقداً جارحاً للكتاب. وكدت أومن أنه كتابٌ قليل القيمة.

رجعت إليه وقرأته مرة أخرى. فإذا به شامخ سامق عظيمُ القيمة. وارتفع العقاد في نظري كثيراً. وطبَّقت هذه القاعدة على عدة كتب فوجدتها قاعدة نافعة. نعم، قراءتُك كتاباً مرتين تجعلُك تتعمق فيه وتمسكه في قبضتك.

سأحدثك عن متعة العلم حديثاً لا أنسب لنفسي فيه شيئاً من الفضل. فكلُّ ما سأورده عليك من معلومات ومن تشبيهات هو ما قاله القدماء.

تخيل نفسك جائعاً عطشان، ثم حضرت المائدة، وضرب المدفع. ستشرب الماء والخروب وستأكل اللحم والأرز. وقد تدق بأكتاف دجاجة فتنسِفُها نسفاً، وتذَرُها قاعاً صفصفاً. ثم ماذا؟ ثم تعاف نفسك الطعام والشراب. وكذلك كلُّ شهوات بني آدم. فأما طلب العلم فهو العطش الدائم. كلما أغلقتَ باباً من العلم انفتحت لك أبواب. وتظنُّ نفسَك أتقنت جانباً من العلم وصرت فيه حجة الحجج. وسرعان ما يظهر لك أن معرفتك فيه ناقصة. كلما عرفت أكثر تبيَّن لك نقص علمك. وأجمل ما في العلم أنك تشعر بلذة وأنت تمعن في التنقيب. لا.. بل العلم ينسيك الشيخوخة..

فأنت تحرث أرضاً خصبة وهي تعطيك بسخاء، لا أنت تشبع من الحرث ولا هي تكفّ عن الإعطاء. العلماء، في كل حقول المعرفة، لا ينتظرون منا - نحن عامة الناس - كلمة شكر. وربما لا يستحقونها. فهم يستمتعون جداً وهم يبحثون. لا بل يستحقون أن نحسدهم. وأنا أحسد العلماء.. أحسدهم لأن ظروف حياتي واستعدادي العقلي والنفسي لم تسمح لي بأن أكون منهم، أحسدهم رغم أن الحسد غلط غلط.

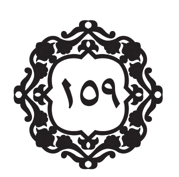
١٥٨ ملائكة العذاب

عزيزي المستمع، أنت مريض ولا تعرف أين الوجعُ بالضبط، يمسك الطبيب بطنَك فتقول: أخ. ويمسك خاصرتك، فتقول: أخ. ويمسك ظهرك، فتقول: أخ. فيقع في حيرة بين الزائدة والكلية والمرارة والمعدة. فيرسلك إلى المختبرات. وهنا المحنة.

بعد فحصٍ من الفحوص تمسك الممرضة بالتقرير، وتهزّ رأسها. وتسألك سؤال الخبير: هل الوجعُ يضربُ في نافوخك. فتقول أنت لها: آه (وأنت مسكين تريد أن يحيطك الناس بالعطف والحنان). فتقول الممرضة: ها ها. وتهزُّ رأسها. تسألها: ما الحكاية؟ فتقول لك: الطبيب سيقول لك.

تذهب أنت إلى الطبيب بالنتيجة مسرعاً، فينظرُ في الورقة، ويهزّ رأسه. ويبعثك إلى الأشعة. طبيب الأشعة يقرأ الصورة على لوحة النيون. إنه كفيل بأن يضع في أمعائك وكُلاك الحجارة والمسامير، والكتل الإسمنتية، مع أن «صورته» ليس فيها شيءٌ واضح إلا القفص الصدري. وهو يشير بعصاه هنا وهناك.. ويؤلِّف. وتجرُّ رجليك إلى طبيبك مرة أخرى، ليبدأ هزُّ الرأس من جديد. وأنت ترجو الطبيب بحرارة، تقول له: يا دكتور افتح بطني وانظر بعينيك، على الأقل سترى العِلَّة بالألوان. لكنَّ الطبيب يعرف شغله. ما يحدث عادة هو أنك تروح وتغدو بين الطبيب والمختبر عدة مرات.

وفي هذا الوقت يَمُدُّ الله سبحانه وتعالى إليك يداً شافيةً، بدعوات أبويك الصالحيْن. ثم يقطف الطبيبُ ثمرة هذا الجهد الربَّاني، ويقول لك: الحمد الله على سلامتك. فعلا: الحمد الله.. ولكن الحمد له وحده. أم أن كلامي غلط غلط؟



الكظيمة، واللوزينج، و.. أشياء أخرى

عزيزي المستمع، لا أحبُّ أن نقف موقفاً ثابتاً قاطعاً من قضية تعريب المصطلحات. ولا أرى أن معارضة كل لفظ أجنبي أمر سليم. فإذا درَّسْنا كلَّ العلوم بالمصطلحات العربية فإن علماءنا ينقطعون إلى حد كبير عن التطورات التي تجري في العالم. أعتقد أنه يجب علينا في الطب والهندسة والحوسبة أن نعلم الطلبة الكلمة العربية والإنجليزية معاً. بعضهم يصر على تسمية تيرموس القهوة «الكظيمة»، وبعضهم أصر على تسميته «القارورة الخوائية». وبالعكس بعضهم يصر على تسمية المحرك الماتور، مع أن الكلمة العربية أسهل. التعريب جيد، ولكنَّ اللغة يجب أن تتحرك بحرية، وأن تتغير بدون أن نسوقَها بالعصا إلى حيث نريد. حركة التعريب جيدة: أحيانا تفشل، كما في كلمة الكظيمة وكلمة العمود الجاف (والعمود الجاف هو بالمناسبة البطَّارية)، وأحيانا تنجح كما في كلمة المحرك والحاسوب والسيارة.

هم يخترعون الأجهزة والأدوية، ونحن نخترع الكلمات. لكن الإصرار على الكلمة العربية لا معنى له. فاللغات جمعياً تستعير من بعضها بعضاً. وإذا كان أصل الشيء من بلد معين فمن الطبيعي أن يكون اسم هذا الشيء من ذلك البلد. العرب القدماء كانت مائدتهم فقيرة، فكانوا في بداوتهم يأكلون التمر والثريد، ويشربون الحليب، ثم عرفوا من الفرس مآكل شتى فأخذوا أسماءها أيضاً. وصاروا يأكلون اللوزينج والطباهج. والإنجليز شبيهون بالعرب.. فعندما احتلهم الفرنسيون قبل ألف سنة أخذوا عنهم كل المأكولات، ومعها أسماؤها. لكن الإنجليز حافظوا على تخلفهم في الطبيخ. أما نحن فاستوعبنا المطبخ الفارسي ثم التركي. وببركة الطباخ رمزي وصحبه من طبَّاخي التلفزيونات، فسوف نستوعب كل أطباق العالم. لعلك لاحظت عزيزي المستمع أنني قلت الطباخ ولم أقل الشيف. والشيف كلمة فرنسية.. وقد أخذها كل العالم وصارت كلمة مفهومة من الصين إلى نيوزيلندا. فلماذا تريدني أن أقول طبّاخاً؟ الإنجليز والألمان يقولون (شيف) فلماذا نأسف نحن من هذه الاستعارة؟ ربما لأن كلمة طباخ تجعلنا

نجمعها بسهولة فنقول طباخين وطباخات. فأما الشيف فيصبح دمه ثقيلاً إذا جُمع على شفايف وأُنث على شِفَّة. وهل نقول الشيف فلان يشفشف؟ (أي يطبخ). ذلك والله هو الغلط عينُ الغلط.

١٦٠ الصحافة الحزبية

عزيزي المستمع، أراد صاحب لنا أن ينشئ جريدة. رأى حوله حشداً من المؤيدين كبيراً. وشجعوه وزيَّنوا له إصدار الجريدة. قال هذا: أنا أكتب لك كذا، وقال ذاك: أنا آتيك بأخبار البلد، وقال ثالث: عليّ الأبراجُ والكلمات المتقاطعة، وهكذا. ورأى صاحبنا أن جوقة الأنصار تزيد باستمرار. رجال ونساء بالعشرات يشدُّون على يديه. وفتح جريدة، ووظف كثيرين من أنصاره ومن غيرهم. واكتشف أن تعبئة الصفحات شيء سهل فالمواد كثيرة. ما شاء الله، مقالات كثيرة. وأكوام من الأخبار، وبدأ ينشر. وانغمس في حماسته للعمل كثيراً. وانفعل بأجواء التكاتف والتأييد وتحمّس لحماسته أصحابه الكثر.

وفي غمرة انغماسه فقد حسَّ الناقد. ولم يعد قادراً على مقارنة جريدته بالجرائد الأخرى مقارنة عادية. صار ينشر المقال الضعيف، وهو يظنه قطعة فريدة من التحليل العميق. وصار ينشر أخباراً تافهة لاجتماعات تافهة، تعقدها مؤسسات تافهة، وهو يظنها أخباراً يتشوّق القاريء لمطالعتها.

ظل صاحبنا يستغرب أن الناس لا يشترون جريدته. يطبع ألفين.. والمرتجعُ ألف وتسعمئة. واستغرب أيضاً أن الشركات لا تريد وضع إعلاناتها في جريدته. صار يسبُّ ويشتم طول النهار، ويشتكي ويتحسر طول الليل. يتحسّر على حال هذا الشعب الذي لا يعرف الصحافة، ولا يفهم في الإعلام.

عزيزي المستمع، صحافتنا الحزبية شبيهة بجريدة صاحبنا المذكور، إنها فارغة من الخبر الصادق، وليس فيها تحليل عميق، بل مجموعةُ آراء مستندة إلى فكرٍ عتيقٍ وغيرِ واقعي. وخلّني أكمل لك قصة صاحبنا. لقد أغلق الجريدة بعد أشهر، وخسر كثيراً.

أما صحافتنا الحزبية، وكذلك صحفنا المؤسساتية، فهي منتعشة بحمد الله. إنها تخسر المال الكثير، وتعطي القراء مادة تافهة.. والقراء لا يقرأونها.. وهي توزَّعُ مجانا، وهي مفيدة جداً لتجَّار الشنط، فقد رأيتهم يجمعون أعداد الجرائد المؤسساتية ويكعبلونها حتى ينفخوا بها الشنط المعروضة. الجرائد الحزبية تخسر المال الطائل من موارد الحزب المالية. ولا يهمها الأمر وهذا غلط. والجرائد المؤسساتية تخسر المال الكثير الذي يأتي على شكل تبرعات محسوبة على الشعب الفلسطيني، ولا يهمها الأمر، وهذا غلط غلط.

١٦١ الحسد والشماتة

عزيزي المستمع، الذي لا يكره ولا يحسد ولا يشمت هو شخصٌ غير موجود. هناك ناس حريصون جداً على إخفاء مثل هذا العواطف الإنسانية. ترى الواحد منهم يلعب دور وليٍّ من الأولياء، تراه إذا ذُكر شخصٌ كريه منافق، هزَّ رأسه وابتسم، وتراه كلما سمع عن تاجر كسب في صفقة مليوناً أظهر سرورَه، وابتسم راضياً عن هذا الخبر. وتراه إن سمع بخسارة أحدهم أظهر الحزن الشديد. في الغالب فإن هذا يكون تصنُّعاً. وهو في رأيي غير محمود. لكنَّ هناك شيئاً أعُدُّه أسوأَ من التصنُّع. ترى أحدهم مشتعِلَ العواطف لا يجلس إليك إلا ويحدِّثُك عن فلان الكذا والكذا وينعته بأقبح النعوت، تراه وقد شعَّت الكراهية من مُحيَّاه. ثم قد تراه بعد لحظة يتذكر فلانة التي مات زوجها فخلعت السواد بعد ثلاثة أشهر، ونزلت وفتحت المحل وصارت تبيع وتشتري بنجاح، وتراه يتكلم عنها بحسد كأنها هي التي قتلت زوجها، وتراه يوظف أردأ ما في تقاليد المجتمع لكي يحكم عليها بعدم الوفاء. كل ذلك لأنها نجحت. وتراه فجأة يبتسم ثم يضحك، ثم يصدر صوتاً مليئاً بالفرح الأسود، صوتاً كصوت الخنزير يصدُرُه من أنفه.. كلُّ ذلك مقدِّمة لكي يقول لك بصوت هامس: هل سمعت ما جرى لفلان؟ لقد أكل قَتْلةً نصفُها موت، وفلان.. طخُّوه في رجله فصار يعرج، عاهة مدى الحياة، الله وكيلك. يقول كلَّ ذلك بلهجة الشامت. نحن بشر نحب أن نشمت. لكنَّ الشماتة نقيصة. والشماتة بالضعيف تدل على خسَّة. أما الشماتة العادية فهي إحساسك بالسرور

إذا تلقَّى الظالم عقاباً على ظلمه.. لكن ليس إذا فقد ولداً من أولاده مثلاً. الكراهية العادلة هي أن تكره شخصاً لأنه أساء إليك. وأما الحسد ففي رأيي أن الشرط المهم فيمن تحسدُهُ - كي يكون حسدُك مقبولاً - هو أن لا تلقاه، فإذا لقيته فلا بدَّ لك من النفاق. فرغم كل محاولاتك ورغم نفاقك، فإن المحسود سيرى الحسد في عينيك.

أحد الشعراء كان يكرهُ الوزير أحمد بن أبي دؤاد، وقد قال فيه قصيدة يدعو عليه فيها بالموت.. لكنه يدعو عليه بألاَّ يموت سريعاً، وبأن يرى موت أولاده في حياته.. يقول له: «ورُزِئتَ قبل الموت بالأولاد». ونحن نقول: الكراهية غلط والحسد غلط، لكن الشماتة غلط غلط.

١٦٢ الهائم بالحرف العربي

عزيزي المستمع، لو رأيت خطاط فلسطين محمد صيام رحمه الله (فقد توفي عام ألف وتسعمئة وتسعين)، لو رأيته يتمشَّى على الرصيف في استانبول لعجبت من حاله. كان يمشي خطواتٍ قليلة ثم يعود ويقف أمام بوابة مسجد عتيق وقد رفع رأسه يتأمل في الحجارة التي فوق بوابة المسجد. ثم يتمشى بضع خطواتٍ ثم يعود إلى موقعه ويقف مدة من الزمن وهو يحدق في الحجارة. كان يخشى رحمه الله أن يستهجن الناس ورجال الشرطة وقفته الطويلة فيتمشى قليلاً، ثم يعود كأنه مربوط إلى بوابة المسجد بمطاطة.

لقد كان محمد صيام يتأمل كتابة بالخط العربي في أعلى بوابة الجامع. وتسمعهُ وهو يصف هذه الكتابة واتقانها ورشاقة حروفها وجمال تنسيقها فتحسُّ أن الرجل يقول شعراً. كانت تلك الكتابة للخطاط التركي مصطفى عبد الحليم أوزيازيجي المشهور بحليم. وحليمٌ هذا أصله من نواحي القفقاس، أبوه من جزيرة القرم، وأما أمُّه فمن وسط إفريقيا. وكان واحداً من كبار الخطاطين الأتراك في عصر ازدهار الخط العربي بتركيا، هذا العصر الذي انتهى فجأة عندما ألغى مصطفى كمال أتاتورك الكتابة بالحروف العربية في تركيا، واستبدل بها الحروف اللاتينية. وقد عاش حليم ستاً وثلاثين سنة بعد إلغاء الحرف العربي، وشهد موت هذا الفن الجميل في تركيا. وظل، كلَّ هذه السنين،

يتألم على زوال الاهتمام بفنه. لكن الاهتمام بفن الخط العربي ضعيف جداً، وقد انحدر المستوى انحداراً هائلاً في العالم العربي نفسه. فالعرب في القرن العشرين - كله - تدهوروا فنياً وتراثياً وحضارياً في نظري. تذوق الخط العربي انحدر جداً عندنا. وجاءت خطوط الكمبيوتر لتقضي على هذا الفن مثلما قضى أتاتورك على الحرف نفسه في تركيا.

فن الخط العربي عالم واسع وثري من الدقة والصنعة وبعض الخيال. صحيح أن نصف تلاميذ المدارس يعتبرون أنفسهم خطاطين. ولكن تعلم الخط على أصوله يحتاج إلى عمر. الخط مثلُ الموسيقى.. لا بد للمرء أن يكرس عمره له، وإلا فلن يصل فيه إلى مرتبة جيدة. وطلبة المدارس يقلدون خطاطي البلد ثم ينصرفون عن الأمر كله. وأما النماذج الخطيةُ العظيمة من قلم حليم والآمدي وسيد إبراهيم فهي محجوبة عن التلاميذ. وحتى خطاطو اللافتات فهم لا يهتمون بها ولا يصقلون مهاراتهم بالاهتداء بها. وصار معظمهم يكبرّون خطوط الكمبيوتر لاستعمالها في اللافتات ويريحون أنفسهم.

خسارةٌ أن يموت هذا الفنُّ الجميل - فنُّ الخط العربي - وإهمالنا إياه تضييع لقيمة جمالية.. وذلك غلط غلط.

١٦٣ رأي مستمعة في أقلامي

عزيزتي المستمعة، وأنا أتحدث اليوم إلى مستمعة معينة لا أعرف لها إسماً ولم أرها. ولكن بلغني عنها تعليق على شيء كنت قد قلته.

وبالمناسبة يا عزيزتي، فإن رأيك يهمني، ويستوقفني، ويجعلني أفكر مليّاً. ومهما كان رأي المستمع فهو عندي في غاية الأهمية. نحن في مهنة الراديو لسنا مثل شعراء الحداثة الذين يخربشون على الورق كلاماً لا فيه معنى فنفهمه، ولا فيه وزنٌ فنطرب لإيقاعه، ولا فيه قافيةُ فننتظرها، ثم يقولون لنا: افهموا أو لا تفهموا، فنحن إنما نكتب لأنفسنا.

بالله عليكم يا أوادم! إن كنتم تكتبون لأنفسكم فلماذا تنشرون هذه الرُّقَى والحُجُب التي تعملونها في الجرائد والدواوين؟

في صناعتنا نحن نتحدث إلى مستمعين، ونحترمهم. وإذا ناقشونا فنحن نناقشهم، وإذا أقنعونا فنحن نستجيب لهم.

والمستمعة التي أحدثها اليوم سمعتني وأنا أتكلم بكلام خفيف لا يحمل أية فكرة أو مغزى عن أقلام الحبر. وكنت تحدثت في حلقة سابقة عن قصتي مع القلم الناشف الذي يفور، والقلم السائل الذي يملأ الورقة بقعاً. للأمانة فليس هناك في ذلك الحديث أيُّ مغزى. إنه كلام عن تجربتي مع أقلام الحبر، وليس فيه ما يفيد الناس. لا أدري إن كان المستمعون يرحبون بمثل هذا الكلام. ولكنني الآن أعرف أن المستمع لا يحب الحديث الفارغ الشبيه بذلك الحديث.

ما الفائدة لو حدثت المستمعين الآن عن آرائي الشخصية المتعلقة بصحن الفول، وما ينبغي أن يضاف إليه من ثُوم وفُلْفُل وزيت؟ لا بد أن تكون هناك فكرةٌ وراء كل حديث، حتى لو كانت صغيرة ودار المتحدث حولها، ورشَّ عليها السِمسِم والفُلفُل أو الفِلفِل.

وبالمناسبة، عزيزتي المستمعة، والكلام للجميع، أهل غزة يقولون سِمسِم وفِلفِل.. والكلمتان صحيحتان. وأهل نابلس يقولون فُلفُل وهذا صحيح ويصرون على أن يقولوا سُمسُم أيضاً، وهذا في القواميس العتيقة غلط. وأهل القدس يقولون سُمسُم أيضاً لكن يقولون فِلفِل، وهذا نصفه غلط ونصفه صواب. أما أهل الشام فيكسرون الحرف الأول ويرفعون الحرف الثاني يقولون: سِمسُم وفِلفُل. وقاموس المنجد يقول لهم هذا غلط غلط. قاموس المنجد والمعجم الوسيط كلاهما يقول فِلفِل وفُلفُل جائزتان، وأما لسان العرب لابن منظور والقاموس المحيط للفيروز أبادي فيصران على أن فِلفِل هذه غيرُ موجودة في اللغة. لهذا فنحن نقول: إن الإدعاء بأن هناك وجهاً واحداً للصح والغلط في اللغة، أو في أي شيء آخر، هو غلط غلط.

١٦٤ انتخاب العريف

عزيزي المستمع، في الصف الخامس الابتدائي قرر مربي الصف أن يتمَّ انتخابُ العريف بالاقتراع السري. قضينا حصةً في العملية. أَضعنا حصة دراسية مهمة، فاتنا علم كثير ونحن ننتخب عريفاً للصف..

ترشح للمنصب المرموق عدة تلاميذ. وقال كل واحد منهم ماذا يريد أن يعمل. ثم اقترعنا.. وفاز تلميذ بالعرافة. العريف الجديد، المنتخب، صار أقوى سلطة أمام المعلم من العريف السابق المعين تعييناً، ذلك أنه منتخب، وصار أكثر مسؤولية أمامنا، لأننا نحن انتخبناه. كان يزن أفعالَه ويحدُّ من تهوره، لم يعد يكتب أسماءً كثيرة على اللوح فيما بين الحصص، واختفت «الإكسات» الكثيرة أمام الأسماء. هذا العريف صار يحاول استرضاءَ أكبرِ عدد ممكن من التلاميذ والتعاملَ معهم بحصافة. إنه يهيِّيءُ نفسه للانتخابات المقبلة، وهو يريد أيضاً الحفاظ على هدوء الصف وانضباطه ليثبت لمربي الصف جدارته بالمنصب. هذا العريف صار محترماً أكثر في سلوكه وشخصيته لأنه منتخب، وصارت فعاليته كعريف أعلى لأن التلاميذ أكثر قبولاً له، وأقل تمرُّداً عليه.

في الصف الخامس الابتدائي ذقت لحسةً من الديمقراطية، وعرفت قيمة الانتخاب. ولم تتكرر تلك التجربة العظيمة معي إلا في الجامعة.

في الجامعة أتذكر أنني في السنة الأولى كنتُ جالساً مع بعض زملائي من الجدد. وطلاب السنة الأولى مساكين.. يجلسون معاً.. ويتصرفون كالأيتام في مأدبة اللئام. لا قيمة لهم، ولا أحد يأبه بهم. كنا جالسين نشرب الشاي، فاقتحمت علينا الجلسة طالبةٌ من السنة الثالثة أو الرابعة. وقالت لنا بأدب: هل يمكنني أن أتحدث إليكم عن الانتخابات؟ أنا فلانة، وأنا نازلة عن كتلة كذا، لانتخابات مجلس الطلبة. طبعاً فرحنا بهذه الفرصة.. أقصد فرصة الحديث إلى فتاة.. وصارت تحدثنا عن عيوب الكتل الأخرى، وعن طرق معالجة الانحراف الشديد في اتحاد الطلبة الحالي.. الخ. صحيح أن كلامها كان دعاية انتخابية لكن، أولاً، شعرنا أنها تطلبُ أصواتنا، وأنها تحترمنا؛ ثانياً، شعرنا أننا سنملك الحق لاحقاً في محاسبتها إذا فازت؛ وثالثاً، شعرنا أننا نملك الاختيار، فسنسمع دعاية

الكتل المختلفة، وسنختار نحن من يمثلنا.

عزيزي المستمع، مجلس الطلبة في الجامعة - رغم عيوبه الكثيرة - يكون قوياً في وجه الإدارة لأنه يملك تفويضاً من الطلبة. ويكونُ منضبطاً في سلوكه للمحافظة على شعبيته. نحن نعرف ظروف البلاد السياسية ولا نريدُ أن نرفع من خلال حديثنا هذا لافتات مطالب سياسية. ثم إن البرنامج لا «يَطُبُّ» في السياسة.. كيلا يَطُبَّ على وجهه. لكنني أقول لمربِّي الصفوف في المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية. أقول لهم: لا تعينوا العرفاء تعييناً. بدل أن تلصقوا بهذا التلميذ المسكين تهمة «جاسوس الإدارة»، قوموا بإجراء انتخابات على العرافة، هذا شيء يكلفكم حصة، يخسر فيها التلاميذ العلم الغزير الذي تقدمونه حضراتكم في كل حصة والجواهر الثمينة التي تتدفق من أفواهكم، ولكنه يغرس في نفوس التلاميذ قيمةً عظيمة.

ونقول للمعلمين: اسم الوزارة التي تدفع رواتبكم «وزارة التربية.. والتعليم». وأنتم، في حديثكم تقولون «وزارة التربية» اختصاراً، وأما في سلوككم فقد نسيتم التربية كل النسيان، ولا تصنعون إلا «التعليم»، بئس ما تصنعون.

مجتمعنا مبتلىً بشيء اسمه التعيينات. ونحن يئسنا من البلديات ومن الغرف التجارية ومن النقابات. مجتمعنا يخلع القيمة الانتخابية خلعاً تحت ضغط الوضع السياسي، وتحت ضغط عدم احترام الجمهور ورأي الجمهور. ويحسُن بنا أن نبدأ من مستوى المدرسة الابتدائية. يحسن بنا أن نبدأ من تحت، وأن نعوِّد أطفالنا على الانتخاب وعلى احترام القاعدة الشعبية. مربي الصف الذي يصرُّ على تعيين العريف تعييناً يجب أن نكتب اسمه على طرف اللوح وأمام الاسم مشاغب مشاغب إكس إكس إكس غلط غلط.



المدير الحيوي.. المدير المشكلة

عزيزي المستمع، إذا سمعت أحداً يناديني: يا دكتور! فلا تحمل الأمر على محمل الجد. فلا أنا دكتور معالج، ولا أنا دكتور جامعي. وأغلب ظني أن من ينعتني بالدكتور

إنما يفعل ذلك لنظارتي السميكة، وربما أيضاً لأنني ذو صلة وثيقة بالجامعات، فقد بدَّلتُ أربع جامعات، وأنفقت عشر سنوات حتى حصلتُ على شهادة صغيرة، لا هي الدكتوراه ولا هي الماجستير، بل دون ذلك.

سأحدثك عن جامعتين. الجامعةُ الأولى مديرها رجل شارد الذهن يجلس في مكتبه ويضع خططاً استراتيجية لتطوير التعليم في جامعته ولتحسين طرق تمويلها، ويعقد اجتماعاتٍ كثيرة. إنه لا يعرفُ صغار الموظفين ولا يعرف الأساتذة شخصياً، ويعتمد على نظامين للتقييم: واحدٍ للموظفين وثانٍ للأساتذة، وتقوم لجنة خاصة بفرض ترقيات وعلاوات لأصحاب التقييمات الجيدة، وبتجميد ترقيات وعلاوات أصحاب الأداء الضعيف. وإذا استمر ضعف الأداء فهناك طريقة قانونية لمعاقبة الأستاذ أو الموظف المقصر، وهناك طريقة أخرى لفصله من العمل بعد استكمال الإجراءات.

مدير الجامعة الأولى هذا مرتاح في مكتبه وتجيئه أحياناً مكالمات هاتفية من شخصيات مهمة تطلبُ تعيين فلانٍ أو قبول فلان. وهو يحوِّل كل هذه المكالمات إلى اللجان المختصة، وفي الواقع فإن من الصعب داخل لجنة أن يحدث فساد، أو أن يتم تعيينُ شخص غير ملائم. اللجان تغلط.. أيْ نعم. لكن غلطها محدود. وأعضاء اللجان يراقبون بعضهم بعضاً.

الآن نتحدث عن الجامعة الثانية: الجامعة الثانية مديرها حيوي، وهو ذو شخصية قوية طاغية. لا يجلس في مكتبه، بل يتجول بين الدوائر والأقسام والكليات. تراه يدخل مكتب عميد كلية الصيدلة - فرضاً - بلا سابق موعد.. ويهتف بالعميد وهو داخل عليه قائلاً: «يا أبو صالح.. كيف نهارك!». طبعاً أبو صالح هذا هو الدكتور محمد مسعود الصالح. المهم.. يتابع مدير الجامعة كلامه: «عثرتُ لكم على سكرتيرة جيدة.. غداً ستأتيك، وتداوم. وسأرسل لك اليوم ظهراً شخصاً ليعمل مديراً للمشاغل، وأما تعيينُ أستاذ «السموم الهارية» فقد تم، إنه رجل أمره يهمّ الوزير.. أرجو أن تسهِّل له.» مدير الجامعة الثانية يعود إلى مكتبه ظهراً ويقابل عدداً من الموظفين الذين يشتكون مديرهم، ثم يدخل عليه سيل من الطلبة. وكل واحد يتظلَّم من علامته.. ومدير الجامعة حيوي جداً، وهو يبت في الأمور بسرعة ويصدر قرارات حاسمة.

ثم تدخل عليه السكرتيرة التنفيذية، وتحدثه بكل تفاصيل حبر الطابعة، وكيف يريدون شراء عبوة حبر جديدة، ويصدر قراره بهذا الموضوع. وتراه في مكتبه يتلقى سيلاً من المكالمات الهاتفية.. ويجري في كل يوم عدة تعيينات. إنه رجل ناجح.. إنه يعرف كل صغيرة وكبيرة في جامعته. وعلاقاته بكل شخصيات المجتمع ممتازة. وهو بصراحة الكل في الكل. والمشكلة الوحيدة في جامعته هو أن مستوى الأداء الوظيفي منحدر، ومستوى التدريس منخفض. لكن طبعا مديرنا هذا يحتقر مسألة التخطيط والاستراتيجية، ويكره الاجتماعات العقيمة. وهو دائماً يقول: بَلا اجتماعات بلا لجان. أنا عندي قرارات واضحة. والموظف الذي يرتكب خطأً.. أنا الذي أمسحُ به البلاط.. ولست بحاجة إلى لجان تقييم.

عزيزي المستمع، الجامعة الأولى ظلت جامعة. والجامعة الثانية ذاتُ المدير الحيوي صارت دكَّاناً، ولكن مديرها ظل شديد الفخر بسلوكه، وسلوكه غلط غلط.



١٦٦ الصلاة على النبي

عزيزي المستمع، إذا كنت تركب سيارة فلا بد أن تكثر من الصلاة على النبي. ترى أمامك سيارات المرسيدس الفاخرة الجديدة – «الشبح» و»القرش ونصف» والأنواع الأخرى – تراها تروح وتجيء وتسبقُك طبعاً، وكثيراً ما يكون السائق رافعاً أنفه وهو يسوق كأنه شم رائحةً منكرة. وأنت رجل غير حسود، صلِّ على النبي. فإذا أخذ السائق يصعد المطبات بسرعة، ويخلخل عظام السيارة فاعلم أنه واحد من اثنين: سائق يشتغل عند الباشا وهو ذاهب بالسيارة ليحضر ابن الباشا من المدرسة، أو الباشا بنفسه. والباشا في بلدنا لا يهتم بسيارته المرسيدس أو البي إم لأنه لم يدفع ثمنها. وإذا كان السائق يسير الهوينى بسيارته الفاخرة، فاعلم أنه كان يشتغل في أميركا وعاد إلى البلاد بجيوب دافئة ولم يجد مشروعاً يستثمر فيه أمواله، وعندما رأى الدولارات قاعدة في البنك بفائدة ضئيلة، توكل على الله واشترى مرسيدس.

وثمة أسباب أخرى تدعوك للصلاة على النبي. وكنا نحب لك أن تصلي على النبي – صلوات الله عليه وسلامه دائماً وبدون أسباب. ولكن أصحاب الفوردات يجبرونك على ذلك. أحياناً يأمرونك أمراً، يكتبون على قفا الفورد: «صلي» على النبي. وأحياناً يكتبون لك: «أنا الفورد نيالي وأبو أحمد خيالي» فلا تملك أمام هذا الاعتزاز إلا أن تقول: اللهم صل على سيدنا محمد. وقد يكتبون: «خمسة وخميسة في عين اللي ما يصلي على محمد».. وقد يكتب بعضهم: «اللهم أعطهم ما يتمنون لي». وترى السائق الذي كتب ذلك يتجاوزك وهو يزمر كالحمقى، وتأتي سيارة في الاتجاه المعاكس «فينْضَبُّ» أمامك ويسير وهو يفرمل فجأة في كل حين كأنَّ به مسَّاً من الجنون. وتتمنى أنت له طبعاً أن يسلم، وتسلم سيارته. تتمنى ذلك لأنه لو ضرب سيارته فسوف يضربها في مقدمة سيارتك أنت. والقانون صريح.. أنت في الخلف والحق عليك. وأنت أيضاً تتمنى له السلامة لأنه كتب على ذيله: اللهم أعطهم ما يتمنون لي. وحتى تمنع نفسك من إطلاق مسبَّة شنيعة يسمعها الذين معك في السيارة، من أطفال أو أصحاب، فأنت تجد المخرج في أن تقول: اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد. عزيزي السائق ترى هذه الأيام في الشوارع، أولاداً في الخامسة عشرة من العمر يسوقون السيارات، وهم إما سرقوها من آبائهم القائلين عند الظهر.. أو اشتروها «مسروقة» بقليل من المال. وستحتاج كثيراً إلى الصلاة على النبي حتى تَمْشيَ حالُك في أوضاع هي في الواقع غلط في غلط.

١٦٧ الشكل الأبدي للصابونة

عزيزي المستمع، تحدثت مع مهندس ميكانيكي قبل نحو عشرين سنة. قلت له: انظر إلى فلقة الصابون البلدي: كبيرة ومكعبة، وشكلها مزعج للأيدي، خصوصاً وهي جديدة. وهي تُصنع بطريقة بدائية، فهم يسكبون الصابون المصهور على الأرض ثم يقطعونه بالسكين ثم يختمونه بختم الشركة.. ولا بد أن يحمل الختم اسم حيوان من الحيوانات: فهذا صابون الأسد وذاك صابون البغل.

المهم: قلت للمهندس: لماذا لا تخترعون، أو تستوردون، آلة خاصة تجعل شكل الصابونة معقولاً؟ نحن نعرف أن الصابون البلدي لا يرغي، وأنه يُطلع الروح وأنت تغسل يديك به بعد أكلة دسمة.. نحن لا نعترض على كيمياء الصابون.. اعتراضي فقط على شكل الصابونة.

قال لي المهندس: مستحيل. وساق حُججاً كثيرة ليثبت لي أن الأمر مستحيل. وقبل سنتين اخترع أحد طلبة الهندسة هذه الآلة وذلَّل الصعوبات. كيف نريد أن ننافس الصابون الإفرنجي في أسواقنا بينما نقدم للمغسِّلين والمغسِّلات تلك الكتل القبيحة الثقيلة التي اسمها الصابون البلدي؟ عقلية «هذا مستحيل» و«هذا غير ممكن» لا تجعلنا نتقدم.

وفي هذه الأيام انصرف اهتمامي إلى تلك القُلامة اليابسة التي تطلع لك - أو هي بالأحرى تنزل عليك - وأنت تأكل حبة البقلاوة. ويكاد ضرسك أن ينكسر. وتتفُّها تفًّا.. وتكتشف أنها شظية من قشرة فستقة حلبية.

قلتُ لصاحب معمل حلويات: هل هناك أمل في أن تضمن خلوَّ بقلاوتِك من بقايا قشور الفستق، فهزّ رأسه وقال الكلمة السهلة: «مستحيل»، لا بد أن يُفلِتَ شيء. فهل ننتظر حتى تصل البقلاوة إلى اليابان فيخترعوا لها آلة تحررها من تلك القُلامة المزعجة.

ولو اخترعوا تلك الآلة فسوف اشتريها مهما بلغ ثمنها ولكن لغرض آخر. أريد أن استعملها لتنقية الفريكة من الحصى. فأنا رجل محظوظ بحصى الفريكة.. لا آكل فريكة مع جماعة إلا وجاء كل الحصى في فمي، هذا رغم أنني أزدرد الأكل ازدراداً ولا أكاد أمضغه. في الحلقات القادمة قد أحدثكم عن الزعتر وما فيه من تراب، وسأحدثكم عن تنقية المقالات من الأخطاء المطبعية. وأما اليوم فقد انتهى وقتنا ويجب أن نقف. وقبل أن نقف نتفكر قليلاً ونقول: لا ندري لعل طرح هذا الموضوع في الراديو غلط غلط.



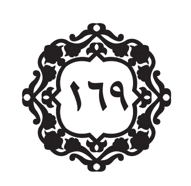
عرب الشوارع، وشوربة فلسطين

عزيزي المستمع، الشعوب المغلوبة تكون حساسة. ونحن كلما كتب عنا أحد كلمة نحزن ونغضب، وبالمقابل فالشعوب الغالبة متسامحة مع الانتقاد. عاش الكاتب

الإيرلندي جورج برنارد شو السبعين سنةً الأخيرة من عمره في إنجلترا. ولم يوفر كلمة انتقادٍ إلا وعاب بها الإنجليز. ومع ذلك كانت مسرحياتُه تعرضُ كل ليلة في مسارح الوست إند - حي المسارح - بلندن. في ذلك الزمن كانت إنجلترا أقوى دولة في العالم.

وبوصفي من أبناء الشعوب المغلوبة فإنني فتحت هذا الكتاب الإنجليزيَّ القديم وبحثتُ فيه عن أي شيء يمت لنا بصلة. هذا الكتاب اسمه قاموس العبارات والخرافات وصاحبه اسمه كوبام بروور. وقد ظهر الكتاب عام ألف وثمانمئة وسبعين، أي أن عمره يتجاوز المئة وثلاثين عاماً.

يفسر لنا بروور تعبير (عرب الشوارع) (ستريت أرابس) بقوله إنهم الأطفال المشردون، وقد شبهوا بالعرب البدو الذين لا يستقرون في مأوى. وقد أبقت الطبعات الحديثة من الكتاب على هذا التعبير، وقد رأيته في الطبعة الصادرة عام ألف وتسعئمة وواحد وتسعين. وقد رأيتُ في كتاب بروور القديم تعبيراً فيه كلمة فلسطين. إنه شوربة فلسطين (بالستاين سوب). وقد فرحتُ جداً لأننا موجودون عند بروور. لكن شوربة فلسطين لها قصة لغوية معقدة. فأصل هذه الشوربة إيطالي، واسمها غيراسوله آرتيتشيوكو ومعناها خرشوف عباد الشمس. وقد ظن الطباخ الذي نقل هذه الشوربة إلى إنجلترا أن غيراسوله معناه جيروسالم أي القدس. فسماها شوربة القدس. ثم جعلوها شوربة فلسطين. فالأمر إذن غلط. ولا علاقة لشوربة فلسطين بفلسطين ولا بالقدس. لكنني شاكر لمعجم بروور القديم على إيراد ذكرنا. فالطبعة الجديدة من الكتاب حذفت فلسطين وشوربتها. أحمد الله أن الكتاب بطبعتيه لا يورد كلمة الفلافل. وكنت رأيت كلمة (فلافل) مشروحة في أهم موسوعة في العالم: دائرة المعارف البريطانية على النحو التالي: أكله شعبية في إسرائيل. وقد جعلني ذلك أغضب وأحزن. ألم أقل لك أن الشعوب المغلوبة حساسة. ولكن في حكاية الفلافل هناك تحيز رخيص، وهناك غلط يكاد يخجل منه الإسرائيليون الذين لم نر منهم إلا الغلط كلَّ الغلط.



١٦٩ في انتظار الفقيهة

عزيزي المستمع، الحركة النسائية في بلدنا حركة طيبة وقوية وخوِّيفة، والخِوِّيف في الفصحى هو شديد الخوف. أمّا أنها طيبة فلأنها كسرت احتكار سيدات المجتمع المخملي للعمل النسائي، ونزلت إلى الميدان وأصرّت على أن تخدُمَ المرأة في القرية وفي المخيم، ولأنها لا تنسى المرأة الفقيرة، ولأنها تصرّ على خدمة المرأة وقضيتها مع احترام تام للمعتقد أيّاً كان. وهي حركةٌ قويةٌ بالمقارنة مع بلدانٍ كثيرة مشابهةٍ لنا في تطورها الاجتماعي والاقتصادي. وحركتنا النسائية فيها فهم عميق للقضايا والمنطلقات الفكرية، وهي لا تتنازل فكرياً عن الإيمان بحق المرأة في نيل كامل حقوقها.

ولكنها حركةٌ حذرة إلى درجة الخوف. فهي تحاول عدم الاصطدام بالناس التقليديين في المجتمع، وتخاف من السياسة ومن السياسيين وتداريهم فوق اللزوم. أنا واحد من الرجال الذين قاموا بنشاطات معينة مع مؤسسات المرأة.. بعضها بأجر وبعضها بغير أجر. وأنا أشهدُ أن المؤسسات التي تُعنى بشؤون المرأة فيها شيء خاص. هذا الشيء هو وجود عقيدة واضحة يلتف حولها الجميع.. مبدأ بسيط ليس خاضعاً للتكتيك: المرأة يجب أن تأخذ الحقوق كاملة.. وبحسب المواثيق الدولية الإنسانية.

الحركات النسائية في رأيي بحاجة إلى نظير فقهي يأتي من جانب النساء الفضليات المتفقهات في الدين. إنهن يستطعن أن يعدّلن الميزان الذي أماله الرجال على مدى مئات السنين بشكل أناني. فالرجال أولاً طردوا المرأة من الفقه والقضاء، ثم جعلوا الطلاق سيفاً مسلطاً فوق رأسها. ونحن بحاجة إلى فقيهة تستخرج لنا حُكْماً يقول: الطلاق للرجال، والخلع للمرأة بشروط متوازنة. وفي الواقع فإن كتب الفقه غنية بالمواد التي تسهّل على المرأة نيل حقوق كثيرة. لكن الرجال على مدى القرون أخفوا هذه الكتب عن أعين المرأة وحجبوا المرأة عن الفقه. المرأة ذات عقل وذات دين. فخديجة امرأة، وكان عقلها يزن عقول رجال قريش. ولكن لا يجوز أن تنتظر المرأة من الرجال إنصافها في القواعد الفقهية. وصاحب الحاجة أولى بها. وأما نقصانُ الدين فأنا أقول لك: أرسل

مئة شاب إلى الخارج، وانظر كيف يكون سلوكهم. وأرسل مئة فتاة إلى الخارج، وانظر كيف يكون سلوكهن. وستؤمن كما أومِنُ أنا بأن المرأة أحصن وأعفّ وأجمل ديناً من الرجل. ألا إن سلوك بعض الرجال غلط غلط.



١٧٠ سائقون وركاب

عزيزي المستمع، ثلاثةٌ شرٌّ من ثلاثة، واثنان خير من اثنين، وواحد يستوي والبهيمة. المبطيء في سياقته شر من المسرع، لأن المبطيء الذي يكزدر أمامك يفري قلبك، أما المسرع فهو يخاطر بروحه هو. والراكب الذي أكل صحن فول بالثوم على الصبح شرٌّ من الراكب في الكرسي الخلفي الذي يدقك في كتفك دقة منكرة ينخسك بها نخساً لكي يعطيك النقود لتعطيها بدورك للسائق. لأن الأذى من آكل الفول بالثوم دائم، وأذى النخس في الكتف محدودٌ زائل. والسائق الذي يقف ليملأ الخزان بالسولار دون استئذان شرٌّ من السائق الذي يأخذ راكباً إضافياً ويحشرهُ حشراً. فالأول يعتدي على وقتك والثاني على راحتك. ولكن.. أمامك مجال للاعتراض على الراكب الإضافي وفي واحدٍ بالمئة من الحالات ينجح اعتراضك، أما إذا كسر السائق على اليمين وصف وراء ثلاث سيارات ليملأ الخزان بالسولار، ثم صفّت وراءه شاحنة لها أربعة وأربعون عجلاً فلا مجال للاعتراض ولا للرجوع.

أما الاثنان اللذان هما خير من اثنين: فالسائق المهذب خير من السائق المتسامح في التحميل. فالذي يبدأ الرحلة براكب ناقص يوفر وقتك ويخسر من جيبه، وهو كريم النفس، لكنه يجعلك تشعر بتأنيب ضمير. ولكن السائق المهذب يشعرك طول الرحلة أنك تعيشُ في مجتمع وليس في غابة من البشر. والسائقون المهذبون في بلدنا كثيرون.. نعم رغم الخطر، ورغم قلة المردود، ورغم البلاوي التي تمر على السائقين من الركاب فإن معظم السائقين مهذبون. والسائق الذي يعطي غمازاً قبل أن ينعطف خير من السائق الذي يستعمل الزامور لتأديب غيره. فالغماز دليلُ رقيّ، واستعمال الزامور لتنبيه الآخرين إلى أنهم غلطوا لا يفيد إلا في جعلهم يغضبون.

وأما الذي يستوي والبهيمة فهو سائق سيارة كبيرة للركاب يكزدر في وسط البلد ويبحث عن الركاب، ويقف في وسط الشارع كما لا يقف البغل. ويأخذ راكباً. ثم يقف مرة أخرى ليتحدث مع صاحبه، ولا يهتمُّ أن وراءه عشر سيارات. هذا السائق يشبه البهيمة التي ترعى في الحقل. وكما قلت فهذا النوع قليل. ولكن مرور واحد من هذه الفصيلة في كل نصف ساعة في الميدان الرئيسي للبلد يؤدي إلى تعطيل الحركة طول النهار. ألا إن هذا غلط غلط.

١٧١ طويل العمر يمول الجريدة

عزيزي المستمع، سوّد الله وجه الصحفي الذي لا يحترم مهنته.. أقصُّ عليك قصة صحفي كان يصدر مجلة في عاصمة أوروبية. وكان «طويل العمر» يدفع له خاوة في كل حين حتى يستطيع إصدارها. عرفتُ هذا الصحفي. كان يوزع من مجلته أعداداً قليلة على بعض الأصحاب. وكان يعطي بعض الأعداد لطويل العمر. وطويل العمر هذا أميرٌ عربيٌّ يقطر من أصابعه النفط. صاحبنا الصحفي كان جريئاً في مجلته: كان يشتم أمراء النفط، وكان يشتم الاستعمار، وكان يعبر عن مواقفَ وطنيةٍ قوية.

كان صاحبنا يفاخر المثقفين بمجلته وبمواقفه، ويقول لهم: نعم أنا آخذ المال من طويل العمر، ولكنني صاحب رأي حرّ. الواقع أن صاحبنا كان يطبع من مجلته نسخاً قليلة جداً، وكان يستخدمها كتهديد غير مباشر لطويل العمر: فإذا ظل يدفع ظلَّ توزيع المجلة محصوراً، وإذا لم يدفع بعث صاحبنا بمجلته إلى المؤسسات المختلفة، وزاد من عيار الهجاء. عجبتُ له كيف ينفق الساعات من وقته يكتب مقالاتٍ لا يقرأها أحد. وقد عرفت صحفياً في بلدي طلبوا منه، في أول عمله بالمهنة، أن يذهب إلى مؤسسة فندقية كبيرة ليكتب تحقيقاً عن إضراب العاملين. تحدث الصحفي مع الإدارة مطولاً. وفهم كل ما قالته، وعرف وجهة نظرها. ثم تحدث مع العمال وفهم وجهة نظرهم. وكتب ما أملاه عليه ضميره، وتناول المحرر المقال قائلاً: طلب أبو فلان شخصياً (أي صاحب الجريدة) أن يفحص المقال. وحذف صاحب الجريدة رأي الإدارة. نعم، صاحبُ الجريدة أبقى

رأي العمال، وحذف رأي الإدارة، لأنه يوجد بينه وبينها تصفيةُ حسابات. أما الصحفي فاكتفى بأن طلب شطب اسمه من رأس المقال، وهكذا كان. وبعد مرور سنوات طويلة – اشتغل فيها ذلك الصحفي في مؤسسات صحفية محترمة وصار صحفياً مرموقاً – استذكر تلك الحادثة وقال: لقد ظننت في ذلك الوقت أن كل شيء في الصحافة غشٌّ وتلاعب، لكنني اكتشفت سريعاً، أن هناك صحافةً محترمة، اكتشفت ذلك بعدما قدمت استقالتي سريعاً. ولو لم أقدمها لوقعت في الغلط تلو الغلط.

١٧٢ عناق بغلين

عزيزي المستمع، قد أراد لنا المحتلون بلادَنا أن نركب أقدامنا مسافاتٍ فركبناها حتى كلَّت. وجاءنا من أهلنا بغَّالون يريدون أن يريحوا أقدامنا فركبنا عرباتهم، وصرنا فيما بين الساتر والساتر نفكر بالبغل ونقول يا ساتر. (ملاحظة: كان الاحتلال قد أقام حاجزاً مزدوجاً قرب قرية سردا قاطعاً الطريق بين رام الله و35 قرية، وكان على الناس أن يسيروا على الأقدام بين الساتر الترابي والساتر الترابي الآخر ما يقرب من ثلاثة أرباع الكيلومتر. هذا الحاجز كان نموذجاً للتنكيل الجماعي، وقد استمر نحو سنتين).

وقد بلغ من شدة اهتمامي بالبغال أن رجعت إلى كتاب ألفه صديق لي اسمه أبو عثمان عن البغال فرأيته يصفها بأنها خير الدواب للركوب، وأقواها على السير والحمل. والبغل منه الذكر والأنثى، وهو في الغالب عقيم لا ينجب. أما من أين يأتي البغل فمن الحمار و»الحصانة«، أو من الحمارة والحصان أحياناً قليلة. فالغالب فيه أن يكون أبوه حماراً (وهذه ليس مسبَّة) وأمُّه حِصانةً (وهذه ليست من كلمات اللغة، ولكنها كلمة موجودة في قاموس طُبِعتْ منه نسخةٌ واحدةٌ اشتريتها أنا كي استخرج منها كلمات أغيظ بها أعضاء جمعية «قل ولا تقل»).

وقد التقى بغلان مرة في منتصف الطريق. كان أحدهما يجر عربته مشرِّقاً والأخرى تجرُّ عربتها مغرِّبة. وفي وَسَط الطريق وقفت البغلة، ووقف البغل، وأكل البغل كرباجين وأكلت البغلة مثلهما. ولكنَّ الأعجمين قرَّرا أن يتبادلا قليلاً من الغزل الصباحيّ،

فاقترب أحدهما من الآخر، واهتزت العربتان، واهتز الركاب. ونزلوا جميعاً وهم ويضحكون من الموقف. واقتضى فكُّ الارتباط جهداً كبيراً، تحدث به الناس من روَّاد ذلك الحاجز طويلاً.

وقد ذكرتني هذه الحادثة بحمار مات عشقاً. وهذا الحمار هو حمار بشار بن برد الشاعر. مات الحمار. وفي الليل حلم بشار بحماره يأتيه ويقول له:

سيِّدي! خُذْ بي أَتاناً عند باب الأصبهاني

أي انتقم لي من هذه الحمارة أو الأتان

تيّمتْني ببنبان وبِدَلٍّ قد شجاني

تيمتني يومَ رُحْنًا بثَنايَاها الحِسانِ

وبغُنْجٍ ودلالٍ سلَّ جسمي وبَراني

ولها خدٌّ أسيلٌ مثلُ خدِّ الشَّيْفَرانِ

وسأل الناس بشاراً.. وماهو الشيفران؟ فقال لهم: ومايدريني.. لعلها كلمةٌ من لغة الحمير.

قد ركبنا النعل.. ثم ركبنا البغل.. ثم قد تتفتق أذهانُ المحتلين عن بوابات منخفضة يبنونها لنا حتى نزحف على أيدينا ورُكبنا. لكننا باقون هنا. نعالج الوضع الكاريكاتيري الذي نعيشه بخفَّة حتى نعيش، وحتى لا نستسلم. وإذا ظنَّ اللصوص أننا تعبنا، فنحن نقول لهم: ظنكم غلط، ووجودكم هنا غلط وما تفعلونه غلط غلط.



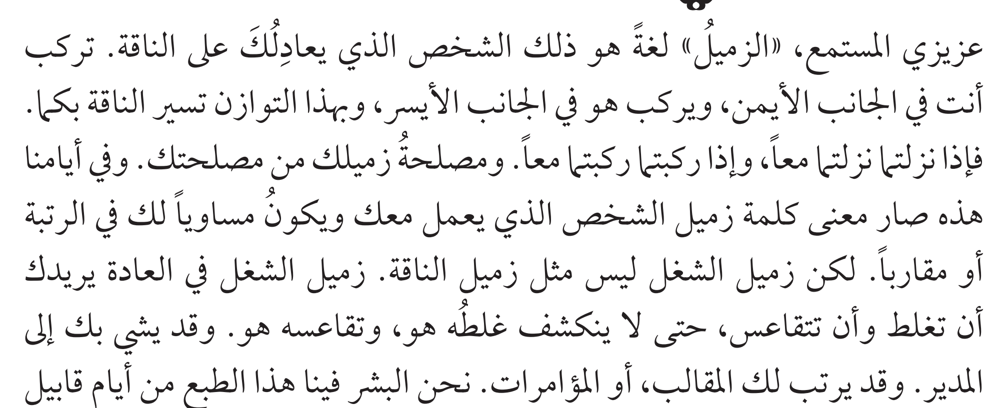
أهل الخليج والإثراء المفاجيء

عزيزي المستمع، لا تلم إخوانَك في دول الخليج، وإلا فإنني سأتَّهِمُك بالحسد، أقصد بإخوانك أهل تلك البلاد، وأقصد أيضاً الذين يشتغلون فيها من أقاربك. في الخمسينات والستينات كان المغتربون يعودون إلينا في كل صيف زائرين، فيرحب الناس بمقدمهم كثيراً، وتلمع العيون لكي تُجارِيَ لمعانَ الساعاتِ المذهَّبة التي يلبَسونها، ويفرح الصغير والكبير والمقمط في السرير بالهدايا، ثم بعد انقضاء أسبوع يضجُّ الناس من هؤلاء الزائرين الضائفين المفتخرين الشائفين حالهم.

وقد نُكِبَ كثيرون من أهلنا وشُرِّدوا من الخليج على وجوههم، ورجعوا إلينا، فكان مَنْ أحسن استقبالهم، وكان مَنْ أساء. ولكن البلاد احتضنت أهلها في النهاية. وأنا لا ألوم الإخوان من أهل بلاد الخليج الأصليين، لهم ظروفهم ولهم طريقة معيشتهم، وفيهم ناسٌ من كل صنف من الناس.. ككل الشعوب. لكن قلَّتَهم العددية فرضت عليهم أن يضعوا قيوداً على الأغراب صوناً لمجتمعاتهم من الذوبان، وقلَّةُ ما نالوا من تعليم في الماضي جعلتهم يستعينون بخبرات من كل مكان، ويدفعون ثمنها. أولئك قوم هبطت عليهم الثروة فجأة، وغيّرت مجتمعاتهم بشكل مفاجيء فحدثت عندهم انحرافاتٌ لهذا السبب.

عرفت رجلاً ممن شردتهم حرب الخليج الثانية. رأيته في عمّان، وقد ساءت حاله بعد أن كان له في الخليج عزّ. كان يرفض أن يقول كلمة سيئة بحق البلد الذي خرج منه. ولما سألته عن موقفه من ذلك الخروج والتشرد، قال: بلد ذهبت إليه أطلب الرزق.. وعملتُ وربيت أولادي وعلَّمتهم من خيره، وشاء ربك أن ينقطع ذلك الرزق. ثم سكت. ثم عاد وقال مثلاً: البئر التي تشرب منها لا تلقِ فيها حجراً. عزيزي المستمع، أعتقد أن من يبالغ في لوم الآخرين عندما تسوء أوضاعه يكون موقفه في الغالب غلط غلط.

١٧٤ تباغض الإخوة



عزيزي المستمع، «الزميلُ» لغةً هو ذلك الشخص الذي يعادِلُكَ على الناقة. تركب أنت في الجانب الأيمن، ويركب هو في الجانب الأيسر، وبهذا التوازن تسير الناقة بكما. فإذا نزلتما نزلتما معاً، وإذا ركبتما ركبتما معاً. ومصلحةُ زميلك من مصلحتك. وفي أيامنا هذه صار معنى كلمة زميل الشخص الذي يعمل معك ويكونُ مساوياً لك في الرتبة أو مقارباً. لكن زميل الشغل ليس مثل زميل الناقة. زميل الشغل في العادة يريدك أن تغلط وأن تتقاعس، حتى لا ينكشف غلطُه هو، وتقاعسه هو. وقد يشي بك إلى المدير. وقد يرتب لك المقالب، أو المؤامرات. نحن البشر فينا هذا الطبع من أيام قابيل

وهابيل. ترى الأخوين في البيت يُسَرُّ أحدهما ببهدلةٍ ينالها الآخر، ويغتاظ من المديح الذي ينالُهُ أخوه. التحاسد والتباغُض فيما بين الأخوة موجود، طبعاً لا يذكرون عنه شيئاً في كتب المدارس، حتى ليظُنُّ المرء أن قتل قابيل ابن آدم أخاه هابيل كان المرة الأولى والأخيرة التي يتحاسد ويتباغض فيها أخَوَان. لكن لا. ذَنَبُ الكلب أعوجُ في عهد آدم، وهو أعوجُ اليوم.

رأيتُ فيما رأيت عدداً من الزملاء في مؤسسة: رأيتهم متكاتفين متآزرين. يسدُّ أحدهم مسدَّ الآخر في غيابه، ويسترون عيوب بعضهم بعضاً، فكأنهم البنيان المرصوص. ورأيتهم قد استفادوا من ذلك. فإذا طرأ على أحدهم ظرف واضطر إلى الغياب وجد من يحملُ حمله، وإذا غلط أحدهم وجد عند زملائه السَّتر وإصلاح الغلط. وذات سنة وزَّعت المؤسسة مكافأة مقطوعة في نهاية السنة المالية وكان أن نال أحدُ أولئك الزملاء المتكاتفين مكافأة متميزة. تعال بعدها، واسمع ما قيل في حقه. لقد نبشوا عن عيوبه، وفتشوا في جيوبه، وصار في نظرهم جاسوساً للإدارة. ونعتهم هو بالكسل والحسد ومن يومئذ والوضع بينهم وضعُ «الغلط يأكل الصح».



عودة المتطرِّف

عزيزي المستمع، رجع الطالب المغترب إلى بلده - وكان يدرس في مصر - رجع بعد غيبة ثلاث سنواتٍ زائراً. فكان لا بد أن يعزمه عمه، وكان مدُّ الأيادي المسخَّن. جاء الطالب المغترب وصاروا يسألونه عن مصر، وصار هو يحدثهم عن الأهرام وعن النيل، ووصف لهم كيف يرمي المصريون في النيل كل سنة صبية في ريعان الشباب.. تضحِّي بحياتها حتى يكون الموسم جيداً. فصححه ابنُ عمه قال له: كان هذا زمن الفراعنة. فحلف الشابُّ المتغرب أن هذه العادة ما زالت مستمرة، فتعجب القوم؛ ومضى يقصّ عليهم العجائب. إذا تحدثوا عن الغلاء قال لهم: الغلاء في مصر مخيف، والناس لا يتكلمون إلا بالباكو والأرنب، وكل الناس هناك مليونيريون. فإذا ما دار الحديث على الرخص، قال لهم: إن

مصر أرخص بلاد الدنيا أسعاراً، الساندويش بقرش، والقميص بجنيه.

وكان صاحبنا يدخل الكلمات المصرية في ثنايا كلامه. فإذا سأله أحدهم: أليس كذا وكذا على الهيئة الفلانية.. بدأ جوابه بكلمة: أُمَّال. وينطق القاف همزة ويتظرَّف ما شاء له. أما أبوه فشعر بخجل من أكاذيب ولده، وأما أمه فكانت فخورة بابنها المغوار. وأما عمه فكادت مرارته تنشقُّ من هذه السقاعة. وربما كان سبب ضيق العم، أيضاً، أن أولادَهُ هو لم يفلحوا في الدراسة. المهم جلسوا جميعاً إلى المائدة، ووضع أمام كل منهم صحنٌ كبير فيه رغيف طابون، وعليه دجاجة صغيرةٌ مشوية. وشاء الله أن ينطق المغترب الثقيل عن الهوى فقال: هذه الأكلة يسمونها في مصر: جاجة عالكماجة. وقفت اللقمة في فم عمّه، وكاد أن يفقع مئة «شقفة» من الغيظ. وكاد الأب أن يذوب من الخجل. خفَّف هذا الاحتقان ولدٌ في الصف السادس، قال بصوت عالٍ من آخر المائدة: «ولكنهم في مصر يسمون الجاجة فرخة، ويسمون الكماجة الرغيف أو العيش ولا يقولون كماجة.. أليس كذلك؟» وأُفحم المغترب.. ولكن أمّه دافعت عنه.. وقالت إن المسخَّن المصري هو فعلاً كما قال ابنها ولكنكم لا تعلمون. وهز الجميع رؤوسهم، بالموافقة وأكلوا بصمت، وهم يعرفون مع ذلك أن كلامها غلط غلط.



١٧٦ زوجته رأت الهزيمة في العيون

عزيزي المستمع، العين تتكلم. لها لغة ليست مكونة من كلمات. وهذه هي المشكلة، فليس هناك قاموس ترجعُ إليه لتعرف ماذا تقول لك عينا فلانة أو فلان. قرأتُ في إحدى الجرائد مقابلة مع زوجة زعيم حزب العمال البريطاني الأسبق نيل كينوك، بعد هزيمة زوجها في الانتخابات في أواسط التسعينات. كان نيل كينوك قد هيَّأَ نفسه للفوز، وأشارت كل استطلاعات الرأي إلى أنه سيكون رئيس الوزراء المقبل. ولكن زوجته عرفت قبل يومين من الاقتراع أن زوجها لن ينجح. قالت: رأيت ذلك في عيون الناس. بعضهم كان يبتسم، ويحاول بكل جهده أن ينظر في عيوننا ولكن الأعين تنحرف، وبعضهم كان يحاول ألا تلتقي العينُ بالعين. قرأتُ في عيون الناس أن

الكثيرين قد انصرفوا عنا في الفترة الأخيرة. وفعلاً سقط نيل كينوك.

عيون المحبين تتكلم، وعيون المتآمرين تتكلم. وإذا كان مديرك في العمل على وَشْكِ حرمانِك من العلاوة، أو على وَشْكِ تدبيرِ تدبيرٍ لك فإنه سيخفي نواياه، وسيخفي الأوراق التي كتب فيها خططه، وسيحاول أن يعلن الأمر في الوقت المناسب فقط. لكن.. إذا التقت العين بالعين فلن يستطيع أن يخفيَ الحقيقة. راقبْ عينيه تجدْه يحاولُ الهرَبَ من عينيك.

بعضُ الناس لهم عيونٌ ثاقبة، نظرتُها مستقيمة، ولديهم خبرةٌ في عدم الهرَب بنظراتهم من الآخرين. هذه العيون التي لا تبوح بالمشاعر أجدها عيوناً ميتة.. أراها مفتوحة للنظر، ولكنها مغلقةٌ على المشاعر. إنها مثلُ النظارات السوداء التي تجعلك ترى الناس، ولكن تمنع الناس من رؤية عينيك. العيون التي تبحلق في الناس قد تعني قوة الشخصية، لكنها قد تعني الوقاحة.

أخذت يوماً زميلاً لي كي يستأجر غرفة عند الحاجَّة أم فلان التي أعرفها. وبعد أن تحدثنا بضع دقائق عند باب بيتها رفضت تأجيره، وانصرفنا. وبعد أيام نادتني الحاجَّة. قالت لي: أتعرف لماذا صرفتُ صاحبك؟ صرفته لأنه ليس ابن ناس. قلت لها محتجّاً: وكيف عرفت؟ قالت: «من عينه. يخربْ بيته! لا يكسرُ عينَه أبداً.. يبحلقُ طول الوقت.» فكَّرتُ في الأمر.. لعلها على حق. لكنني بصراحة لم أحبَّ منها ذلك التصنيف: فلان ابنُ ناس وفلان ليس ابن ناس. غلط عندما يسرع المرء في الاستنتاج، أما أن يدمنَ المرء تصنيف الناس من عيونهم فقطْ فغلط غلطْ.



انتقادات على البرنامج

عزيزي المستمع، هذا البرنامج «غلط غلط» أكسبني عداوات لم تخطر ببالي. هاجمتُ فيه النساء المتبرجات فانفتحت عليَّ أبواب جهنم من الحركة النسائية واستقبلت من التلفونات أكثر مما يستقبل الرقم مئة وأربعة وأربعين (وهو رقم الاستعلامات في فلسطين). وهاجمت الذين يسمون بناتهم نانا وفوفو وسولين ونفتالين فكرهني كلُّ هؤلاء، وكرهتني كلُّ البنات إلا من اسمها عائشة وحفصة. وتحدثتُ عن السائقين فكسبتُ عداوتهم. وصرت أجلس في سيارة الأجرة، وأنا ساكتٌ لا أفتح فمي، وأحياناً أقول للسائق عند نهاية الرحلة: يعطيك العافية، فإذا سمع صوتي وميزهُ قال: أهذا أنت؟ وأعرفُ أنه كان يتمنى لو عرفني قبل بدء الرحلة حتى يتركني على الرصيف. وتحدثت عن المديرين الذين يعيِّنون الموظفين بالواسطة فكرهني كلُّ المديرين. وتحدثت ببعض الكلمات العامية فجاءني ذات مرة وفد من دراسي اللغة العربية، واتهموني بأنني عدوٌّ لغةِ الضاد وكاسر ظهرها. أما المثقفون فأنا لم أهاجمهم. هم بدأوني بالهجوم. قالوا: يا أخي أنت تتكلم كلاماً ليس فيه أفكار ولا عمق، ولا تحليل، وكلامك أحياناً متناقض. وأنا لا أحب أن أهاجم الثقافة ولا المثقفين لأنهم في رأيي أَمَلُ هذا البلد. أتحدث عن المثقفين، وليس عن أشباه المتعلمين، ولا عن المسوخ الثقافية التي تملأ البلد جعجعة.

مثقفو بلدنا قليلون.. والمدَّعون الثقافةَ أكثر من البزر في العنب البلدي.. وأما عامة الناس من أمثالنا فنكبتهم في الثقافة كبيرة. لقد صور لنا التلفزيون أن الثقافة يحدها من الشرق «من سيربح المليون» ومن الغرب «وزنك ذهب» ومن الشمال «الحلقةُ الأضعف» ومن الجنوب برنامج (بالخيزرانة). وهذا البرنامج الأخير لم تسمعوا به بعد، وأنا أنوي إخراجه وتقديمه في محطة تلفزيون. سأحمل خيزرانة وأسأل المتسابق أسئلة تافهة كتلك التي تتردد في هذه البرامج. وإذا أجاب إجابة صحيحة سأوجعهُ ضرباً لمعرفته تلك المعلومات التي لا حاجة بأحدٍ إليها. خلاصة الكلام أنني أغضبت كل الناس، وصار بقائي على الهواء غلط غلط.

١٧٨ الصنايعية لهم وجهة نظر

عزيزي المستمع، إذا كنت شغِّيلاً فربما لا تعرف ماذا يقول الناسُ عنك. الناسُ يشتكون كثيراً من أصحاب الصنائع: من النجار والحداد والبَلِّيط، من الكهربائي والمواسرجي والقصِّير، ومن الخياط والجنائني والساتلايتي. يقول الناس: إن الصنايعي يتسلَّم الورشة ثم يغيب. ثم يتسلَّم عليها ورشات أخرى مثنى وثلاث ورباع. يأتيك الصنايعي ويبلِّط الغرفة ويتركُ الممرَّ، ويغيبُ طويلاً. ويأتيك بعد ذلك ويفرش الحصمة والرمل (يسكِّتُكَ بها) ثم يغيب، وينشِّفُ ريقَك.

الصنايعي في الواقع يريد ألَّا يضيِّع فرص العمل، فيُدخِلُ ورشةً في ورشة. إنه شبيهٌ بالبقال الذي تذهب إليه، وعنده عدةُ زبائن، فيتركُهم ويقبلُ عليك بوجهه، ويسألك ماذا تريد؟. وأنت تُسَرُّ بهذا الاهتمام السريع. لكن، صبرك! إنه يريد أن يربطَك. ثم هو بعد ذلك ينقَعُك، ويأخذ في تلبية طلبات الزبائن الآخرين. في المحصلة.. فإن الصنايعي يشتغل كثيراً، ويركضُ بين ورشاته، ويعطي المواعيد الكواذِبَ بسخاء.

الموظفون لا يحبون هذا الطبع في الصنايعية. لكن، انظر ماذا يفعل الموظف. الموظف لا يهمه رضاك، ولا يَضيرهُ غضبك. ولهذا يقول لك الحكمة الخالدة: فوت علينا بكرة.

أعرِفُ شخصاً تؤجِّر عائلتُه مدرسة للدولة. لوزارة التربية والتعليم. تغيرت الدنيا قبل سنوات واختلف نهْجُ الحكم، وجاءت السلطة. ومرت سنة وسنتان. والدولة لا تدفع الأجرة.. والأجرة بالمناسبة هي عشرةُ دنانير أردنية في الشهر. والآن مرت تسع سنوات، ومرت معها مطالبات كثيرة. ولكنَّ قرشاً واحداً من الأجرة لم يُدفَع. الموظف يقول: المعاملة في وزارة أخرى. والوزارة الأخرى تقول: المعاملة في مدينة أخرى. وصاحب الشأن يلاحق، وهو يعرف جيِّداً أن الموظَّفين الذين يكلفونه كل هذه المطاردة يشتكون كثيراً من الصنايعية ومن مواعيدهم. ألا ما أقبح هذه الشكوى، ألا إنها غلط غلط.

١٧٩ الواسطة والتنسيق

عزيزي المستمع، كلمة «واسطة» كلمة قبيحة، وقد استبدل بها الناس تعبير «فيتامين واو» على سبيل النكتة. اليوم هناك تسمية جديدة: تنسيق. نحن في بلدنا محصورون محبوسون في قنينة، وقد أغلق علينا المحتلون القنينة بفلينة. وثقبوا في الفلينة ثقباً صغيراً بالدبُّوس حتى نتنفس منه. هذا الثقب يُسمَّى الجسر. والمضطر منا يسافر عبر الجسر، فتتحكم فيه ثلاثُ جهات: الجهة الأولى نحن، والجهة الثانية المحتلون، والجهة الثالثة الدولة المستقبِلة. وكل جهة لها إجراءاتُها. وجِهتُنا نحن تحاول التسهيل علينا طبعاً. وهذه فرصة لإرسال تحية إلى كل العاملين على المعابر الذين تلفح وجوههم الشمس طول النهار. ولكننا نريد أن نتحدث عن التنسيق. أنا أتفهم جيداً أن يتم تسهيلُ مرور الوزراء، فهذا موجود في كل بلاد العالم. وأتفهم جيداً أن يُفرَض مبلغ من المال على المستعجل الذي يريد أن يعبُر بسرعة، هذا الإجراء يتيح المجال للناس أن يختاروا. والجميع يعرف السعر المفروض على المستعجل. ولكنني لا أفهم أن ينال آلاف المواطنين تسهيلات مجانية، وأن يقفزوا عن الدور، فقط لأنهم موظفون حكوميون أو لأنهم أقارب فلان أو فلان. وماذا عن الفقراء والمواطنين الذين لا تنسيق لديهم؟

أعتبر هذا انحطاطاً أخلاقياً. على الجسر أرى مع الموظف المسؤول عن العبور كومة كبيرة من جوازات السفر. أنا أنتظر منذ خمس ساعات.. وأترقب بلهفة أن ينادَى على اسمي. ثم تأتي عائلة كاملة من الناس اللابسين ملابس غاليةً المتأنِّقين.. بنات العائلة مرتدياتٌ نظارات الشمس، والأبُ يرفع نظارة الشمس فوق شعره بأناقة، والأم تتهادى وراءه مثل البطة.. العائلة تأتي إلى الموظف المسؤول. الأب يهمس في أذنه بكلمتين. الموظف يكشِّر، ثم تأتيه مكالمة. وبعد المكالمة يبدأ بالبحث في كومة الجوازات. ويستخرج جوازات الأسرة المحظوظة، ويعبرون فوراً. ومثلهم كثيرون يعبرون حتى من وراء الاستراحة. كل هذا باسم التنسيق، وكل هذا غلط غلط.

١٨٠ بلطمة علمه العدل

عزيزي المستمع، القانون السيء خير من اللاقانون. لعلك سمعت بقصة كسرى وهو صغير. قد خصص له أبوه الملك مؤدِّباً يعلِّمه، وذات يوم، صفع المؤدِّبُ كسرى بدون سبب، ثم مضى في الدرس.

سكت وليُّ العهد الصغير على اللطمة المهينة، وانضبط انضباطاً يليقُ بأبناء الملوك. ومضت السنوات.. وصار كسرى ملكاً، فأمر بإحضار ذلك المؤدِّب. وقف المؤدب أمام كسرى خاضعاً كما كانوا يقفون أمام ملوكهم. كان الغضب بادياً في وجه كسرى. سأل كسرى معلِّمَه القديم: أنت تعلمُ لماذا أحضرتك؟ قال المعلم: نعم . أعلم.

قال كسرى: إذن أسرع وقل لي: لماذا ضربتني؟ قال المعلم بلهجة هادئة: هل تألمتَ كثيراً؟ قال كسرى: نعم.. ولسنوات. لقد ضربتني بدون سبب.. وهذا هو المؤلم حقاً. فقال له المعلم: إذن، فأنت الآن تعرف أن الظلم مرّ. فأطرق كسرى هنيهة، وأدرك العبرة.

عزيزي المستمع، القانون السيِّءُ يَضُرُّ الجميع بالتساوي. ورغم الضرر، فالجميع يعرفون أن هناك نظاماً، وأن الأمور ليست عشوائية. قد يَفرضُ المحافظُ غرامة باهظة على بعض المخالفات الصغيرة، ولكن الناس ستقبل الوضع إذا تم تطبيق الغرامة على كل المخالفين بلا استثناء.

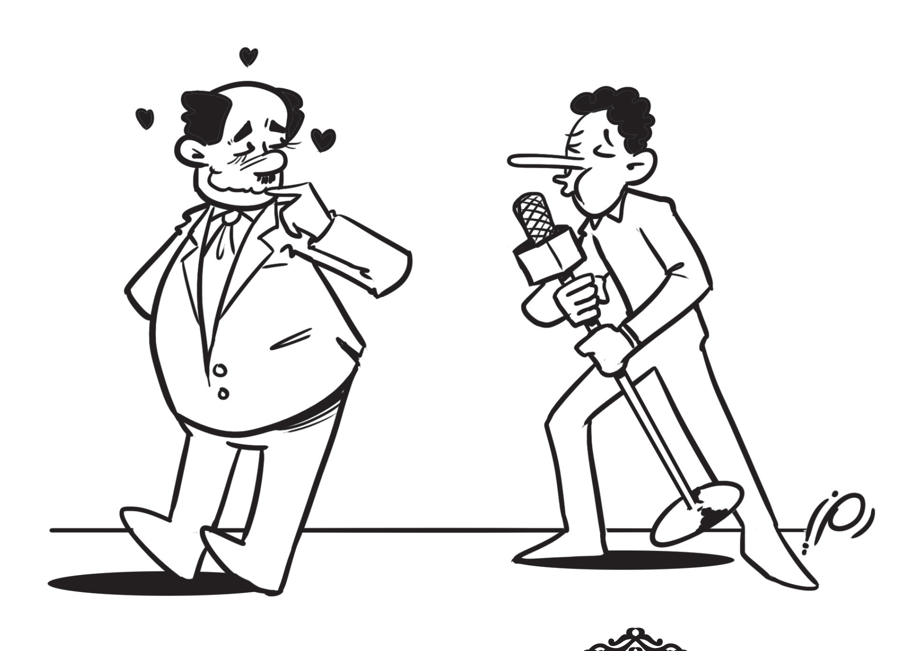
والآن لنتحدث بواقعية: في بلدنا استثناءاتٌ كثيرة. هناك أيدٍ كثيرة تتحرك تحت الطاولة. وهذا الوضع يجعل المواطن يشعر دائماً بعدم الأمان. أنا أعرف أنك أنت نفسك أيها المستمع سلَّكْتَ بعض الأمور من تحت الطاولة، لأن جارَك الذي يسكن في الطابق الرابع يشتغل كذا أو كذا، وقد زبَّط لك الموضوع. ولكن، بالله عليك ألا تشعر برغبة في أن تختفيَ الواسطة، وفي أن يسودَ القانون، وعلى الجميع؟ أنت دائماً قَلِقٌ، وتخاف أن يكون لغيرِك واسطةٌ أقوى من واسطتك. كثرة الاستثناءات تخدمك حيناً، وتضرك أحياناً. وهي بشكل عام مصدرُ قلقٍ مستمرٍ لك. القانون المفكفك الذي ينطبق أحياناً، ولا ينطبق أحياناً هو في الواقع غلط غلط.

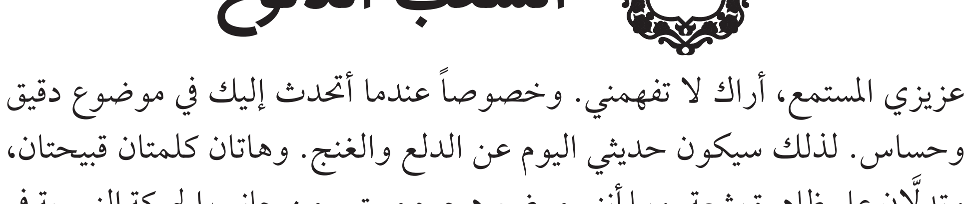


المدير جمرة كبيرة

عزيزي المستمع، (أنا لا أشتغل بيديّ، أنا مدير)، و(الذين تحت يدي يقومون بالعمل، وأنا فقط أشرف عليهم) ما رأيك بهذه الأقوال؟ صدِّق أو لا تصدِّق: فيها قدر كبير من التفكير السليم. نحن نحب أن يكون المدير بيننا، وأن يوسِّخَ يديه بالعمل معنا أحياناً. مراقب العمال لو أمسك بيده المجرفة ذات يوم، وأخذ يسَوِّي الحصى «الملغمطَ» بالزفت أثناء تعبيد الشارع فإنه سيَشْعُرُ بشعور العامل. لكن، لو ظل المراقب يشتغل بيديه، ويساعد العمال كل يوم فإنه سيكون مخطئاً. سيتحول عندئذ إلى عامل، لا إلى مراقب عمال، وسيفقد التركيز على ضبط مستوى العمل وإتقانه في الورشات المختلفة. مدير الإذاعة الذي يعشق الميكروفون مصيبةٌ من المصائب، إنه يزاحمنا على عملنا، وبالتدريج تترسخ لديه قناعة بأن طريقتَه هي الطريقة المثلى؛ ويريد أن يجبرنا على اتباع طريقته. المدير يجب ألاَّ يشتغل كثيراً، وألاَّ يصادر دور من يعمَلون معه. عليه أن يديرهم ويدير شؤونهم، وهذه أفضل خدمة يقدمها لهم. يجب على المدير أن يحاسِب بالثَّواب والعقاب، وأن يُشجِّع، وأن يجعل سواعد العمال أو الموظفين الذين تحت يده تُقدِّمُ أكبر كمية من العمل.. وكثيراً ما يكون المدير الذي ينغمس في العمل بيديه، ضعيفاً في الإدارة.

أنا أرى المدير مشبِهاً الجمرة الضخمة في الموقد. أنت تأخذ لرأس الأرجيلة الجَمَرات الصغار.. وأما الجمرةُ الكبيرة فلا تستعملُها. وتنتهي من أرجيلتك وتقوم.. وأنت لم تستعمل الجمرة الكبيرة. لا تقل: يا للخَسارة، راحت هذه الفحمة على الفاضي. لا. في الواقع أنه لولا هِيَ لما استمرت الجمرات الصغار في الاتِّقاد. الجمرةُ الكبيرة كالمدير: تعطي الطاقة والعزم والاستمرارية، ولكنها لا تقومُ بالعمل بنفسها. ولو وضعتَ المدير فوق رأس الأرجيلة - أقصد لو وضعت الجمرة الضخمة - لأحرقت التنباك، وأحرقت صدرك، وربما أيضاً السجادة.. إن وقعت الجمرة. وهذا.. غلط غلط.





١٨٢ الشعب الدلوع

عزيزي المستمع، أراك لا تفهمني. وخصوصاً عندما أتحدث إليك في موضوع دقيق وحساس. لذلك سيكون حديثي اليوم عن الدلع والغنج. وهاتان كلمتان قبيحتان، وتدلَّان على ظاهرة بشعة. وبما أنني موضع هجوم مستمر من جانب الحركة النسوية في البلد فإنني سأتصرف كالغريق الذي لم يعد يخاف البَلَل. وسأركِّز كلامي على دلع البنات.

رأيت فتياتِ الطبقةِ الفقيرة واقعيات، وكذلك فتيات الطبقة الغنية. لكنَّ فتياتِ الطبقة الوسطى دلوعاتٌ جداً. الدلع هو انعدام الموقف، هو التثني، والضحك بدون سبب. الدَّلَعُ هو ألاَّ تعرف البنتُ هدفَها، ولذلك فهي تقيم مسرحاً فيه مزيج من الضحكات غير الواثقة، ومن الزَّعَل المفاجيء، ومن التطاول الفجائي على زملائها في الشغل، أو على إخوتِها.

الفتاة التي عندها إرادة، والتي توظف إرادتها في خدمة هدفها، لا تكون دلوعة. وطبعا الشاب الذي لا يعرف ما يريد، ويروح يرُشُّ تصرفاته المتذبذبة على الأصدقاء والأخوة والزملاء هو دلوع.

هناك أيضاً شعب دلوع، وحكومات دلوعة، وهناك مسؤول دلوع. المسؤول الذي يستقيل مرة كل أسبوع، والذي يَعِدُ بمئة شيء ولا ينفذ شيئاً واحداً، ماذا تسميه؟ المذيع الذي يقول على الطالع والنازل: (أحبائي المستمعين، والبرنامج منكم وإليكم، وشكراً على أنكم فتحتم الراديو، وشكراً على حسن الإصغاء) أليس هذا المذيع مهضوماً؟ ليته كان مهضوماً في بطن جمل. رأيت أكثرَ الناس مجاملةً أقلَّهم فائدة. ولكن المجتمع الدلُّوع يَسْعَدُ جداً بالمذيعين الدلُّوعين.

أعود بك عزيزي المستمع، حبيب قلبي ونور عيوني، أعود بك إلى ظاهرة الدلع وأطلب منك أن تفكر فيها بعمق، فهي ظاهرة اجتماعية مهمَّة أُحِسُّ أنها تحتاج إلى دراسة أكاديمية. ورغم محاولتي توصيف الظاهرة، فأنا أعترف أني غيرُ قادر على فهمها فهماً جيداً. لكنني مع ذلك أحس أنها غلط غلط.



المرآة الصادقة وجوه غابت عنا زمناً

عزيزي المستمع، تريد أن ترى صورة نفسك على حقيقتها، المرآة التي في الحمام لا تنفع، تذهب إلى غرفة النوم، وتقفُ أمام المرآة الطويلة الملصقة على باب الخزانة. تنظر: ترى بقعاً بنية اللون فتمسحُ المرآة بكُمِّك، ثم تنظر.. البقع لا تزول. إنها موجودة في وجهك. وترى آثار أيدي الأطفال على المرآة.. وتشعر بالغضب من الأطفال الذين يمسحون أيديَهم بكل شيء يمرُّون به: بالجدران، وبالمرايا. وتف تف تف على المرآة.. ثم تمسُحها بمنديل ورقي وتلمعها تلميعاً.. وتنظر. ولكنّك ترى الأوساخ نفسها.. هذه الأوساخ هي تجاعيد الرقبة. لكنك مع ذلك تتفتَّلُ أمام المرآة وتقول لنفسك: زينةُ الشباب. وتقنع نفسك بأنك شاب.

المرآة الحقيقة ليست موجودة في بيتك. إنها تأتيك فجأة. وقد جاءتني هذه المرآةُ قبل أيام.

كنت أسير مع صديق. فرأيت رجلاً كهلاً أمام محل بقالة. رأيته يعنِّفُ ولدَه تعنيفاً قبيحاً، ويدقُّه في كتفه بقسوة. فقلت له: ارفق به يا عم، ثم انتبه صديقي إلى الموقف.

وإذا به يسلِّمُ على الرجل الكهل الذي انحنى ظهره من ثقل السنين، وانحنت أصابعه من الروماتزم، والتفت صديقي إليَّ وقال لي: نسيتَ فلاناً، وذكر لي اسم ذلك الأب القاسي، وذكر له اسمي، فتعانقْنا، وربَّت كل منا على كتف صاحبه. نعم: هذا الكهل كان في صفِّي في المدرسة. قلت لنفسي: هكذا إذن! لا بد أن صديق الطفولة هذا رآني كهلاً مثلما رأيتُه. لقد ساق الله إليَّ في ذلك الصباح مرآة أرى فيها ما صنعتْه السنين به وبي. لكنَّني متأكِّد أنني سأنسَى سريعاً، وسأقف غداً أمام المرآة وسأقول: ما شاء الله، زينة الشباب. وسيكون قولي بلا شك غلط غلط.



عبد الرحمن بدوي بلطجياً

عزيزي المستمع، أحدثك عن رجل هو أغزَرُ المؤلِّفين في الفلسفة في كل بلاد العرب في العصر الحديث: عبد الرحمن بدوي الذي ألف نحو مئة كتاب في الفلسفة الوجودية واليونانية والإسلامية. هذا الرجل كان يقرأ بكل لغات أوروبا، وكان يكتب بالعربية والفرنسية والإنجليزية والألمانية. وقد كتب كتاباً عن حياته.

يحدثنا في كتابه عن الفترة التي كان فيها عضواً في جمعية مصر الفتاة. كان ذلك عام تسعةٍ وثلاثين ومصرُ تحت الاحتلال الإنجليزي. وفي تلك الفترة انتقد عباس العقاد جمعية مصر الفتاة في مقالين. فتشاور عدد من قادة الحزب في كيفية الرد، فرأى أحدهم أن يكون الرد بمقال قاسٍ ضد العقاد. والآن نترك الكلام «للفيلسوف الكبير» عبد الرحمن بدوي. يقول: « وكان رأيي أنه لا بد من استخدام العنف معه، لأنه لا يردعه إلا العنف. وأخذ برأيي اثنان من أعضاء الحزب فتربَّصا للعقاد وهو عائد إلى بيته، رقم ثلاثة عشر، شارع سليم في مصر الجديدة، وانهالا عليه بالضرب والصفع والركل، وأفهماه أن هذا تأديب مبدئي بسبب مقالين ضد مصر الفتاة، فإن عاد، عادا إليه بما هو أشدُّ نكالا. وأحدثت هذه العلقة أثرها الحاسم، فخرس العقاد خرساً تاماً، ولم يعد إلى الكتابة ضد مصر الفتاة».

انتهى كلام عبد الرحمن بدوي، الذي كتبه وقد تجاوز السبعين من العمر، يفتخر بأنه بعث شباباً لضرب عباس العقاد. هذا عِلماً بأن العقاد أكبر من بدوي بثلاثين سنة. يبدو أن إرسال شباب لضرب فلان حتى يخرس هو شيء أساسيٌّ في تكوين الذهن العربي، ولنفترض أن عبد الرحمن بدوي كان صغيراً في السن حينئذ، فلماذا دوَّن هذه الحادثة بافتخار في كتابه؟ سننتظر طويلاً قبل أن يكتب «فلاسفتنا» نحنُ في فلسطين مذكراتِهم ويقولوا فيها كيف أرسلوا شباباً لضرب فلان وفلان ولإطلاق النار على فلان وفلان. ولكنني أرى أن محاربة الكلمة بالرصاصة، أو بالركل والصفع لا تأتي إلا من الجبان. حتى لو كان فيلسوفاً. وأعتقدُ أن هذا المسلك غلط غلط.

١٨٥ هزُلتْ

عزيزي المستمع، سمعتُ تعبير «هزُلت» من فم إمام مسجد، وقلت في نفسي لعلِّي أن أحدثك بأصل كلمة هزُلت. إمام المسجد هذا عيَّنَتْ له الوزارة – في أحد بلاد العرب – مسؤولاً. وصار واجباً عليه أن يعرض خطبة الجمعة على ذلك المسؤول قبل أن يلقيَها. ورأى الإمام أن المسؤول لا يفقه، وأنهم عيَّنوه فقط لأنه معه بكالوريوس في الشريعة، ولأنه من جماعة الحكومة. قال لي ذلك الإمام وهو يضربُ كفاً بكفّ: هزُلت.

كان أحدُ الشعراء قد صادف موقفاً مشابهاً عندما عُيِّن في المسجد رجلٌ قليلُ الفهم لكي يُلقِيَ دروساً في الفقه. فقال ذلك الشاعر:

تصدّر للتَّدْريس كلُّ مُهوِّسٍ ... بَلِيدٍ يسَمَّى بالفقيهِ المدرِّسِ

فحُقَّ لأهلِ الفضلِ أنه يتمثّلوا ... ببيتٍ قديم شاعَ في كل مجلسِ

لقد هزُلت حتى بدا من هُزالِها ... كُلاها، وحتى سامَها كلُّ مُفْلِسِ

وأصلُ هذا التعبير: «هزُلت»، أن رجلاً كان يفاخر بشاةٍ يملكها. ثم مرضت الشاةُ وهزُلت، وصارت جلداً على عظم حتى لقد صار المرء يرى كُليتيها لشدة هزالها. وأخذ الرجل شاته إلى السوق ليبيعها، فجاءه فقير مفلس وعرض عليه أن يشتريَها بفلوسٍ قليلة، ثم جاءه آخرُ وآخر. وكلهم يعرضُ فلوساً قليلة، ويساوم بشدة. فحزن الرجل،

ورفض بيع الشاة وقال بيتاً يدل على أن كلَّ المسألة خاسرةٌ. قال:

لقد هزلت حتى بدا من هُزالها كُلاها، وحتى سامَها كلُّ مفلسِ

وصرنا – كلما رأينا الأمور منحدرةً إلى درجةٍ يصعبُ معها الإصلاح – نقول: هزُلت.

كان يعلمنا اللغة العربية أستاذٌ عالمٌ جليل.. ثم انتبهت الوزارة إلى أنه لا يحمل ورقة التوت التي يغطي بها الجهلةُ عوراتهم والتي تسمى بكالوريوس، فنقلوه إلى المدرسة الابتدائية المجاورة لمدرستنا. وكنا ثلاثةَ أصحابٍ نحبُّ اللغة العربيةَ. صرنا نرى أستاذَنا المحبوب ونحن في طريق الانصراف من المدرسة. نراه يغادر المدرسة الابتدائية التي نُقِل إليها. كنا نذوبُ خجلاً عندما نراه، حتى لقد صرنا نتَحامى ذلك الطريق. وكان تعليقُ صاحبيَّ: هزُلت، هزُلت، وكان تعليقي: غلط غلط.



١٨٦ من صغرهم - ربي يحفظهم - يعرفون التزوير

عزيزي المستمع، حدثني أستاذ في جامعة قال: جاءتني طالبة وبيدها تقرير طبي فارغ تريد أن أملأه لها. قلت لها: سلامتك، عسى أن تكوني بخير؟ ما المشكلة؟ فضحكت بدلال، وقالت: لا تنشغل أبداً يا أستاذ، أريد منك فقط أن تكتب لي تقريراً بأنني مريضة، وبأنني لا أستطيع الحركة. وسوف آخذ ختم العيادة الطبية التابعة للجامعة. قال لها ذلك الأستاذ: ولكنك ما شاء الله بخير. قالت له الفتاة: الحمد الله. لا أشكو شيئاً ولكن فقط أريد تبرير غيابي عن الحصص في الأسبوعين الماضيين، في مادة يدرِّسها أستاذ لئيم.

وضع صديقي الأستاذ يده على خده، ونظر إلى هذه الفتاة. ثم قال لها: وتريدين مني، ومن عيادة الجامعة أن نشترك في تزويرٍ قذرٍ لكي ننقذَك من إهمالِك؟

هكذا إذن، فالأستاذ الذي يدقق في حضور طلبته أستاذ لئيم. ومن المفروض أن يشترك الأساتذة الرحيمون في عمليات التزوير.

طالبٌ آخر جاء إلى أستاذه الجامعي، بعد أن تخرج الطالب ووضع شهادته في جيبه.

وطلب من الأستاذ أن يكتب له توصية تقول إن الطالب ذكي ومليء بالحيوية ومبادر، وأنه يستحق الانخراط في الماجستير. قال الأستاذ للطالب: كنتَ متوسطاً، ومعدَّلُك عندي يشهد بذلك. انصرف، لا أريد أن أوصي بك.

كان ردُّ فعل الطالب الشكوى من الظلم. ولماذا يا أستاذ كتبتَ توصية لفلان وفلان وفلانة؟ الأستاذ كان صريحاً: قال للطالب: نعم كتبت لهم، لأنهم أفضل منك.

الناسُ عندنا لا يروْن التزوير خطأً. ولا يرون الالتفاف على القانون خطأً.

كنت ذات يوم مسؤولاً عن دورة للتدريب المهني. وفُتح بابُ التسجيل بعد أن أعلنَّا عن الدورة في الجرائد. تلفن لي رجل أعرفه. قال لي: ابني فلان يريد أن يسجل في الدورة، وسأزورك وأحضره معي لتتعرَّف عليه وتسجِّلُهُ. قلت لصاحبي: على ولدِك أن يقدم طلباً، وستختارُ اللجنة من بين المتقدمين من تشاء بحسب المعايير المنشورة في الإعلان، لكن صاحبي قال: ولو، أنت الكل في الكل، أنت المسؤول، وسأكون غداً عندك في المكتب. في الغد جاء الرجل ومعه ولدُهُ. وفي يده سفطين من الحلويات اللذيذة. قال لي: هذه هدية لأنني من زمان ما رأيتك. السفط الصغير للمكتب وللزملاء، والكبير لك. والله إن معزتك عندي - يعلم الله - كبيرة، وبدأ الرجل يناقشني في رسوم الدورة التدريبية، فهو طبعاً متأكد أنني الكل في الكل وأنني أستطيع إعفاء ولده من الرسوم. واقترب مني قليلاً وقال في أذني: أنت تدبِّرها. وغمز بعينه غمزةً مع ابتسامة. وحرَّك يده حركة التفافية معناها: أنت أخبر.. دبِّر الموضوع.

طبعا لم أرفع صوتي ولم أشتم صاحبي. ابتسمت له. ورجوتُ ولده أن يقدم طلباً، فملأ الطلب. ووضعته في مكانه مع الطلبات، وودعته وودعتُ ابنه.

بعد انتهاء العمل ذهبت إلى محل للأدوات المنزلية. اشتريت هدية ثمنها أكبر قليلاً من ثمن تلك الحلويات، وتوجهت إلى منزل صاحبي: وأعطيت زوجته الهدية من الباب دون أن أدخل، ودون أن أراه.

الواقع - وأنتم تريدون مني الواقع وليس تأليف القصص -، الواقع أن ولده دخل الدورة بالشكل الطبيعي لأنه مؤهل لها. ودفع الرسوم كما دفعها كل طالب آخر.

ونحن، في المكتب، أكلنا الحلوى. على حسابي. أرجو أن يكون هذا الصديق قد أدرك غلطته.. فهو حاول رشوتي. وحاول أيضاً أن يسرق مكاناً في الدورة لولده.

لا أصدِّقُ أن هناك أحداً يجهل الغلط. كل الناس يعرفون الفرق بين الهدية والرشوة. وكل الناس عندهم حسٌّ بما هو حق.. لكنهم لا يتَّبعون الحق. معظم أهل بلدي غلط غلط.



فتاتان من أميركا

عزيزي المستمع، لا أستطيع أن أحدثك عن أي شيءٍ آخر. عنهما فقط سأحدثك.

فتاتان فلسطينيتان تتحدثان بلكنة أميركية جاءتا إلى فلسطين لتقضيا أشهر الصيف. إحداهما شاعرة، وشعرها بالإنجليزية وباللهجة الأميركية: لهجة بروكلين-نيويورك. عاشت طفولتها بين السود والإسبانيول وهم مضطَّهدو تلك البلاد، وعاشتها مع أبٍ وأم من اللد ومن الرملة.. «سهير حمّاد» صارت الآن مشهورة في أميركا. وشِعرها حارق قوي، وتلقيه بقوة وسرعة. إنها - من شِعرها - المرأة التي ترفض أن يحبسها الرجل في خيالاته المريضة، وترفض أن تكون النصف الحلو، و.. الهامشيَّ، في هذه الحياة. و»ميسون زايد»، الفتاة الثانية، في نفس العمر - ثلاثون سنة - عملها هو الكوميديا من طراز (قِفْ ونكِّتْ)، وهذا فن خطير وصعب. وهي لا تكتب شيئاً.. ترتجل كلَّ شيء تقوله أمام الناس. سألتها سؤالاً: وماذا لو بدأت الكلام والتنكيت، ثم لم يضحك أحد؟ قالت لي: هذا هو الكابوس الذي ينتظره كلُّ كوميدي برعب شديد. وأنا أنتظر من خمس سنوات، ولكن لم أصادف هذا المصير حت الآن.

ميسون تلقي اسكتشاتها الضاحكة بالإنجليزية وبالعربية. التقينا بها في ندوة جادة، ومع ذلك طلبنا منها أن تنكِّت لنا. ففعلت. وفي خلال دقيقة ألقت القوم كلَّهم على ظهورهم من شدة الضحك. وميسون معاقة، عندها رجفة ظاهرة. وهي، منذ أربع سنوات، تأتي كل صيف إلى البلاد، وتقدم العروض للمعاقين ولغير المعاقين أيضاً. وهي تشترك مع سهير في ورشات. أنت تعرف عزيزي المستمع، أنني أكره شيئاً اسمه ورشات. لكنّ

ورشات ميسون وسهير مليئة بالفن. وهما تصّران على أن يحضر الناس من كل الفئات: تريدان فقراء وأغنياء ومعاقين وغير معاقين. الورشة الأخيرة كانت في مخيم الأمعري. بصراحة.. لو كان الأمر مجرد فنانتين عاديتين تقومان بعمل خير، وبعمل وطني لما حدثتك عنهما. ولقلت في سرّي : أعطاهما اللهُ الصحة، وانتهى الموضوع. ولكن الأفق الفني لهاتين الفتاتين أفق إنساني واسع. إنهما فنانتان تملكان الأصالة والشخصية، وتقدمان فناً راقياً ممتعاً. شِعر سهير يفتح لك باباً للتفكير، ويجعلك تحلِّق معه. من زمان لم أسمع شعراً خالياً من الشعارات. وكوميديا ميسون مليئة بالفكر والسياسة، وفيها ترى كل عيوب مجتمعك وكلَّ عيوبِك أنت. الآن عليَّ أن أقدم اعترافاتي: عندما ذهبت إلى الندوة، قلت لنفسي: ها هي ندوة أخرى من هذه الندوات، وسأخسر ساعة زمن. وعندما خرجت من الندوة عرفت أن هذا الظن السيء كان غلط غلط.

١٨٩ خذ صداقتك

عزيزي المستمع، سأحدثك عن صداقة أوجعتني مدة من الزمن. هذا الرجل كان صديق الصبا. التقينا في الشباب الباكر، وكان بيننا شيء من الخبز والملح، والمقلوبة. وطوَّحت بي الدنيا في أربعة أركانها سنواتٍ كثيرةً، ثم عدتُ إلى البلاد ووجدته مبسوطاً منتعش الحال. عانقني، وشفط من هنا واحدة، ومن هنا واحدة. (الفلسطيني لا يهدأ له بال إلا بالتقبيل).

المهم.. صرت أسمع عنه كثيراً.. إنه يغير أشغاله باستمرار: مقاولاً أحيانا يبنى البيوت للناس بمواصفات مختلة.. ويأتي الخلاف والنكد، ثم يتدخَّلُ أهلُ الخير، وتنتهي المشكلة بخسارة جسيمة على أصحاب البيت. وتاجراً يستورد البضائع من كل بلد، ثم يكتشف أصحاب السوبرماركتات أنه يستورد أغذية فاسدة ويغيِّر تاريخ الانتهاء. وتراه يفتح مؤسسة للحصول على التراخيص والتأشيرات، ويعد الناس الوعود. ثم يغلق مؤسسته مدعياً أنه خسر فيها، ولكن سيارته تتجدد كل سنة، وقد بنى عمارة وباعها.

صار كلما رآني قطع يده وشحذ عليها، وشكا شكوى مُرَّة. وأنا أسمع الناس يقولون

عنه كل الأشياء التي حدثتك عنها. وطبعا أنا أدافع عنه أمام الناس، لأنه صديقي. من عادته أن يفتتح المكالمة الهاتفية بـ: أين أنت يا صديق العمر؟ وأنا كأنما تأثرت بهذه الكلمة، وبشكل لاواعٍ صدَّقتها.

لا ينالني شيء منه: لا من المنافع الدنيوية ولا المعنوية. فحتى عندما يزورني أو أزوره فهو يقضي الساعتين أو الثلاث وهو يشكو. تضايقت لكثرة ما سمعت عنه. وتضايقتُ من نفسي وأنا في كل مرة أدافع عنه. ربما ليس حفاظاً على سمعته، التي لا سبيل للحفاظ عليها، بل حفاظاً على سمعتي: لا أحب أن أسمع أحداً يتكلم عن صديقي وأنا ساكت لا أدافع. ذات يوم عاد من سفر، وبدأ حملة صفقات محمومة فور عودته. وبدأتْ رائحته تفوح من جديد في البلد. وقررتُ أن أصنع شيئاً لم أصنعه منذ الطفولة. رفعت سماعة الهاتف، وقلت له: أنا محاربك، أنا أعيد إليك صداقتك. لا أريدها لأنها تتعبني.

صار يضحك وظنني أمزح. وقال لي: يا صديقي! قلت له: اسمع! الكل يستمتعون وهم يقصون في المجالس القصص عن نصبك وفسادك، وأنا وحدي لا أستمتع. فاسمح أن أعيد لك صداقتك. ووعدته ألا أحدث الناس بما كنت عرفته عنه. المهم أنني صرت أستمتع بما يقال عنه. مشكلة أن تصاحب شخصاً كلُّ مسلكه غلط غلط.



١٩٠ بربع ليرة فقط، يا بلاش

عزيزي المستمع، يسمّونه «ربع الليرة»، ولكثرة ما تردد هذا اللقب صار اسمه «الربع»، وهذا شخص كبير الكرش ضيِّقُ البنطلون ولذلك يكونُ حزامُ بنطلونه تحت كرشه، وكرشُهُ منتفخ مدلوقٌ فوق الحزام ومغطىً بتي شيرت ملتصقٍ باللحم. وقد تراه لابساً معطفاً من الجلد، لكنه صار يلبس معطفاً من الجوخ بعد أن تسلَّم إدارةَ المشاريع في الوزارة. كلما اتهمه أحدهم بالجشع قال له: يا أخي لو تعرفُ كم من عائلة تعيش من وراء هذا «الربع» لما اتهمتني بالجشع. بالمناسبة اسمه «الربع» لأنه يطلب من كل مستثمر ربعَ قيمة العطاء قائلاً له: «التكلفة ربع ليرة». ذات يوم جاءه مستثمر مغترب.

وصدَّق المسكين أن العمولة هي ربع ليرة. وسأل مستغرباً عن السِّرِّ في الربع ليرة. لكنه سرعان ما عرف أن العمولة هي في الواقع ربعُ القيمة.. يعني خمسةً وعشرين بالمئة.

«الربع» رجل فيه بساطة. لا يأكل بالشوكة والسكين، ولا يصبر على التعقيدات. وهو غير طماع حقاً. غيره يطلب النصف أو أربعين بالمئة. ولكنه هو مقتنع بأن استمرار الشغل أفضلُ من الطمع. كما أنه فعلاً يوزِّعُ النسبة التي يتقاضاها على دائرة واسعة من الفاسدين. يعني.. يَرُشّ.

ذات يوم تآمر عليه عدد من الزملاء وأرادوا نقلَه، ولم يعترض. ذهب للمسؤول الأكبر، وسلمه مفتاح مكتبه ومفتاح خزانة الملفات، لكن المسؤول الأكبر فكر في الأمر قليلاً. وقال لنفسه: لو تم تعيين موظف جديد، فلن نحصل على أي عمولة عدة أشهر إلى أن يتعلَّم هذا الموظف السمسرة. وإذا عيَّنَّا أحد الموظفين عندنا فسوف يطمع، ثم إنني قد لا أحصُلُ على الخمسة بالمئة المعتادة. بعد يومين كان «الربع» قد عاد إلى وظيفته. وقد أقنع المسؤولُ الأكبرُ كلَّ المتآمرين بأن «الربع» مريح، ويوزع توزيعاً معقولاً. ثم صار المتآمرون يذهبون إلى مكتب «الربع» واحداً بعد الآخر وكلٌّ منهم يحلف بكل عزمه أنْ لا علاقة له بالمؤامرة. ما زال الربع يمارس العدالة والبساطة. بصراحة التآمر غلط، والطمع غلط، وسأسكت الآن.. لأن كثرة الكلام غلط غلط.



١٩٠ فطوم تسلك الأمور بالتلفون

عزيزي المستمع، لم تكن فطوم تستقبل أي رجل في بيتها وهي وحدَها. فهي أرملة وتحافظ على سمعتها. لكن السهرات في بيتها كانت مشهورة في أوساط علية القوم. كانت تستقبل الرجال مع صديقاتهم، أو قل مع زميلاتهم. وكانت كريمة وتحب الناس. فطوم تَزْعَلُ جداً من الرجل الشقي الذي يقول كلاماً بذيئاً.

وكذلك تزعل من الذين يصعدون للطابق العلوي في الفيلا. وتقول لهم ولصديقاتهم: الحمام موجود هنا في هذا الطابق، ولكن قلبها طيب، وزعلها لا يستمر سوى خمس

دقائق. وهي تحترم الناس المهمِّين أصحابَ المناصب الكبيرة في الشركات وفي الدولة، تحترمهم إجلالاً لذكرى زوجها المرحوم. وتقضي ساعات الضحى وهي تتكلم مع كل الناس في الهاتف. تحب عمل الخير. على التلفون تقوم بتوظيف الناس وتسليك الصفقات، واستخراج الأذون الرسمية للمشاريع. ترفع السماعة وتقول: يا أبو فلان! أين أنت يا أكبر شقيٍّ في البلد. انتبهت عليك أول أمس، لا تظنَّ أنني كنتُ غافلة! كيف حالُك؟ وما أخبارك؟ طبعاً عزيزي المستمع، نحن لا نسمع ماذا يقول هو على الجانب الآخر من الخط الهاتفي.

وتمضي فطوم في حديثها مع أبو فلان: يا عزيزي، أنا لا أفهم الظرف المختوم ولا الظرف الملغوم، وصاحبنا أبو فلان لا يطلب منك المستحيل. وأنا أعرف أنه يطلعُ بيدك كلُّ شيء. أنت قدّها وقدود.

وبعد المكالمة يصيرُ الظرفُ المختومُ مفتوحاً. ويذهب أبو فلان الثاني إلى الدائرة الكبيرة لكي يتفاهم مع أبو فلان الأول. وبعد عدة أيام يرسو العطاءُ بالشكل المناسب.

فطوم تفعل ذلك حباً في الخير. ولكن أحياناً يكون حظُّها قوياً. فعندما طرق بابها أبو فلان الثاني (الذي أخذ العطاء) بعد شهرين عرفت أن الحظ هو من يطرق بابها. طبعا هي لم تدخله البيت، إنها لا تستقبل رجلاً بمفرده في بيتها. على الباب وقفت معه تجامله وتحادثه. وعندما أخرج مفتاح سيارة من جيبه قال لها: أحلى مرسيدس لأحلى فطوم. لم يعجبها هذا الكلام البلدي. ولكن المفتاح أعجبها. وصرخت على الشغالة: أطلبي تاكسي لأبو فلان.

ليس معقولاً أن يذهب ماشياً.

عزيزي المستمع، مع ذلك ترى من الناس من يقول إن فعل الخير غلط غلط.



السقوط..

عزيزي المستمع، لو كنتَ في مكانه لشعرت بشعوره، كان هذا الشخص رئيسَ قسم مهم في شركة هندسية بالخليج. في ذلك اليوم تلقَّى هبة مالية كبيرة من الشركة علامةً على الثقة. وذهب مساءً إلى النادي، وجلس مع أصدقائه. كان يحسُّ بنشوة، يمد يده إلى شعره، يرفعه وهو يهز رأسه هزة خفيفة. شَعَرَ أنه يملك الدنيا. وخطر بباله بيتُ شعر لأبي نواس يقول فيه:

دارتْ على فتيه دانَ الزمان لهم فما يُصيبُهُمُ إلاَّ بما شاءوا

أحس أنه من هؤلاء الفتية الذين لا يستطيع الزمانُ إيذاءهم لما يحسون أنهم راتعون فيه من الأمان والسرور. لكنه لم يكن فتىً، كان في الخامسة والثلاثين.

عندما استيقظ في اليوم التالي من نومه لم يكن قد عرف بعد أن الاختلاسات انكشفت. الواقع أن الأمير مشعل كان يعرف بالاختلاسات، لكنه في ذلك اليوم بالذات قرر أن يقوم بحملة تنظيف صغيرة في الشركة. وصاحبنا المسكين لم يختلس. كان رئيس قسم مهم. وكان يُرضِي رؤساءَه ويوقِّعُ على الأوراق.

في اليوم المشؤوم.. طُرد صاحبُنا من عمله بدون تعويض، وقيل له: احمد ربَّك أنك لن تقدَّم للتحقيق. وفي ذلك اليوم نفسه جاءته فاتورة كبيرة كان قد تعود على تسديد أمثالها ببركة الأمير. وحسب حساباته، وتبين له أنه صار رجلاً فقيراً. في المساء كان يجلس ساهماً حزيناً ينظر إلى أولاده الذين يدرسون في مدراس أجنبية غالية، رآهم يتفرجون بفرح على التلفزيون.

زوجتهُ: أحسَّت بما يشعر به، لكنها لم تسأله. إنها لا تريد أن تفسد سهرة الليلة في الفندق الفاخر. وذهب مع زوجته إلى السهرة، ورأى هناك مديره في العمل. بالأمس فقط كان هذا المدير قد منحه الهبة المالية وصافحه بقوَّة وشدَّ على يده. والليلة ابتسم له ابتسامة مخطوفة، ولم يكلِّمْه.

ما أبشع السقوط. وما أغبى الذي يفكر لحظة واحدة بأن في الدنيا أمان.

كان هناك نصف مليون فلسطيني في الكويت يشعرون بأمان نسبي جميل ولذيذ، كانوا في تلك الليلة الصيفية يجلسون تحت ظلال المكيفات وهم يسمعون أغنية فريد الأطرش في التلفزيون «الحياة حلوة». وعندما استيقظوا في الصباح كان البلد محتلاًّ، وانفجر الأمان في لحظة، وذاقوا هوان التشتت والفقر والسقوط. من أحسَّ بالأمان ورَتَعَ وانبسط فإحساسه غلط غلط.

١٩٢ ثلاثة كتب تاريخ

عزيزي المستمع، ليس عندي موضوعٌ أحدثُك به. ولكنّ الميكروفون مفتوح ولا بد من اختراع موضوع. حسناً. سأحدثك عن ثلاثة كتب ثم سنفتحُ - أنت وأنا - هذه الكتب عند صفحة معينة.

الكتاب الأول: تاريخ الطبري. كتاب في عشرين جزءاً. هو أهم كتاب عن تاريخ العرب والمسلمين. طبعته دار الأفكار الدولية في مجلد واحد طباعة مضغوطة. والكتابُ الثاني تاريخ ابن الأثير المسمى الكامل وهو في حجم الكتاب الأول. والكتاب الثالث تاريخ ابن خلدون وهو كسابقيه صار مجلداً واحداً. كل كتاب من هذه الثلاثة يزيد عدد صفحاته عن الألفين. نفتح كلَّ كتاب على الصفحة رقم ألْف ونقرأ: يحدثنا أبو جعفر الطبري عن مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه في سنة إحدى وستين هجرية. وفي الصفحة الألف حديث عن رجلين زارا الحسين وهو في محنته وجنود بني أمية يُحْدِقون به. وقد استأذن الرجلان، وهما مالك بن النضر والضحاك بنُ عبد الله فقال لهما الحسين: ما يمنعكما من نصرتي؟ فقال كل واحد منهما: عليّ دين، ولي عيال. فقال لهما الحسين أنتما في حل، اذهبا والله معكما؛ ولقي الحسينُ الخذلان إثر الخذلان حتى استشهد.

وفي الصفحة الألْف من تاريخ ابن الأثير نقرأ من أحداث سنة مئتين وتسعٍ وأربعين هجرية خبر استيلاء الوزير أتامش على الدولة في عهد الخليفة العباسي المستعين، وكيف أن الجند عانوا الضيق والفقر فحرَّضهُمُ القائدان وصيفٌ وبُغا على الفتك

بأتامش، فحاصره الجند وقتلوه مع كاتبه، ولو سمح المستمع لنا أن نسير في الكتاب بمقدار أربع سنين لحدثناه كيف قُتل القائد وصيف لأنه حجب الأموال عن الجنود، ولو سمح لنا أن نسير بمقدار خمس سنين لرأينا كيف قُتل القائدُ بُغا بأمر الخليفة المعتز في مكيدة معقدة.

ونفتح الكتاب الثالث: وهو كتاب ابن خلدون نفتحه على الصفحة الألْف ونقرأ عن نكبة المعتمدِ بنِ عبَّادٍ في الأندلس، فقد هزمه يوسفُ بنُ تاشفين، ونقله إلى قرية أَغْمَات قرب مُرَّاكُش في سنة أربعِئمةٍ وأربعٍ وثمانينَ هجرية. ومما قال الأمير المأسورُ في حبسه أبياتٌ من الشعر منها البيت:

ترى بناتِكَ في الأَطْمَارِ جائعةً يغزِلْنَ للناسِ ما يملكْنَ قِطْمِيرا

نعم فبناتُ المعتمد افتقرن بعد نكبته، وصرن يشتغلن بالغزل، ويبعن ما يغزلن حتى يأكلن الخبز، أما ملابسُهنُ هنّ فكانت أطماراً ممزقة.

تاريخنا مليء بالدسائس والفتن، والقتل والشراسة. ولكننا نخفي معظم ذلك عن أبنائنا في الكتب المدرسية.. وذلك في رأيي غلط غلط.



١٩٣ الشوكولاتة المُرَّة

عزيزي المستمع، كنتُ قبل شهرٍ بل أقلَّ في لندن، وساقتني ساقاي إلى محلة جسر الفارس (نايتسبردج)، ثم قدِمَتْ بي قدماي إلى دكَّان مشهور اسمه هارودز يقولون إنه أكبر متجر في العالم. ولست أدري مدى صحة ذلك، على أنني أعرف يقيناً أنه أغلى متجر في العالم.

دخلتُ إليه عارفاً أنني لن أشتريَ منه شيئاً. دخلتُ فقط لأتفرَّج على الأسعار، ولكي أقصَّ عليك بعض ما أشاهد. نزلت إلى قسم الأطعمة، وتوجَّهْتُ إلى الجانب الذي يبيعون فيه الطعام الشرقيّ. هناك معمول كالذي تأكُلُه في العيد، الكيلو منه بما يوازي أربعين دولاراً. وورق الدوالي يباع بالحبَّة الواحدة ملفوفاً، والحبة بخمسة وسبعين سنتاً. وأنا أعطيك الأسعار بالدولار تسهيلاً عليك، وهي هناك مرقومةٌ بالجنيه

الإسترليني. حبة الفلافل بدولار ونصف الدولار. وقد رأيت نوع شوكولاتة اسمه تاماناكو: الكيلو منه بستمئة دولار.

رأيت في ذلك الحانوت بضائع بولغ في إتقان صنعها. كنا ونحن صغار نشتري شوكولاتة من دكان الحارة تدوم في أفواهنا زمنا ونحن نعلُكُها لأنها كالشمعْ، ثم نبلعها ونستطيب البلعْ. وقد يُهدى إلينا في البيت علبةُ شوكولاتة تكون الحبةُ من حباتها سمينةٌ وبداخلها حبةُ لوزٍ محنَّنة مقنَّنة، ونزدردها ازدراداً. ثم تعّرفَ بعضُنا على الشوكولاتة الأجنبية، وهي درجات كثيرة. ولا يأتي إلى بلادِنا منها إلا ما هو رخيص. أما التاماناكو فهي لأصحابها.

ما أشقى الذي يتعوَّد على الأشياء الغالية، فإذا رقَّت حالُه، وقلَّت أموالُه، لم يستطع أن يرجع إلى الرخيص مأكولاً وملبوساً فصار يجاهد ويعاني. اللهم ارزقنا القناعة وارزقنا الرضا.

وحتى أزيدك علماً بما حدث لي في قسم الشوكولاتة في ذلك المتجر اللندني أقول: وقفت برهة أنظر إلى الأصناف والأسعار وأتأمَّلُها وكأنني خبير بها، وبيدي ورقةٌ صغيرة أكتب فيها الأسعار لغرض واحد: هو أن أحدِّثَكَ بها عند عودتي. رأتْني البائعة فاقتربت مني وهي تبتسم بود. وقدّمت لي على صينية فاخرة قطعة شوكولاتة.. ليس من نوع تاماناكو، ولكن من نوع أرخص. أكلتُ القطعة وأنا أهز رأسي هزَّ الخبير الخرمنجي في الشوكولاتة، ومضيت. إنها شوكولاتة سوداء مُرَّة، بَقِيتْ مرارتُها في حلقي سائر النهار. خير ما يدخل جوف المرء طعام مزروع في بلده، مصنوع في بلده. ولولا حبُّ الاستطلاع ما كنتُ دخلتُ ذلك الحانوت. ولو كنتُ دخلتُه لغرض آخر لكان دخولي غلط غلط.

١٩٤ نحن والهنود الحمر

عزيزي المستمع، سمَّة البدن تأتي في غفلة من الزمن. يكونُ المرء مسروراً خاليَ البال، ثم يسمع كلمة، أو يتذكر شيئاً فينسَمُّ بدنُه. قد سَمَّ بدني رجلٌ من أميركا، وسمَّت بدني فتاة من النرويج. وبين السّمة الأولى والثانية.. انتَظِر كيْ أحسُبَ الزمن.. بينهما ستَّ عشرةَ سنة.

أقامت جامعة بيرزيت مؤتمراً عن القدس.. أقامته في مدينة القدس عام ثمانيةٍ وثمانين وتحدث فيه، بين من تحدث، رجل أميركي نسيتُ اسمه. كان متعاطفاً مع شعبنا من كل قلبه. تحدث وقال: أرى آمالاً كبيرة في قلوب الكثيرين منكم. ولكنني أرى أن حركة التاريخ قضت عليكم أن تستمروا على طريق الهزيمة تماماً مثل الهنود الحمر.

غرس ذلك الرجل خنجراً في قلب تفاؤلي. لقد سمعتُ في صوته رنَّة الصِّدْق.

وقبل أيام من تسجيل حديثي هذا رأيتُ فتاةً نرويجية. قلبُها معنا. قالت لي: سمعتُ كثيرين وكوَّنتُ فكرة عامة، عندكم أحلامٌ كبيرة. وهذا النوع من الأحلام الوردية يعرفُهُ المختصون بالأنثروبولوجيا أو علم الإنسان - وهذا العلم يعالج فيما يعالج الشعوب البدائية -، هذه الأحلام تداهِمُ الشعوبَ المقهورة التي تفتكُ بها شعوبٌ أقوى منها.

بين هذين التشخيصين المتشابهين لحالتنا ليس لي الآن إلا أن أضع رأسي بين يديَّ وأفكِّر. أريد أن أعثر على مثالٍ من التاريخ لشعب تحايل على القوة الغاشمة، واستطاع أن يحفظ نفسه. للأسف لا يخطر ببالي شيء. السبب هو قلةُ إلمامي بالتاريخ. لكنَّ هناك شيئاً يمكن أن يكون مطَمْئناً. أحداث التاريخ تتمرد على التشخيصات. ومشاكل الأمم ليست كأمراض الجسم. كل مشكلة لها طبيعة فريدة. لذلك علينا أن لا نيأس. وألا نقتنع بأن مصيرَنا نحن الشعب الفلسطيني هو مصيرُ الهنود الحمر الذين سُحقوا وأُبيدوا إلا قليلاً. عندنا بعضُ وسائل القوة والبقاء. ولكنَّ عدالة قضيتنا ليست من هذه الوسائل. فما كان أعدل قضية الهنود الحمر!

العدلُ والحقُّ سلاحان لا ينفعان في غابة السياسة الدولية. وعلى المسؤول الفلسطيني الذي يتغنَّى بعدالة قضيتنا أن يُعِيرَنا سكوتَه. يبدو أن العالم يعرف ذلك جيداً. عندما نتغنى بعدالة قضيتنا يقول لنا الأجانب: نعرف ذلك، فهلا حاولتم مثلاً القضاءَ على فسادِكم وعلى حرْمَنتِكم أولاً؟ فالفساد غلط والحرمنة غلط وتأجيل النظر فيهما غلط غلط.

١٩٥ عندما يقود السفهاء

عزيزي المستمع، السفهاء موجودون في كل زمان ومكان. وكانوا في القديم يأسَفون إذا رأوا أحد الكرام وليس لديه عدد كاف من السفهاء من قومه. فالسفهاء رجال أشدَّاء، محدودُو التفكير، يدافعون عن العشيرة، ولا يهمُّهم أن يدخلوا في طوشة. وكان أهمَّ شيء ألا يصبحَ السفيه سيداً في قومه. فالسيد يجب أن يكون حكيماً عادلاً نزيهاً يعرف حقوق العشائر الأخرى، ولا يبادرُ إلى ظلم الآخرين. يشبِّه الشاعر القديم الأَفْوَهُ الأَوْدِيُّ العشيرة ببيت الشَّعر الكبير: لا بد له من أعمدة كبيرة يقوم عليها، ولا بد له من أوتاد:

والبيـــتُ لا يُبتَنـــى إلا لـــه عَمَـــدٌ ... ولا عِمـادَ إذا لـم تُـرسَ أوتادُ
فـــإن تجمَّـــع أوْتـــادٌ وأعمـــدَةٌ ... وساكنٌ، بلغوا الأمر الذي كادوا
تُهدى الأمور بأهلِ الرأي ما صَلَحتْ ... فــإن تولَّــت فبالأشــرار تَنْقادُ
لا يصلُحُ الناسُ فوضى لا سَراةَ لهم ... ولا سَــراةَ إذا جُهَّالهــم ســادوا

إذا أصبح الجهال والسفهاء سادةً فإن المجتمعَ يتخلخل. وقد رأيتُ مجتمعات صار القوي السفيه يقفز فيها إلى الحكم بانقلاب أو بغير انقلاب، ورأيتُ كيف أن هذه المجتمعات ضعُفَتْ وانهارت. في المجتمع الجيد المكان الحقيقي للقبضايات هو الجيش، وبشرط ألاَّ يكونوا قادة، ولا ضبَّاطاً بل جنوداً مطيعين. حتى في جهاز الشرطة لا أعتقد أن للقبضايات وجود. الشرطة جهاز حضاري ينفذ القانون.. أو هكذا يجب أن يكون.. ولا مجال فيه للفهلوة ولا للسفاهة.. بعض المجتمعات تقف محتارة هل تريد أن تختار منطقَ الحضارة والتطور فتبعدَ السفهاء عن مراكز القرار، أم تريد أن تعيش حياة همجية يقوم فيها أبو الجنازير بقيادة المجتمع. والمجتمعات المحتارة هذه أسوأُ حالاً حتى من المجتمعات الهمجية، وهي بدون شك غلط غلط.



شهوات الرشيد، وأمثولة من عمر

عزيزي المستمع، كان عند هارون الرشيد ألفُ جارية في حريمه. ربما بالغ الرُّواةُ قليلاً، ربما كان عنده مئةُ جارية فقط. لكن لماذا نبتعد في التاريخ كثيراً. هناك من ملوك العرب وأمرائهم في عهد قريب من ملكَتْ يمينُه خمسين أمةً سوى الزوجات، وبعضهم كان يبدِّل زوجاته بالأطقم، يتزوج طقماً من أربع نساء مرة واحدة، ويطلق الطقم القديم، وهكذا مراراً وتكراراً. أتخيَّلُ أميراً من هؤلاء الأمراء يدخل بيت إحدى نسائه مساءً، ويكونُ قد غاب عنها شهرين. ألا يستحي هذا الرجل على نفسه، وهو يلمَسُ امرأة كان قد وضعها في مرتبان محكم الإغلاق ستين يوماً؟ ألا يرى نفسه ظالماً؟ ألا يقول في نفسه: ويحك يا رجل، أترضى لأختك ولبنتك هذا المصير؟ لا شك في أن أولئك الأمراء الذين تتعدد النساء في حياتهم بهذا الشكل الفاضح يصِلونَ إلى الحيوانية من أقصر الطرق. أتذكَّر هنا موقفينِ لعمرَ بنِ الخطاب. أولهما عندما جاءه رجل يريد طلاق زوجته. سأله عمر عن السبب فقال الرجل: لا أحبها. فقال عمر: أمسِكْ عليك زوجَك، ولو تذمُّماً، أي اتِّقاءً للذم، فما كُلُّ بيت يُبنى على الحب وحدَه. أو كما قال. وثانيهما عندما قَدَمَ أحد الولاة على عمر، فاستقبله عمرُ في بيته، ودعا بالغداء. فجاءت إليه زوجته بخبز يابس وزيت. فاعتذر عمر للوالي الزائر قائلاً: كُلْ مما قسَمَ الله لنا. ولو كانت زوجتي راضية ومنشرحة لكانت أحضرت لنا شيئاً أطيبَ من هذا.

هذا عمرُ بن الخطاب وهو في بيته. رجلٌ يتنازل لزوجته، ويأخذ بعين الاعتبار حالتها النفسية. أعتقدُ أن عمل المرأة خارج البيت يقلِّلُ الخلل في الميزان الاجتماعي. لكن هناك شيئاً آخر وهو: عملُ الرجل داخل البيت. الرجل الذي يقوم بمختلف أعمال البيت يجعل أولاده وبناته ينظرون إليه كإنسان طبيعي وليس زائراً يأتي في المساء ليمدد رجليه والريموت بيده حتى ينعس. الرجل الذي يطبخ ويكنس يساهم في تربية أبنائه ورفعهم إلى مستوى أعلى من الإنسانية. حال الأسرة عندنا في فلسطين أحسنُ منها في بلدان كثيرة. ونحن نحترمُ المرأة أكثر مما في كثير من المجتمعات. ولكن ما زال هناك مزيدٌ من الجهد المطلوب. والذين لا يريدون رؤية الجانب المشرق ويصرُّون على خوض حملاتٍ غير متوازنة ضد الرجل هم غلط غلط.

١٩٧ سوق الزواج

عزيزي المستمع، طبعاً تعرف أن الحب في مجتمعنا ممنوع، والحديث بين الشاب والشابة ممنوع. وقد زاد المجتمع وألغى أيَّ إمكانية للِّقاء بين الشباب والشابات. ولكن هذا القانون الاجتماعي لا يسري على المدارس المختلطة.

وطبعاً لو أحب الشاب فتاة فإنَّ أهلهُ لا يهتمون بالموضوع.. وأما لو أحبَّت الفتاة شاباً فسوف تقوم عليها القيامة.

خذ مثالاً: شاب خجول، وصل سن الزواج وتأهل مادياً. ولكنه لا يعرف في مدينته أي بنت. مجال التعارف أغلقه المجتمع إغلاقاً محكماً. فأخذته أمه من يده، وصارت تدور به على بيوت الناس تخطبُ له، ونجحت الخطبة عدة مرات، ولكن الشاب كان يتردد، ويسارع إلى فسخ الخطبة من المراحل الأولى، لأنه متردد وخوَّاف تجاه الجنس الآخر.

وخذ مثالاً أبلغ: فتاةٌ بلغت سن الزواج. فأقعدها أهلها في البيت وظلت تنتظر قرع الباب. مسكينةٌ أنت أيتها الفتاة. هناك في المجتمع العشرات ممن يحبُّون شكلك وشخصيتك، ولكن هؤلاء لا يعرفون بوجودك.

لقد كانت السيدة خديجة رضي الله عنها تاجرة غنية. وكانت قد تزوجت مرتين قبل الرسول صلى الله عليه وسلم. وكانت أكبر من الرسول بخمس عشرة سنة، وأحبَّتْه. ووجدت السبيل إلى التعرف به.. وإلى أن تخطبه هي. فقد بادرت هي بالأمر. لا تصدق أن الدين هو الذي قيَّدَ المرأة، فقد كانت المرأة في مكة والمدينة في عهد الإسلام الأول طليقةً وذات شخصية أكثر بكثير مما هي الحال اليوم في بلاد المسلمين. المجتمع الظالم هو الذي يقيد المرأة ويخاف من الحب. الرجال المهزومون في مجتمعنا وجدوا أخيراً مجالاً للانتصار.. فخاضوا حرباً ضد المرأة وانتصروا عليها. وإنهم لعلى غلط غلط.

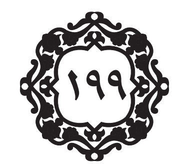
١٩٨ الشامبو

عزيزي المستمع، أحدثك اليوم عن الكتاب. وحتى يكون حديثي مسلياً بعض الشيء، وحتى أمنعك من تحويل مؤشر الراديو إلى محطة أخرى، سأحدثك عن نفسي قليلاً. أنا أحب أن أقرأ كتاباً بين الحين والحين، أتسلّى وأتعلم، مع أنني صرت في السنوات الأخيرة أنسى كلَّ شيء أقرأُه. ولكنني لست من المثقفين الذين تسمعُ عنهم. وأنا لا أحمل شهادة عليا ولا حتى وسطى. أنا أعتقد أن القراءة هي الطريقةُ الوحيدة للتعلُّم. وقد تَوَفَّرَ لنا باللغة العربية عددٌ كبير من الكتب منذ سنين كثيرة. كان عندنا كتب عظيمة في وقتٍ كانت فيه أوروبا تستحمُّ في الأميَّة. واليوم عندنا تلك الكتبُ العتيقة، وعندنا كتب جديدة قليلة، وقد ترجم العرب في المئة سنةٍ الأخيرة عشرات الكتب والروايات. والآن نحن نترجم الكتب ولكنَّ المشكلة هي عدمُ وجود قرَّاء. لذلك ضعف عندنا التأليف، وضعفت الترجمة. المطالعة والتعلُّم لا يأتيان بشكل عفوي. يجب أن نشجع الشباب وغير الشباب على المطالعة. والمدرسةُ هي المفتاح المهم، وحصةُ المكتبة أهمُّ من ثلاثة أرباع الحصص.

إن كنت عزيزي المستمع قد أنهيت المدرسة، وخلّفت وراءك «نق تربيع ط»، فأنت تعرفُ أنه لم يبق في ذهنك شيء من كلِّ تلك المحفوظات: طبقات الجو، ولا سيما طبقة الستراتوسفير، وأشكال الصور في المرايا المحدبة والمقعَّرة، والمفعول لأجله.

ليتهم يخفِّفون عن الطلبة في العلوم، وفي الرياضيات وفي كل شيء. وليتهم يخصِّصون حصة مكتبة في كل يوم.

سأعطيك وصفة لنهضة ثقافية معرفية عربية عظيمة: لو قررت نساء العرب أن يكفِّرن عن ذنب التخلف بالتخلِّي عن استعمال الشامبو، واستعضن عنه بتقصير شعورهن أولاً، وباستعمال الصابونة النابلسية ثانياً، فإن ذلك سيوفر لنا ألفيْ مليون دولار في السنة. ولو أنفقنا هذا المال على الترجمة والنشر لنهضت الثقافة نهوضاً. هذا الحلم لن يتحقق فيما يبدو. لا بل إن الناس صاروا يحممون شعر أطفالهم بشامبو الأطفال، والرجال - وأخصّ منهم بالذكر القُرْعُ الصُّلْع - لم يعد يحلو لهم إلا أن يحمِّموا شعرَهم بالشامبو، وبعضهم يحممون كلابهم بالشامبو. نحن نصف المسيحيين واليهود بأنهم أهلُ الكتاب. حقاً هم أهل الكتاب. أما العرب فهم أهل الشامبو. نحن غلط غلط.



نحن والكتب والعالم والإنترنت

عزيزي المستمع، قبل أسبوع رجعتُ إلى البلاد من سفرة زرتُ فيها بلدين عربيين، وثلاثة بلادٍ أوروبية. قد تعاد إذاعةُ هذا البرنامج بعد سنة، وعندئذ يكون قد مرّ على عودتي أسبوع وسنة. لكنني، إذ أُحدِّثُك الآن، عائدٌ حديثاً. يسألني الناس: كيف رأيت العالم؟ مساكينُ نحن.. قاعدون في قفصنا، محبوسون، ونسألُ عن العالم! أقول لكل من يسألني: ما لَكَ ولِلعالم؟ أنا أقول لك ما رأيُ العالمِ فينا نحن؟ وهنا يتحمس الشخص الذي يحدثني ويسأل: حسناً. ما رأي العالم فينا؟ الجواب: نحنُ لسنا على بالِ أحد. لا على بالِ العرب، ولا على بال الأوروبيين. لا يُغيِّر الله ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم. العالم لم يعد يحزَنُ علينا. ملَّ منا. قد رأيتُ العرب يتباهَوْن باستهلاك بضائع الغرب ولا يستحُون على دمهم، لا يستحون على وجوههم، لا يخجلون أنهم عاجزون عن أن يصنعوا شيئاً من الأشياء التي يستهلكونها. وقد قالها قبلي جبران: ويل لأمة تأكل مما لا تزرع، وتلبس مما لا تنسج. ورأيت الأوروبيين لم يعودوا يحترمون شيئاً يرتبط بالعروبة من قريب أو بعيد. خذ أصغر الأشياء: استعمال الإنترنت. رأيت الشاب العربي يشمِّع شعره بعجينة يسمُّونها الجِل، ويفتح ثلاثة أزرارٍ من قميصه، ثم يقول لك: وما الحاجة إلى قراءة كتاب. أنا لم أقرأ كتاباً في حياتي، وأنا حر. أنا أدخل على الانترنت وانتهى الأمر. ورأيت الناس في أوروبا يفترسون الكتب افتراساً، كما كانوا قبل عهد الإنترنت.. لا بل أكثر.. ورأيتُهم يستعملون الإنترنت استعمالاً ذكياً. حدثتك عن أصغر الأشياء عن المعلومات ومصادرها. أما الأخلاق فحديثُها أطول. هناك في العالم العربي إفلاس في العلم وفي الأدب وفي الأخلاق. أوضاعنا تصعبُ على الكافر. أحوالنا غلط في غلط.

 كوخ الثقافة

عزيزي المستمع، فتحوا دكاناً ثقافياً في البلد، وصار المثقفون - وهم أكثر خلق الله اهتماماً بأنفسِهم، وحرصاً على رأيِ الناس فيهم، بسبب ضعف شخصيتهم - يتحدثون عن هذا الدكان الثقافي ليلَ نهار. وانقسموا فريقين بين مؤيِّدٍ له ومعارض. والمهمُّ طبعاً وجودُ مصلحةٍ معينة لهذا المثقَّفِ أو ذاك. والأدْهى من ذلك أن هذا الدكان كان مخصصاً ليس فقط للثقافة بل للفنِّ أيضاً. والفنانون في البلد يقتلُهم التواضع، وهم أمَّةٌ عجيبة. سأسكت. سوف أسكت. سأكفُّ لساني. لأنني لو مضيتُ على هذا النحو فسوف أثير غضب الكثيرين.

الدكان الثقافي الجديد سمَّاه الذين فتحوه: كوخ الثقافة. وهو مشيَّدٌ بأموال من أوروبا، والبضاعة التي يقدمها (أقصد البرامج الثقافية والفنية) شاركَ في وضعها الأجانب.

وصلتني رُقعةُ دعوة لحضور حفلِ الافتتاح العظيم. نظرتُ في الرقعة فوجدتُها بطاقة مستطيلة من الورق المقَوَّى، وعليها عدةُ أسطرٍ باللغة الإنجليزية. حدَّقتُ في سقف الغرفة لحظة: تذكَّرتُ الكلام الكثير الذي يقولُه أولئك المثقفون والفنانون عن الاغتراب وعن هيمنة ثقافة الغرب علينا. تذكَّرتُ فلسفتَهُم الفارغة. وها أنذا أقف أمام رقعة دعوة لافتتاح كوخ الثقافة.. وأراها مكتوبة من الشمال إلى اليمين. ورأيت نفسي أمزق الدعوة بالشمال وباليمين، وأضعها في سلة المهملات، وأنا أقول كخ على هذه الثقافة. إن ثقافةً لا تعرف أن أرض بلادي تنطق باللغة العربية ثقافة لا أريدها، ولا أريد كوخها. هذا مشروع ليست له هوية. نرجو له ولأصحابه الهداية، ولكنه حتى الآن ما زال في دائرة غلط غلط.



٢٠١ التكريس مفتاح الإبداع

عزيزي المستمع، البشر ثلاثة أنواع. النوع الأول يقف على ضفة النهر متهيباً العبور، متردداً، ويبقى واقفاً في مكانه.. فاشلاً.. ويموت وهو على الضفة. هؤلاء هم الفاشلون، وهم أقلية. والنوع الثاني يخوض غمار الماء ولا يفكر في شيء سوى في عبور النهر.. ويتغلب على كل المصاعب.. وفي النهاية يعبر النهر ويقف على الضفة المقابلة.. هؤلاء هم الناجحون وهم أقلية. ومعظم الناس من النوع الثالث. إنهم يترددون قليلاً ثم ينزلون إلى الماء ويسبحون ويلعبطون، وينسون الضفة الأخرى، ويموتون وهم في الطريق. هؤلاء هم الغالبيةُ العظمى: يعيشون حياتهم، ويموتون موتهم، يسعدون ويشقون ولكنهم يفقدون الهدف. من هؤلاء المتوسِّطين، الذين لا هم بالفاشلين ولا الناجحين، تلك المجموعة الكبيرة من الناس الذي يغيرِّون أشغالهم كثيراً. تراهم يقفزون من صنعة إلى صنعة، ومن وظيفة إلى وظيفة، وقد يجمعون حرفتين وثلاثَ وظائف، ويعيشون حياة رخيَّة، وتسيل أيديهم بالقروش ويعمِّرون بيوتاً ويزوِّجون أولادهم. لكنهم لا يكرّسون حياتهم لهدف كبير واحد.

الأديب الحقيقي، والفنان الحقيقي لا يمكن أن يشتغل إلا في فنِّه. وإذا اضطُرَّ إلى وظيفة فإنها تكون هامشيةً، ولا تأخذ من تفكيره سوى القليل.

تكريس النفس - في نظري - هو المفتاحُ للإبداع، لقد أبدع الفنان الهولندي فان خوخ ألفاً وستَّمئة لوحةٍ واسكتش صنعَها في تسعِ سنواتٍ فقط. كان يسابق الزمن، يعمل بلا هوادة. ومات شاباً لم يبلغ الأربعين. مات وهو يرسم. هل تعلم، عزيزي المستمع، كم لوحةً باع فان خوخ؟ صفر. لم يبعْ لوحةً واحدةً. ومات وهو يأخذ مصروفه من أخيه. لم يُكتب عن فان خوخ في حياته سوى مقال نقدي واحد. وبعد موته بيعت لوحاته بالملايين وكتبت عنه حتى الآن آلاف الكتب. يكاد المرءُ يحمَدُ التوسُّط، ويكاد يقول إن الإبداع غلط غلط.



٢٠٢ صالة القمار.. المغزى

عزيزي المستمع، أنوي أن أحدثك عن الرمز. وكيف أنه أقوى من الكلام، وأبدأ حديثي بمثال عن صديق لي في دولة مجاورة. هل انتبهتم إلى عبارة (دولة مجاورة)، أنا لا أقصد أحداً من البلد هنا. صديقي هذا عنده سيارة بي إم ثمُنها ستُّمئة ألف دولار اشتراها على حساب الشعب.. في دولة مجاورة.

كنت جالساً معه في مقهىً ملحقٍ بفندق من الفنادق.. وتحدثنا عن التكافل الاجتماعي. وعرض علي صديقي المذكور (وفي الواقع أنه غير مذكور، مثلما أن بلدَه غيرُ مذكور)، عرض عليّ برنامجه الإصلاحي - وصديقي بالمناسبة وزير -. يريد صاحبي أن يَطبِّقَ في البلد نظامٌ لمنح العائلات الفقيرة مبالغ منتظمة لتعليم أطفالها، ولشراء الضروريات. ويريد أن تتوفر لكل عائلة علبةُ حليب يومياً كحد أدنى. ما علينا من التفاصيل. إنه برنامج رائع لمساعدة الفقراء. أثناء الحديث قام صاحبي ونظر من الشباك.. اطمأنَّ على سيارته البي إم، ثم نادى الجرسون وطلب منه أن يرسل أحداً لكي يبعد شاباً متكئاً على السيارة. طبعاً.. نسيتُ أنا كلَّ كلامه عن الفقراء.. وتذكرتُ أنه يركب سيارة يكفي ثمنها لإطعام مخيم كامل سنة كاملة. تلك السيارة هي الرمز.. وهي أقوى من كل الكلمات، إنها تمثل الحقيقة البشعة.

خذ مثالاً آخر على الرمز وقوته. هناك مجلسُ بلدي فاز بالسلطة المحلية في الانتخابات. وقرر أن يقوِّيَ اقتصاد المدينة. فكان أوَّلَ مشروع له فتحُ صالةٍ للعب القمار سماها (صالة القمر). وقد اقتنع كثيرون من أهلِ المدينة بأن المشروع مهم اقتصادياً ورابح. لكنَّ بعضَ العقلاء استطاعوا أن يلمسوا قيمة الرمز المدمِّرة. إن من يبدأ فترته في البلدية بصَالةِ قمار إنما يعطي مؤشراً قوياً على التوجه العام له، إنه توجه منحرف اجتماعياً، وطبعاً ذلك المجلس البلدي موجود في دولة مجاورة أيضاً.. ومع ذلك فنحن من هنا من بلدنا العامر بالمشاريع الناجحة، ببركة الدول المانحة، نقول عن صالة القمر للقمار إنها كانت غلط غلط.





لتنكسر رجله، لكن لا أريده أن يأكل وحده

عزيزي المستمع، أعرف مهندساً غريب الأطوار، له قصة مع الأزرار، لا تكاد تراه إلا وزِرٌّ من أزرار قميصه مفقود.

إذا صادفَتْه حِسْبة صعبة في الإسمنت والحديد، أخذ يفكِّر ملياً وهو يلوي زر قميصه حتى يقلَعَه من مكانه. وقد رأيت من غرابة أطوار هذا الرجل مؤخَّراً حادثةً غريبة.

أرسل الرجلُ ابنه إلى مخيَّم صيفي، وفي اليوم الثاني جاء ابنهُ إلى البيت ورجلُه مكسورة، فأرسله إلى المستشفى حيث كسيت الرجل المكسورة بالجبس. وقال له الناسُ إن إهمالَ القائمين على المخيم هو سببُ كسر رجل الولد. فلم يعبأْ صاحبُنا المهندس بكلام الناس. وقال: ولد يلعب، وقع، فانكسرت رجله. ورجع الولد إلى المخيم، وهو بعكّازين، سُرَّ بهما سروراً شديداً.

وبعد يومين أخذ القائمون على المخيم الأولاد والبنات إلى حديقة في المدينة تسمى حديقة القيقب. والقيقبُ شجر كبير ورقتهُ مثلُ كفِّ الإنسان، وتُرى هذه الورقة على علم كندا. ويسمون ذلك الشجر في ذلك البلد «الميبل»، ولكننا في مدينة نصف سكانها ينطق القاف آفاً، والنصف ينطقها كافاً ركِبَنا شيطان العروبة وسمَّيْنا تلك الحديقة حديقة القيقب، وصار بعض الناس يتجنبون الذهاب إليها حتى لا ينطقوا باسمها إن سُئلوا: أين كنتم؟

المهم ذهب الأولاد مع مسؤولي المخيم إلى حديقة القيقب. وفي ساعة الغداء طاف أحدُ المشرفين على الأولاد ولمَّ منهم النقود لشراء الساندويشات، فمنهم من أوصى على ساندويش فلافل، ومنهم من أوصى على ساندويش شاورما، ومنهم من قال إنه ليس جائعاً، ولم يوصِ على شيء. عندما عرف المهندس الغريبُ الأطوار بالأمر استشاط غضباً، وبدأ ينتقد القائمين على المخيم بشدة وجسمهُ يرتجف من فَرْطِ الغضب. كيف سمح هؤلاء المشرفون لأنفسهم أن يُحضِروا ساندويشات الشاورما الغالية الثمن إلى بعض الأولاد الذين يملكون المال، وكيف غاب عنهم أن الأولاد الذين لم يطلبوا ساندويشاً كانوا فقراء إلى درجة أنهم لا يملكون ثمن ساندويش الفلافل. في مخيم صيفي فيه لعبٌ وحركةٌ وتكسير أرجل يجوع كلُّ الأولاد في ساعة الغداء. ولكن بعض الأولاد يأكلون الشاورما وبعضهم يشمُّون الرائحة. أنا أنقل موقف ذلك المهندس الذي يبدو غريباً في مجتمعنا. لكنني أقول لك عزيزي المستمع حتى في البلاد الرأسمالية لا يصنعون ذلك. عندهم إحساس أكثر مما عندنا. عندنا نحن مواقف أقل ما توصف به أنها غلط غلط.

٢٠٤ البدين والناس

عزيزي المستمع، لي صديقٌ اسمه محمود، عيونه سود. وهذا ليس الشيء المهم. الشيء المهم أن محموداً كان بديناً. وربما كان هذا مما أدناني إليه، فالطيور على أشكالها تقع.. إن كان يحسُنُ أصلاً وصفُ أمثالنا بالطيور. كان محمودٌ ريّاناً عَبْلَ الذراعين، عريضَ

المنكبين تامَّ الخِلْقَةِ عظيمَ البسطة، وكان مِصَكّاً ذا وَجْرةٍ، متباعداً بعضُه عن بعض. وانظر فقط عزيزي المستمع إلى صفته هذه الأخيرة :إنه متباعدٌ بعضهُ عن بعض. نعم لقد كان رائحاً بالعرض. كأنما حاول أن يروح بالطول، فأعياه ذلك فراح بالعرض. وصار يجرُّ من وراءه شيئاً ضخماً، ويسوق أمامه شيئاً ضخماً. وتكدست على كل عضو من أعضائه أشياء كأكياس الرمل يحتمي بها من يوم ذي مسغبة.

يقول لي محمود إن الواحد من أصحابه القدامى يلقاه في الشارع.. فيأخذ ذلك الصاحب بالصفير والشخير، ويقول له: مالك يا أخي! لقد تضخمت وصرت محمودين، لا محموداً واحداً. ويلقاه آخرُ فيشير بكلتا ذراعيه إشارة إلى العرض، ويغمزُ بعينه ويضحك، ثم يقول: ما شاء الله.. لعلك تزن أكثر من مئة وعشرين؟ وهكذا من أمثال هذه التعليقات التي يسمعها محمود بين الحين والحين. يقول لي صديقي محمودٌ إنه أيقن بعد مدة أن الذين يُلقُون أمثال هذه التعليقات يتمتعون بقلة الذوق.. وإنهم ليسوا محبِّين. وقد اخترع صاحبي طريقة للرد عليهم.. أصبح كلما سمع تعليقاً من أحد الثقلاء عن وزنه قال لذلك الثقيل: الحمد الله أنني لم أكتسب شحمي على مائدتك، وأرجوك ألا تدعوني إلى الطعام في المستقبل، لأنني لن ألبِّيَ الدعوة.

وبما أنني أشارك محموداً في بعض مشكلته فإنني أرى أن ردَّه يحمل بعض القسوة وأنه غلط، ولكن تعليقات الناس السخيفة غلط غلط.

٢٠٥ الكاتب المأجور

عزيزي المستمع، لا يغرنَّك شأن المشهورين. هذا معروفٌ الرصُّافي حفظوا شعره في حياته وطبعوه بعد موته، وآخرُ طبعة رأيتها في خمسة أجزاءٍ، وهي محقَّقةٌ أحسن تحقيق، وله كتاب في الدين يشهد له بالعلم الواسع وإن كانت مادته تُغضب السلفيين. مات فقيراً يبيع السجائر في الفلُّوجة. وهذا عباس العقاد.. كتب مئةَ كتاب، وعاش عمره كلَّه في بيت بالأجرة، وفي سنواته الأخيرة كان العقاد يُخرِجُ بعض ما عنده في البيت من

كتب ليبيعَها ويأكل بثمنها. وقد علم بذلك أحمد بهاء الدين فسعى لدى جريدة الأخبار لتطلب من العقاد الكتابةَ لها مقابل أجر.. لكن دون أن يعلَمَ العقاد بالواسطة.. وظل العقاد يكتب في أخبار اليوم إلى أن مات عام أربعة وستين مستوراً. هناك كاتب مختلف أريد أن أحدثك عنه وهو من بلد مجاور، كاتب عينوه مديراً لعدة مؤسسات بعضها حكومي وبعضها غير حكومي. وهو يتقاضى المرتَّباتِ العاليةَ من كل مكان، قابلتُه ذات يوم، وكنت أعمل مع مؤسسة أوروبية. فعندما علم أنني أشتغل مع الأجانب، احتفى بي واهتمَّ بأمري بشكل مبالغٍ فيه. ثم قرأت الأشياءَ التي ينشرها، فرأيته يكتب بحوافر سميكة. سقط من عيني لرواتبه الكثيرة، ولعمله المأجور للدولة ولكل من يدفع، وسقط من عيني لاهتمامه بالخواجات، وسقط من عيني للكتابة الرديئة.

لن احترم كاتباً مستعبَداً.. فالكتابة عندي شيء مقدس.. صحيح أن معاناة الكاتب من الجوع غلط.. ولكن بيعَهُ قلمَه غلط غلط.



٢٠٦ لصوص النهار

عزيزي المستمع، أحدثك في هذا البرنامج كثيراً عن لصوص النهار، وعن المنحرفين عن القانون.. ولكنك تلاحظ أنني لا أذكر أسماءً. في بعض الأحيان يكون الوصف قريباً ودقيقاً إلى درجة أنني أكون متأكداً أن الشخص المعني سيعرف نفسه لو كان بين المستمعين. المشكلة أن كثيرين ممن أسلخ جلدَهم يعرفونني وأعرفهم، ونلتقي بين الحين والحين. لكن لا حيلةَ لي: لا أستطيع أن أسكت. ومما يهوِّن الأمرَ أن هؤلاء القوم يتظاهرون أن الكلام ليس عنهم، ويبتسمون في وجهي ويقابلونني مقابلة حسنة. فليستمروا.

أنا لا أستطيع أن أذكر الأسماء: ليس حفاظاً على علاقاتي الاجتماعية، فهي علاقات قليلة جدا. وأنا لا أقيم مع السيدات والسادة اللصوص أية علاقات اجتماعية أصلاً، بل نلتقي في محافل عامة أو في السوبرماركت. وما يجعلني أُحجم عن ذكر الاسم أنه لا يوجد سند قضائي.

وأعتقد أن ذكر الأسماء شيء أساسي، لأن واجب الإذاعة والصحافة أن تعرض الحقائق كاملة. ولكنّ بلدنا ليس فيه تقاليدُ قضائيةٌ تساعد الصحافي على مساءلة الفاسدين بأسمائهم الثلاثية.

ترى في الجريدة خبراً عن إتلاف مئة طن من الطحين المسوِّس، وإغلاق مخازن التاجر المستورد. ولكنك لا ترى اسم التاجر. وأحياناً لا ترى اسم المدينة. بالله عليكم يا وزارة التموين.. إذا كنتم قد اتّخذتم إجراءً كهذا فلا بد أنكم قدمتم إدانةً لمرتكب المخالفة. لماذا لا تعلنون اسمه؟

إن الفساد غلط وكشفُ الفساد صح. ولكن كشف الفساد مع التستر على صاحب الفساد غلط غلط.



برامج المسابقات

عزيزي المستمع، مبروك للذين فازوا وللذين لم يفوزوا. نعم مبروك للذين لم يفوزوا، لأنهم لن يتكبَّدوا نَفَقاتِ المشوار إلى محطةِ الإذاعة أو التلفزيون لتسلم الجائزة. ومبروك للمحطات على هذه البرامج.

برامج مسابقات بالعشرات، وهي مشحونة بالدعايات والرعايات. لكن هذا ليس أسوأَ ما في الأمر. السيء فعلاً هو الأسئلة. خذوا مثالاً: أحد المذيعين أنفقَ ربعَ ساعة وهو يسأل الناس عن مؤلف أغنية عبد الحليم حافظ: «وحياة قلبي وأفراحه». والمشاهدون الكرام يتصلون.. معظمهم يقول: المؤلف هو فتحي قورة.. وتتصاعد في الخلفية الأنغام، ويردد الكورس: الناجح يرفع إيده. ولكن المتسابق المسكين لا يرفع يده، بل يرفع رجليه، ويسقط عن الهواء ويقول له المذيع: غلط. وفي النهاية قام المذيع بتأنيب الجمهور على قلة معرفتِهم. وقال لهم الجواب الصحيح هو أن الأغنية من تأليف: إيليا أبو ماضي. والواقع، عزيزي المستمع، هو أن المذيع أخطأ. فالأغنية فعلاً من كلمات فتحي قورة. والمشاهدون الكرام عرفوا ذلك من الكاسيت. ولكن المذيع

قرأ معلومته من ظهر أسطوانة السي دي التي أوردتها خطأ. وإيليا أبو ماضي صاحب كلمات الأغنية الأخرى في السي دي نفسه، أغنية «لست أدري». وكان يجدر بالمذيع أن يفكر قليلاً.. فإيليا أبو ماضي لم يكتب الأغاني بالعامية طول عمره.

هذا مثال صغير، سمعته بأم أذني. الذين يقدِّمون برامج المسابقات كثيرون، وكثيرون منهم ليسوا بالمستوى المطلوب. وحتى الأصلحُ حالاً منهم يختارون موضوعات لا تهم الناس، ويستعيرون أسئلة من برامج سابقةٍ منشورةٍ في كتب. كل هذا لا يهم. المهم الحرصُ على عدد كبير من المكالمات حتى ترضى الشركة الراعية، ولهذا تتم كرفتة المشاهدين عن الخط بسرعة، وبشكل غيرِ لائق أحياناً. الأسئلة غلط وطريقة الرعاية غلط وموقف المذيعات والمذيعين غالباً غلط غلط.



٢٠٨ الوطني الغيور

عزيزي المستمع، سأوجه رسالة إلى من يعرفُ نفسه فإذا زعل.. فهذا أفضل.

رفع سماعة التلفون وقال: مرحباً. وتحدث عن مشروع كبير. مشروع وطني، لتوعية العالم بالقضايا الوطنية، وبمعاناة شعبنا. وتكلم طويلاً ووضع مواعيد محددة لبدء التنفيذ. وحتى لا أُتهم أنا بالتقصير كتبتُ له خطة مفصَّلة تحتوي على المحاذير، وعلى المعلومات اللازمة. وطبعا لم أسمع منه بعد ذلك شيئاً.

أخونا بالله فشَّ خُلْقَه.. وشغَّلني على مشروعه الوهمي ليلتينِ متواصلتين ثم نسيَ الأمر. وبعد سنةٍ سمعنا بالعمارة التي انهارت. وأما المقاولُ الذي بنى العمارة فهو صاحبُنا نفسه. العمارةُ لمؤسسة خيرية.. وقد بناها صاحبي وسرقَ من المواد ما سرق، إذ بناها بمواصفات مختلَّة. وجاءت العاصفة قبل شهر فقط من تسليم المفاتيح فوقعت العمارة.

وفتحوا تحقيقاً حضرتْه عدةُ جهات، وكان صاحبي يحضر الجلسات سعياً للَمْلَمَةِ الحكاية. وتم تغريمه، لكن كان يجب إلقاؤُه في السِّجن، كان يمكنُ أن يُقتَلَ خلقٌ كثيرٌ من وراء سلوك هذا اللص. ولكن الله سلَّم، وأخذتُ أنا عدَّة دروس.

أولاً: يجب عليَّ من الآن فصاعداً ألاَّ أتعامل مع المتحمِّسين، لأنه لا يأتي من ورائِهم خير.. لا للوطن ولا لغيره.

ثانياً: كثيرون ممن يرفعون الصوت عالياً في قضايا الوطنية، هم في سلوكهم الشخصي غيرُ مستقيمين. وإنهم لَيَفصِلون فصلاً غريباً بين الوطنية السياسية، والوطنية السلوكية؛ وهذا الفصل من سوء النيَّة، فهم يتخذون الوطنية اللفظية ستاراً لأشغال شائنة.

ثالثاً: العالم ليس بحاجة إلى أن يعرفَ عن قضايانا أكثرَ مما يعرف. وجهودُنا في هذا المجال لا تؤدي إلى نتائج. إذا نجحنا في إعلامنا المحلي في فضح المشاكل التي نعاني منها داخلياً، فإن هذا يكفي وزيادة. قبل أن نُعَرِّفَ أوروبا وأميركا بالظلم الواقع علينا من المحتل علينا أن نعرِّفَ شعبنا بالظلم الواقع عليه من أبنائه.

أقول لك الحق عزيزي المستمع، جريدة الغارديان التي تصدر في لندن والتي توزع مئات آلاف النسخ كل يوم، وتدعمُ قضايانا كثيراً بالتحقيقات والمقالات.. هذه الجريدة لا تنتظر أن نزوِّدَها بالبيانات الرديئة والهزيلة التي نصوغُها. إنها ترسلُ الصحافيين إلى بلدِنا ليروْا بأعينِهم ثم يكتبوا. لو اعتمَدَت الغارديان على بياناتنا المضحكة لصارت تغطيتُها لقضيتنا هزيلة. أُتركوا الإعلامَ العالمي بحاله، وانتبهوا إلى أوضاعنا الداخلية ولاحقوها بالنقد وبالاعترافات الصادقة فأوضاعنا غلط غلط.

٢٠٩ عرس بغل

عزيزي المستمع، بلدنا بخير. إن لم تصدق فانزل إلى البلد التحتا وسترى دار أبو محمود يسُدُّون الشارع بحجارة ضخمة من الجهتين، ستظن في البداية أن هناك مظاهراتٍ وتوليعَ كَوْشُوك، لكنْ لا تذهب بفِكرِك بعيداً. دار أبو محمود يحتفلون بتزويج ابنِهم، وقد سدُّوا الشارع ووضعوا مئتي كرسي بلاستيك للمعازيم. ولم يكتفوا بليلة واحدة. بل عرسُهم يجب أن يكونَ ليالِيَ ثلاثاً، وأخشى أن يُتِمُّوها سبعَ ليالٍ، عامرة بالألعاب النارية. بلدنا بخير.

أحد المواطنين تبرَّعَ بفكرة لكي يمنعَ هذه المسخرة. اقترح أن نذهب إلى أبو البساطير، صاحب الجهاز الأمني الخطير، لكي يوقف هؤلاء القوم عند حدِّهم. ثم أكتشفَ صاحبُنا المواطن أن نصفَ الذكور من عائلة أبو محمود يشتغلون عند أبو البساطير، واكتشف أيضاً أن أبو البساطير حضر العرس ونقَّط العريس. بلدنا بخير. ابن المدير الكبير يشفِّط بسيارة أبيه المرسيدس في أكثر شوارع البلد ازدحاماً، ويسرع بها كالمجنون ثم يفرمل كالمجنون، حتى يلتفت كل الناس ويروْا فضيحة أبيه فيه. وتنظر إليه فتراه شاباً في العشرين أو ما دونها يلبس شبَّاحاً.. وبعبارة أخرى فانيلا كطٌّ سوداء مثل عمرو دياب (وهذا القميص الذي ليس له أكمام اسمه بالعربية: الإتْبُ، والقَرْقَل، والقَرْقَر، والصِّدار، والمِجْوَل، والشَّوْذَر، هذا إن كان للنساء فإما إن كان للرجال فاسمه الخَيْعَل/ وقد ترك العباسيون كل هذه السماء العربية واستعملوا الكلمة الفارسية «السامال»، ونحن تركناها واستعملنا الشبَّاح والفانيلا، ومؤخراً الكَطْ)، ونعود إلى وصف ذلك الشاب: شعره أسودُ ملطوطٌ بمادة بترولية فكأنه شعر جُرَذٍ مقليٍّ بالسمن. وتراه يُخْرِجُ يدَه من نافذة السيارة حتى يتأكَّد القاصي والداني أنه يسوق بيدٍ واحدة. بلدنا بخير. ولكن بعض الناس يحبون المبالغة والتجنِّي ويقولون إن حالنا غلط غلط.



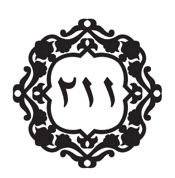
٢١٠ حماسة مخلوطة بالزبدة

عزيزي المستمع، مجموعةٌ من الشباب المتحمسين يريدون تصويرَ مسلسل. قلت لهم: هل عندكم نص. قالوا: سنكتبُه، ثم نتدرب عليه. هل عندكم استديو؟ قالوا: سنصوِّرُ في الشارع. هل هناك أجهزةُ تصوير؟ قالوا: نستأجرها. قلت: هل تعلمون أن أجرةَ الكاميرا الواحدة هي كذا وكذا؟ قالوا: لا نعلم، ولا يهمنا الأمر. اكتشفت بسرعة أن رأسَمالهم الوحيد هو الحماسة. وهو بصراحة رأسمال جيد، لكنه لا يكفي. تكملةُ القصة أن الشباب نسوا كل الحكاية بعد يومين.

لقد نجح المسلسل السوري بعد مخاض طويل استمر خمسين سنة في المسارح وفرق التمثيل المحلية والإذاعية. موهبةُ التمثيل قد تكونُ موجودة عند كثيرين، وقد يكتشفها الشخصُ العادي في جارٍ له يتقنُ فنَّ الكلام. ولكنْ، ضع هذا الجار (الذي بِلِسانيْن) أمام الكاميرا، وستراه أصبح أبلهَ أبكم. المسألة ليست مسألة هواية وهوس، إنها صناعة. والممثل الجيد يحتاج إلى سنوات طويلة من الخبرة. والنص الجيد لا يكتب على طاولة مقهى، ولا ينفع فيه العمل الجماعي.

في بلدنا ناسٌ كثيرون من كبار السن، تفكيرُهم لا يزيد كثيراً عن تفكير أولئك الشباب المتحمسين. وقد فتح بعضهم محطات تلفزيونية وإذاعية لكنهم فشلوا فنياً وإعلامياً. وأشدُّ ما يغيظني أولئك الذين ينتقلون من فشل إلى فشل ولا يتعلمون.

أطالبُ الشابَّ الذي يتحمسُ كثيراً لشيء ثم لا يتحقق ذلك الشيء أن يقف مع نفسه وقفة صدق ويقول: لقد أخطأتُ في حساباتي. وفي المرة القادمة سأخطط بشكل أفضل. أما الشاب الذي يواجه الفشل بسلسة من الحُجج والأعذار وإلقاء اللوم على الآخرين، ويرفض الاعتراف بأنه أساء التقدير أصلاً فهو على غلط. وإذا صار الفشل ثم اللوم والإخفاق ثم تحميلُ الآخرين المسؤولية طبعاً من طباعه فهذا غلط غلط.



الفصحى والمؤخرات المهتزة

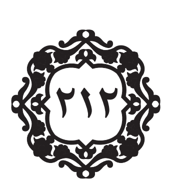
عزيزي المستمع، أحدثك بالفصحى وأُقَلِقِلُ قافاتي وأَنِقَعُها في حَلْقي دقائق قبل أن أُطِلِقَها، فتُقَعقِعُ كأنها القباقيب أُلقِيَت على الزينكو، لكنَّ بعض المستمعين يصِرُّون على أنني أتحدَّثُ بالعامية. لا أدري لماذا؟ ربما لأنني أحدِّثُهم عن أشياءَ تقع في حياتهم، لذا يغلبُ على ظنهم أنني أتحدث بالعامية.

أو لعلهم يظنُّونَ هذا الظَّنَّ لأنني أحدثهم كثيراً عن المطربين الذين لا يحلو لهم الغناء إلا إذا أحاطهم مخرج الفيديو كليب بالبرتُقالات الراقصات. وعن المطربات اللاتي لا أصواتَ لهُنَّ فترى فلانة مثلاً إذا بدأ المشاهد يلاحظ النَّشازَ في صوتها المعدوم،

أعطته قفاها حتى ينسى ما سمع. وترى مطربة أخرى تغني أغنية كاملة بذلك الجزء من جسمها الذي تقعد عليه.. وهناك قفا ثالث في المطربات أحب أن أذكِّرَك به، وهو قفا تلك الخادمة التي تحب أن تضع النُّقَطَ على الحروف قبل أن تطلب من سيِّدِها أن يتبعَها إلى الروف.

تصوَّر مستمعي الكريم هذا الفيديو كليب. الخادمة ترقص للرجل صاحب البيت، وهو أستاذ يجلس إلى طاولته ويشعل مصباح القراءة والكتابة.. لكنها تظل تغريه.. ثم تنقره في كتفه، ليس بيدها بل بِرِدْفِها.. ثم تُحَزِّمُه وتُصعِدُه فوق الكرسي، وتجعله يرقص بلدي.

بصراحة أنا أعتقد أن مخرجي الفيديو كليبات ليسوا أغبياء. إنهم يفهمون غرائزَنا فهماً عميقاً ويعطونَنا ما يبهجُ نفوسنا. المشكلة ليست في التلفزيون ولا في روتانا، المشكلة في كبتنا وفي ممشانا. ربما كانت روتانا غلط لكنْ نحن غلط غلط.



٢١٢ ريح على سراييفو

عزيزي المستمع، كنت رأيتُ يوماً قصيدةً كتبها رجل اسمه غوران سيمي عن سَراييفو أيام سالتِ الدماء في شوارعها. لقد رأى الشاعر جرائد على الرصيف والجو عاصف، ولكن الجرائد لا تتطاير لأنها ملتصقةٌ بالرصيف، إنها ملتصقةٌ بالدماء. يقول الشاعر:

ريح على سراييفو

هبت تقلب صفحة في إثر صفحة

من جرائد ثبَّتتْها بالرصيف دماءُ أهليها

وأنا أمرُّ وتحت إِبطي خبزُ يومي ضائعاً فيها

هكذا تأتَّى لي أن أنقلها إلى العربية، عن لغةٍ وسيطة.

ذكَّرتني هذه القصيدة بالشاعر أبي البقاءِ الرُّنْدِيِّ إذ يتحدث عن حال الأندلس بعد أن داهم القشتاليون معاقل العرب، وأعملوا السيف في رقابهم. يقول الرندي:

يا رُبَّ أمٍ وطفلٍ حِيل بينهما — كما تفرَّقُ أرواحٌ وأبدانُ
وطفلةٍ مثلِ حُسْنِ الشمسِ إذ طلعتْ — كأنما هي ياقوتٌ ومرجانُ
يقودُها العِلْجُ للمكروهِ صاغِرةً — والعينُ باكيةٌ، والقلبُ حيرانُ

وذكَّرتْني هذه الطفلة الأندلسية بطفلة إيطالية وصفها شاعر النيل حافظ إبراهيم في قصيدته عن زلزال مَسِّينا عام ألف وتسعمئة وثمانية:

وفتاةٍ هيفاءَ تُشوى على الجمْـ — ـرِ، تعاني من حرِّهِ ما تعاني
وأبٍ ذَاهلٍ إلى النار يمشي — مستَميتاً تمتدُّ منه اليدانِ
باحثاً عن بناتِه وبَنيهِ — مسرعَ الخَطْوِ مُستطيرَ الجَنانِ
تأكلُ النارُ منه لا هو ناجٍ — من لَظاها ولا اللَّظى عنه وانِ
رُبَّ طفلٍ قد ساخَ في باطن الأرْ — ضِ ينادي: أمِّي أبي أدرِكاني

عزيزي المستمع، هذا شعر فيه بلاغة وفيه إنسانية عميقة. وفي أوضاعنا التي نعيش دواعٍ للشعر كثيرة. ولكن أين الشاعر؟ ما نحسنه نحن: البيانات فقط. ومعظمُها غلط غلط.

٢١٣ التصحر العقلي

عزيزي المستمع، المستمعُ المواظبُ على برنامجي يعرف أنني مخترع مهم. ذات يوم أزعجَني البحث عن الحروف على لوحة مفاتيح الكمبيوتر، فاشتهيت أن أُمسك قلماً بيدي وأكتبَ به رسالتي على الشاشة ثم يتحولُ خطُّ يدي إلى حروف مطبوعة. ولم يمض طويلُ وقت على هذا الاختراع حتى رأيته بأم عيني وقد تحقق. نعم، هناك الآن شاشةٌ بحجم الكف تكتبُ عليها بعودٍ من البلاستيك شبيهٍ بالقلم، وتتحول حروفُكَ المكتوبةُ إلى حروف مطبوعة. هذا عن اختراعاتي. وأما أفكاري فتتم سَرِقتُها أيضاً. مثلاً فكرتي أن البداوة تدمِّرُ المدينة سرقها ابن خلدون قبل ستمئة سنة.

لكنني مع ذلك أتمسَّك باختراعاتي وأفكاري. البداوة تزحف علينا تماماً مثلما تزحفُ الصحراء على الأرض الخضراء. نحن الآن نعاني من تصحُّرٍ حضاري.

مؤسسة في بلدنا سلَّموها لمديرٍ أحمق. كلَّما عُيِّنَ فيها موظَّفٌ جيدٌ كفءٌ شنَّ عليه المدير حربَ تطفيش. فلا يبقى في المؤسسة إلَّا الحمقى وغيرُ الأكْفَاء. أليس هذا تصحُّراً.

طالبةٌ جامعية في السنة الرابعة سألتُها سؤالاً على سبيل المزاح قلت لها: هل للعراق حدود مشتركة مع موريتانيا؟ قالت: ربما. ثم استدركت قائلة: بصراحة لا أدري. وإذا عرفتَ، أيها المستمع، أنَّ بين العراق وموريتانيا خمسةَ آلافِ كيلومتر فسوف تستغربُ من جوابها. لكنني أزيدك من الشعر بيتاً، وأزيدك عجباً، وأقول لك إن تخصص هذه الطالبة شيء يقع بين التاريخ والجغرافية والعلوم السياسية.. أنا متأكد من أنها ستجد وظيفة بسرعة لأن لها واسطة. ولأن علاماتها في الجامعة عاليةٌ جداً.

الصحراء تزحف علينا. هذا هو تقييمي للوضع العربي الآن.. وأنا أتمنى من كل قلبي أن يكون تقييمي غلط غلط.



٢١٤ مئة ألف جامعي والمستوى هابط

عزيزي المستمع، عندنا في جامعاتِنا مئةُ ألفِ طالب. وبما أن الدراسة الجامعية أربعُ سنوات فإن جامعاتِنا وعددُها أكثرُ من عشر، تخرجُ في كل عام خمسةً وعشرين ألفَ شابٍ وفتاة.. كلُّهم يحملون شهاداتٍ مصدَّقةً من الوزارة. بلدنا طبعا لا يحتاج إلى هذا العدد من الجامعيين في كل عام. لكن.. لم لا. أن يتعلَّم الشباب خيرٌ لهم من قَعْدَةِ الدار. إذن فالتعليم الجامعي صار ضَبَّةً للشباب وليس حاجة مجتمعية. ومن جهة أخرى، لِيتعلمْ هؤلاء الشباب، فإن لم يشتغلوا في بلدهم ذهبوا إلى دبيّ وإلى أميركا.. يسحبهُم إخوتُهم الأكبرُ منهم أو أعمامُهم إلى هناك ويدَبِّرونَهم في وظائف أو في جامعات لإكمال دراستهم. إذن فنحن نعلِّمُ طلبتَنا استعداداً لتصديرهم للخارج، وليس لوجود حاجة مجتمعية.

إذا كان الأمر كذلك، والأمر فعلاً كذلك، فلماذا يشكو الطلبةُ الجامعيون من الأقساط المرتفعة؟ لماذا يطالبون المجتمع بأن يدعم التعليم الجامعي؟ طالبةٌ تدرس علم الاجتماع، سألتُها عن الخطوة القادمة فقالت: أريد أن أتخرج ثم أتزوج. الشهادة بالنسبة إليَّ هي

ضمانٌ إضافي للمستقبل لا أكثر. ثم صارت هذه الطالبة تشكو من أقساط الجامعة.

إذا كان طلبتنا يدرسون في الجامعات من باب الترف، ويعتبرون الدراسة الجامعية من الكماليات فعليهم ألا يشكوا من التكاليف.

من جهة أخرى تعاني الجامعات عجزاً مالياً، والأساتذة يقبضون رواتب متدنية، وقد يمضي على بعضهم الشهران والثلاثة بدون قبض. وفي النتيجة يهرب الأساتذة الجيدون إلى دبيَّ وإلى أميركا، وبالتدريج يتدنَّى مستوى التدريس الجامعي. المستوى الجامعي في بلدنا ينحطُّ باستمرار. والتخطيط في هذا المجال مهزوز، ومفتقِدٌ للإرادة السياسية. وهذا كله غلط .. والأدهى منه أن الجامعة التي تقدم للطالب أساتذة قديرين عِلْماً وخبرة وتوفِّرُ مختبراتٍ كافيةً ومجهزة تتساوى في الدعم الحكومي مع جامعة توظف أساتذةً ضعفاءَ وليس فيها تدريبٌ عملي حقيقي، ومختبراتها للزينة فقط. إذا علمنا أن الدعم الحكومي للجامعة الجيدة وللجامعة السيئة متساوٍ وأن رسوم التعليم متساوية، فلن نستغرب إذا تحولت الجامعة الجيدة بالتدريج - وبالتدريج السريع.. إلى جامعة سيئة، وهذا غلط غلط.

٢١٥ علم "النجو" والصرف

عزيزي المستمع، سمعتَ عن تبييض الأموال. هذا مصطلح يستعمل في شأن أموالِ تجَّارِ المخدرات. ومعنى تبييض الأموال هو إدخالُها إلى الحسابات في المصارف وكأنها أموال مشروعة. إذا جاء المحققون ليسألوا تاجر المخدرات من أين حصلت على هذه الملايين التي في حسابك وأنت صاحبُ دكانٍ صغيرة؟ فهو يبرز لهم سنداتٍ قانونية ببيع أراضٍ، وأدلةً بأنه ربح في صفقة خُرْدة أو في صفقة بُنٍّ أو سكَّر. ولعلك، عزيزي المستمع، تشعرُ في قرارة نفسك أنني في الواقع أريد أن أحدثك عن تبيض الأموال في بلدنا نحن، وليس عن تبييض «المعلم خيشة» في الفلم المصري لأمواله. صدَقَ حدْسُك.

في المنظمات الأهلية الكثيرة في بلدنا - والتي يسمونها إن جي أوز - ويمكن لك أن تسميها

النَّجْو بالعربية. والنَّجْوُ هو أيضاً ما يخرجه المرء من غير فتحة الفم. ولعلك سمعت بالفعل استَنْجَى أي نظَّفَ نفسه، هذه من تلك. ما لنا ولهذه الاستطرادات اللغوية.

المنظماتُ الأهليةُ تأتيها أموال، وتنفقها. أحدُ الضالعين في علم «النجو» كان يعطي نفسه مرتَّباً ويعطي زوجته مرتَّباً بوصفها مستشارة، ويعطي سائقَه مرتَّباً بوصفه خبيراً هندسياً، ويعطي حارسه الشخصيّ مرتَّباً بوصفه مشرفاً على المشاريع. وهي كلها مرتَّبات دَسِمةٌ بالآلاف الكثيرة. وبعد أن تصرَفَ المرتَّباتُ من الميزانية، تنصرفُ إلى جيب صاحبنا المدير الذكي من طريق آخر، إذ لا بد لعلم «النجو» من علم «الصرف». وفي نهاية العام تأتي شركةُ تدقيق الحسابات. وهي شركةٌ محترمة في البلد، ولها سمعة عالمية، لا بل هي تحمل اسماً أجنبياً، لأنها فرع لشركة دولية. تأتي هذه الشركة، وتكتشف أن الحسابات ممتازة ودقيقة. تبييض الأموال على هذا النحو يتم في بلدنا كثيراً. الرقابة الحقيقة على إنفاق الميزانيات تتم في الواقع داخل المؤسسة نفسها. وهي في بلدنا لا تتم إلاَّ في عدد قليل من المؤسسات المحترمة. السرقات التي تحدث في مؤسسات النجْو لا تظهر في أوراق الميزانية.

بعض المنظمات الأهلية تقدم الخدمات وتراقب نفسها مراقبة أمينة، وهذه قليلة العدد. وبعضها يقدم الخدمات للناس.. ولكنَّه فاتحٌ ثغرات للسرقات.. وهذا غلط.. وبعضها هو عبارة عن مصائد للمال السائب.. وهذا غلط غلط.

٢١٦ الجمعيات بالعشرات

عزيزي المستمع، عشت في مدينة بألمانيا اسمها دارمشتادت. وكان عدد سكانها أيامئذ قبل ربع قرن مئةً وخمسةً وثلاثين ألفاً. وقد دُهشتُ للعدد الكبير من الجمعيات الموجودة في تلك المدينة الصغيرة نسبياً.

هناك جمعية لمرضى السكر. يلتقي أعضاؤها كل عدة أشهر، ويتداولون في أمورٍ تهمهم؛ وجمعية لمالكي السيارات من طراز كذا، فإذا فقد أحدهم غمَّازاً عرف من زملائه في

الجمعية كيف يحصل عليه بثمن زهيد؛ وجمعية لعشاق المطرب الفلاني، أو الروائي الفلاني، وهم يتبادلون الأسطوانات أو الكتب. ومن هذه الجمعيات ما يعمُّ نفعُه الكثيرين: هناك جمعيةٌ معماريةٌ تهتم بالطراز المعماري للمدينة، وأخرى للحدائق، وثالثةٌ للبيئة، ورابعةٌ للحفاظ على سلامة اللغة. وهناك عشرات الجمعيات للمعاقين وللنساء ولقضايا لا تخطر ببالنا. وكل هذه الجمعيات قانونية ولها ميزانيات. وتتلقى الدعم من أعضائها أساساً. لكنها قد تتلقى تبرعات من الشركات أو البلدية أو الحكم المحلي.

إذا كنت تريد أن تقومَ بسياحةٍ في ألمانيا فإنك ستسوح ثم تعود، ولا ترى هذه الجمعيات. إنها تمثل الحضارة غير المنظورة. إنها متغلغلة في نسيج المجتمع. وهي تُقلقُ راحة البلدية والحكومة بمطالباتها المتكررة. وهذا هو المطلوب.. أن يسبب المجتمع للبلدية وللحكومة القلق المستمر.. حتى يكون هناك تحسينٌ مستمر. في بلدنا جمعيات كثيرة. لكنها غيرُ كافية، وهي تتلقى أموالاً أكثر مما يجب من الخارج، وفي هذا ضررٌ خفي يلحق بأهدافها. الجمعيات الناجحة حقاً في بلدنا هي العائلات.. وهي تلملم المجتمع في أطر معينة، ولكنها تفتِّتُه أيضاً. ووجود جمعيات كثيرة عابرة للأطر العائلية يساعد في سبك مجتمعنا سبكاً قائماً على المصالح المشتركة، والاهتمامات الثقافية والمعيشية والترفيهية. هناك اتجاه في بلدنا لاعتبار كلِّ نشاط للتكتل في جمعيات أمراً تافهاً.. هذا الاتجاه غلط غلط.



٢١٧ آداب المائدة: المنسف والمسخن

عزيزي المستمع، من آداب المائدة أن تراعيَ الآخرَ واحتياجاتِه. كان في أقاربي رجلٌ إذا أولم وليمة لعشرة أشخاص صنع لهم من الطعام ألوانا.. فهذا ورق الدوالي، وذاك المحشي، وبجانبه المشوي، واليخني مع أرُزِّه. ونظريته في الولائم بسيطة. يقول لأهل بيته: اصنعوا من كل لون قدْراً يكفي لكل المدعوِّين، فلو أنه أحبوا جميعاً أن يتناولوا لوناً واحداً فيجبُ أن يكفيَهم ويزيد. وتلك نظريةٌ غيرُ معقولة. وهي مبالغة في الكرم تُتعبُ أهل البيت في صنع الطعام، وفي تصريفه في الأيام اللاحقة.

قد يُدعى المرءُ إلى وليمة معقولة فيها شيء من اللحم، وشيءٌ من الخُضَرِ والأرز. يجدر بالمرء ألاَّ يتَّكِيءَ كثيراً على طبقٍ كميتهُ قليلة، بل يترك لغيره أن يُصيب من هذا الطبق. إذا كنتَ تأكل مع آخرين من مَنسف، وكان نظام تلك الوليمة أن يأكلَ الجميع من دَسْتٍ واحد فالقاعدة تنطبق أيضاً. قد يراك مُؤَاكِلوك وأنت تحشو فمَك بالهبرة بعد الهبرة، وقد لا يرونَك، ولكنك يجبُ أن ترى نفسك. اتق الله في نفسك وفي أصحابك.

ولا يحب أهلِ المناسف أن يكون الأكل بالملاعق من الدَّسْتِ الواحد، وهذه قاعدة صحية، إضافةً إلى أنها من آداب المائدة. إنهم يأكلون باليد. ويحرص آكِلُ المنسف المحترفُ على ألاَّ تَلْمَسَ يدُه شفتيه عندما يأكُلُ اللقمة. بل إنه يجمع الأرز واللحم ويصنع منهما كرة صغيرة يقذفها في فمه قذفاً.

ولا يسمحُ لك آيينُ المنسف، أي قانونُ أكل المنسف، أن تأكلَ بِيدين، لا بل أنت تضعُ يدَك الأخرى وراء ظهرك. والمنسف يُؤْكل من وقوف.

والمسخَّن يؤكل باليد أيضاً. لكنْ بيدين اثنتين، والآكلُ يتمنى أن يُرزقَ يداً ثالثةً حتى يدبِّرَ نفسَه عندما يحمَى الوطيس. ومن آداب المسخَّن أن تأخذَ من الدجاجة ما تريدُ أكلَه ثم تبدأَ بهذا الجزء، أما أن تضعَ الدجاجة أمامك وتأخذَ من هنا سَفِينة، ومن هناك فَخِذاً، ثم تتركَها، فهذا تضييع للنعمة. فكِّرْ في النساء والولدان الذين سيأكلون من بعدك، ولا تتركْ لهم دجاجةً محطَّمةً تصدُفُ عنها نفوسُهم، فهذا غلط. وبصراحة فإن تأجيلَ النساء والأولاد إلى ما بعد انتهاء الرجال من الأكل غلط غلط.



٢١٨ الفلسطينيون: كلّ له مصلحة وطنية مختلفة

عزيزي المستمع، اختلاف المصالح هو ما سأبدأُ به. ثم سأخرج من كلامي إلى شيء من السياسة.

قررت الحكومة رفع الضرائب على السجائر والتنباك إلى الضعف فسُرَّ غيرُ المدخنين للقرار، وانزعج المدخنون. وقررت الحكومة في ميزانيتها السنوية أن تصرف معونةً

شهرية بما يعادل عشَرةَ ليترات من الحليب لكل طفل فسُرَّ الشبان والشابات الذين عندهم أطفال أو الذين سيخلِّفون في المستقبل، أما المسنُّون فخافوا أن تكون هذه الخُطَّة على حساب صندوق الشيخوخة الحكومي.. ولو على المدى البعيد.

معنى هذه الأمثلة أن المجتمعَ ليس متَّفِقاً في مصالحه. حتى داخل الأسرة الواحدة: طفلةٌ عمرها ثلاثَ عشرةَ سنة مهتمَّةٌ جداً بقضايا البيئة والتخلص من الكيماويات الضارة في الهواء والتراب والماء. ولماذا؟ لأنها ستعيش في هذه البيئة سنوات طويلة، والحياةُ أمامها. أما جدُّها العجوز فهو يقول: بَلا بيئة، بَلا كلام فارغ! إنه مهتم بالخدمات الصحية المجانية التي تقدم في المستوصف، ومبسوط جداً على نظام صرف الأدوية بربْع السعر.. والسبب حاجتهُ إلى هذا الأمر. الدنيا مصالح، حتى بين الجد وحفيدته.

الآن إلى السياسية: نحن، الفلسطينيين، ندّعي كثيراً أنا ذوو مصلحة واحدة في الوطن. وهذا طبعاً كلام فاسد. الفلسطيني الذي أمَّن نفسه ببيت وسوبرماركت في واشنطن دي سي ليس كالفلسطيني الفقير الذي لا يحمل أي جوازٍ أجنبي أو عربي.

الفلسطيني الذي يعيش في الشتات يطالب بمطالب جذرية. يريدها من البحر إلى النهر.. ويريد أن يعيد الأمور إلى نصابها.. ندرك سببين لذلك: السبب الأول أنه بعيد ومستريح من عناء المقاومة، والثاني أنه عايَشَ عملية اغتصاب أرضه وبيته سواءً مباشرة أو من خلال ما حكاه له أبوه وجده. فهو لا يتفهم أبداً التخلي عن ذلك الجزء من الوطن الذي كان له بيتاً. أما الفلسطيني الذي يعيش في الضفَّة، فهو ميال أكثر إلى «الحلول».. لأن في ذلك مصلحتَه المباشرة. أنا أستغربُ حقاً إغفالَ المفكرين الفلسطينيين لهذا الجانب المصلحي في تحليلاتهم، وأرى أنهم لا يمارسون حرية الفكر، ولا الأمانةَ العلمية عندما ينسوْن هذا الجانب.. وهم في هذا غلط غلط.



الكرة رمز الكمال

عزيزي المستمع، نبدأ بالخط المستقيم. نقطة هنا ونقطة هناك وبينهما خط هو الطريقُ الأقصر. بديع هذا الخطُّ المستقيم. لكن.. يا للخسارة.. لا مساحة له. فلتكن هناك نقطة ثالثة وليكن هناك شكل له مساحة. إنه إذن المثلث.. ولكن المثلث شكل سخيف. إذن فلتكن هناك نقطة رابعة. وبها نحصل على مستطيل. والمستطيل سخيف أيضاً. وإن كان أقل سخفاً من المثلث. فاستطالة المستطيل غيرُ محدَّدةٍ بقانون، قد يستطيل كثيراً، وقد يستطيل قليلاً. لا.. لا نحتمل ذلك. فليكن طولُه بقدر عرضه. فهو الآن مربع. ما أجمل المربع. إنه متوازن. لكن ما هذه النتوءاتُ الأربعةُ في جوانبه؟ زوايا.. لا نريد زوايا.. وما أسهل إلغاء الزوايا. نلغيها، فيصير المربع دائرة. ما أروع الدائرة! مساحةٌ متوازنة. وأينما كنت على حدودها فأنت تتجه إلى مركز واحد. لكن علّتها أنه لا حجم لها. فلنصنع لها حجماً، ولتكن كرة. الكرة هي أكمل الأجرام. وقد اختار الخالق هذه الهيئة فجعل الكونَ كلَّه كُراتٍ سابحات. لكنه أخرج من كرة الشمس نتوءات من اللهب عظيمة تمتد كيلومترات بعيداً عن السطح. وانبعجت الكرة الأرضية جبالاً ووِدياناً.

لا سبيل إلى الكمال. والبشر يجدون الأُنسَ في النقص. كانت الأميرة البريطانية ديانا جميلة جمالاً كاملاً: عينان وابتسامة، وساقان وقامة. فتعِبَ رسامو الكاريكاتير معها. يبدأون برسم كاريكاتير لها فيجدون أنفسهم عاجزين. الكاريكاتير هو فن تكبير العيوب.. فما يصنعون بهذه الخلقة الكاملة؟ ثم مدّ إليهم الخالق يد المساعدة. بعد سنوات قليلة من الزفاف الملكي المشهور أعطى الخالق أمره لأنف السندريلا فطالَ قليلاً. وهجم رسامو الكاريكاتير على أنفها هجوماً، يرسمونه كخرطوم الفيل. ثم دقَّ ساقاها وبانت عظامها فرسموها هيكلاً عظمياً. وصار اتساع عينيها عيباً فرسموا محاجرها كمحاجر ساحرات المكانس. ثم تداركتْها رحمة الله.

البشر لا يحبونَ الشخص الكامل لا في الشكل ولا في الخُلُق. يريدون أن يكون في الشخص عيوب، حتى يستطيعوا أن يتعاملوا معه، يريدونه ملطخاً ببعض الوحل. لا ننسَ أن البشر مخلوقون من طين، ويحبون الطين. البشر غلط في غلط.



٢٢٠ الإنسان وحش

عزيزي المستمع، الإنسان متوحشٌ وهو يأكل، لا بل أسوأ من الوحش. رأيت الأسدَ يأكل فريسته في برامج الحيوان المخبُورة. رأيتهُ يأكل حيناً، ثم ينتظر أولادَه حينا، يرفع رأسه ويستريح. ولا كذلك الإنسان.

نعم، وضعَ البشر آداباً للمائدة، وصارت هذه الآداب تحسِّنُ صورتَهم، وهم ينهشون اللحم أو يبلعون الخُضَر. لكن مازال هناك قوم لم تصلْهم آداب المائدة. كان لي صاحب في الزمن القديم، كنتُ أزورُه حيناً، ويزورني حيناً. إذا حضر صحنُ الفول المدمس وعليه ما عليه من الفُلْفُل الأخضر والثوم والزيت، وبجانبه ما بجانبه من مخلل وبصل وفُجل.. ترى صاحبنا بدأ يخرج أصواتاً قبيحة من فمه تدل على اشتهائه الطعام.. وآداب المائدة تقول: اِمسِكْ نفسك، ولا تُظهر شهوات بطنِك. ثم تراه يقرِّبُ الطبق إلى ناحيته سواء أكان داعياً أم مدعواً. يحسب بذلك أنه يحبب نفسه البغيضة إلى قلوب مؤاكليه. ثم قد أقوم لجلب أكواب الشاي فيبدأ قبلي. ويعتذرُ إليَّ ضاحكا وهو يقول إنه لم يقدر أن يصبر على هذه الأكلة الشهية. يقول كلامه هذا ونُتفُ الطعام تتطايرُ من شِدقيه، فيقع شيء منها أمامه وشيء على الجانبين.. وشيءٌ.. نعم.. في صحن الفول.

وأجلس قبالتَه متحيراً.. أُمسك خبزةً أتسلَّى بها بغير غَموس.. واللعين يمسك بيديه الاثنتين خُبزتين: واحدةً يكوِّرها نصفَ تكوير كالمِغرفة، وواحدة يجرف بها الفول جرفاً من آخر الصحن ليلقيَه في خُبْزةِ المغرفة. ثم يلقي اللقمة العملاقة في فمه وهو يتمطق، أي يخرج صوتاً يدل على استمتاعه بالأكل بإلصاق لسانه بسقف حلقه، ويقول لي.. كُلْ يا أخي.. وأقول له: فيهِ الصحة والعافية. كنتُ أحب أن أقول له: آدابُ المائدة هي أن تضبطَ نفسَك وتفكرَ بالآخر الذي يتسمَّمُ معك. ولكن لم يكن يخرجُ مني هذا الكلامُ الغلط، أما طريقةُ أكل صاحبي فهي غلط غلط.

٢٢١ من الزجل الفلسطيني

عزيزي المستمع، أحدثك اليوم عن الشعر الشعبي الفلسطيني. وأبدأُك بالدلعونا. فأما موسيقاها فعلى مقام يدعى البياتي، وأما الوزن الشعري فهو قريب من متدارك الفصحى. اسمع هذين البيتين:

هَوِّدنْ عينِ البلد تايمَلِّينْ معهِنْ محارِمْ بِزِر يتسَلِّين

وهنّي ستِّتْهِنْ لَمَّن يْهِلِّين قمر وثريا وأربع نجوما

فهؤلاء الفتيات الست مثل نجوم السماء في الجمال. وأنا متأكد أنك تسليت كثيراً عندما وصف الشاعر كيف حملت الفتيات البزر في المحارم (في المناديل) حتى يتسليْن في الطريق إلى عين الماء.

ومن شعرنا الشعبي العتابا، وأوزانه تشابه الشعر الفصيح أحياناً وتنأى عنها أحياناً. يقول الشاعر:

عيوني من البُكا زايد ورَمْها حجارِ الصنّ لاصْحَنْها ورُمها

هلا بمهيرةٍ ترعى ورا امّها وترعى من النبت روس العشاب

واسمع بيتين آخرين من العتابا:

نطحني بين حارتهم والمفارق كسر صندوق صدري والمفارق

لو انّي جارهم عمري ما أفارق واظلّ قبالهم صبح ومسا

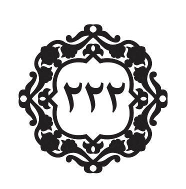
هذه الأبيات نقلتها لكم من القاموس الشعبي الفلسطيني للدكتور عبد اللطيف البرغوثي. خذ لك بيتاً من وزن آخر هو البسيط، كما يسميه العروضيون، والشروقي كما يسميه شاعرنا الشعبي:

يا حسيرتي يا رفيقاتي هالبخت ما ارداه حرَّاث ما نوخذو ومعلم ما نلقاه

وهذه ثلاثة أبيات من الشروقي من قصيدة يصف الشاعر فيها نجَّاباً، أي خيَّالاً، فخوراً بحصانه:

نجِّاب يا معْتلي فوق السرجْ وعْنَانْ تحتك أصيلي تصون عْهود راعيها
خصِرْها مضمَّرْ رقيقَة تشبِهِ الغِزْلانْ في السِّيرْ ريحِ الشمالي ما يخاويها
تُكرُجْ كما الطير لما يِخْفِقِ الجِنحَان حتى السَّراحينْ تسبقْ في مجاريها

والسراحين هي الذئاب بالفصحى، أي أنها هي تسبق الذئاب. وفي نهاية هذا الحديث ليس بإمكاننا أن نقول: غلط غلط



الشعوب ومستوى الدخل

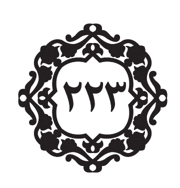
عزيزي المستمع، خذني على قدِّ عقلي، وأنا أعرف أنني محبوسٌ وإياك في هذا القفص ويحرسنا - لا حرسه الله - محتلٌّ عنصري. لكنني أحب أن أسوح في العالم سياحة سريعة في كل عام. وفي سياحتي أجلُبُ معي موسوعة جديدة صادرة لسنتها لكي أتعرف على شكل العالم. وأتكبد في ذلك بعض المال، لكنني لا أحبُّ أن أنقطع عن الدنيا. في العام الماضي أوردتُ عليك بعض الأرقام عن ثراءِ الأمم. استندت عامئذ إلى كتاب اسمه وورلد ألمناك. واليوم أنقل لك أرقاماً أخرى حديثة من كتاب اسمه موسوعة فيليب.

سننظر في ثراء الأمم باستخدام مؤشر النصيب الفردي من الدخل. أغنى دولة في الدنيا هي الولايات المتحدة. ونصيبُ الفرد فيها من المال في كل عام هو ستة وثلاثون ألف دولار. طبعاً هذا في المتوسط.. إذ يوجد اشخاص دخلهم بالملايين وأشخاص دخلهم عشرون ألفاً فقط.

ولا يقترب من أميركا أحد. أما إذا ظننت أن اليابان غنيَّةٌ جداً، فاعلم أن متوسط دخل الفرد الياباني خمسة وعشرون ألف دولار. والدنمارك أعلى بقليل، فالفرد فيها دخله السنوي في المعدل خمسة وعشرون ألفاً وخمسمئة. ولكن الدولة التي تأتي بعد الولايات المتحدة هي سويسرا. ودخل الفرد فيها ثمانيةٌ وعشرون ألفاً وستُّمئة دولار في السنة في المعدَّل.

في كندا الدخل مرتفع: خمسة وعشرون ألفاً. وفي هولندا أربعة وعشرون ألفاً وأربعُمئة، وفرنسا مثلها، وأما ألمانيا فهي أقل من فرنسا بألفِ دولار للفرد. وبريطانيا أقل من

ألمانيا بألف أيضاً. والسويد أقل بنحو ألف إذ يبلغ دخل الفرد فيها اثنين وعشرين ألفاً ومئتي دولار. هناك دولة عربية الدخل فيه أحسن من السويد وهي الإمارات: إثنان وعشرون ألفاً وثمانمئة. إسرائيل: تسعة عشر ألفاً. أما السعودية فهي عشرة آلاف وخمسمئة. روسيا سبعة آلاف وسبعئمة، والأردن ثلاثةُ آلاف وخمسمئة. وسوريا ثلاثة آلاف ومئةُ دولار. هذه الأرقام تتحدث عن نفسها، وليس فيها صح ولا غلط. ولكن، لعل صديقي الذي ظل يقول منذ أربع سنوات إن الانتفاضة أدت إلى انهيار الاقتصاد الإسرائيلي قد عرف الآن أن الدخل الفردي الإسرائيلي يقف جنباً إلى جنب مع دول أوروبا الغنية، وهو أعلى من إسبانيا واليونان وبولندا. لعله يعرف أن افتراضاته الحماسية لا تصمد أمام الرقم، وأنها غلط غلط.



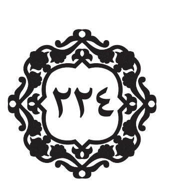
٢٢٣ المتسلقون

عزيزي المستمع، لصاحب لي أقول: لا أمدحُك في وجهك ولا أذمُّك في غيبك. لا بل إنني لا أمدحك ولا أذمك، لا حاضراً ولا غائباً. أنت لا تهمني.

هناك ناس يرميهم القدر في طريقي، وأُحِسُّ من اللقاءات الأولى أن المصلحة المباشرة هي التي تهمهم. طبعا عزيزي المستمع أنت تعرف رأيي في الإنسان والمصلحة. وإن لم تكن من متابعي برنامجي، فأنا ألخِّصُ لك ما كنتُ قلتُ سابقاً: الإنسان مبنيٌّ على المصلحة في علاقاته. علاقته بأمه مصلحة. ألا ترى أنه يتعلق بها جداً وهو رضيع، ويتعلق بها أقلَّ قليلاً عندما يصبح فتىً . ويتعلق بها أقل عندما يصبح مستقلاً بحياته. وأما إذا صار ثريّاً فإنه لا يعود يفكِّر بها، ولا يُحسِنُ إليها إلا رعايةً للأعراف، ولنيل السمعة الحسنة. الإنسان وحش. لكن مع ذلك هناك من الناس من يرعى الذمم. تراه يعطي من ماله للأهل أو للفقراء حتى يشعر أنه بنى آدم. هناك من الناس من لا يتخلى عن صاحبه إذا فقد منصبه، أو فقد صحته، أو فقد ماله، بل يتمسك به.

أما صاحبي المذكور فهو يأتيني راكضاً، والبهجة تملأ وجهه إذا كان محتاجاً إليَّ. ويبدأ بعباراته السخيفة « أين أنت يا رجل؟ يجب أن نظل على اتصال يا أخي. اشتقت إليك

وإلى جلساتك» هذا الكلام الرخيص الذي تعرفونه كلكم. وإذا كان صاحبي غير محتاج إليَّ تراه يمرُّ بجانبي في الشارع فيغمز بعينه غمزة تصحبها ابتسامة صفراء. أنا أستغرب من هؤلاء الناس، ألا يشعرون أنهم سفلة. عرفت في السنوات الكثيرة التي قضيتها على وجه هذه الأرض عشرات من هؤلاء المتسلقين. لكني لم أجابِهْ أيّاً منهم بالكلام الجارح.. ربما كان هذا من الغلط. ولكنَّ جِبِلَّة أولئك التافهين هي في الواقع غلط غلط.



٢٢٤ أزجال من لبنان ومصر

عزيزي المستمع، سأنقل إليك في حديثي اليوم أزجالاً من لبنان ومصر. ولكن فلسطين تلحُّ عليّ. إليك بيتي عتابا ينسبهما الكاتب نبيل علقم إلى قرى رام الله:

سباني شعركِ الأشقر والازْهَرْ   يَ زينكْ فاق ع الجنَّة والازهار
فتنتي مَشايَخ الأُمَوي والازْهَرْ   وكيفَ ألْتَامْ في حُبَّكْ أنا

ومن الزجل اللبناني ننقل أبياتاً. قال أحد الزجالين:

سيْفي انْ جَرَّدْتُو يا وَيْل   عَنتَر والزِّير وغَلْيُومْ

وغليوم هو فلهلم الثاني إمبراطور ألمانيا أيام الحرب العالمية الأولى والإنجليز يسمونه وليام والفرنسيون يسمونه غِيُّوم.. مع لام غيرِ منطوقة، والزجال اللبناني يسميه غَليوم. ويا ويل هذا الامبراطور من سيف الزجال اللبناني:

سيْفي انْ جَرَّدْتُو يا وَيْل   عَنتَر والزِّير وغَلْيُومْ
ورُمحي انْ هَزَّيْتو بالليْلْ   بْدَحْرِجْ أربعْ خمسِ نْجومْ

سمع أحد البطاركة هذا الزجل فلم يزعل على غليوم، ولكنه زعل على دحرجة النجوم، وقال إن هذا تعدٍّ على قدرة الله. وأراد البطرك أن يحرم الزجال ويطرده من الرعيَّة. فردَّ رشيد نخلة الزجال المشهور على البطرك قائلاً:

شو الفَرقْ ما بيْنِ التَّعامي والعَمَى؟   والبَهْوَرَة بشرع السما شو بتِنْسَمَى؟
إنسان بَدُّو مِنِ السَّمَا يْدَحْرِجِ نجومْ   وإنسان بَدُّو يْسَكِّرِ بْوابِ السَّما

هذه الحكاية أخذتُها لك من سلام الراسي، المؤلف اللبناني.

بيرم التونسي زجال مصريٌّ لكنَّ أصوله تونسية. يقول بيرم على البحر البسيط:

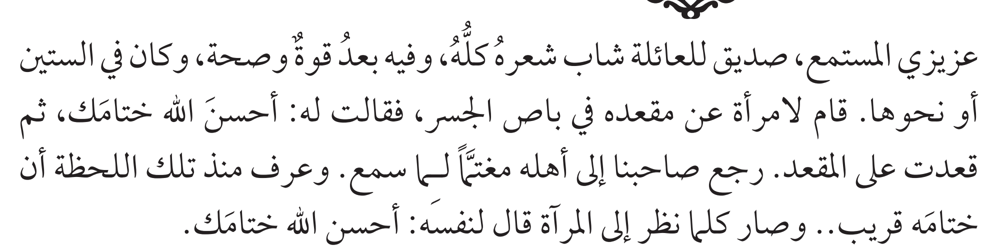
أحبّها لما تتمكِّنْ في طِشْتِ غسيلْ قاعدة على كرسي واطي تتقِصعْ وتْميل
والتوب على جسمها دايب كده هَلاهيلْ والحب له بهدلة، والبهدلة دي فنّ

والله ما أراه إلا يصف نانسي عجرم، وطشتَ غسيلها، مع أن بيرم مات قبل مولِدِها بعشرين سنة. ويقول بيرم وهو يصف كيف يعذب الله في الآخرة بعض عباده:

أبواب جُهنَّمْ في يونيَه تِنْفِتح رَسْمي لِلّي على الشط قالت: يا جمال جسمي
يدخل جُهنَّمْ وراها المعجبين ملايين وفْ كل فوجِ الَّزبانْيَةْ تِلتِقي إِسمي
وادخُلْ جُهنَّمْ ورا اللي جسمَها ممشوقْ وخصرها بالمايوهِ المختَصَرْ مَخْنوقْ
الكُورة تَحْدِفْها على وِشِّي وانا مَفلوقْ تجيني تقول: ناوِلني الكورة يا عمِّي
وأقول: يا ربي تحرَقني، وأنا عبدَك؟ واللي عِشِقْ واتعَشَقْ خَلقَكْ، ومِنْ عَنْدَكْ
أنا كنت في الدنيا بتْفَرَّجْ على فَنَّكْ قال لي: هِناكْ صنعِتي.. لكنْ هِنا حُكْمي

ونحن نقول: يا رب لا توقِعْنا في الـمُهلِكاتْ.. وإن كنا لقلَّةِ عقلِنا نفضل السابحات على الحوريَّاتْ. وهل حبَسْتنا يا رب في «الضفَّة» وحرمتَنا من الشط حتى تحميَنا من الشَّطَطْ، أم لأنك لا تريدُ أن تجمع علينا الغلطَ والغلطْ؟

٢٢٥ الخد الساحل



عزيزي المستمع، صديق للعائلة شاب شعرهُ كلُّهُ، وفيه بعدُ قوةٌ وصحة، وكان في الستين أو نحوها. قام لامرأة عن مقعده في باص الجسر، فقالت له: أحسنَ الله ختامَك، ثم قعدت على المقعد. رجع صاحبنا إلى أهله مغتمَّاً لـما سمع. وعرف منذ تلك اللحظة أن ختامَه قريب.. وصار كلما نظر إلى المرآة قال لنفسه: أحسن الله ختامَك.

رجلٌ آخرُ صحا من نومِه ذاتَ صباح. نظرت زوجتُه في وجهه، وقالت: يِي. فتشاءمْ. ثم قالت: خَدَّاكَ ساحلان. وساحلان معناها بالفصحى منزلِقان.

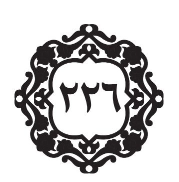
والخَدُّ، عزيزي المستمع، هَبْرةٌ من اللحم لذيذة في جانب الوجه، أو كما قالت سميرة توفيق:

خدَّك يا قُرْصَ الجبنة يفطر عليه الصايم

في يوم الأيام.. يوم غيرِ محدد ولا يعلَمُه إلا علَّامُ الغيوب.. يقرر الخدَّان أن يسحَلا على الحَنَكْ.. الخدَّانِ يرتخيان، يستريحان. فبعد سنوات طويلة ظلا فيها متربِّعَيْنِ فوقْ، مكتنزين، مدوَّرين.. يقرِّرُ الخَدَّانِ أن يُفْلِتا نفسيهما وأن يهبِطا.

هل رأيت كيف يُرخي الشِّرِّيرُ ذراعيه بعد أن يقتلَه البطلُ في الفلم. لا يعود في ذراعيه قوةٌ، ولا حَوْل ولا حيل، فترتخيان على جانبي جسمه. وهذا كله تمثيل في تمثيل. وأنا أعتقد أنه لا يوجد ممثل رأى في حياته قتيلاً، فكيف بالله يعرف أن الذراعيْن ترتخيان هكذا؟ الممثل يكون قد رأى ذلك في الأفلام فيقلد. أما ارتخاء الخدود فقد عرفه الكثيرون حقَّ المعرفة.

إذا ارتخى خدَّاك فعليك أن تقدِّم مَقعدك في كل باص لكل سيدة، حتى تدعوَ لك بحسن الختام. أما إذا شعرتَ أن رِجليْك لا تحملانِك.. وأن القيامَ غلط.. فاعلم أن القعودَ أيضاً غلط وأن الرحلةَ شارفت على نهايتها وأن وجودك في هذه الدنيا غلط غلط.



٢٢٦ الرأس المتدحرج.. ومفاجأة متأخرة

عزيزي المستمع، كان لي جارٌ له في الحياة طريقة يعرفها ولا يعرف غيرها، كان يعرف للقرش موضعه.. أو بالأحرى «لكلِّ» قرش موضعه. قَلَّما صادفتُه خارجاً من بيته في الصباح، فهو يخرج في السابعة، وأنا كنت أخرج في السابعة والربع. فإذا ما أطللتُ من نافذتي في السابعة وجدته قد بدأ يتدحرج في الشارع. فهو رجل كبيرُ الرأس مكوَّرُه، وليس في رأسه شعرةٌ واحدة، وجسمه نحيف، وقدماه صغيرتان. كان يشبه علامة الاستفهام. وهو إذ يمشي يدفعُ برأسِه إلى الأمام فيَهوي رأسُهُ، فيلحقُ به سائرُ جسمه.. فيتحرك. ويظل رأسه يسقط.. ويظل جسمه يسرع كي يسند الرأس.. حتى يصل إلى دكانه. ويقول: يا فتَّاح يا عليم، ويفتحُ أقفالَه، ويقول: يا رزَّاق يا كريم، فيأتيه الزَّبونُ

الأول.. وتمضي عليه ساعاتٌ عشرٌ - تزيد في الصيف، وتقل في الشتاء - حتى مغرب الشمس لا يفارق الدكان، ففيه يتغدَّى، وفيه يصلي، وفيه يشرب قهوتَه لو كان يشرب القهوة، لكنه لا يشرب القهوةَ ولا الشاي؛ في دكانه يعيش. وهو، مع هذا الدَأْب، مستقيم يعرف الحق. يزنُ لك أوقيَّة السمسم وزناً عجباً، فإذا وضع الكيس في الميزان أخذ يزيدُ فيه من مجرودِهِ حبَّةً حبةً حتى يرجحَ رجْحَةً خفيفة، ثم لا يزيدُ سمسمةً واحدة. لكنه عندما يرتفع سعر التنباك يظلُّ يبيع القديم بالسعر القديم حتى ينفَد.

لقد علَّم أبناءه، وبنى لهم. لكنه لم يبرحْ بيته المتواضع، ولم يركب سيارةً ولا أخذ عطلة. ولستَ تراه إلَّا واقفاً في دكانه يبيع، أو قاعداً يأكُلُ غداءً أُرسِل إليه من البيت في سَفَرْطَاسِ ألومنيوم مبعَّج.

كنت أغتاظ منه لأنني لم أكن أرى وراء هذا الإنسان شيئاً من الإنسانية بالمفهوم الواسع. فهو لا يضاحك جاراً، ولا يقرأُ جريدة. وإذا فتح الراديو فلكي يسمع الأخبار ويضبطَ ساعتَه قبلَها. أما بعد الأخبار فالراديو محرَّم، حتى لو بُحَّ صوتُ المذيع وهو يعلن عن أحلى البرامج. أليس الراديو يسحب كهرباء؟

ذات مساء مات جاري ميتة فجائية، فقعدتُ أحسبُ كم ستكون دِكَّتُهُ. وأقول في نفسي لعله خلّف لأولاده الملايين. وفي ظهر اليوم التالي شيَّعتْه البلدُ كلُّها في جِنازةٍ مَهيبة. خرج من بيوتهم ناس لم تكن تعرفهم شوارع المدينة، خرجت نساء، وخرج رجال. والتقى في هذه الجِنازة الغريبة الوجيه والفقير، وكان لها ذيل نسائي نَدَر مثلُه في جنازات البلد.

واستقصيتُ عنه فعرفت أنه لم يخلِّفْ من المال شيئاً. وأنه كان محسِناً، له في الإحسان طريقةٌ لا يطيقها ولا يتقنها أحد. كان يحسن إلى الفقراء لأن هذا هو الحق، وليس طلباً للذِّكْر، ولا للوجاهة. عندما عرفت ذلك قعدتُ ألوم نفسي لوماً شديداً لأنني لم أر في ذلك الرجل إلا صلعة كبيرة تتدحرج أمام جسم نحيف. وعرفت أن نظرتي للناس كانت غلط غلط.

٢٢٧ القروض التعليمية

عزيزي المستمع، شربتُ كوبَ قهوة مع مليونيرٍ كبير جداً. ولا تظنَّ عزيزي المستمع أنني أسرح بك، وخصوصاً أنني كنتُ حدثتك في مرة سابقة أنني شربت الشاي مع مسؤولٍ كبير. لا تقل إنني رجل خرَّاط، وإنني في كل مرة أركِّب مشروباً من المشروبات على شخصيةٍ مهمةٍ فقط حتى أَخترعَ حديثاً. ولولا أنني تعوَّدت أن أجتنب الحلف لكنت أقسمت لك. وبالإمارة فقد كانت تلك القهوة إفرنجية، وشربناها بالقشدة. كان ذلك قبل نحوِ عشر سنوات في بلد أجنبي يشربون فيه القهوة أحياناً مع ذلك الحليب المكثف المليء بالدسم، الذي يطفو على السطح ويسمونه كريم أو قشدة؛ هذه كلها تفاصيل لا تريدُ أن تعرفَها، ولكنني سقتُها إليك طمعاً في تصديقِك كلامي.

لم أكن أعرف عن ذلك المليونير شيئاً سوى أن رجلٌ مهتمٌّ بالثقافة والعلم، وأنه مهم. وقد عرفت طريقتَه في الاهتمام بالعلم لاحقاً. إنه يريد أن يعلِّم أكبرَ عدد ممكن من أبناء وبنات بلده. وطريقتهُ بسيطة. يقول للطالبِ الناجح في الثانوية العامة: أنا أعطيكَ كلَّ شهر كذا فتدفعُ لجامعتك، وأنت ترسلُ للسكرتيرة في مكتبي كشْفَ العلامات في نهاية كل فصلٍ دراسي. وشرطي عليك هو أن تسدِّدَ المبلغ كاملاً، وبالعملةِ نفسِها، على مدة زمنية تبلغ ضِعْفَ سنوات الدراسة. فإذا درست أربع سنوات في الجامعة، سدَّدتَ المبلغ بعد ثماني سنوات من التخرج وبالتقسيط الذي يناسبُك. وأما إذا قررت ألَّا تدفع فلن تجدَ كمبيالةً تربطُك، ولا ورقَةَ تعهُّد، ضميرُك فقط رقيبُك. وفي حال موتي لا أطالبك أن تسدِّدَ شيئاً لورثتي.. بل عليك أن تعلِّمَ طالباً مثلَما علمتُك.

المهمُّ أن خطة الرجل كانت ناجحة.. والرجل حيّ يرزق.. والمستفيدون منه كثر. وأنقلُك عزيزي المستمع، إلى حديث آخر سمعته من وزير التربية والتعليم العالي السابق في بلدنا. قال لي: يوجد صندوقٌ لإقراض الطلبة على أن يسدِّدوا بعد التخرج، لكن الناس يتخوَّفون من الاقتراض للتعلم، ويفضلون المنح التي لا تُرَدّ.

أمثال هذا الصندوق موجودة في عدة بلدان متقدمة، وأنا أعتقد أن هذه خيرُ وسيلة

لضمان أن يكون التعليم الجامعي نافعاً حقاً، ولازماً للمجتمع. فعندئذ يُقْبِلُ على التعليم الجامعي ذلك الطالب الذي يريد أن يشتغل بعلمه ويكسب، أما الذي يريد أن يشغَلَ مقعداً جامعياً كبديل للبطالة فقد يخاف من الاقتراض. كثيرون منا يقترضون بسهولة لشراء سيارة، وبفوائد عالية، ولكنهم يجدونها غريبةً أن يقترضوا للتعليم حتى لو بدون فوائد.. وهذا غلط غلط.



٢٢٨ الخباز وولده

عزيزي المستمع، أبو صابر خبَّاز. مرِض مرضةً ألقته في الفراش شهرين، منهما أسبوعان في المستشفى. وتسلم المخبزَ في غيبتِهِ ابنُه صابر.

وصابر مستعجل، محروق البصلة. فصار يخرج الأرغفة سريعاً، فترى وجهَ الرغيف أصفرَ مخطوف اللون، لكنَّ قفاه أبيضَ لم ينس أنه كان عجيناً.

وصابرٌ عنيفٌ يشتغل بغضب، وكأنَّ عفريتاً يركبُه ويدلِّي رجليه من على كتفيه، فهو يرمي الأرغفة على طول يده. فيضُكُّ الرغيفُ الرغيفَ، فتنقلبُ سَحْنَتُهُ كل منهما. ويبرد الرغيف، فإذا هو مبعوج الخلقة. وقد يقع رغيف على الأرض وهو ساخن فيلتقط حبَّاتِ الدُّقِّ السود، فتنطبعُ على وجهِهِ شاماتُ حُسْن. وقد تخرُجُ من بين يديْ صابر أرغِفَةٌ التصقَ وجهُها بقفاها فلم تعد تصلح للساندويشات. وقد يستعجل على العجينة فلا تتخمر، فيخرج خبزهُ عويصاً منقَّطاً بالنُّقَط البُنِّيَّة، فكأن الرغيف وجْهُ عجوز يحدِّثُكَ عن عهد الإنجليز والأتراك.

بعد الشهرين صَحَّ أبو صابر، وعاد إلى المخبز. ونظر في الصندوق يريد أن يأخذ مالاً يسدِّدُ به بعضَ الحقوق، فوجدَه خاوياً. إنه لا يشك في أمانةِ ابنِه الخائب، فصابر أمين، ولا يدخِّنُ أيضاً.

بعد يومين اكتشف أبو صابر سببَ خُلُوِّ الصندوق. لقد شعر الزبائن أن مستوى الرغيف هبط، فهبط كثيرون منهم بنقودِهم في مخابز أُخرى، ولم يبق منهم إلا من

هو جارٌ قريب، أو ذلك الزبون الطيَّار. ثم بدأ أبو صابر يسمع من الناس كلاماً عن ولده الخائب وأرغفته ذات الماكياج الثقيل. وفهم أبو صابر الحكاية. ورغم أنه رجل قليل الكلام فقد جلس مع ولده ذات يوم عند العصر، وقال له: يا صابر، هذا الفرن يعيل تسعةَ أنفار. ورأسُ مالنا ليس بيتَ النار ولا المِعجَنَ الآليَّ الجديد، ولا طَلَبيَّاتِ المطاعم، ولا شوالات الطحين العشرة التي تراها هناك في الزاوية. رأسُ مالنا هو الشغل النظيف. ويحَكَ يا صابر! حتى أخوك الصغير اشتكى لي من أن الخبز صار رديئاً. فهم صابرٌ الدرس وعرف أن الشَّلْفَقة غلط غلط.

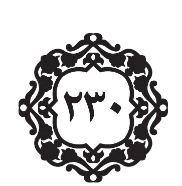


٢٢٩ شهادة التطعيم

عزيزي المستمع، لي صاحب اسمه محمود، سمين ومرح ومثاليٌّ، ولا يحب العَوَج. وهو رجل عتيق، وآيةُ ذلك أنه ما زال يتذكرُ طائراتِ الركاب ذواتَ المراوِح. حدثني عن رحلة بالطائرة نقلته من بلد عربي إلى آخر. كان شاباً يافعاً طالعاً على الصف الحادي عشر. وفي عطلة الصيف استضافه أعمامه المغتربون في بلد خليجي فذهب إليهم، وقضى شهراً عندهم. ثم جاء موعد السفر بالطائرة إلى بلد عربي آخر. وهذا البلدُ العربي فيه قانونٌ يفرضُ على كل القادمين أن يأخذوا إبرة تطعيم. قبل سفره حضر عمه الأكبر لتوديعه، وأعطاه شهادة تطعيم. قال له محمود: هذا تزوير يا عمي، كيف أخرجت لي شهادة تطعيم دون أن أتطعم. فقال له عمه: هذه ستلزمك في مطار البلد الآخر. فرفض محمودٌ بشدَّة. فدسَّ له عمه الشهادة في جيبه، وقال له: خذها ولن تندم. سافر محمود بالطائرة ذاتِ المراوح. وهبط في البلد الثاني. وبعد ختم جواز السفر رأى الناس يصطفُّون في طابور طويل. وقيل له: هؤلاء ليست معهم شهادات تطعيم. فهل معك شهادة تطعيم. قال محمود: لا، ليس معي، أنا مثل هؤلاء لستُ مطعَّماً. ووقف في الطابور. رأى محمود الطابور يسير بسرعة. كل راكب يدفع الرسوم، ويأخذ شهادة تطعيم، ولا تطعيم. جاء دور محمود. قال له موظف الصحة الذي يلبس المريول الأبيض: ادفع، وخذ الشهادة. فقال محمود: لا. القانون يقول إنني يجب أن أَتَطَعَّمَ، وبعد ذلك تعطونني شهادة التطعيم، وتستوفون الرسوم. قال له الموظف:

قف على جَنَب. وبعد قليل انتهى الطابور، وأخذ كل ركاب تلك الرحلة شهادات التطعيم المزورة، ودخلوا البلد بسلام كي يستمتعوا بجراثيمها. وقيل لمحمود: انتظر. وصار موظف الصحة يتشاور مع رجال الشرطة في هذا الموقف العجيب. ومرَّ بالمكان ضابط على كتفه نسر ونجمتان. تقدم منه محمود وشرح له الموقف، فهز الضابط راسه، ولم يقل كلمة واحدة، ومضى. وبعد ذلك جاء موظف الصحة إلى محمود وقال له: يا أخي. أنت لا تفهم! كلنا في الهوا سوا. والضابط نفسه يأخذ حصته في نهاية الدوام. ليس هناك طعوم ولا إبر. ولا تكبِّرِ القصة. وصمت صديقي في حزن على حالة الفساد هذه. فأحسَّ الموظف أن الأمر قد يتحول إلى فضيحة فكتب لمحمود شهادة تطعيم ووضعها في جيبه.. مجاناً. وسار محمود بخطى ثقيلة، وركب السيارة وفي جيبه شهادتا تطعيم.. مزورتان.

في نهاية قصة محمود هذه عندي ملاحظتان: الأولى أن القصة حقيقة وبحذافيرها، والثانية أن عالمنا العربي يعاني من الغش والفساد والتزوير منذ زمن طويل. وهناك ملاحظة ثالثة: حتى لو تغلغل الفساد في العائلة وفي المطار فهو يبقى غلط غلط.



٢٣٠ الصحفية تصل بسهولة

عزيزي المستمع، تعب الصحافي وهو يحاول أن يأخذ موعدا مع سيادة الوزير. وقد حصل أخيراً على رقم هاتفه الشخصي، وهاتف البيت. تبرعتُ لهذا الصحفي بنصيحة. قلت له: تلفن للوزير في بيته ليلاً. فالرجل عندما يلبسُ ثوب التبذُّل (أي البيجاما) ويقعد بين أولاده يصبح شخصاً عادياً ودوداً. وقد فعل الصحفي ذلك. وتكلم مع الوزير. فزجره الوزير وانتهره، وقال له: «كلمني في المكتب». الموضوع ليس سياسياً وليس حساساً، ولكن الوزير يتهرب. جرب صحفيٌّ آخرُ من الزملاء أن يتصل بالمكتب والبيت. ولكن سيادة الوزير ظل يردد: يا أخي أنتم لا شغلَ لكم غيري. يا عمِّي روحوا تكلموا مع المدير العام!

بعض الوزراء لهجتُهم أرقى من هذا الوزير، ولكنّ بلدنا عامرة بالوزراء والمسؤولين

الذين يتكلمون مع الناس ومع الصحافيين، وكأنهم ينادون على الخيار والبندورة في سوق الخضار. وكثيرون من مسؤولينا عندهم ميل جارف إلى استخدام العبارات البذيئة. يحسبون ذلك حلواً. إنهم يتظرَّفون، إنهم يتجمَّلون بالنزول إلى مستوىً لفظيٍّ دنيء.

في النهاية ملَّ صاحبُنا الصحفيُّ من الأمر، وكتب تقريره بدون رأي الوزير المسؤول، وفي مقر الجريدة، وقبل نشر التقرير، عرفت زميلةُ الصحفي بالمسألة، فرفعت التلفون ودقَّت الرقم، قالت لزميلها: خلِّني أجرب. وتحدثت بصوتها الناعم مع الوزير. فقال لها: «أسعد الله هذا الصوت الجميل، يا ستي نحن في خدمة الصحافة والصحفيات. تفضلي لتناول القهوة في المكتب.» لقد سخسخ سيادته. قالت له الصحفية: يهمُّني جداً أن أتناول القهوة معك يا أبو فلان في المكتب. ولكن عندي رجاء. زميلي فلان يريد أن يكلمك. وأعطت السماعة لزميلها الصحفي، فكلم الوزير وأخذ من رؤوس شفتيه تصريحاً صغيراً رقَعَ به تقريرَه. في بلدنا ظاهرة ذوبان المسؤولين عند سماعهم الصوت الناعم. ونقول للمسؤولين امسكوا حالكم، فأنتم تمسكون أحوالنا. والذوبان في أصوات النسوان غلط غلط.



٢٣١ كوربة الخرفان

عزيزي المستمع، شربتُ كوباً من الشاي عند مسؤول كبير. لم أعزمْ نفسي على كوب الشاي، بل هو عزمني، ذهبت إليه في شغل يتعلَّقُ بإصدار نشرةٍ، ورأيتُه منهمكاً في مناقشةٍ مع مهندسٍ يعمل في الدائرة عنده حول الطريق الجديد الذي تم شقه. وأنا أعرف ذلك الطريق جيداً. لقد تم شقه مستقيماً واسعاً مريحاً، يكفل السلامة بأكبر قدر، وكنتُ أتعجبُ كيف نجحوا في استملاك الأراضي، وفي تنفيذ الخطة بهذا الشكل بدون الالتفاف عن أرض فلان، وعن أرض أبو فلان.

وعندما انتهى المسؤول الكبير من التحدث مع مهندسه، قلت له: ألم تتعرضوا الضغوط حتى تتجنبوا أرض فلان وفلان. هذه مسألةٌ غير سهلة في بلدنا. فقال لي المسؤول:

يجب أن تسمع مني قصة كوربة الخرفان. ثم صاح بالفتى طالباً لي كوب الشاي، الذي فَتَحتُ كلامي بإخبارك أنني شربته. فكأنَّ المسؤول هشَّ لسؤالي. وأما أنا فسعِدْتُ بالمكافأة، وانتظرت المكافأة الثانية: وهي قصةُ كوربة الخِرفان.

ذات سنة، قبل عقود كثيرةً من الزمن.. أرادت مديرية الأشغال في بلادنا أن تشُقَّ شارعاً في مدينة بالضفة الغربية. وكان المخطط يقضي بأن يمرَّ الشارعُ في وسط أرض يملكها رجل مهم. فدعا هذا الرجل - صاحبُ الأرض - كبيرَ مسؤولي الأشغال، وذبح له الخرفان الكثيرة وعزم على شرفه عِلْيَةَ القوم، وطلب منه أن يغير المخطط. فما كان من كبير مسؤولي الأشغال إلا أن جعل الشارع يدور دورة واسعة ليتجنب أرض ذلك الرجل، فحدثت في الطريق كوربة (منعطف) عجيبة، من الواضح أنه لا مبرر لها. ومنذ ذلك الوقت والسائقون يعانون من هذه الكوربة اللعينة. وسميت «كوربة الخِرفان».

المواطن المسكين ليس له لسان للاحتجاج، فهو واقع بين مطرقة الموظف الفاسد والغني المفسِد. كانت طريقة الانتقام الوحيدة أن الناس سمَّوْا تلك الكوربة: كوربة الخرفان. ولما انتهى مسؤولنا الحالي، الذي شرَّبني الشاي، من القصة قال لي: لقد قررتُ أنا ألا أَحْرِفَ الشوارع عن مخططاتها حتى لو ذُبِحَتْ لي العجول والسخولْ، ولو قدمت لي البقلاوة والمعمولْ. شكرتُ هذا المسؤول على أمانته – في وقت عزَّت فيه الأمانة –، وعلى كوب الشاي.

وعندما وقفت وهممت بالذهاب قال لي: هل تعلم من أين أتت كلمة كوربة إلى لهجتنا الفلسطينية؟ قلت: لعلها من كلمة «كيرف» الإنجليزية؟ قال: لا، بل من كلمة «كورفه» الألمانية؟ فالألمان هم أوَّلُ من شق شوارع الأسفلت في بلادنا في العهد العثماني قبل نحو مئة سنة. ثم أسرعتُ بعد هذه المعلومة بالخروج من عنده حتى أدونها مع قصة كوربة الخرفان لأحدثكم بها في برنامج غلط غلط.

٢٣٢ الإعلام والدعاية

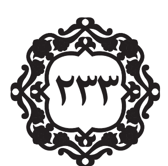
عزيزي المستمع، جاءتني رسالة من مستمع بالبريد الإلكتروني قبل أشهر ينتقد فيها برنامجاً لي كان اسمُه «بارقة أمل». قال لي ذلك المستمع: أراك تناصر حقوق المرأة في برنامج تموِّله جهةٌ دولية.

وقد ذكَّرني كلامه بموقف قديم أحب أن أذكرَهُ. أما المستمع الذي انتقد برنامج بارقة أمل فقد أوضحت له أنني لم أقل في ذلك البرنامج رأيَ أحدٍ آخر، وأنني أومن بكل كلمة قلتُها. وأنني أيضاً رفضتُ بتاتاً إجراء أي تعديل، ولو بكلمة واحدة، على الحلقات التي سجَّلتُها. وللأمانة فإنني نُصحت من قبل الجهة الراعية للبرنامج بالتطرق لمرضى الثلاسيميا، واستجبت لذلك النصح. وسوى ذلك شدَّدْت عليهم أنني لا أغيِّرُ كلمة واحدة.

وأنا عزيزي المستمع، لا أقول في أحاديثي الإذاعية سوى ما أومن به. وإذا سمعتني أحثُّ المواطنين على ترشيد استهلاك الماء أو الكهرباء فاعلم أنني أومن بهذه الرسالة. وأنني لا أتقاضى مالاً على مثل هذه الرسائل، حتى لو كانت الراعيةُ لها شركاتٌ معها المال الكثير. فلتطمئن بالاً.. لن تسمع من فمي دعايةً تجارية. وأما الموقف الذي تذكرته فقد كان في مؤسسة صحافيةٍ أجنبية كنت أعملُ بها، كان هذا في بريطانيا. والمؤسسة هي هيئة الإذاعة البريطانية. جاءني يوماً - أثناء حرب الخليج التي جرت بعد إخراج العراقيين من الكويت - جاءني تقريرٌ عن الدبابات. حدث هذا في وقت كانت الدول الخليجية فيه تشتري الأسلحة بجنون، والدول الغربية تتسابق على سوق السلاح الخليجي. هذا التقرير الذي جاءني كان يستند إلى مقال بمجلة «جين الدفاعية» الأسبوعية. وكان يقول إن الدبَّابةَ البريطانية التي تحاول لندن بجهد جهيد تسويقها في الخليج أقل في مواصفاتها، كالسرعة وقوة النيران والمتانة والحركة الميدانية الخ، من الدبابات الأخرى التي تنتجها دول أخرى. إنها دبابة متخلِّفة.

أحد الزملاء رأى التقرير، فبُهِتَ. وقال لي: وتريدُ أن تبثَّ هذا التقرير من هيئة الإذاعة البريطانية؟ قلت له: نعم، تقرير مهم، وصادرٌ من مصدر مهم وموثوق. ومهمتي أنا أن أعطي المستمع المعلومة الصحيحة، وفي وقتها.

وقد تم فعلاً بث التقرير من تلك الإذاعة التي يسمعُها كبارُ المسؤولين في دول الخليج، وغيرها. لا أدري إن كنت قد ألحقتُ الضرر بسوق السلاح البريطاني. ولكنني واثق من أن الإعلام الحرَّ لا يبالي بالمصالح المباشرة، ولا يعتِّمُ على المعلومات. لا أقول إن هناك حياداً مطلقاً.. ولكنني أعرف أن محاولةَ إخفاء المعلومة، أو تزييفِها، أو تزيينِها تؤدي في النهاية إلى تبديد مصداقية الإعلام وتؤدي في النهاية إلى الوقوع في الغلط بعد الغلط.

 التوظيف والواسطة

عزيزي المستمع، أنا من قراءِ استطلاعاتِ الرأي المداومين. وخصوصاً تلك الاستطلاعات الدورية التي تجريها بعضُ المؤسسات مرة كل ستة أشهر. ويهمُّني أن أرى كيف تصعد الأحزاب في رأي الناس، وكيف تهبط. لكنَّ الرقم الذي لفت نظري في استطلاعٍ قرأته من يومين يتعلق بالفساد. (ثلاثةٌ وتسعونَ بالمئة) من الناس قالوا إن الفساد عندنا متركِّز في طريقة توظيف الناس بالواسطة.

تستغرب عزيزي المستمع لماذا لم تكن النسبة مئةً بالمئة. ولكن، لعلَّ (السبعةَ بالمئة) الباقين هم من الذين تم توظفيهم بالواسطة. فالناس عند المصلحة يدافعون عن الغلط. ترى أحدَهم يطالب بالإصلاح ويشكو من الفساد. فإذا نجح في تشغيل ولدِه سكت. الوظائفُ تأتي أحياناً بشكل رُزَم. فالجهة الفلانية تنال خمسَ وظائف، والمسؤول الفلاني يؤمِّن عشرَ وظائف لجماعتِه: من العشيرة أو من الفصيل، لا فرق. فالفصائل عندما تستقيل من النضال تصبح عشائر.

المشكلة هي أن الذي ينال وظيفةً بالواسطة لا يمكنُ أن يصبحَ مخلصاً لعملِه، سيبقى ولاؤه لمن وظَّفَه. وستكون طريقةُ توظيفِه عبارةً عن بذرةِ شجرةٍ سامة. ومع مضي الزمن تكبر الشجرةُ في داخلِ عقله. ويَتْلَفُ هذا الموظفُ من الداخل، لأنه أخذَ الطريق الخطأَ من الأساس.

وبما أن معظمَ موظفي بلدي وُظِّفوا بالواسطة، بأشكالها المختلفة. ووُظِّفوا بناء على

الولاءات والحسابات والمحسوبيات، فأنا لست متفائلاً في أن يكون لنا نظامُ مؤسساتٍ جيدٌ في المستقبل، وخصوصاً في كل شيء حكومي. بذرةُ الفساد مزروعة في النفوس. والشجرة السامة تنمو. نحن هنا ننظر إلى التوظيف الفاسد نظرة عامة. ولكن الناس ينظرون نظرة مباشرة، ويؤذيهم أن يتمَّ توزيعُ الأرزاق دون أن ينالَهم شيء. ولهم الحق في نظرتهم. كل هذا كوم، وأبناءُ وبناتُ المسؤولين الذين يقبضون المعاشات عن وظائفَ وهميةٍ وهم مقيمون في الخارج كوم. والكوم الأول غلط وأما الكوم الثاني فهو.. أف.. كوم زبالة.. إنه غلط غلط.



بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزي المستمع، الشخص الذي يجلس إلى منضدته لكي يكتب مقالاً شخص مسكين يستحق منَّا الشفقة. إنه يأخذ بكل تعليمات «بِشْرِ بنِ المعتمر» فيتخيَّرُ أنسبَ وقت، عندما تكون زوجته عند أمِّها وأولادُهُ يلعبون في الشارع، ويرشو نفسَه بكوب شاي، ويجلس إلى المنضدة. وينتقي القلم الصالح الغالي الذي لا يُقَطِّع، والورقَ غيرَ المسطَّر، حتى يُحسَّ بالحرية.

ويجلسُ إلى المنضدة. فيكتشف حبةَ سُكَّرٍ تحت دستةِ الورق. فيقلِبُ الورقَ ويأخذ بالبحث عنها حتى يجدَها، فيلتقطَها ويبعدُها بعيداً بكل اهتمام، ويمسحُ المنضدة. ثم.. يجلس إلى المنضدة. ويتخيَّلُ أن يداهُ فيهما دِبْقٌ، وعَرَق. أما العَرَقُ فلِأَنَّ الفكرة طارت، وأما الدبق فربما من حبّة السكر. يغسلُ يديه، ويعودُ إلى مكانه، ويخطط بحرف الرُّقعة بسملةً في رأس الورقة، ويفرحُ أنْ رأى أخيراً شيئاً مكتوباً. البسملَةُ خير ما يجلُبُ القريحة. بسم الله الرحمن الرحيم. ويضعُ الكاتبُ سنَّ قلمه فوق أولِ الورقة مبتعداً قليلاً عن الهامش، ويقول في نفسه: ألا هكذا تكون الكتابة الحسنة، فليسرح القلم على وجه الورقة وحدَه حرَّاً طليقاً. ويكتب كلمة «أمس». ثم يفكر قليلاً. يقول لنفسه: لماذا نحن دائماً نصر على بدء المقال بشيء حدث في الماضي؟ لا. في هذه المرة أريد أن أبدأ مقالي من المستقبل. يشطب (أمس)، ويكتب (غداً). ثم يقول بسم الله

الرحمن الرحيم.. لا يقولها استفتاحاً واستقداماً للبركة، ولكن تعوُّذاً مما سمع.. فقد سمع صوتَ الباب يفتح فجأة وصوتَ ولده يدخل إلى البيت صارخاً باكياً. وساقُ سرواله مرفوعةٌ، وركبتُه مجرَّحة. يضع الكاتب قلمه، ويأخذ بمداواةِ جرح ابنه، وهو يحلم بمهنة أخرى، فالكتابة مهنة فقر. والكلمة الأولى فيها صعبةٌ كخلع الضِّرْس، ولو نزل الإلهام على الكاتب وأنهى مقاله، فسيجدُ في اليوم الثاني صديقاً له يقول: يا أخي ما أشطركم في الحديث عن المشكلة، ولكن أين الحل؟ كل مقالِك يا أخي غلط غلط.

٢٣٥ اعتقال قنصل

عزيزي المستمع، هل سمعت قصة القنصل الألماني الذي اعتُقل وسيق إلى مخفر الشرطة في أحد البلدان العربية؟ سأقص عليك القصة.

كانت دورية الشرطة تمر بالقرب من المنطقة الصناعية مروراً عرضياً. فالمنطقة خالية من الناس، واليوم جمعة. لكنَّ الله ساقَ هذه الدورية. هناك معرِضٌ كبير للسيارات في المنطقة الصناعية، وقد وَضَعَ المعرض على الرصيف سارياتٍ كبيرةً رفعَ عليها أعلام الدول التي يبيعُ سياراتها. هناك علمُ اليابان بدائرته الحمراء المشهورة، وعلمُ فرنسا بألوانه الثلاثة، وعلم ألمانيا بألوانه الثلاثة المختلفة. رأت دورية الشرطة شاباً أسمر نحيلاً متسلقاً على سارية العلم الألماني، ورأته وهو يعالج العلم لنزعه من فوق السارية.

ترجل شرطيان من الدورية، ووقفا بأصل السارية، وأخذا ينظران إلى الشاب الأسمر. فنزل بسرعة وبيده العلمُ الألماني. قال له الشرطيان: وماذا تريد أن تصنع بهذا العلم؟ نحن في غاية الأسف لأننا قاطعناك، لعلك تريد أن تسرق العلمين الآخرين؟ قال لهما الشاب: لا، فقط هذا العلم. فاقتاده الشرطيان للسيارة، فقال لهما: الحق ليس عليَّ. الذي طلب مني ذلك شخص محترم «أجنبيّ» هناك.. وأشار بيده إلى بعيد حيث كانت تقفُ سيارةٌ سوداءُ عليها لوحةُ أرقام دبلوماسية. سار الشرطيان مع الفتى النحيل باتجاه السيارة الدبلوماسية. فخرج من السيارة سائق يرتدي ربطة عنق، ومن الباب

الخلفي خرج رجل أجنبي يرتدي بدلة وربطة عنق. إنه القنصل الألماني. اعترف القنصل للشرطة بأنه هو السبب. وسيقَ القنصلُ والفتى النحيل إلى المخفر. وهناك عُرِفت القصَّة. لقد عُيِّن القنصل قبل شهرين في البلد. ولاحظ في أحد مشاويره أن علم بلادِهِ المرفوعَ أمام معرِضِ السيارات متَّسِخٌ والبقعُ السُّودُ ظاهرةٌ جداً وخصوصاً عند اللونِ الأصفر. فأرسل من القنصلية علماً جديداً لمعرض السيارات، وتلفن للمعرض عدة مرات كي يعلِّقوا العلمَ الجديدَ النظيف، ولكنهم تكاسلوا. فقرر القنصل أن يزيلَ العلم القديم، لأن هذا سيشجع المعرض على تعليق العلم الجديد. هذه هي كل الحكاية. وحتى تتجنب الشرطة أزمةً دبلوماسية أطلقت سراح الرجلين سريعاً، وتم تعليقُ العلم الجديد.

أنصح المسؤولين في بلدي أن لا يسرقوا مئاتِ الأعلام الفلسطينية المتَّسخة والمهترئة التي ترفرف فوق الدوائر والمخافر. أنصحُهم أن يتركوها على حالها كدليل على أن حالتَنا مثلُ حالتها.. مهترئة جداً. والسرقة يا عزيزي المستمع غلط غلط.

٢٣٦ دوق ويلنغتون

عزيزي المستمع، سأحدثك عن عدة أشياء. ولكني في النهاية سأحدثك عن نفسي. وهكذا هي حال المعلمين، إنهم كثيرو الكلام، كثيرو الاستطراد، ترى الواحد منهم يبدأ كلامه عن الجزمة وينتهي منه فإذا الموضوع قد أصبح عن الكبرياء.

الجزمة المطاطية التي يلبَسونها في الشتاء، وتصل إلى ما تحت الركبة، يسمونها في بلاد الإنجليز «ويلي» اختصاراً لكلمة ويلنغتون. فالدوق «ويلنغتون» هو الذي اخترعها. وأزيدك بدوق ويلنغتون تعريفاً: إنه الجنرال الذي هزم نابليون الهزيمة الأخيرة. كان عسكرياً شديد المراس، وصاحبَ عدة اختراعات. وقد جعلوه رئيساً للوزراء في إنجلترا بعد سنوات من انتصاره العظيم في معركة واترلو على نابليون.

عندما صار ويلنغتون رئيس وزراء خرج الجمهور في مظاهرة يهتفُ بحياته. فاستاء

ويلنغتون كثيراً، وأمر بتفريق الناس قائلاً: لا أريد أن أتولى منصبي بمباركة الغوغاء - إنه يهتفون لك اليوم، وضدك غداً.

والآن أحدثك عن نفسي. رأيت قبل أشهر شخصاً في شغل، وهو شخص لطيف. ولكن لا معرفة له بهذا النوع من الشغل. بدأ يناقشني في تفصيلات العمل. أخذت شهيقاً وزفيراً. كنت أريد أن أقول له: الأفضل أن تسكت يا هذا، وأن تُحضِرَ لي من بيدِه القرارُ في مؤسَّستِكم. لكنني صبرت عليه. وبعد قليل عرضت عليه نموذجاً لشيء، لكي يتم الاهتداء به. فقال: ممتاز جداً. لقد أعجبني ذلك. عندئذ بلغ توتري حدَّه، ولم أتمالك نفسي، فقلت له: أنا لا أعرضُه لكي أسمع رأيك الشخصي. كنتُ قاسياً وفظّاً، لكنني بصراحة لم أندم. فالذي يثني عليك إنما يعطي نفسَه الحقَّ في أن ينتقدَك في المرة القادمة. الواقع أن الثناء الصريح والانتقاد الصريح مهمّان ومفيدان، وأنا أقبلهما حتى ممن يصغُرُ مني سناً وخبرة.. لكن في سياق موضوع. أما أن يقول لي شخص طريُّ العود لا يفقه في صناعتي: أعجبَني شغلُك، فذلك مرفوض. لعله يسمعني الآن ويقول: غلط. أنا أقول له.. ولي الكلمة الأخيرة.. غلط غلط.

٢٣٧ فيروز وأم كلثوم

عزيزي المستمع، سأحاول أن أدخل في نفسية فيروز عن طريق نفسية أم كلثوم. فقد سمعت فيروز مؤخراً فرأيت صوتها متعَباً. ذكَّرني هذا الصوت بحفلةٍ شاهدتُها على التلفزيون لأم كلثوم تم تصويرها في أبو ظبي، وغنَّت فيها القلب يعشق، وأغداً ألقاك. كانت تجاهد حتى تتذكر، وكان صوتُها قد فقد قوته وبعض حلاوته. ثم سمعتُها في تسجيل صوتي بدون صورة لأغنية حكم علينا الهوى وهي آخر أغانيها، فرأيت طقم أسنانها يطقطِقُ من أول الأغنية إلى آخرِها.

أم كلثوم عاشت خمسة وسبعين عاماً. من سنة ألف وتسعمئة إلى سنة ألفٍ وتسعمئة وخمسٍ وسبعين. وكانت في كل عمرها الفني على القمة. ما أصعب ذلك! قضت

عمرها وهي تخشى الهبوط أو السقوط. قضت عمرها وهي تمشي على حبل مشدود.

فيروز أيضاً قضت معظم عمرها على القمة. وجددت نفسها بألحان ولدِها زياد رحباني وظلت على القمة. والآن هي في السبعين من العمر. ولو كان لي أن أقدم نصيحة لفيروز لقلت لها: اعتزلي اليوم، فالأجيال القادمة تسمعُ آخرَ ما غنته المطربة. ولا نريد أن يكون ما ستغنينه من الآن فصاعداً هو النموذج. خذوا مثالاً لاعب الكرة البرازيلي بيليه، لقد اعتزل في الوقت الصحيح فظل في الأذهان مَلِكَ الكرة. أما مارادونا الأرجنتيني فقد كابر وعاند، وترك في الأذهان صورة مشوهة عن إنجازاته.

ومثلما يصدق هذا على المطربين والكرويين يصدق على الشعراء والسياسيين والأكاديميين. لكن ابن آدم يرفض الاعتراف بالواقع ويرفض الاعتزال، وهذا غلط غلط.

٢٣٨ أسباب وجيهة

عزيزي المستمع، كنتُ أعمل في مؤسسة صحافية، وكنا نريد تعيين مراسل ليغطي منطقةً حساسة ومهمة، وكان عليّ أن أختار الشخص الملائم بحسب المعايير المعروفة في تلك المؤسسة. لكنني سألت مديري سؤالاً عاماً جداً: قلت له: ما طبيعة الشخص المطلوب؟ كان مديري مستعجلاً ولا يريد أن يُضيع وقته في الكلام معي. فقال لي عبارة لم أنسها أبداً، قال : نريد شخصاً «يجعل الأشياء تحدث».

يجعل الأشياء تحدث! ما أجمل هذا التعبير. صادفت في حياتي أناساً من أصناف عديدة. ولكنني الآن أعرف الصفة التي يجب أن يتحلَّى بها الشخص المثابر الفعَّال.

كان لي صاحب لقبه (مهو). وكلمة مهو عامية فلسطينية لا وجود لها في أي قاموس، وهي كلمة فظيعة يبدأ بها المبرِّراتي كلامه. تسأل أحدهم: لماذا لم ترسل الرسالة؟ فيقول: مَهُو.. البريد يحتاج يومين فقط، وقلت لنفسي الأفضل أن أرجيءَ ذلك لليوم التالي ..

و.. سلسلة أعذار.

وقصة هذا اللقب الذي التصق بذلك الرجل أن صاحبَنا كان كلما كُلِّف بعمل في الشغل الذي كنا نشتغل فيه، ولم ينفِّذُه، قال: مهو.. ثم بدأ يصفُّ لنا الأسباب الممتازة التي أدت إلى عدم (حدوث) العمل. كلَّفناه مرة بالفَطور.. نعم.. وقع عليه الاختيار لإحضار طاسةِ الفول وصحن الحمص.. و»سرفيس» البصل والمخلَّلات.

ذهب وغاب. وطال غيابه. ثم رجع مبتسماً سعيداً . رجع يداً من وراء ويداً من قُدَّام.. المصيبة أنه كان باسم الوجه منشرح الأسارير. قلنا له: ما الحكاية ثكلتك أمُّك؟ فانشرح لسؤالنا جداً. وقال: اسمعوا. وعرض لنا الأسباب الكافية، وكيف أنه وجد محل الفَوَّال مغلقاً، وكيف سأل جاره عن السبب، فعرف أن هناك حالةَ وفاة في بيت الفوَّال.

ولماذا لم تذهب إلى عند أبي حسن؟ قال لنا: مهو.. أبو حسن.. ليس عنده طاسة تتسع للكمية.. وعرض عليَّ أن يجعل الفول في أطباق عديدة.. وطبعاً أنا لست مجنوناً لأقبل هذا. ثم مللنا منه ورضينا بالجوع والقهر. المصيبة أنه كان سعيداً لأن أسبابه مقنعة. ونحن! ماذا ربحنا من أسبابه؟

ما أكثر المتحججين بالحجج، والمتعللين بالعلل، وما أقل أولئك الذي يجعلون الأمور تحدث. لقد قرَّع عليٌّ بنُ أبي طالب كرم الله وجهه أصحابَه في خطبة له، قال لهم: «إذا جاء وقت الصيف قلتم هذه حَمارَّةُ القيظ، وإذا جاء الشتاء قلتم هذه صَبارَّةُ القُرّ، فأنتم والله من الحرب أَفَرّ.»

وكان مصيباً، فقد خذلوه المرة بعد المرة، حتى لقد قال: لا رأيَ لمن لا يُطاع. وما إن قُتل عليٌّ وانتصر معاوية حتى ندم أولئك الخاذلون الفرَّارون أشد الندم ، أجل.. كان موقفُهم غلط غلط.

٢٣٩ الروماتيزم وحكمة الشيوخ

عزيزي المستمع، هناك درسٌ في كتاب القراءة عن عزم الشباب وحكمة الشيوخ، وكنا ونحن تلاميذ نسخر من هذه العبارة.. ونهزأ بحكمة المسنِّين الشيوخ.. كنا نريد منهم فقط أن يحلُّوا عنا.

وعشنا.. وكبرنا.. السيارة التي كانت ستدهسنا لم تدهسنا.. والعمارة التي تهدمت على رؤوس أصحابها.. تهدمت بعد أن خرجنا منها.. والجلطة تأخرت.. وبعثت إلينا أولاد عمها: الشيب والصلع والكرش والروماتيزم. وعشنا وكبرنا. ورجعنا إلى كتاب القراءة. رجعنا إليه هذه المرة لندرِّسه لتلاميذنا.

أمسكتُ كتاب القراءة بيدين مرتعشتين. ولاحظت إبهام يدي اليسرى ينكسر في زاوية قائمة عند عقدته الثانية، كإبهام كل كهل، ورأيت شعرات بيضاً يتسللن إلى ذراعي، ورأيت على ظهر يدي نُقَطاً داكنة، فعرفت أن الموزَ اختمر، وحانَ حيْنه. وتذكرت أبياتَ الراجز:

إذا الرجالُ وَلَدَتْ أولادُها
وأخذتْ أمراضُها تعتادُها
وارتَعَشَتْ من كِبَرٍ أجسادُها
تلكَ زُروعٌ قد دنا حَصَادُها

وعلمت أن المرءَ يزداد خوفُه من الموت باستمرار مهما كبر. إلا إذا خرف. فقلت لنفسي: اللهم ثبِّتْ علينا الدين، أمَّا العقل فما حاجتُنا إليه في الشيخوخة؟

ثم نظرتُ في الكتاب: عزم الشباب، وحكمة الشيوخ.

وقلَّبتُ الكتاب.. وتعجبتُ كيف وقف الزمنُ أربعين سنة. وقبل أن تثور ثائرتي وأبدأ في كيْلِ سيلٍ من السباب للمناهج قررت أن أستعمل حكمة الشيوخ. أو لعلِّي تروَّيْتُ تروِّياً لاإرادياً لأنني صرتُ شيخاً. فكرت بهدوء. الحقُّ ليس على التربية والتعليم، ولا على لجنة المناهج. بصراحة: عالمنا العربي لم ينتج شيئاً ذا قيمةٍ في الأدب والفكر

منذ عشرات السنين. قرأت قطعة عن البعوض للمنفلوطي وقصةً عن حلاقٍ للمازني، وقصيدة عن صعوبة العيش لإلياس فرحات. وأغلقت الكتاب. أدركت أننا أفلسنا في النثر الفني منذ عقود، وأما في الشعر فقد دخلْنا في الرمزية البغيضة، وصار شعراؤنا يؤلفون الحزازير، أي الفوازير.

نحن أمة تقف في أرض الليل، تنتظر الفجر.

كانت صِحافتُنا مليئةً بالأدب، فصار أدبُنا كلُّه صِحافة. هذا عن الأدب.. وأما العلم عندنا فلن أتحدث عنه، حتى لا أتفوَّه بكلماتٍ نابية، وحتى لا يصبح كلامي غلط غلط.

٢٤٠ الشعر حكمة العرب

عزيزي المستمع، عندما يداهمني موقفٌ صعب فإنني أستشير الشعراء والعظماء. يواجهني حدث جليل أغْتَمُّ له.. فأسرعُ إلى صديق لي قديم مات قبل ألفِ سنة. واسمعه وهو يقول «كلُّ شيء يبدأ صغيراً ثم يكبر، إلا المصيبة فهي تبدأ كبيرة ثم تصغر»، واستمدُّ من قوله القوة. وأرى شخصاً يشتم ويهدد، ويتوعد بأن يكسِّر الرؤوس. وأتحيّر في التعامل مع الموقف. لكنني أتذكر قول المتنبي:

وإذا ما خلا الجبانُ بأرضٍ   طلبَ الطَّعْنَ وحدَه والنِّزالا

الشعر العربي القديم مليء بالحكمة، وهو يساعدُني كثيراً في فهم الناس. أحياناً أَغرَقُ في أحلام اليقظة.. أتخيل نفسي وقد أغتنيت وحللتُ كلَّ مشاكلي المالية، ومشاكل من أعرف من الناس. أو أتخيل نفسي صاحب سلطان.. وأحلم أنني زججت في السجن بكل النصابين في البلد.. وأحلم قبل ذلك طبعاً أنني بنيت سجناً يتسع لنصف مليون إنسان.

ثم أطلب النجدة من الشعر العربي: أريد منه أن ينقذَني من أحلام اليقظة. فيطلُّ عليَّ الشاعر قائلاً:

إذا تمنَّيْتُ نمتُ الليل مُنشرِحاً   إن المُنى رأسُ أموالِ المفاليسِ

ولأنني لا أريد أن أكون من المفاليس، فإنني أُقلِعُ عن أحلام اليقظة، وأعود إلى الواقع. وأحاول أن أحل مشاكلي دون اللجوء إلى أحلام اليقظة التي أحسُّ أنها تستنفدُ طاقتي.. وأنها غلط غلط.

٢٤١ الضبضبة

عزيزي المستمع، نحن الكبار نحب الرسومَ المتحركة مثلَ الصغار. يعجبني في الرسوم المتحركة الإشاراتُ الخفيةُ الدقيقة. مثلاً ينكسر أَصِيص كبيرٌ فيه نبتة، وتتناثر قطعُ الفَخَّار والترابُ والشَّتْلةُ المسكينةُ على أرض الغرفة. فيأتي الإنسانُ الآليُّ وبيدِه مِكْنَسة، ويكنُسُ كل ذلك.. ثم يرفعُ طَرَفَ السجَّادَةِ ويدُسُّ كلَّ القمامة تحتها وينتهي الأمر.

في هذا إشارةٌ إلى مثلٍ مشهور وهو دسُّ القُمامة تحت طرف السجادة. وفي حضارتهم هم يشيرُ المثل إلى ضَبْضَبَةِ الأمور ولَفْلَفَتِها، وإخفاءِ القمامةِ إخفاءً غيرَ أمين عن الأعين.

في كل مجتمع، وفي كل حكومة هناك شيء من الضبضبة. وهناك أعرافٌ تحكم هذه الضبضبة.. أولاً تقوم الصحافة بالطنطنة.. ثانياً يخجل عيزر وايزمن ويحمرُّ خداه.. ويسأله مراسل القناة الأولى: لماذا أخذت المال الكثير من شخصٍ أجنبي دون أن تعلنَ عن ذلك حسب القانون؟ ثالثاً: تُصابُ الحكومةُ بالإحراج، ويزيد الضغطُ عليها. رابعاً: يفتح النائب العام تحقيقاً، ثم يغلق التحقيق. خامساً: قد يستقيلُ وايزمن ويعيش السنتينِ الباقيتين من عمره مفضوحاً، كما حدث فعلاً. وقد لا يستقيل ويكملُ مسيرتَه السياسية.. وهذا حدث مع شارون (الذي انتفع هو وأولادهُ مالياً من مصادرَ خارجية)، ولكنَّ الناخبين يكونون قد عرفوا بالفضيحة قبل ضبضبتها، وصار بيدِهم الخِيار. في مجتمعنا نحن بفلسطين: هناك اختلاسات.. على كل المستويات.. وهناك ضبضبة ولفلفة. وأولُ جهة تقوم بكنس الزُّبالة تحت السجادة هي الصِّحافة.. وهذا غلط غلط.



الاختلاط

عزيزي المستمع، عندما تضعف الأمة فإنها تتمسك بالقشور، والأمة العربية ومن ورائها أممٌ إسلامية كثيرة تتمسك اليوم بقشور كثيرة، وتترك اللباب. وأريد أن أحدث مستعميَّ عن موسم الحج في زمن مضى.

كان الشاعر عمر بن أبي ربيعة الذي عاش في زمن الخلفاء الراشدين وبعدهم بقليل، مكّياً وكان من قريش، وكان ابنُ عباس الفقيهُ العظيم وابن عم النبي يُنشِدُ شعرَه. ولم يقل عمرُ شعراً إلاَّ في الغزل. كان هذا الشاعر ينتظر بلهفة موسم الحج، حين تأتي إلى مكةَ النساءُ الجميلاتُ حاجّاتٍ ومعهُنَّ أزواجُهنَّ أو إخوتُهن، وكان بعد أداء الشعائر يضرب مع النساء المواعيد، ويلاحق من تتهرب منه، وينشدُها شعرَه، فمنهن من تتضاحك، ومنهن من تطيبُ نفسُها وتسمعُ وهي منشرحةُ الصدر. أكان هذا يحدث في موسم الحج، وفي عهد الخلفاء الراشدين؟ نعم، هذا كان يحدث.

وكان يحدث أيضاً أنَّ سُكيْنةَ بنتِ الحسين سيد الشهداء كانت تجمعُ الشعراء في مجلسها لتسمعَ منهم ما قالوا في الغزل، وكانت تنتقدُ عليهم أشياءَ في شعرهم. كان لها صالون أدبي عامر بالنساء وبالرجال.

الغزل ليس حراماً، والاختلاط بين الرجل والمرأة ليس حراماً. أما الذي يقول بحرمة الاختلاط فهو شخص غابت عنه حقائق الدين والحياة، وظن الدين عقاباً وإلغاءً لطبائع النفوس.

أذكر نفسي جالساً على حَبَلةٍ، قرب بيتِ جيراننا، وأنا في الصف السابع أو نحو ذلك، والحبلة هي السلسلة المبنيَّةُ بالحجارة بغيرِ مِلاط. كانت حبلةً مرتفعة وكنت أُدلِّي رِجليَّ لاهياً. وكانت بناتُ الجيرانِ يلعبْنَ في الساحة، فمرت سيدةٌ كبيرة من الجارات وابتسمت إليَّ، وقالت: غداً لن تصِحَّ لك جلسةٌ كهذه الجلسة. ولم أفهم كلمتَها كلَّ الفهم إلا بعدَ بضعِ سنين، عندما غدا صعباً أن أَقعد على الحبلة. فبنات الجيران صِرْنَ أحلى في عيوني، وصرنَ أبعد، وصرن يختفين كلما ظهرت، وإذا صادفتني إحداهن في الشارع فإنها لا تكلِّمُني، ولذا صرت لا أكلمُها.

وماذا لو استمر الكلام، وتحول من كلام صبيان، إلى غزلٍ رقيق؟ لا أظن ذلك مما يَشين، ولكن هكذا قضت العادات، رغم أن ذلك الزمن كان زمناً سهلاً: في الستينات. أما في زمننا هذا فقد يودُّ الآباءُ لو يُعلِّبونَ بناتِهم تعليباً في سن العاشرة؛ وقد يرغب بعض المتشددين في تزويج بناتِهنَّ صغيرات، أقصدُ بَيْعَهُنَّ إلى رجالٍ أجْلافٍ كبار، حتى يمنعوا عنهن كلمةَ غزلٍ رقيقة.

ما رأيُكم، أيها السادةُ المتزمتون، في استخراج فتوى بتحليل وَأْدِ البنات؟ ما تفعلونَه هو الوَأْدُ الأصغر. ثكِلتْكُم أمهاتُكم.

لو وجدَ أولئك الشبانُ المتبطِّلون الذين يقفون في وسط المدينة متكئين إلى الجدران وإلى السيارات الواقفة، سبيلاً إلى أن يقولوا صباح الخير لبنت الجيران، أو صباح الورد أو الياسمين مثلا، لاكتفوا بذلك، ثم لاهتمُّوا بشيء آخر.

سأكمل للمستمع الكريم قصتي مع البنات، فقد تعلمت بعد التوجيهية في مكان مختلط، وعرفتُ البناتِ وعرفنَني، وراجعت معهنَّ الدروس، وتكلَّمْنا في مواضيعَ اجتماعية يصلُ بعضُها إلى حد الجرأة. وحمِدْتُ اللهَ على هذه الفرصة، لأنها جعلتني أعرفُ للمرأةِ مكانتَها، وجعلتني أحترمُ عقلَها، وجعلتني ببساطة: إنساناً عادياً. لا شك عندي في أن الاختلاطَ المطلق في مجتمعِنا غلط، ولا شك عندي في أن منعَ الاختلاط كما يحدث اليوم من أعظم الغلط.. إنه غلط غلط.



٢٤٣ سياج السيادة

عزيزي المستمع، المقاومة لا تكون بالسلاح وحده، ولا بالحجر وحده، بل أيضاً بالعلم. هل سمعت هذه العبارة من مدير المدرسة، وأنت تهم بالخروج من المدرسة للتظاهر ورشق الحجارة؟ أنا سمعتها مراراً. نحن شعب يقاوم الاحتلال، والمواثيقُ الدولية تعطينا الحق في استخدام وسائلَ كثيرةٍ، منها السلاح. وهذه المواثيق وضعها ناسٌ أوروبيونَ اضْطُرُّوا في منتصفِ القرنِ العشرين إلى مقاومةِ الاحتلالِ الألمانيِّ

لبلادِهِمْ بالسلاح، ولولا ذلك لنَسُوا هذا البند. ولكن المقاومةَ بالعلم شيءٌ غيرُ مقنعٍ لكثيرينَ منَّا، الواحدُ منَّا يتعلمُ ليهاجرَ، ولِيَنسَى وطنَه. أو ليتوظَّفَ، وينسَى النضالَ كلَّه. فهل في العلمِ مقاومة.

أعتقدُ أن الشعبَ المتعلمَ أقدَرُ على الصُّمودِ من الشعب الجاهل. الشعبُ الذي فيه نسبةُ تعليمٍ عاليةٌ ونوعيَّةُ تعليم متميِّزةٌ يصبحُ لُقْمَةً مُرَّةً في فَمِ المحتلّ. تخيلوا لو أن في شعبِنا الفلسطيني عشراتٍ من الأطِبَّاءِ الكبارِ والمفكِّرينَ البارزين، وعشراتٍ من المهندسين من أصحاب الإبداع، وعشراتٍ من الصِّحافيِّينَ الكبار الذين يترفَّعونَ عن نقلِ الموادِّ من وِكالاتِ الأنباء ونشرِها في الصفحات الأولى كالببَّغاوات، ويمتنعون عن سرقةِ المواد بدون نسبتِها إلى مصادرها. شعبٌ كهذا يستطيع نيلَ اعترافِ العالم بشكل أسهل. ويستطيعُ دحرَ المحتلِّ والوصولَ إلى الاستقلال بسرعة. قبل عدة سنوات كانت سوريا تسيطرُ على لبنان في شبه احتلال، وذلك بعد أن قامت بتنظيم حلف ضد الفلسطينيين أدى إلى إضعافِ شوكتهم، ومن ثم إلى خروجهم سياسياً من لبنان. كان اللبناني يتوقُ إلى اليوم الذي يتخلصُ فيه من نفوذ سوريا. ولكنه لا يقوَى على قول كلمة. غير أن سوريا لم تتمكن من تذويبِ لبنان.

الذي حمى استقلالَ لبنان كان الأخوان رحباني، وفيروز، ودارَ العلم للملايين. لبنان ذو شخصية مستقلة بما فيه من فن وعلم وأدب ولا يمكن لأحد أن يمسحَ شخصيته.

بلدنا فلسطين ليست أقلَّ استقلالاً من لبنان، ولكنها بحاجةٍ إلى أن تكون قويةً حضارياً وثقافياً ومعرفيَّاً حتى تبقى جمرة. كلما هاجر من بلدنا مثقفٌ كبير شعرت أن جسمَنا صار أقلَّ مَناعة.

الخبرات المتميزة لا تأتي من العدم. وعندنا في البلد إحدى عشرة جامعة تخرج كل سنة آلافاً ينهمرون فوق رؤوس المؤسسات باحثين عن وظائف. كثيرون منهم لا يريدون عملاً.. بل وظيفة. يريدون الوظيفة ويطالبون بها بإلحاح. ويُمعِنون في نقد الموظفين القدامى، ويتهمونَهم بأنهم يشتغلون بدون شهادات. ويعتبرون أنفسهم من كبار العلماء لأنهم حملة شهادات.

ليسوا كبارَ ولا صغارَ علماء، وجامعاتنا لا تخرِّج طلبةً متميزين. بل عاديين وأقلَّ من

عاديين. والجامعاتُ لا تتعبُ نفسَها في تحسين التدريس وتقوية المنهاج. لا بل إنها نادراً ما تفصلُ طالباً مقصِّراً. ونادراً ما تفرض شروطاً قوية للالتحاق. بعض هذه الجامعات مَتَاجرُ لبيع الشهادات. وبعضها أحسن قليلاً. ولكن لم يعد فيها جامعةٌ متميزة.

وسأقص على المستمع قصة جامعة مهمَّة في البلد. يقول رئيس هذه الجامعة إن أقساط الطلبة تسد خمسة وأربعين بالمئة فقط من نفقات الجامعة. وتقوم السلطة بسد ستة بالمئة. وهكذا بقي تسعة وأربعون بالمئة يتم الاعتماد فيها على المعونات والتبرعات. هذا هو وضع جامعة من أفضل جامعات البلد. فكيف تستطيع أن تُولي التدريس والإبداع الاهتمام الكافي.

من الجيد للبلد أن يكون فيه جامعة قوية تقبل النخبة فقط، وتخرِّج النخبة. ما يحدث هو أن كل جامعة صارت مدرسة الحارة. ونلوم في ذلك بشكل كبير الاحتلال البغيض، فلئن كنا نرتكب نحن الغلط، فلا بد أحيانا من وقفة للقول: الاحتلال غلط غلط.

٢٤٤ المزمار السحري

عزيزي المستمع، سأقص عليك قصة رمزية لعلها تقع في نفسك موقعاً حسناً.

في القرية الليلةَ عُرْس، وقبل العرس بساعات اقتحم اللصُّ بيتَ أبي ربيع عازِفِ النَّاي، وسرق النايَ السحري الذي طالما خَلَبَ ألباب شباب وفتيات القرية بأنغامه، وطالما جعل الشباب يشتدُّون في الدبكة وتفورُ دماؤهم. هذا الناي كان يصنعُ الفرح فتلتهبُ الأكف بالتسحيج، ثم يرسل أنغاماً حزينة تكاد تدفع الدموع إلى عيون السامعين.

قبل العرس بساعات دخل اللص ووضع الناي في عُبِّه، وانسل من البيت. وقبل العرس بساعةٍ واحدة اكتشف أبو ربيع أن النَّايَ اختفى، فحزن عليه. لكنه تناول قصبةً وثقبها في مواضعَ معلومةٍ، وأصلَحَها بمعرفته. وصار عنده نايٌ جديد. وما هبطَ المساءُ وتكاثَفَ الحضور في ساحة القرية إلا وأبو ربيع يُطِلُّ عليهم. استبشروا، وتهللوا، وكانت ليلة عرس حلوة.

أما اللص، وهو بالمناسبة من أهل القرية، فقد كان يقف بين الناس في العرس. رأى اللصُّ أبا ربيع يجترح معجزات النغم بقصبته الجديدة التي خلق منها ناياً.

حزن اللص كثيراً، وذهب إلى بيته دون أن يكملَ السهرة. وحاول أن يخرج أنغاماً من الناي الذي سرقَه. لكن عبثاً. قال في نفسه: ليتني سرقتُ أصابعَ أبو ربيع.

وتاب اللص سريعاً. وقبل أن يعود أبو ربيع إلى بيتِه من العرس. كان اللص قد سبقه، ووضع الناي المسروق في المكان الذي أخده منه. فرح أبو ربيع بعودة نايِه القديم.

بعضنا يتخيل أن استيرادَنا لتكنولوجيا الغرب كافٍ لصنع نهضة حضارية في بلدنا. لكن التكنولوجيا ليست جهازاً ولا كمبيوتراً، إنها علمٌ كثيرٌ في الصدور. لا بد أن نصقُلَ عقولَنا بنار البحث العلمي.

نحن نستوردُ طريقة صنع الدواء، ونشتري الامتياز من الشركة الأم، ونبنى مصانع دواء. هذا حسن، ولكنه لا يصنع نهضة. لا مفر من أن نساهم مع العالم المتطور في الابتكار. أولئك الذين يبتكرون التكنولوجيا لن يسمحوا لنا بسرقتِها، سيرمون إلينا الفتات فقط. سنظل نستورد حتى تفرغَ جيوبُنا. لا يكفي حتى أن نرسل أولادَنا ليتعلَّموا في الخارج. يجب أن نخلقَ الظروف للإبداع التكنولوجي والعلمي.

لنعد إلى اللص التائب. نثني أولاً على أمانته أمام نفسه: فقد أدرك بعد ساعات أن القشور ليست هي التي تصنع النغمات السحرية، فأعاد الناي المسروق. ونثني على ذوقه العالي، فهو محب للموسيقى ويعرف قيمة النغمة الحلوة. وبهذا فهو مهيأ الآن لدخول عالم الإبداع.

الآن نكمل القصة:

ذهب اللص في اليوم التالي إلى أبو ربيع، واعترف بما اقترف. وقال له: علِّمْني. علمه أبو ربيع بعض المباديء، ثم قال له: حتى يكتملَ إبداعُك يجبُ عليك أن تتجاوزَني، وإلا فستصبح صورةً مشوَّهَةً عنِّي. اذهب إلى القرية المجاورة، واسمع أبو محمد.. عندهم عرسٌ يوم الخميس. صار اللص يعزف كثيراً ويتدرب، ويسمع العازفين، ويتذوق عزفَ كلٍّ منهم. ويصحب الناي إلى الحقل وهو يرعى الغنم. وصار يتفنَّن. وصارت مشاعرُه تُملي عليه أشياءَ جديدة لا تشبهُ أيَّ شيء سمعه من الآخرين. صار يولِّدُ الأنغام توليداً. وصار له تكنيك في العزف خاصٌّ به. يطوِّرُه بهدوء. صار عازفاً.

فمتى نصير؟ متى نرضى أن نتعب في سبيل الإبداع، ونتجاوز وضعنا الذي لا يحسن بنا إلا أن نصفَه بعبارة: غلط غلط.

٢٤٥ أكل المحاشي

عزيزي المستمع، جيءَ هارونُ الرشيدُ برجل يُدخِلُ الإبرةَ في عينِ الإبرة: يضع إبرة على الأرض، ويقف ممسكاً بين إصبعيه إبرةً أخرى، يرميها فيدخُلُ رأسها في خُرْمِ الإبرة الأولى.

أعطاه الرشيد مئةَ درهمٍ على مهارته، وأمر به فجُلد مئةَ سَوْطٍ، لأنه أضاع وقته فيما لا فائدة فيه.

ولو عوقبت الخانُم التركية التي اخترعت المحاشي لكانت نساءُ الترك والعرب والفرس استرحن من إدخال الأَرُزِّ في بطن الخضار.

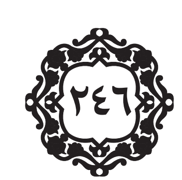
إذا أردت، عزيزي المستمع، أن تحكم على براعة السيدة في محاشيها فضعِ الباذِنجانةَ المحشوَّةَ في الطبق أمامك واصدَعْها بالسكين. ثم أغمض عينيك. هل تتخيّلها حسناء تخلعُ روبها استعداداً للغطس في بركة السباحة؟ أم تتخيّلها كمحارب يخلع درعه عن صدره بعد انتهاء المعركة؟ المحشيَّةُ الحسناءُ ترتدي قشرتها ارتداءً كروْب الحسناء الهفهاف. كذا يكون التقوير الجيد للمحاشي.

ويحسُنُ بك أن تأكلَ المحاشي ثلاثة أنواعٍ من الأكل. ضع في طبقِك الباذنجانة المحشوة، واسطحها (كلمة أخرى معناها اصدعْها)، وافلُقْها نصفين، واسكُبْ عليها شيئاً من المرق، وكلها بملعقة، أو بشوكة - إن كان هذا الشيء مما تضَعونَه على المائدة - واستعن بسكين، إن كنت من المسعدين الذين يضعون على الموائد السكاكين.

ولك في المحشوة الثانية آيينٌ ثانٍ، والآيين هو القانون، قطِّعْها بالسكين - ولا بد من السكين هنا - قطِّعْها على عرضِها دوائرَ دوائر. وابطح الدوائر في طبقك بحيث يكون الرزّ إلى الأعلى وأسكب مرقاً على الرز، وانتظر حتى يتغلغل، وكُلْ دائرةً دائرة.

وفي المحشية الثالثة، لا بد من طِرازٍ في الأكلِ ثالث. الآن يكون الطعامُ قد برد قليلاً. أَمْسِكِ المحشية (وهي نفس المحشوَّة بالمناسبة، ولكن جماعة «قل ولا تقل» لا تستطيبها)،

امسكها بين إبهامك وسبابتك.. وانسَ المرق.. واكزم كَزْمَةً كَزْمَة (بالفصحى: كدْمةً كدمة، أو قَضْمةً قضمة)، ولا تبال بضيوفك، أو بمضيفيك، فكلُّهم يشتهي أن يفعلَ فعلَتَك، ولا يجرؤ. كان لي صاحب يحب بطنه، ويتفنن في الطبخ وفي الأكل. وكان رمضانُ عنده عرساً للأكل. على أنه كان يعوض عن سَرَفِهِ هذا ببعض التعويض. كان إذا دخلَ رمضان بدأ يحسُبُ كل قرش ينفقُه على الأكل حساباً دقيقاً، لا يفوتُه من ذلك قطائفُ ولا صحنُ حمصٍ ولا لحمٌ ولا خضر. فإذا ما انتهى رمضان وأثبتوا رؤيةَ هلال شوال جمع أولادَه وأخذ يحسبُ معهم نفقات الأكل في كل أيام رمضان، ثم تكون الحصيلة مقداراً من الدنانير لا بأس به، ويتصدَّقُ الرجل في أول أيام عيد الفطر بمبلغ يعادل ذلك المبلغ، كفَّارةَ اهتمامِه ببطنه في الشهر الفضيل. ولي كلمة أقولها لذلك الصاحب.. - ولم أقلها له في وجهه - أقول: تصدَّقْ وأكثِر، ولكن لا تجعل من رمضان مناسبة للنهم والشره. فهذا غلط. من يدري لعل صديقي لو سمعني يقول لي: ووصف المحاشي وطرائق أكلها للناس غلط غلط.



ضع أُذُنك إلى الأرض.. إنها تتكلم العربية

عزيزي المستمع، لا أرى أجمل ولا أحلى ولا أكثر تعبيراً من لغتنا العربية. عملت ذات يوم في مشروع إعلامي اقتضى ترجمة أفلام وثائقية من الإنجليزية إلى العربية. وقال أحد أعضاء اللجنة وكان من الإنجليز: هناك مشكلة، لأن القطعة من الحوار الإنجليزي يتضاعف طولها بعد ترجمتها إلى العربية. المصيبة أن الحاضرين من العرب وافقوا على كلامه.

أنا كان لي موقف آخر.. وموقف متشدد وجذري. لا.. بل اللغة العربية أكثر إيجازاً، وأدقُّ بياناً. وقامت أزمة انهزمتُ فيها. انهزمت ليس لأن العربية قاصرة، ولكن لأن العرب الذين يترجمون مقصرون لا يعرفون لغتهم جيداً، ويلفون ويدورون حتى يعبِّروا عن النص.

نحن لا نحبُّ لغتَنا ولا نحترمُها. وفي بلدنا نسرف في استخدام الحرف الإنجليزي. لا بل نستخدمه بغير خجل. نصدر ملحقَ جريدة مموَّلاً من جهة أجنبية فنجعلُ فيه صفحاتٍ بالإنجليزية نستورد من أجلها أجانبَ كي يكتبوها. ونصرُّ على وضع تلخيص بالإنجليزيةِ لكل تقرير، ولكل نشرة. ونضع أسماءَ المانحين الكرام بالأحرف الإنجليزية.

ولأنني على اطِّلاع طيب على أحوال المموِّلين الأوروبيين، فإنني أقول للمستمع: إياك أن تظنَّ أنهم يطلبون ذلك. إنهم أعقلُ من المسترزقين من أصحاب دكاكين (الإن جي أو). الممول الأجنبي لا يفرض عليك لغته ولا أحرفه، فإن كنتَ أنتَ مهترئاً ثقافياً، وفاقداً للاعتزاز بلغتك فرضتَ على نفسك لغة أجنبية. أصحاب الدكاكين في الواقع يتوجهون برسالتهم في كل مشاريعهم إلى الممول، وليس إلى أبناء وطنهم. وقد سررت جداً عندما رأيت أحد المعاهد في بلدنا يصدر ملحقاً لا يكتب فيه حرفاً واحداً بالإنجليزية: لا اسم الملحق ولا التاريخ ولا حتى اسم الممول. كل حرف في ذلك الملحق كان باللغة العربية. وهذا المعهد بعينه أصدر أُسطوانة عن الموسيقى الكلاسيكية الغربية ضمت أعمالاً لخمسة وخمسين موسيقاراً دوِّنتْ أسماؤهم جميعاً مع أسماء معزوفاتهم على الكتيِّب المرفق. ولم يكن في الكتيب كله حرفٌ واحد بغير اللغة العربية.

تعصبي للغة العربية لا حدودَ له، غير أنني أحب في المقالات العلمية أن أجد المصطلح الأجنبي مكتوباً بالأحرف الإنجليزية بجانب الكلمة العربية.

شيء واحد لا أظن أنني سأتخلَّى عنه: أنا أقول شكراً بالإنجليزية فقط، هذا إذا اضطررت إلى شكر أحد. فأنا نشأت في بيت ليس فيه شكراً ولا عفواً، ولا صباح الخير. كان يحدُثُ أن أعودَ من سفرٍ بعد غياب سنة. أدخل البيت منهكاً من عَناء الجسر، أضع حقيبتي. يخرج أبي رحمه الله من غرفته ويقول لي عبارتَه الخالدة: أنت جئت؟ ما رأيكم في هذا السؤال ؟ أجيبه: آه. فيقول: تغدّيت . فأجيبه: لا.

فيأمر بتسخين الأكل، وتنتهي المجاملات.

عندما دخَلَتْ أمِّي بيتَ العائلةِ عروساً صُعقت. فهؤلاء قوم يصحوُ الواحد منهم صباحاً، وعينه اليسرى قد ذهبت يساراً.. واليمنى قد ذهبت يميناً، واحولَّ احوِلالاً فظيعاً، تقول له: صباح الخير، فلا يجيب، ولا حتى يتنحنح. وإذا ناولتْ أحدهم شيئاً وقالت: تفضلْ. أخذ الشيء صامتاً. فكلمة شكراً غير موجودة في قاموس العائلة.

لهذا تراني أنقِّي كلامي من الألفاظ الأجنبية ما استطعت، فإذا اضْطُرِرتُ إلى شكراً وعفواً فإنني ألوذُ بالإنجليزية لِياذاً. ثانك يو لحسن استماعك لبرنامج غلط غلط.

٢٤٧ البَقْلُولة

عزيزي المستمع، الأكل الذي نحبُّه هو الأكلُ الذي عرفناه في طفولتنا، وقد يكبرُ المرء ويصبحُ ثرياً، ولكنه يظلُّ يحِنُّ إلى أَكَلاتٍ كانت تُسْمِنُه من جوع. وأنا كبُرْتُ ولم أصبح ثرياً، وحنيني هو لأكلةٍ عزيزة هي لبَنُ نِعاجٍ عليه رشة ملح وزيتُ زيتون وبجانبِه رأسُ بصل أو رؤوس.

واللبن الرائب عرفتْهُ العرب قديماً.. ولكن الصِّراعَ على أصل هذا النوع من الطعام دائر في العالم الآنَ بين الأتراك والبلغار.. ولعلك عرفت في المدرسة أن اللبن يتخثر بفعل البكتيريا، ويكتسب حموضةً من حامض اللاكتيك.

يبيعون اللبن الآن في عبوات، وهو إما متجانِسٌ مَلخوخٌ؛ وإما متخثِّرٌ في علبةٍ و»قاعد»، وتتكسر كتلته إمَّا سكبتَها في طبق. والفارق في الصناعة أن اللبن «القاعد» يُسْكَبُ في العلبة وهو حليب ويُتْرَكُ أربعَ ساعات يتخثَّر. أمَّا الملخوخُ المتجانس فيصنعونه لبنا في حوض كبير ثم يعرِّضُونَه لضغط حتى يتجانسَ. وتصبحُ كلُّ مِلعَقَةٍ منه شبيهةً بالملعقة الأخرى، ثم يسكبونَه في العبوَّاتِ التجارية. كان اللبن يأتينا قاعداً في فَخَّارةٍ طويلةٍ رفيعةٍ يسمُّونَها البَقْلُولَة. يكون اللبن في فمها شديد الخثورة مبقبِقاً.

وطولُ البقلولةِ نحوُ ذِراعٍ وفمُها بحجم قبضة اليد. فلا يخرج اللبن منها إلا بعلاج وضرب على قفاها. وكنا نعيد البقَاليلَ الفارغة إلى اللبَّان. وحدثَ يوماً أن بقيتْ في

بيتِنا بقلولةٌ فَخَّارية، وضعنَاها في قاع خِزانةِ المؤونة. ونسيناها سنين.. وشاء ربُّك أن يكونَ لهذه البقلولة شأنٌ عظيم.

كانت إحدى قريباتنا تعاني من إمساك دائم.. ولم ينفعْها طبُّ الأطبَّاء، ولا دَعَواتُ الاتقياء، ولا التُّقَى ولا الرُّقَى.

وأخيراً قررتْ عجوزٌ في العائلة أن تعالجَها بكاساتِ الهواء، فقيل لها: إنَّما كاساتُ الهواء لعلاج الظهر. فقالت: وأنا أريد أن أعالج بها بطنَ هذه المِسكينة. وبما أن الوجع متركِّزٌ في وَسَطِ بطنها فلا بد من مهاجمةِ موطنِ الوجع، ورأت عجوزُنا - رحمَها الله - أن تستعملَ البَقلولةَ المهجورة. فوضعت فم البقلولة على بطنِ المرأة، ووضعت فيها وَرَقَةً مشتعلة، فدخل قَدْرٌ صالحٌ من بطنِ المرأةِ المريضة في بطنِ البقلولة، وصارت تصرخُ، واجتمعت النساء عليها. صِرْنَ يَشْدُدْنَ البقلولةَ شدَّاً عنيفاً. لم يفكِّرْ أحدٌ في أن يكسِرَ تلك الفَخَّارة. ظللْنَ يشدُدْنَ، حتى انبعَجَ بطنُ المرأة وخرجتْ مصارينُها. فجيءَ بالطبيبِ حالاً. فأدخلَ المصارينَ في مكانها وقَطَبَ، أي خاطَ، جلدَ البطن كيفما اتَّفَق. وتدخلت يدُ الله سبحانه فلم تُصَبْ المرأةُ بالتهاب.. ثم تدخلتْ يدُ الله مرَّةً أخرى، وبقوَّة، فزالَ الإمساكُ عن المرأة، وعاشت بعدها أربعين سنة مسهولة مسرورة بإسهالها، رحمها الله هي أيضاً. أعتقد أن أمعاءَها ترتَّبَتْ عندما خرجَتْ من بطنها ثم دخلت. لكنني غير متأكِّدْ.. قد يكون تشخيصي غلط غلط.

٢٤٨ الطابور

عزيزي المستمع، كنت تلميذاً في مدرسة حكومية، وفي فرصة الساعة عشرة كنَّا ننزلُ إلى الساحة ونصطفُّ صفاً طويلاً أمام بائع الساندويشات، فإذا ما نزلنا إلى الساحة متأخِّرينَ بعض الشيء ووجدنا الصفَّ طويلاً ذهبنا إلى زاويتِنا المألوفة وتبادَلْنا آخرَ النكت، وروَيْنا التشنيعاتِ المختلفةَ على الأساتذة والمدير. وبعد عشرِ دقائق نجدُ أن الضغط على بائع الساندويشات قد خفَّ قليلاً، فنخِفُّ إليه ونصُفُّ أمامه وينقضي الأمر في دقائق.

ثم صرت معلِّماً، وكأنَّ أخلاقَنا وأحوالَنا تطورت كثيراً في السنوات القليلة التي انتقلت بها من مقعد التلمذة إلى أمَام اللوح. فقد صرتُ أرى تلاميذي يتكوَّمُون على بائع الساندويشات بدون صفٍّ ولَا طابور، وهو يقضي نصفَ وقتِه في البيع، ونصفَه الآخر في تهدئتِهم أو في شتمِهم أو في إعلانِ غضبه. تراه يتوقفُ فجأة ويقول: الله يعوِّضْ، خلاص لن نبيع اليوم، انصرفوا. وتتعالى الاحتجاجات، ويبتعد عنه الكوم البشري قليلاً. فيعود للبيع. وهكذا.

إذا غاب الطابورُ واحترامُ الدور عن المدرسة فلا شك في أنه سيغيبُ عن البنك، وعن الأولَوِيَّةِ في الوظيفة، وعن مظاهرِ الحياة المختلفة. مجتمعُنا الآن يعيشُ حالَةَ حارةِ «كل من إيدو إلو». وهذه الحالة شائنة.

مؤخراً لجأَتِ البنوكُ في بلدِنا إلى نظامِ الدَّوْر بالأَرقام. ووفَّرت لعُملائها مقاعدَ يقعُدونَ عليها في انتظار ظهور رقْمِ البطاقة. صادفتْني حالةٌ دخل فيها رجل أعرفه إلى البنك، وكنتُ جالساً ومعي بطاقَتي. حيَّا وسلَّم ثم صار يبحث بعينيه عن موظفٍ يعرفه، وأخيراً انطلق كالسهم، وقضى معاملته بدون بطاقة. وعندما خرج كان يضع رأسه في الأرض. ولكنني أحببت ألاَّ يُفْلِتَ بهذه السهولة. ناديته، وقلت له: قضيتَ معاملتك؟ قال بذِلَّة بالغة: نعم. كانت معاملة بسيطة. قلت له: ومعاملتي أبسط. وأنا أنتظر منذ ثلث ساعة. عافاك الله. قلت هذا ووضعت رأسي في جريدتي، فانصرف المسكين ذليلاً قميئاً. لعله أحسنُ حالاً من غيره، فهناك شخصٌ تراه يدخل البنك وهو رافعٌ رأسه، ويتكلم بصوتٍ شبيهٍ بالصُّراخ، ويتجاوز كلَّ خلقِ الله المنتظرين.. ويتكلمُ في تلفونه ويقهقه، ويقضي معاملتَه ولا يبالي بأحد.

لا شك في أن هذا غلط. ولكن ما رأيك بموظف البنك الذي ينتقي من بينِ الجالسين شخصاً يعرفه ويَبدِّيه على الجميع؟ أعتقد أن هذا يستحق كلمةَ ختام البرنامج.. غلط غلط.

٢٤٩ من الإذاعة إلى المجلة

عزيزي المستمع، العالِمُ هو الصورةُ الأصل، والمعلِّمُ هو الكاريكاتير. والكاتب هو الصورة الأصل، والمذيع هو الكاريكاتير. ولا بد - حتى يسيرَ العالم وتمشي الدنيا - لا بدَّ من أصل، ومن كاريكاتير.

تسمعني قاعداً وراء الميكروفون أسرح بحديثي في وِدْيانِ الضلال محاولاً تسريب فكرة هنا ومعلومةٍ هناك وسط كلام كثير في الهزْل. ذلك أنني أدخل إلى بيتِك وإلى سيارتِك ومكتبِك غيرَ مستأذِن. فلا بدَّ لي من أن أسلِّيك. ولو كنتُ أكتب في جريدة أو أكتبُ كتاباً لكنتَ أنت الذي يَأتي إليّ.

حدث مرة أني تزحلقْتُ من الميكروفون إلى المجلة في قصةٍ طريفة.

كنت أعمل في إذاعةٍ جادةٍ كل الجد. ليس فيها مِزاحٌ ولا هزْل. وكانت الإذاعةُ تصدرُ مجلةً خاصةً بها توزِّعُها في العالم العربي بطوله وعرض. وكانت مجلةً ذاتَ أثر. بينما كنتُ في الاستديو ذات يوم مُسيِّرَ فترة.. وكان الوقت عصراً.. لاحظت أن البرنامَجَ المسجَّلَ الذي يذاع على الهواء قصير، وبينه وبين نشرة الأخبار ثلاثُ دقائق. فقررت أن أتحدث مع المستمع عن وضعي ووضعه وعن علاقتي به. قلت له: يا أخي أنا آكلُ لقمتي ببركةِ استماعِك إليّ. ولولا أنت لذهبتُ إلى بيتي وقعدتُ فيه، ومهمَّتي في هذه الدقائق التي تفصلُني وإيَّاك عن نشرة الأخبار أن أحاولَ استبقاءَك معي. وصلت إلى هذا الحد من كلامي ثم أدركني غضب على نفسي وعلى المستمع، وقلت له: «يا أخي، إن شئتَ حوِّلْ مؤَشِّرَ المحطة بالله عليك، اذهب عني، لا بل.. إنْ لم يعجبْكَ كلامي فأَمْسِكْ بالراديو واقذفْ به من النافذة لعله يسقطُ على رأس أحدِ المارَّة فيخْرَبَ بيتُك. اصنع ما بدا لك حتى أستريحَ من التفكير فيك.» وفي قمة غضبتي تلك دقَّت الساعة. وبدأ مذيع الأخبار نشرته، وخرجت أنا من الاستديو. فوجدت محرر مجلةِ الإذاعة واسمه «مصطفى الكركوتي»، سهَّلَ الله أمرَه أينما كان، ينتظرني في غرفة المراقبة بالخارج. قال لي: هل تحسنُ أن تكتبَ كلاماً كالذي قلتَه الآن؟ قلت له: أُحسِن. فقال

: أكتب للمجلَّة. وكتبتُ له ثلاث سنوات، كنت في بعض الأحيان أفاجئُه بهراءٍ أفظَعَ من الذي سمعه مني على الميكروفون. وكنتُ أخوض في الدين والجنس والسياسة لا أحبسُ قلمي عن شيء، ولم يشطُبْ لي سطراً واحداً. ولم أتوقَّفْ عن الكتابة لمجلَّتِه إلا عندما أوقفَ إصدارُها. وها أنا أسكب الهراء منذ سنوات في الراديو. ولكنني لا أجدُ من يقول لي: بكم ضُمَّةُ الفجل، أو كلامُك غلط غلط.

٢٥٠ الأحمر الصارخ

عزيزي المستمع، كانتْ تلبَسُ فستاناً أحمرَ أحمرْ. لا أقول كلون البطيخ في إبَّانه، ولا كلون الدم وهو يتدفق من شريانِه. ولكن بلون الحمرة الأصلي الصافي الذي خلقه الله في اليوم السَّادِس بعد خلق السموات والأرض. أحمرُ فستانِها لونٌ له صوت. كان ينادي على كل البائعينَ والشارين، والصائعين والضائعين، ولأنَّ صوتَ لونِ فتسانها الأحمر كان عالياً أَطَلَّ المحامُون من نوافذ مكاتبهم، وخرج العمال من مشاغِلِهم، وحملَقَ البنَّاءون وهم يتأرجحون فوق سقائِلِهم.

وسمعَ صوتَ لونِ فستانِها الأحمر أبناءُ القرى المجاورة، فركبُوا من فورِهم إلى المدينة، ولكنني علمْتُ أنهم وصلوا متأخِّرين.

يقولون عنه قانيا وأقول: بل صارخاً.. صارخاً بأعلى صوته.. هذا اللون الأحمر.

يحمل مصارعُ الثيرانِ بيدِه رَيْطةً حمراء. ظنَّ الناس أن هذا يثيرُ الثورَ أكثر.. ثم قال لنا العِلْمُ إن الثيران لديها عمى ألوان. وبهذا عرفْنا أن تلك القُماشَةَ الحمراء بيدِ مصارع الثيران، إنما هي لإثارة المتفرجين.

وهل هناك إثباتٌ أبلغُ من هذا على أن الرجل أثوَرُ من الثور. ما أرقَّ عواطفَ الأُنثى. إنها تقدرُ الحبّ وتقدر العلاقة، وتريد لنفسها رجلاً واحداً، لا عشرةَ رجال. وتريده العلاقة مستمرة.. إيجابية.. تُفْضي إلى بناء أسرة. وما أَحْيَوَنَ الرجل.. والرجل العربي تفجرَّتْ حيوانيتُّه تفجُّراً في العصر العباسي. كأنما وَلَّد امتزاجُ الحضارة الفارسية بالعربية البدويَّة مادةً سامَّةً في دماء الرجل العباسي. قال المسعودي إن المتوكل قام بالواجبِ تجاهَ

جواريه جميعاً، وكان عددُهُنَّ أربعةَ آلاف. وترى الجاحظ يكتب وهو في التسعين من العمر عن تبديل النساء وعن أشياءَ لا يحسُنُ إيرادُها هنا، وكأنما هو يتحدث عن أكل حبَّاتِ العنب.. ذلك في كتابه الذي كتبه وهو في التسعين كتاب الحيوان.. نعم الحيوان. رحم الله أسلافنا الذين جاءوا بنا إلى هذه الدنيا. وللسيدات المستمعات أقول: اجعلوه زهرياً أو بطِّيخياً أو فوشياً، أما أن يكون الفستانُ أحمرَ صارخاً فهذا بحقِّنا غلط غلط.



٢٥١ القبقاب

عزيزي المستمع، كنت في مرة سابقة - قديمة - حدثتك عن أشجار القيقب. ولن أكرر حديثي مع أن كلمة القيقب تستوقفني. اليوم سأحدثك عن شيء من وحي القيقب.

القُبقابُ سلاح من الخشب. كتلة خشبية ثقيلة يستخدمونها كسلاحٍ أبيض في الطوشات.. وفي أوقات السلم يشُدُّون عليها سيْراً من جِلْد، ويلبسونها في أقدامهم، ويذهبون إلى المتوضأ حتى يغفر الله لهم ما تقدم من أفاعيلهم في أوقات الطوش. وبما أننا

نتحدث عن الأسلحة فلا بأس بكلمة عن السلاح الأسود. وأعني به الكلاشنيكوف، وهو جهاز اخترعه الروس للاستخدام في الأعراس الفلسطينية، ثم صار الآن يستخدم كرمز على قوة العشيرة والفصيل. واستخدمناه فيما بين هذا وذاك في المقاومة.

كنت أسكن يوماً في شقة.. وكان يسكن فوقي رجل صالحٌ ليس له شحَّاطةٌ في بيته سوى القبقاب. وكنت أسمع رنة خَلْخَاله، أقصد قبقَابِه، قبل أذانِ العصر وقبل أذانِ العِشاء. لا بد أنه كان يفقد وضوءَه عند نوْمَةِ الظهر. ولعله كان يبدر منه بادِرٌ بعد المغرب يوجِبُ عليه وَضوءاً جديداً لصلاة العشاء. ثم تزوجَ شيخُنا فتاةً عُطبُولاً خَدَلَّجَة. واشترى لها قبقاباً. لم أَرَهُ يشتري لها قبقاباً، ولكنني سمعتُ الصوت.

لقد ملأَتْ تلك الفتاةُ قلبَ شيخنا بالبهجة والسرور، فهي مِمْراحٌ لعوب تهرُبُ منه في أرجاء البيت فيقول قبقابُها تك تك تك تك، ويلحقُها شيخُنا الصالح فيقول قبقابُه طق طق طق طق، كنت أشاهد بأُذُنَيَّ فِلْمَ الغزلِ هذا بعدَ العشاء، وفي ضُحَى يومِ الجمعة. وسوى ذلك فقد استمر جاري الصالح في الطقطقةِ قبل أذان العصر وقبل أذانِ العِشاء. غير أنها صارتْ طقطقة مزدوجة. أحياناً كنتُ أراه نازلاً أو طالعاً فنتبادل التحية، ويراني أبتسمُ له ابتسامة عريضة. لا شك في أنه يظنني في غاية الدماثة لهذه الابتسامة، لكنني في الواقع كلما رأيته انشرحت لجيرته، وابتسمت لأن قبقابه يعرِّفني بكثير من أسراره. كلما رأيته قلت له في سري: أخْ منك أيها المخبَّأُ في قُشورك! ربما لهذا كنتُ أبتسم.

ترونني لئيماً أيها المستمعون؟ لعلكم ترون تجسسي وتنصتي غلط غلط؟

٢٥٢ المرأة والبقرة

عزيزي المستمع، يصور الأوروبيون البقرة بصورة لا أحبها: يضعون صورتها في قسم اللحوم من السوبرماركت، وتكون الصورةُ مقطَّعة بخطوط. ويُكْتَبُ على كل جزءٍ اسمُه كما تعرفه ربَّاتُ البيوت، فهذا فخذ، وهذا كتف، وذاك صدر.. وحتى الذيل فهم يصنعون منه حَساء دسماً. والفيديو كليبات العربية تصنع الشيء

نفسه تقريباً مع المرأة. مع فارقِ استبدالِ الذيلِ بالمؤخرة التي نرى الاهتمام بها يزداد مع دخول الراقصات المعتزلات إلى حلبة الفيديو كليب. والمؤخِّراتُ تشترك مع ذيولِ البقر في الدسم.

نعم، لا أحبُّ صورة البقرة مقطَّعَةَ الأوصال في دكاكين اللحامين، وأفضِّلُ أن تبقى لها تلك الصورةُ الرومانسية وهي ترعى في حقلها. وأما المرأة العربية فهي محجوبة عن القرار. تكون فتاةً ذكية متفوقة على الذكور في مدرستِها، ثم تُسحَبُ من سوق العقل والقرار لتُعتقلَ في دَوْرٍ جسميٍّ محض. وقد ناضلت نساءُ بلدي نضالاً طيباً للمشاركة في القرار، فأقنعنَ السَّاسةَ بوضع قيد قانوني شاركن بمساعدته في إدارة المجالس المحلية وإدارة المجلس التشريعي أيضاً. وقد رأينا رجالنا في القرى يجلسون جنباً إلى جنب مع النساء في المجلس القروي أو البلدي، ورأينا كيف أنهم يتقبَّلون الوضع. للنساء دور هام في الوصول إلى هذه النتيجة الطيبة. ولضغوط الدول المانحة والمنظمات المرتبطة بها مالياً دور مهم ومشكور.

ستظل المرأةُ فتنةً للرجل، ولكن أيضاً سيظلُّ الرجلُ فتنة للمرأة. وهنا يقع على النساء لومٌ أكبر مما يقع على الرجال، فالمرأة تقصِّرُ تنورتها، والرجل لا يقصِّرُ بنطلونه.

ذات يوم من أيام الستينات.. أيام الميني جوب - أي التنورة فوق الركبة - زارتْنا سيِّدةٌ ذاتُ ثقافةٍ ورأي، وجلست قُبَالَةَ والدي رحمه الله - وكانت تلبس الميني جوب. وانشَقَلتْ تنورتُها على نحو فاضح، ولا أدري إن كانت وضعتْ رجلاً فوق رجْلٍ أم لا. ولكنني أعرف يقيناً أن أبي دعا بمِنشفةٍ، ورماها على ركبتي السيدة قائلاً: فقط لأني لا أعرفُ أين أذهبُ بعينيّ.

أعود إلى موضوع الفيديو كليبات: أنا أرى بالطبع العري في الفيديو كليب الأجنبي، ولكني لا أرى فيه الدلع الشرقي المقيت ولا الهزّ. الفيديو كليب العربي فضيحة في تصويره للمرأة. إنه غلط غلط.

٢٥٣ سجاد المساجد

عزيزي المستمع، لا أقول لك إنني هريت حصير المسجد فهذه مُراءاةٌ لو صَدَقْتُ، وبُهتانٌ لو كذبت. ويا ليتهم أبقَوْا على حُصُرِ الجوامع ولم يأتوا بالسِّجَّاد. ليس فقط لأن الحصيرَ أقربُ إلى الله، ولأنه من شُغْل البلد، بل لأنه أقلُّ احتفاظاً بالرطوبة.

ولمستمعاتي الكريمات اللاتي لا يذهبْن إلى مسجد أقول: إما أن تحوِّلنَ المؤشر إلى إذاعة أخرى، وإما أن تسمعنَ بهذه المشكلة المسجدية التي يسبِّبُها ويتأذّى منها إخوَتُكُنَّ الرجال. ليت شعري لماذا يسمح للنساء بالدخول والصلاة والطواف في أعظم مساجد الإسلام، ثم يُمنَعْنَ من الدخولِ إلى المساجدِ الأخرى. واستثني نساء القدس اللاتي يصلين في أجملِ مساجدِ الإسلام، في مسجدِ قبَّةِ الصخرة. للآن لم أقل لَكُنَّ ما هي المشكلة المسجدية. الرجال يعرفونها جيداً. ولكنهم يقفون عاجزين إزاءها لأنهم السبب فيها.

يأتي الرجل من بيته أو من دكانه بغير وَضُوءٍ، فيتوضَّأُ في المسجد، ويخرج من المتوضَّإِ وهو ينشِّفُ يديه بمنديله.. أما رجلاه فينشِّفُهما السِّجَّاد. وأقدامُ بني البشر ممتلئةٌ بالجراثيم التي تعشش فيما بين الأصابع، لأن القدم تظل مكبوتة داخل الحذاء. وكي نختصر الطريق فإن بُسُطَ المسجدِ تظلُّ مبلُولة طولَ عمْرها، وترتَعُ فيها تلك الجراثيم المسمَّاة فطريَّات. فإذا دخلت المسجد شممتَ رائحةً لا تُرضي دين النظافة. وإذا قلت: «سبحان ربي الأعلى» شممت رائحة جهنَّميَّة مع أنك تؤمل دخول الجنة. في زمن غابر كان الفقيه يسمحُ للرجل بأن يصليَ ونعلُهُ في قدمه عملاً بالقاعدة (جاف على جاف طاهر بغير خلاف) ويبدو أن فقهَنا (مسلمي هذه الأيام) آخذٌ إجازة. أفلا نتذكر على الأقل المسح على الأخفاف؟ كانوا في الماضي يستعيضون عن غسل الأرجل بالمسح على الخف، لدرء ضرر أو في حال السفر.. وما أحوجَنا اليوم إلى هذه الرخصة من رخص الله. أما أن نفرشَ المساجدَ بالسِّجَّادِ الفاخر ثم نحوِّلَه إلى مزارعَ للفطريات فهذا وأيْم اللهِ غلط غلط.

 السهر وتقصير العمر

عزيزي المستمع، مضى الليلُ ما ظلَّ إلّا الأقلُّ وهذا الذي داهمَ القلبَ لا يضمحلُّ

على غيمة من قلوبِ العواذلِ يرقدُ قلبيَ مرتعشاً مدنَفاً يتذكر هجْمَةَ ذئبِ الهوى في العشيَّةِ حين أتى شدَّ ثم استبدَّ وخلَّفَ وَسْمَ المذلَّةِ فوق الشغافِ وولَّى، وخلّاه، والعشق ذلٌّ.

مضى الليل ما ظلَّ إلّا الأقلُّ ، وهذا الذي داهَمَ القلبَ لا يضمحلُّ.

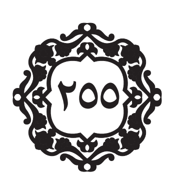
عزيزي المستمع، حديثي إليك عن السهر، وليس عن العشق. عشت من عمري ليالي بيضاء كثيرةً، وما أكثر ما وصَلْتُ ما بين يومين لم تغمَضْ لي فيهما عين. ثم جاءت هذه السيدة الطبيبةُ لكي تنذِرَني. قالت لي: السهر يقصِّرُ العمر. كان قالها لي أبي رحمه الله مراراً، وصَمَمْتُ أذنيَّ ولم أبالِ، فالفتى يُحِسُّ أن الموتَ بعيدٌ عنه جداً. ولكنني الآن لستُ فتىً.

وعندما أكدت لي هذه الطبيبةُ الصديقة أن السهرَ وصفة ممتازة لِقِصَرِ العمر أقلقتني. ولشدة القلق صرتُ أسهَرُ أكثر. أسهر، وأَصِلُ النهارَ بالنهارِ بليلٍ يَقِظٍ ولم أقطع عادتي. ومرَّ شهر وأسبوع تقريباً على ذلك النذير. ثم تعرفت بسيدةٍ أُخرى طبيبةٍ أيضاً، هل هذا من قبيل المصادفة؟ لا أدري. وأعطتني السيدة الثانية نذيراً جديداً. قالت لي إن اجتماعَ البدانةِ والتدخين على المرء خير وسيلة للتوكُّلِ على الله، ومغادرةِ هذه الحياة وصرتُ آكلُ أكثرَ، وأدخِّنُ أكثر.

لا تفهمْني خطأً عزيزي المستمع، نعم، أنا أقعد أحياناً أمام الميكروفون، وأعظ الفتية وأحذرهم من التدخين. ولكنني أعني ما أقول. هذه العادة الحقيرة التي هي التدخين إدمان خطير. وأحسن علاج له ألاّ يبدأ المرء بالتدخين أصلاً. أتمنى أن نشُنَّ حملة وطنية ناجحة لوقاية الشباب من التدخين. وهذا ليس حلماً زاهياً. لقد حققوا في بعض الدول نتائج ممتازة: في الولايات المتحدة وفي إنجلترا وفي السويد.

في عام ألفين وخمسة في السويد أعلنوا حظراً على التدخين في كل الأماكن المغلقة العامة، حتى في البارات والمطاعم. وظنَّ البعضُ أن الحظرَ سيفشل ولكنه نجح نجاحاً

هائلاً.. وبكل سرور طبَّقَه السويديون. ويمكنني (بعد أن زرت بلادهم وأقمت فيها أسبوعين) يمكنني القول إنها أقلُّ بلاد الدنيا تدخيناً. السهر غلط، والتدخين غلط غلط.

 الصحافة والحكومة

عزيزي المستمع، قال لي: لماذا تهاجم الحكومة بلا توقف؟ فقلت له: أوَليس هكذا يجب أن يكون الأمر؟ الحكومة تحكم، والصحافيون يهاجمونها. فإن صنعتْ خيراً فهذا واجبُها ولا شكراً ولا عفواً. وإذا صنعت شراً فلها من الصِّحافيين الانتقادُ اللاذع، والسخريةُ المرة. الحقُّ أن هذا الذي أقوله هو النموذج الغربي في العلاقة بين الحكم والصحافة. فالحكومة لها ناطقون رسميون، ووزراؤها مسحوبون من ألسنتهم، ولا يفوِّتون فرصة في تمجيد حكومتهم وإبراز إنجازاتها، وهم بارعون في تجاهل أغلاطها، وتبريرِ ما لا سبيلَ إلى إخفائه من هذه الأغلاط. فهل الحكومة بعد هذا بحاجة إلى مزيد من المديح؟

في بعض بلدان العالم المتخلف تمدح الحكومة نفسَها، وتمدح الصِّحافةُ الحكومة، ويمدحُ التلفزيون الحكومة، ويمدح الشعبُ الحكومة في العلن. وأما في السّر فالوزراءُ أنفسُهم يشتمون حكومتهم، وكذا الصحافيون وكذا الشعب. أليس هذا هو النفاق بعينه؟

في بلدنا الوضعُ أفضل، والصحافة أفضل. ولكن صحافة بلدنا بحاجة إلى تذكيرها بشيء مهم.

انظروا إلى الشرق تجدوا صحافيين يسبحون بحمد الحكومات. والناس لا تشتري الجريدة إلا لمعرفة من مات. هذه صحافة ميته.

وانظروا إلى الغرب تجدوا صحافيين لا هم له إلا التنقير عن عيوب الحكومة من رَاسِها إلى أساسِها. النموذج الشرقي في الصحافة أفلسَ مادياً وأخلاقياً ووطنياً، والنموذج الغربي ناجح ورابح ومحترم. يحترمه الوزراء قبل أبناء الشعب العاديين. وأزيدُكَ مستمعي الكريم من الشعر بيتاً وأقول لك، قال ابن الرومي:

أمامَكَ فانظُرْ أيّ نهجيْكَ تَنْهَجُ طريقانِ شتَّى: مستقيمٌ وأَعْوَجُ

وأزيد فأذكِّرُكْ: كانت البرافدا، جريدةُ الحزب الشيوعي السوفييتي، تصلِّي للحكومة مع مطلع كل شمس. وكان الملايينُ يشترونها.. لا ليقرأوا ما فيها.. ولكن ليقرأوا فيما بين السطور، وليتحزَّرُوا إلى أين تسير الأمور.

تقول الطُّرفة إنه التقى رئيس تحرير الواشنطن بوست ذاتَ يوم برئيسِ تحرير البرافدا، قال الأميركي: نحن في كل يوم نشتُمُ حكومتَنا. فقال له رئيس تحرير البرافدا: نحن مثلُكم تماماً.. في كل يوم نشتُمُ حكومتكم.

وسقط الاتحاد السوفييتي، والبرافدا معه. أما الواشنطن بوست فقد أسقطت الرئيس نيكسون، وظلت حيَّةً.. وظلت تنتقد كل من جاء بعده. وهي تواجه كل موقف للحكومة بعبارة: غلط غلط.

٢٥٦ المتنبي وجرير

عزيزي المستمع، يقول المتنبّي:

ومكايِدُ السُّفَهاءِ واقِعةٌ بِهِم وعداوةُ الشعراءِ بئسَ الـمُقْتَنى

والمتنبي كان كثيرَ الأعداء، لكنه كان قليلَ الهجاء ترفُّعاً. فإذا هجا أوجع. اسمعه يقول لأحد حُسَّادِه:

صَغُرتَ عن المديحِ، فقلتَ: أُهجَى كأنَّك ما صغُرتَ عن الهجاءِ

وهجا المتنبي رجلاً يقال له ضبَّةَ في قصيدةٍ مشهورة مطلعها:

ما أنصفَ القومُ ضَبّةْ وأمُّه الطُّرْطُبَّةْ والطرطبَّة هي القصيرة الضخمة.

وفيها يقول:

إن أوحشَتْكَ المعالي فإنَّها دارُ غُرْبةْ
أو آنستْكَ المخازي فإنَّها لك نسْبَةْ
وإن بَعُدْنا قليلاً حملْتَ رُمْحاً وحَرْبَةْ
وما يَشُقُّ على الكلْـ ـبِ أن يكونَ ابنَ كلبَةْ

وقد فضح المتنبي ضبَّةَ هذا فضيحة كبيرة، وتعرض لأمِّه. فربَطَ خالُ ضبَّةَ للمتنبي عند

ديرِ العاقولِ قربَ بغدادَ وقتلَه. وتقول القصة إن المتنبي أراد أن يهربَ من خالِ ضبة، فقال له خادِمُه: كيف تهربُ، وأنت القائل:

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفُني   والسيفُ والرمحُ والقِرطاسُ والقلمُ؟

فثبت المتنبي، وقاتل وقتل. فعلى هذا قولهم إن ذلك البيت هو الذي قتل المتنبي. والواقع أن قصيدة الهجاء هي التي قتلت سيد الشعراء.. وما كان أغناهُ عنها.

وأمَّا الشاعرُ الأُمَوِيُّ جرير فإنه مات حتف أنفه رغم أنه هجا الشعراء. كان جريرٌ نازلاً بالبصرة. وأراد أن يهجوَ الشاعر النميري الملقب بالراعي. ذهب جريرٌ إلى بيت القوم الذين استضافوه.. وأخذ معه باطيةَ نبيذٍ وصَعِدَ إلى العُلِّيَّة. وبعد ساعة من الزمن أطلَّت عليه امرأة من أهل البيت، ونزلت مسرعة تُوَلْوِلُ وتقول للقوم: ضيفُكُم هذا مجنون.. لقد خلعَ ملابسَه وراحَ يحبو عارياً على الأرض. قال لها القوم: دعيه وشأنَه. كانت تلك طريقةَ جرير عندما يريد استدعاء شيطان الشعر. بدأ جريرٌ ينظم قصيدته:

أَقِلِّي اللَّوْمَ عاذِلَ، والعتَابا   وقولي، إن أصبتُ، لقد أصابا

ظل ينظِمُ طول الليل. وفي قلبِ الليل استيقظَ القوم على صوت جرير يكبِّر في غير وقتِ صلاة. فأطلُّوا عليه، فقال لهم: أخزَيْتُه وربِّ الكعبة.. اسمعوا:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ   فلا كَعْباً بلغْتَ ولا كِلابَا

وسارَ هذا البيتُ من الشعر كالحريق. ولم تقم لقبيلة نُمَيْرٍ بعدَهُ قائمة، حتى لقد غيَّروا اسمَهُم.

لقد انتهى الهجاء في الشعر العربي، ورغم أنه يُسَلِّي لعلَّه غلط، وانتهى المديح. والمديح بالتأكيد، غلط غلط.



٢٥٧ سومرست موم

عزيزي المستمع، لحظات الإلهام عند كل كاتب وشاعر وموسيقار لها أوصاف عجيبة. كان محمد عبد الوهاب ينتظر النغم الجميل كما ينتظر الوحي، لا يعرف متى يهبط. فكان يلحن في أي لحظة من نهارٍ أو ليل. وكثيراً ما يقوم في الصباح مسرعاً ليستعيدَ جملة

موسيقية كانت هبطت عليه في الليلة الماضية وسجَّلها بعوده على المسجل، فيكتشف أنها إلهام كاذب، وأنها ليست ذات قيمة.

أحمد شوقي كان يفقس بيضتين ويشربُهما نيِّئتين، ثم يتمشى في الحديقة ساعة زمن ويعود ليكتب أبياتاً كثيرة صاغها وحفظها وهو يتمشَّى.

نزار قباني قال إن قصيدة (حبلى) اختمرت في ذهنه عشرَ سنوات قبل أن يضعها على الورق. وكان يكتب على ورق ملون أصفر وأحمر وأخضر إغراء للوحي بالنزول عليه.

نجيب محفوظ من العرب، وسومرست موم من الإنجليز كاتبان روائيَّان لهما طريقة صارمة.كان الواحد منهما يحدِّدُ ساعاتٍ معيَّنةً في كل يوم للكتابة، يمسك بالقلم ويظل يكتب حتى ينتهي وقتُ الكتابة، ثم يتوقف حتى لو في منتصف الجملة. على أن موم الإنجليزي كان يحتفظ في جيبه بدفتر يدون فيه ملاحظاته. خذ مثلاً وصفَه لزوجة قسيس: «ضئيلة ترتدي الأسود وشعرُها بُني مصفَّفٌ بعناية، وعيناها زرقاوان جاحِظَتان، ووجهُها المستطيل أشبهُ بوجهِ خَروف، ولصوتها رنينٌ معدِنيٌّ، لكنه ميِّتُ التعبير، ورتيبُ الوقع»، هذه الشخصية استخدمَها موم بعد ذلك في قصته «مطر»، ولهذه القصة قصة.

لقد عرض وكيل سومرست موم قصة «مطر» على كل مجلات نيويورك فرفضتها. ثم نُشرت القصة في مجلة مغمورة، وبسعر التراب. وبعد سنوات، كان موم يجلس في فندقه بكاليفورنيا يصحِّحُ تجارب مطبعية لطبعة أميركية لقصصه القصيرة. في المساء قرع بابَه المؤلفُ المسرحي كولتون، الذي كان ينزل في الفندق نفسه، وقال: لم يأتِني نوم، فهل عندَك في غرفتِك شيءٌ أقرأُه. أعطاه موم تلك المجموعة القصصية. وفي الصباح.. على مائدة الإفطار قال له كولتون: قصتك «مطر» تصلُح للمسرح، فهل أُعيدُ صياغتَها كمسرحية؟

استغرب موم.. فهذه القصةُ المرفوضة أبعدُ ما تكون عن الصَّلاحية للمسرح. لكنه قال له: القصة مالُك وحلالُك. فمدَّ كولتون يدَه عبر المائدة وصافحَ موم. ثم إن المجموعة القصصية نشرت. وبسرعة لفتت «مطر» الأنظار. ودفع فيها مخرج مشهور مبلغ سبعةِ آلاف دولار لتحويلِها لفلم.. مبلغٌ خيالي في العشرينات. وجنَّ وكيلُ موم في أميركا

فرحاً. وبعث برقية لموم.. ولكن الرد جاء سريعاً: مصافَحتي مع كولتون ما تزال قائمة. وهكذا أضاع موم ثروة كبيرة لمجردِ أنه أعطى كلمة.

تكملة القصة أن كولتون أعاد صياغة القصة، وقدمها للمسرح، وفي غضون أشهر بدأت الملايين تتدفَّق. في ذلك الزمن لم يكن هناك ملايين لا في السينما ولا في المسرح ولا في الأدب. ولكن هذا ما حدث، في مدى عشر سنوات تعاقبتْ على دور البطولة في المسرحية ستونَ ممثلة في عشرات المدن والمسارح. وللمقارنة السريعة فإن أحمد رامي كتب لأم كلثوم عشرات الأغاني التي استدرَّت الدموع والزفرات من عيون وصدور ملايين العشاق على مدى خمسين سنة، ولم يأخد أحمد رامي قرشاً واحداً. أليس هذا غلط غلط.



هو بعينه.. إن من البيان لسحراً

عزيزي المستمع، أصف لك مديرَ الشركة بلسانِ موظَّفةٍ عنده، قالت تلك الموظفة: عندما يخرج ويقفُ على باب مكتبه يملأُ فراغَ الباب طولاً وعرضاً، إنه شخصيةٌ بكل معنى الكلمة، وقد يتجاذَبُ أطراف الحديث مع موظَّفٍ يكون عابراً في الممر في تلك اللحظة. ابتسامةٌ خفيفةٌ لا تفارقُ وجهَه مهما عصفَت المشاكلُ بالشَّرِكة. كل الموظفين يشعرون بوجوده حتى عندما يكون خارجَ البلد، فهو موجود في أذهان الجميع. إنه لا ينحني.. حتى عندما يوقِّعُ أوراقاً تراه جالساً مرفوعَ الرأس ينظر في الأوراق التي أمامه بعينيْ صقر، لا تفوتُه شاردة ولا واردة.

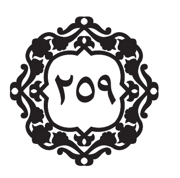
هكذا وصفتِ الموظفة مديرَها. إليك وصفاً آخر من موظفة أخرى للمديرِ نفسه: صحيح أنه أشقرُ الشعر، ولكنَّ شعرَه مثلُ الليف، وعيناهُ ضائعتان وسطَ التجاعيد، فإذا نظرتَ في وجهه فلا تكاد تعثر عليهما، وله أنف مستمر في النمو سنة بعد سنة، وينمو في اتجاهات عجيبة، تراه حيناً كحبة البندورة، وحيناً كحبة الأفوغادو، ولكنه في الغالب يشبه الكوساية التي قعدت في قاع البوكسة أسبوعين في دكان الخضري. وإذا وقف على باب مكتبه انفرجت فخذاه واسترخت ذراعاه كأيِّ معتوه، ويبدأ يتصيَّدُ

أخبار الموظفين. وله أذنانِ كأُذُني الحمار، ولكن الحمارَ أوفرُ حكمةً في استعمال أذنيه. فمديرُنا يفتحُهُما للجميع، ويستعيضُ بهما عن نظام تقييم حقيقي لكفاءات الموظفين. انتهى وصف الموظفة الثانية للمدير.

أما الموظفة الأولى فإنها نالت في هذه السنة علاوة. وأما الثانية فلم تنل علاوة. والحقيقة أن كلا الوصفين دقيق وحقيقي. ولكن الإنسان يرى المحاسن والمساويء بحسب مصلحته. ألم يقل الإمام الشافعي:

وعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ولكن عينَ السُّخْطِ تُبدي المساوِيَا

ثم يأتينا أساتذة الإعلام في الجامعات لكي يتحدَّثوا عن الموضوعية والحياد. لعل الضمان الحقيقي للحياد هو وجودُ التنوع. فلو كتب كل صحفي بحريَّة، ولو نشرت الجريدة مختلِفَ الآراءِ والتقييمات لاقتربنا من الحق. أما القولُ بأن الصحفي الجيد محايد وموضوعي فلا أشك في أنه غلط غلط.



٢٥٩ سمة البدن والتلفون

عزيزي المستمع، كانوا عندما دخل التلفون بلدَنا يقولون: سأسحب لفلان تلفوناً أي سأهاتفه. ثم صاروا يقولون: سأضرب له تلفوناً، أو سأرفعُ له تلفوناً، أو سأخابره. والآن صار التلفون لعبة الكبير والصغير والمقمَّط في السرير، وصاروا يقولون أرنُّ له، وأرنُّ عليه، وأعطيه ألو. ما علينا من هذه الألفاظ. المهم: أنّ أخانا بالله - وأتحاشى أن أذكرَ اسمَه، أبعَدَ الله اسمه - سَحَبَ لي تلفوناً، فكأنَّه سحب عليَّ خِنجراً. وضرب لي تلفوناً .. فكأنه ضربني بالخنجر.. من الآن فصاعداً سأستعمل مصطلحاً جديداً هو: طعنني تلفوناً.

نعم طعنني تلفوناً، بدأه بالترحيب الكثير. وبدأ يقول: أنت تتذكر بدون شك أننا قلنا كذا واتفقنا على كذا.. عرفتُ بسرعة من لهجته أنه يريد أن يتراجع. هبط قلبي، فقد تكبَّدْتُ الرسوم وأنفقت الساعات الطوال في المفاوضات السخيفة. وها هو أخونا بالله يتراجع، ليته وقف بالطعنة عند هذا الحد.

صار يحاول إقناعي أنني أنا السبب. داويته بالسكوت الطويل. تركته يتكلم ويتلعثم ويناقض نفسه. ولا أخفي على مستمعي الكريم، أنني كنت شامتا به وهو يلفُّ ويدور. لكنه مَغَصَني وهو يحاول استغفالي وإقناعي بأنني أنا السبب في انهيارِ الصفقة. انصرفت بعد هذه المكالمة مسمومَ البدن، نسيتُ الصفقة، ونسيت صاحبي البغيض. وطلبتُ من الله العوض. ولكنني لم أنسَ أن بدني مسموم. مضيت في شأن معاشي، وتصريف أموري كالمعتاد. ولكن الغمَّ يأبى أن يفارقَني، فكرت في مشاكل الحياة وفي النَّكَبات حتى أهوِّنَ على نفسي ما جرى. وفي الحين بعد الحين أَستَذْكِرُ بعض ما جرى من أمر تلك الصفقة، وكيف أنها كانت مبنيَّة على سوء الفهم وسوءِ التفاهم منذ البداية. وأزدادُ غماً. ثم أعود وأنسى وأتناسى. ولم تنفرجْ أساريري حقاً، ويدخلْ قلبي شيء من الحبور إلا عندما تركت التناسي، وبدأت أفكرُ في الخطوة القادمة.

عدتُ إلى المشكلة، وقررت أن أحُلَّها.

هنا فقط بدأت انتعش. تعلَّمْتُ أن سمَّاتِ البدن لا يزيلُها إلاَّ السعيُ لحل المشكلة، وتجاوُزِها. طبعاً تريد عزيزي المستمع أن تعرف ما هي تلك الصفقة؟ ولعلك تريد أن تعرف إن صرتُ مليونيراً بعد حلَّ المشكلة؟ أراك متلهفاً لمعرفة ذلك!

أتريد أن تذوق طعمَ سمَّةِ البدن؟ حسناً.. فلتذُقْها الآن.. لن أخبرَك شيئاً عن تلك الصفقة رغم أنني أعرف أن هذا غلط غلط.



٢٦٠ النقابيون الشيوخ والكراسي

عزيزي المستمع، ليس أحدٌ في هذا البلد يكره الورشات كُرْهي لها، أقصد بالورشات هذه اللقاءات والنقاشات التي يقيمونها في كل يوم في كل بلدة وقرية ومخيم. افتحِ الجريدة وستفهم ما أعني. ولكنني سأدافعُ اليوم عن الورشات.

تأمل معي الندوات والمؤتمرات: يعقدون ندوة للحديث عن حقوق الأطفال فيحضرُ رئيس البلدية ورئيسة جمعية الطفل، ويحضر وزيرٌ من الوزراء، وعضوُ برلمان، ويلقي

كلُّ واحدٍ كلمة بليغة. ويعِنُّ على بال عريفِ الحفل أن يعلِّقَ على كل كلمة. ويعنُّ على بال المتحدث الثاني أن يوضِّحَ نُقاطَ اتفاقه مع المتحدث الأول.. وهكذا. ويُسمحُ للجمهور بربعِ ساعةٍ لطرح الأسئلة، ويتم اختصار المدة إلى عشر دقائق.. لضيق الوقت. وينصرفُ الجمهور شاكياً الملل. إلا إذا أعقَبَ النَّدْوَةَ بُوفيرٌ عام - والبوفيرُ بالرَّاء هو تعريب لكلمة «بوفيه» التي لا تعجبني نهايتها اللينة، وقد سمعت لفظة «بوفير» من ابن أخي الصغير. سمع أهله يقولون إنهم ذاهبون إلى مطعم فيه بوفيه مفتوح، وبسليقته اللغوية ردَّدَ الطفل اللفظة قائلاً «بوفير»، سلِم فمُه -. أقول: إذا كان هناك بوفير بعد الندوة فالناس تقبل على الطعام، وتملأ بطونها لعلها تنسى الكلام الفارغ الذي قيل.

هذا عن الندوة. فأما الورشة فهي اسم على مسمى، إذ يجتمع الناس على نية الشغل. أليست ورشة؟ ومن واجب كل مشارك أن يعمل. ويتعين على مدير النقاش أن يتحلى بمزية قلة الكلام، ويكتفي بالتوجيه والتشجيع.

والورشة خير من المؤتمر أيضاً، وخير منهما، ومن الندوة، أن نتقي الله في الأموال التي تصل إلى بلادنا، وأن ننفقها في ترقية الزراعة والصناعة والتعليم.

لم أسمع كلمة طيِّبةً واحدة من فم أي موظف عن الاجتماعات. فكلمة اجتماع معناها تضييع وقت، ولا سمعت أحداً يمدح المهرجان الخطابي، ولا المؤتمر ولا الورشة. إذن فلماذا نعقد كل هذه المحافل؟

الناس يريدون قيادة قوية وقراراتٍ واضحة، وتنفيذاً قوياً للقرارات، هذا يسعد قلوب عامة الناس أمثالي. ولا بأس بأن يكون الإعلام قوياً وناقداً وسليطَ اللسان. ثم لا بأس بأن يكون القضاء فاعلاً. ثم لا بأس بأن تجري الانتخابات دائماً في كل نقابة وكل حزب وكل بلدية. وإلا فما معنى أن تَعقد إحدى النقابات مئاتِ الورشات ومئات المؤتمرات.. وتعجزَ عن عقد جلسة انتخاب واحدة؟ رؤساء النقابات شيوخٌ أجلَّاءُ أحرقَ الشَّيبُ رؤوسهم. يأتون إلى مقراتهم وهو يتوكَّأُون على العِصِيّ، إذ يشكون الروماتيزم بأصنافه. وما زالوا في مناصبهم. أظن أن خَشيتَهم للموت ليست خوفاً من مفارقة مباهج الحياة.. ولكن خوفاً على كراسيهم. ألا يستحي هؤلاء الملوك النقابيون؟ ألا يعرفون أن ما يفعلونه غلط غلط؟



٢٦١ القطة المحتضَرة

عزيزي المستمع، هناك في الهند طائفة من الناس لا تُحلُّ لنفسِها قتلَ أي حيوان أو حشرة. وهم لا يسيرون في الليل خوفَ أن يدوسوا حشرة. وعندما يمشون في النهار يدققون النظر أمامهم لئلا يطأوا نملة. وقد تذكرتهم لموقف.

دخل عليَّ صاحبي وهو متكدِّرٌ، والهمُّ بادٍ على وجهه. استغربت الأمر. لأنه كلمني في الهاتف قبل نصف ساعة. وكانت ضحكتُه مجلجِلَةً كعادته. دعوتُه للجلوس فرمى نفسه

على الكنبة وأخذ شهيقاً.. ومرَّ بكفه على جبهته.. نظرتُ من خلال النافذة إلى الغيوم فرأيتها تكاثفت واسودَّتْ.. لقد انقلب الطقس. فقلت في نفسي: الآن عرفتُ لماذا تغيَّر صاحبي في نصف ساعة. ثم بدأته بالكلام. فرأيته يُجيبُ شاردَ الذهن. فصبرت عليه. لكنه هو لم يصبر. قاطعني في منتصف الجملة.. وبدأ يتكلمُ بحرارة وسرعة. وقال:

بينما أنا أقود سيارتي قادماً نحو بيتك، رأيت في وسَطِ الطريق قطة مدهوسة. رأيتها ملقاة في الشارع، والدم ينزف من عند عنقها. كانت تتحرك بقوة عجيبة بينما هي ملقاةٌ على جنبها لا تستطيع أن تنتقل، كان كل جسمها يتحرك بعنف.. كأن تياراً كهربائياً يسري في جسمها. منظر عجيب. لم أر في عمري قطة تتحرك بكل هذه الحيوية، ولكنها لا تستطيع أن تتنقل من مكانها. وكان يتفرج على هذا المنظر شبان يقفون أمام دكان بقال. وما فجَّر الغضب في نفسي أنَّهُمْ أشاحوا بوجِهِهم عن القطة بلامبالاة. عند هذا الحد كنت قد تجاوزت المكان بأمتار في سيارتي. لكنني لم أستطع أن أكملَ سيري، فاستدَرْتُ في وسط الشارع، وعكست خطَّ سيري ورجعت إلى مكان القطة. ودهستُها أنا بسيارتي وتأكدت أن العجلة الأمامية ثم الخلفية داستاها وهشَّمتا رأسَها. عندما وصل صاحبي إلى هذا الحد زفر زفرةَ ارتياح. ثم سألني بسذاجة هل ما فعلتُه غلط؟ قلت له: ربما كان الحلَّ الأفضل، فتشكَّكَ. قلت له: وماذا لو كنتَ تركتَها جريحةً تتعذَّب؟ فقال: غلط غلط.



٢٦٢ الفقر والتنظيم

عزيزي المستمع، ما أكثرَ الفقراءَ الذين لا يمُدُّونَ أيديَهم سائلين ولا ألسنتَهم شاكين! ما أكثر الفقراء في بلدنا بعد كل هذه السنوات العجاف. فهل تظنُّ أنني سأقول ما قاله حافظ وشوقي والرصافي عندما كانوا ينشدون القصائد في حضِّ الأغنياء على التصدُّق؟ لن أفعل. بل أقول للغني: يا أخي: أنا أعذِرُكَ إن لم تتصدَّق، فالصدقة لا تغني عن الحل الجذري، كما أن الصدقة تكسر قلب الفقير. وفي بلدنا ناسٌ كثيرون عندهم عنفوان الكرامة، يأكلون التراب قبل أن يأخذوا صدقة.

في العالم ثلاثة أنواع من الدول. دولةٌ يموت الناس فيها من الجوع، وأنت تشاهد هؤلاء في الصور وأقفاصُهم الصدرية بارزةٌ جلداً على عظم، وقد انتفخت منهم البطون. ودولةٌ يزيد الفقر فيها، ويصاب الناس بأمراضِ سوء التغذية وفقر الدم، ويقصِّر الفقرُ أعمارهم، ولكنهم لا يموتون به مباشرة، وقد صرنا كذلك. ودولةٌ فيها نظامُ تكافُلٍ اجتماعي.

وهذه الدولة الأخيرة لا تسمح للفقر أن يتعدَّى حداً معيناً. ولا يمكن أن تطبِّقَ أيةُ دولةٍ تكافلاً اجتماعياً إلا إذا كان عندها تنظيمٌ حسن. فالتكافل الاجتماعي فيه تسجيل وضبط، ويحتاجُ إلى أمانة. والأمانة ليست شيئاً سحرياً، لأن السرقة سببها المال السائب، والأمانة تنتج عن الضبط والتنظيم. بلدنا فقير.. ويزداد فقراً لكنه لو كان يملك حسن التنظيم لاستطاع أن يأخذ من الغني للفقير بطريق منظم، وبدون حرج لأيٍّ منهما.

مسؤولونا يرون الفقر ويرونه ينتشر، ويكتفون بالشكوى وبطلبِ مزيد من المساعدات. وموقفهم فيما أرى غلط غلط.



٢٦٣ ريجيم سميحة

عزيزي المستمع، كان اسمها سميحة، وكان اسمه سميح، وعندما تصافحا قال لها: مرحباً يا سيدة سميحة، وابتسم. وقالت له: مرحبا يا سيد سميح، ولم تبتسم. ولكن الناظر إليها عن بعد قد يظنُّها ابتسمت لأن أسنانها كانت خارجة من فمها. ولما انتهت المصافحة دعت سميحة أسنانها إلى الدخول، وفرشت فوقَها شفتها العليا، وزمَّت شفتيها كمن في فيه ماء.

دعاها سميح للجلوس على الكنبة، فاختارت الجلوس على كرسي إلى المنضدة وأشارت بيدها إلى الكرسي المقابل لها وأمرتْه بالجلوس. استغرب سميح من هذه الأوامر، والمرأة تأتي إلى بيتِه للمرة الأولى.

بعد قليل أحضرت زوجتُه العصير. فشرب هو، لكن سميحة طلبت كوب ماء وردَّتْ

كوب العصير. وقالت وهي تفتح دوسيةً أنيقة: كم عمرُك؟ فأجابها سميح مطيعاً: ثلاثٌ وأربعون سنة. وزنك؟ مئة وأربعون كيلوغراماً. واستكملت السؤال عن المعلومات التي تريدها ببرود شديد، وهي لا تكاد تنظر في وجهه. لا شك في أنها تعرف أنه مديرُ شركة كبيرة! لكن سميحة صارمةٌ كفتَّاحة العُلَب، ومشاعرها باردة كالسردين.

هي خبيرة تغذية وقد جيء بها لكي تعالجَ السيد المدير من سُمنتِه المفرطة. جلست تفكر لحظة في الطريقة المثلى. شمَّتْ رائحة طبخ ونفخ في البيت. اليوم الجمعة. سألت: ما طبيخُكم؟ قالت زوجة سميح: كُبَّةُ برغل، وكبةُ أرُزٍّ باللَّبن، وبابا غنُّوج.

داخ سميح وهو يسمع زوجته تعدد هذه الأصناف الشهيَّة، ثم ارتعد وسال من جبهته عَرَقٌ بارد لأنه خاف أن تحرِمَه سميحة، خبيرةُ التغذية، من وجْبةِ الغداء. أما سميحة فدوَّنت طبخةَ اليوم في دوسيتها وهي مندمجة، وصارت أسنانُها تخرج واحداً وراء الآخر من تحت شفتها. ثم بسرعة سحبت أسنانها إلى الداخل، ورفعت رأسها. وسألت: هل استوى الطبيخ؟ قيل لها: نعم. فأخذت سميحةُ سميحاً إلى المطبخ، وسكبت له طبق كبَّةٍ باللبن، وطبقَ كُبَّةِ برغل، وزيَّنتْ أحد الطبقينِ بالبابا غنوج على طرفه، والآخرَ، بحبات زيتون بعد أن نزعت نواها.

وسألته عن الخبز فقال: رغيف واحد فقط. وطلب سميح مخللة خيار، ووضع بعض الكتش أب (أي صلصة البندورة) على كبة الرغل. قالت له سميحة: أهذا غداؤُك اليوم.. قال: نعم.

وضعت سميحة كل شيء في الخلاط.. خلاَّط الأغذية، وسكبت فوقه كوب ماء، وشغلت الخلاط على السرعة العالية. وفي دقيقة كان غدَاءُ سميح قد تحول إلى مستحلَبٍ بُنِّي لزجٍ. أمسكت سميحة إبريق الخلاط، واقتربت من سميح الذي كان يرتجف ويتصبَّبُ عَرَقاً. وفتحت فمه.

ولولا أنَّ رأسه ارتطم بحافة السرير وصحا من نومته لكان شرب المستحلبَ الَّلزِجَ كلَّه. أفاق سميحٌ من نومة الظهر، وشمَّ رائحة قادمةً من المطبخ وابتسم، ثم فكَّر في وزنه وقال.. غلط غلط.



٢٦٤ عبد السميع في وزارة الإعلام

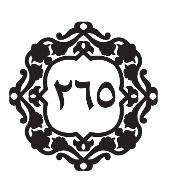
عزيزي المستمع، نريد أن نتخيلَ ما سيحدثُ لو ألغيْنا وزارة الإعلام، ليس لأننا - لا سمحَ الله - نريدُ قطعَ رزقِ أحد، ولا لأننا ننتقدُ الوزارة. بل لأن العاملين فيها يتحدثون باستمرارٍ وبشوق عن إلغاءِ وزارتِهم .

حسناً: عملاً بالموضة العالمية، ألغت حكومتُنا الرشيدة وزير الإعلام. ولكنها بالطبع لم تستطع إلغاءَ موظفي هذه الوزارة، ولا تحويلَهم إلى وزارة التربية والتعليم، التي لا ينقصها الخراب. فتحت لهم وزارة أخرى سمتها وزارةَ الكلام. وجازت الحيلة على الدول المانحة، وسكتت عن هذا التغيير.

عقد وزيرُ الكلام اجتماعاً لكل العاملين في وزارته. وبدأ يتكلم بحماسةٍ عن الإعلام الأجنبي الرديء . فشتم الجزيرة، وشتم البي بي سي، وشتم صحيفة النيويورك تايمز. وانجرف في حماسته، مستمداً القوة من صلاته الحزبية والشعبية. وقال: سأقفلُ مكتب الجزيرة. وقعت هذه الكلمة وقع الصاعقة على الموظفين. لكنه انتشى بردة الفعل هذه. وازداد حماسة. فقال: سأطردُ مراسل النيويورك تايمز. وهنا بدأ بعض الموظفين يهتفون: مرحى مرحى، وازدادت حماسة الوزير أكثر، فقال: سأمنع مراسلي كل وسائل الإعلام الأجنبية من العمل فوق ثَرى هذا الوطن. فصفق الحاضرون جميعا. وخفق قلب الوزير بنشوةٍ غريبة. شعر الوزير أنه سيطر على الموقف.

شعر كأنه عبد الناصر يؤمم قناة السويس. فراح يزأَرُ زئيراً. ويقول: إجماعُكُم هذا هو إجماعُ الوطن، هو البُوصلة التي تُرينا الطريق. وصار الوزير يتكلم بيديه، فضلاً عن لسانه. لقد اشتعل اشتعالاً. وأراد أن يؤكد لنفسه وللجميع صوابَ رأيه. فقال مخاطباً عبدَ السميع مديرَ الأرشيفَ العجوز. وإنما اختار الوزير عبد السميع لأنه شخص محبوب وعجوز وهادىء. وربما أيضاً لأن اسمَه عبدُ السميع، قال له: وما رأيك يا عبدَ السميع؟ وقف عبدُ السميع، وتنحنح. وقال: «في الواقع» وعبد السميع لا يستطيع أن يقول شيئاً إلا بعد كلمة (في الواقع). قال: في الواقع.. منطق سيادة الوزير سليم مئة بالمئة. صفق الحاضرون. وصفَّقَ قلب الوزير.

ولكن عبد السميع ظل واقفاً، فاضطر الحاضرون إلى أن يُنصِتوا من جديد، واستمر عبد السميع في الكلام، وقال: نريدُ أن نلغيَ الإعلام الأجنبي من حياتنا. والطريقة المثلى لإلغائه أن يكون عندنا جريدةٌ صادقة تقول كلَّ الحق وليس جزءاً منه، وتلفزيونٌ صادق يعطينا صورة الأوضاع بشكل أصفى من الجزيرة، وإذاعةٌ صادقة تخبرنا بالحدث أسرع من كل الإذاعات الأجنبية والعربية. وبعد أن يحدث ذلك، سيختفي من حياتنا كل أثر للإعلام الأجنبي، اختفاءً تلقائياً بدون أن نتعب أنفسنا بطرد أحد. وبعد قيامنا بهذه الخطوات وتنظيف أذهاننا من أثر الإعلام الأجنبي، قد يريد الأجانب والعرب أن يرسلوا المراسلين الصحفيين والتلفزيونيين، ويفتحوا المكاتب لينقلوا أخبارنا لكل العالم، لا شأن لنا بهم، بل هم ضيوف كرام ينفقون المال في بلدنا ويستأجرون المكاتب، ويحرِّكون الاقتصاد. سكت عبد السميع وجلس. فقال وزير الكلام باستعجال: شكراً لكم على الحضور. انصراف. لعله ظن أن كلام عبد السميع غلط غلط؟



من سيربح المزيون

عزيزي المستمع، شدَّما يغيظني جورج قرداحي، وقد لبثتُ زمنا أكظم غيظي لئلا تظن زوجتي أنني إنما أغار منه. يخرب بيته على تلك الأناقة، وعلى تلك الجاكيتات والحواجب. أمَّا أن تنزل إلى السوق «ريحةٌ» تحمل اسمه فذلك فوق كل احتمال. لكن ليس لهذا أنا مغتاظ. وليصدِّقْني من يصدِّق، وليكذِّبْني من يكذب. جورج قرداحي يحسس بكفه بحنان على مفاهيم كنا نحب أن نرحل عنها. وهو يدغدغ نزعات في نفوسنا العربية آن - فيما أرى - أوانُ كبحها.

هل يضيرني إن جهلت أن أُذُنَ الحمار فيها عشرونَ عضلة؟ أم هل يزيدُني شرفاً أن أعرف أن معدل عدد الشعرات في رأس البني آدم مليونٌ ونصف مليون؟

نحن لا نكره المعلومات الصغيرة. ولا نكره أن يُقبلَ أبناؤنا في المدارس على قراءة باب «هل تعلم» في المجلات، وأن يحتفلوا بجمع هذه النتف المعلوماتية الطريفة في

كراريسهم. ونحن نعلم أن برنامج «من سيربح المليون» برنامج عالمي. لكن البرنامج يضرُّنا ولا يضرُّ الذين اخترعوه في الغرب. فهم في الغرب قد شبعوا من العلم والثقافة. ولا بأس بأن يتسلوا بما يسمونه بالتوافه المعلوماتية. ولكن الأمر عندنا مختلف. نحن عندنا توافه فقط. وتراثنا التعليمي يمجد معرفة التوافه. ويزن الناس بميزان المعرفة السطحية دون التفات إلى العمق. جاء جورج قرداحي لكي يعزز في نفوس تلامذتنا ما بثه فيهم معلموهم من تقديس المعلومة المفصولة عن سياقها. جاء ليسكب على رؤوسنا دلواً أسبوعيا من المعلومات التافهة.

كثيرون لم يعد يؤنبُهم ضميرُهم لعدم قراءتهم الكتب. أليس جورج قرداحي يسدُّ عن الكتاب؟ أقرَّ قرداحي في أذهان عامة الناس أن معيارَ الثقافة هو معرفةُ الإجابة عن أسئلته. وصارت التفاهة المعلوماتية المثل الأعلى للتلامذة.

يغيظني فيه أيضاً أنه ذو صوت من أجمل الأصوات. ولا سيما عندما يقدم مادة إذاعية باللغة العربية الفصحى، ولكن التلفزيون كما تعرفون صورة فقط. نحن لا نسمع صوت المذيع ولا نتذكَّرُ صوتَه. فالصورة تبتلع كلَّ شيء آخر. خسارة أن يترك جورج قرداحي كل ذلك، ويكتفي بلعب دور الموصِلِ الرديء لمعلومات قشرية. الأدهى أنه يصنع مثلما صنعت سعاد حسني، كانت تقتحم المخادع وتعشش في مخيلات الرجال، وقرداحي يقدم هذه الخدمة للنساء. التلفزيون لا يستطيع أن يبني وحده ثقافة الأمة. والأمة العربية لا تصنع شيئاً سوى التفرج على التلفزيون. ويل للعرب من السنوات القادمة. نحن جسم منخور من جوَّة. ما كان ناقصنا إلا قرداحي لكي يصير لتفاهتنا عنوان وهو «من سيربح المليون»، ألا إنه غلط غلط.

٢٦٦ رئيس البلدية

عزيزي المستمع، كلُّ واحدٍ منا يخلو إلى نفسه في ساعة من نهار أو ليل ويحلم، يقول لنفسه: لو حكَّموني في رقاب العباد لصنعت كذا وكذا. ولو كنت رئيس البلدية، أو

رئيس البلد، لعملت كذا وكذا. كل الرؤساء والوزراء والكبراء كانوا يحلمون أحلاماً كهذه قبل أن يتولَّوْا مناصبَهم. ثم عندما أصبحوا متحكمين في الأمور واجهوا الحقيقة، ورأوْا أن أحلامَ اليقظة تذوب في شمس الواقع. في أحلام اليقظة نحن نبارز الهواء. والذي يبارز الهواء ينتصر دائماً. وفي الحياة الواقعية نحن نبارز المشاكل والمصالح.. وغالباً ما يقوم الرؤساء والوزراء بتلبيس الطواقي، فإذا كبرت المشكلة قسَّموها إلى أقسام صغيرة، ووزعوها على أعوانهم وأعدائهم.

ورئيس البلدية الذي يرى مشكلة كبيرة فيخرجُ إليها متصدِّياً بصدرِه أحدُ اثنين: أحمقُ يهوى الصدام، وينتهي به الأمر إلى العزْل فالندم، أو رجلٌ من حديد يتقنُ المواجهة ويحِرصُ على أن يصطَفَّ أعوانُه معه لكي يواجهوا جميعاً، ولكي ينتصروا جميعاً.

وقد سمعتُ عن شاب أصبحَ رئيسَ بلدية في مشاريق نابلس قبل ثماني سنوات. قال لي محدِّثي: رئيس البلدية ليس من حامولتِنا. ولكنَّ حامولات البلدِ الأربع تؤيدُه بنفس القدر. قلت لنفسي: إذن فهذا الرجل ارتفع عن المصلحة العائلية الضيقة. وقال لي: «هو نظيف اليد وميزانية البلدية شأن عام، وهي ورقة مكشوفة لمن أراد أن يطالعَها. وهو يشاور زملاءَه في كل إنفاق. ذات يوم تبرعت جهة للبلدية بمبلغٍ لتزفيت الشوارع الترابية، فوضع المجلس البلدي مخططاً لأهم الطرقات التي ينبغي تزفيتها. وأحضرت الشركةُ المكلَّفةُ بالأمر المعدَّات، وبدأت بالعمل. في ذلك اليوم نزل رئيسُ البلدية إلى نابلس في بعضِ شأنه. وعندما عاد عصراً وجد العمال يزفتون الشارع الذي يمر أمامَ بيته، ولم يكن من الشوارع الداخلة في المخطط، لقد أراد بعض أعضاء المجلس البلدي تكريمه - أو ربما حرقه - بذلك. فما كان من رئيس البلدية إلا أن أوقف العمل فوراً، ودفع من جيبه ثمن ما تم تزفيتُه من الشارع أمام بيته.» سمعت ذلك ونسيت اسم الرجل لكنني عرفت أنه يمثل القدوة في تلك المنطقة بأسرها. أقول قولي هذا، ولم أزر «قَبَلان» في حياتي، ولكنَّ نفراً من أهلها قصُّوا عليَّ قصَّة هذا الرجل الأمين. ثمة أمور صحيحة، فلماذا نزعم أن كلَّ شيء غلط غلط.

٢٦٧ الجزائر ونحن

عزيزي المستمع، عندما غادرتْ فرنسا الجزائر، وأُجبِرتْ أن تنهزم كقوة استعمارية في أوائل الستينات، عاد إلى الجزائر قادةُ جبهة التحرير أحمد بن بيلا وفرحات عباس الخ، ومعهما عدة مئات من أتباعهما، واستُقبلوا استقبال الأبطال. وحكمت جبهةُ التحرير الجزائر، وعَيَّنَتْ أنصارَها في كل المواقع والوظائف.

قعدَ هؤلاء تحتَ البقرة وظلوا يحلِبونَها إلى أن جفَّتْ ضروعُها. ورغم أن الجزائر بلدٌ نفطيٌّ مهم فإن الفقر زاد، واقتصادُ البلد لم يتقدم بسبب سوء الإدارة. وأخيراً وبعد ثلاثين سنة حدثت انتخاباتٌ أطاح الناس فيها بجبهةِ التحرير الجزائرية في أوائل التسعينات. فألغتِ الحكومة الانتخابات، ونالت تأييدَ الغرب لأن الفائز كان الجبهةَ الإسلاميةَ للإنقاذ، ولأنَّ الغرب لا مصلحة لديه في تغيير الحكمِ المهترِيءِ في الجزائر.

وبعد إلغاء الانتخابات اشتعلت حربٌ أهليةٌ راح ضحيتَها نحوُ مئةِ ألفِ نسمة. والآن تترنَّحُ الجزائرُ اقتصادياً وسياسياً. أما جبهةُ التحرير فقد انحلَّت، ولا يذكرُها أحدٌ بخير، وأما الجبهة الإسلامية فهي ممنوعة. كان الخِيارُ صعباً أمام المواطن الجزائري: فإمَّا جبهة التحرير التي تحافظ على الحريات الفردية، لكنها فاسدةٌ في كل شيءٍ آخر، أو الجبهةُ الإسلاميةُ ذاتُ البرنامج المتشدد.

غياب الديمقراطية عن الجزائر كلَّفَها أرواحَ الآلاف، وفقرَ الملايين لعشرات السنين. نقول هذا ونحن نرى بلدَنا تسير في طريق الانتخابات، وتحاول أن تحكِّمَ صندوق الاقتراع. ونقول هذا، ونحن نحذِّرُ من المحاسيب الذين يتعاملون مع الدولة كمزرعةٍ للذين خلَّفُوهم. بلدنا تجرِبتُه مختلفة، مع وجود بعضِ أوجه الشبه. بعد سنوات من الانتفاضة والنضال علينا ألا ننسى أن كل حكم صالحٍ لا يمكن أن ينطلق إلا من صندوقِ الاقتراع.

قد يأتي علينا يوم نفاخر فيه الجار والخصم بنهجِنا الديمقراطي وحكمِنا الصالح. وسيكون هذا النهجُ وذاك الحكمُ أداةً قوية نستعملها للمطالبة بحقوقِنا في الأرض

والماء والمعابر والقدس والعودة وكل الثوابت. وأما إذا انحرفنا وصرنا منخورين من الداخل فلا شكَّ في أن قدرتَنا على مقارعة الخصم ستكون أضعف. إذا انهزم مجتمعنا أمام نفسه فلن ينتصر أمام خصم عاتٍ. أهذا غلط؟



٢٦٨ تنقية العدس وفرط الملوخية

عزيزي المستمع، هل لاحظتَ عليَّ في الآونة الأخيرة أنني صرتُ أتحدث عن نفسي أكثر، وصرتُ استغلُّ عملي كمذيع لكي أُفهِمَ المستمعين بطريقةٍ غيرِ مباشرة أن أسلافي كانوا من كبار الحكماء. قد تجد لي العذر، وتقول: هذا الرجل نيَّتُه حسنة، وهو يريد أن يوصل إلينا رسالة معينة ولا يقصد أن يتكلم عن نفسه. لكن.. مستمعي الفاضل الأمرُ ليس كذلك. الكَبَرُ عَبَر. عندما يكبُرُ الإنسان يبدأ - وبتدرُّج شديد، وبدون أن يشعر - يتعامل مع الناس كما يتعامل المعلم مع التلاميذ. سلوك مألوف من المذيعين. لا أحب أن أكلِّمَ المستمع وكأنه تلميذ. ولكنْ.. الكبر عبر.. وهذه الحلْقة هيَ آخرُ حلْقةٍ في سلسلة غلط غلط. فلتكن الخاتمة شبيهة بما سبقها، واسمح لي أن أحدثك عن أسلافي الحكماء. وضحيَّتي اليوم هو جدي رحمه الله.

بعد أن بلغ التسعين كان جدي إذا خلا إلى نفسه يعُدُّ على أصابعِهِ كثيراً.. دونَ خرف. كان بكامل حواسِّه وبكامل عقله.. فإذا ما دخلنا عليه الغرفة وضبطْناهُ متلبِّساً، وسألناه: ماذا تعدُّ يا سِيدي؟ ضحك أجملَ، وأعقلَ ضحكة. وقال: هذا شيءٌ حدَثَ من زمان. وسكتَ وسكتْنا.

عاش عمره تاجراً حاسباً كاسباً. وكانت أذناه صِمَامَيْن يمنعانِ دخولَ أيِّ نوعٍ من الموسيقى أو الغناء. ولم يعرف للشعر أو للأدب معنى. وكانت متعتُه في الحياة الجَريدة وأداء الصلاة في أوقاتها التقريبية، فإذا قرر أن العشاء حانت قام وصلاها. وقد يؤذن المؤذن وجدي في الركعات الأخيرة، فلا يحفل به، ويُتِمُّ صلاتَه.

لله شأن في توزيع الهم والفرح على البشر. فمن البشر شخص تأتيه نوبات فرح غامر،

ونوبات همّ. ومن هؤلاء من يخفي فرحه ولا تراه إلا مُتَبَرِّماً. ومنهم من يخفي همومه فلا يظهر منها على وجهه إلَّا سحابةُ من القلق. ولم يكن جَدِّي من هذا النوع ولا ذاك. أعطاه الله كمية الفرح وكمية الهم موزعة بالتساوي على ساعات نهاره وليله. فكان رضيَّ النفس غيرَ مِفْراح، ولكنه في أُخريات عمره، وبعد موتِ أبناءِ جيله، وتسليمِه أشغالَه إلى أولادِهِ أحسَّ بالفراغ.

ما أسعدَ أصحابَ الهوايات الذين يسلُّون بها شيخوختَهم! وأسعدُ منهم الذين يجدون عملاً منتِجاً يستمرون فيه بعد تقاعدِهم. أما الذي يفهم من التقاعد القعودَ في البيت فلا أشك في أنه سيقضي وقتاً طويلاً في تنقية العدس، وفرط الملوخية، وفي تحويل حياةِ أهلِه إلى جحيم. بعض الشيوخ موقفهم من أبنائهم هو: ربيناكُم.. رَبُّونا. والأبناء لا يُطيقون هذا المنطق. ويعتقدون أن المعادلة الصحيحة هي: ربَّيْتُمونا، ونحن نربي أولادنا، وإذا كبرتم دبِّروا أنفسَكم. فاستعدَّ عزيزي المستمع لشيخوخةٍ منتجة، ولا تتوهَّمنَّ أن أولادَك متحمِّسون لسَدادِ الدَّيْن. ذلك فعلاً وهم.. مع أن موقفهم قد يكون غلط غلط.

الفهرس

الأرقام أرقام الفصول لا الصفحات

للمؤلف أيضاً:

١. المسألة الفلسطينية (على نفقة المؤلف/ فلسطين)
٢. الكتابة للراديو (معهد الإعلام بجامعة بيرزيت/ فلسطين)
٣. قواعد اللغة العربية (دار شروق - الأردن)
٤. زبدة النحو (معهد الإعلام بجامعة بيرزيت/ فلسطين)
٥. عزيزي المستمع (معهد الإعلام بجامعة بيرزيت/ فلسطين)
٦. بارقة أمل (لجنة المرأة - فلسطين)
٧. موجز النحو (منشورات قناة الجزيرة - قطر)
٨. شاعر الألف سنة: أحمد شوقي (الشروق - مصر)
٩. عصارة المتنبي (الشروق - مصر)
١٠. حرية الإعلام في فلسطين/ مترجم عن الألمانية (معهد الإعلام بجامعة بيرزيت/ فلسطين)
١١. المراسل التلفزيوني/ مترجم عن الإنجليزية (معهد الإعلام بجامعة بيرزيت/ فلسطين)
١٢. السياسة الفلسطينية وعملية سلام الشرق الأوسط/ مترجم عن الإنجليزية (مؤسسة الدراسات الفلسطينية)

قيد النشر:

١. عصارة البحتري
٢. عصارة أبي تمام
٣. عصارة ابن الرومي
٤. عصارة أبي نواس
٥. ثلاثي المهجر: القروي وأبو ماضي وفرحات